

جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس
الجزائر

المجلة المغربية للحراسات التاريخية والاجتماعية

دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع
في الحديث والمعاصر



العدد الحادي عشر جوان 2015
رقم الإيداع: 4755 - 2009
ردم ISSN 2170 - 0600

المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية
دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع
في الحديث والمعاصر جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس / الجزائر
العدد الحادي عشر جوان 2015 labtarikh@yahoo.fr

توجه المراسلات إلى :

السيد مدير المجلة : أ.د محمد مجاود

جامعة سيدي بلعباس/الجزائر

البريد الالكتروني labtarikh@yahoo.fr

ردم 0600 - ISSN 2170

المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية
دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع
في الحديث والمعاصر جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس / الجزائر
العدد الحادي عشر جوان 2015 labtarikh@yahoo.fr

قواعد النشر :

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المختصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة
وفقاً للقواعد التالية:

1. أن يكون مقال جديد ولم يسبق نشره
2. أن يتبع البحوث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحوث وتزويدها بالصور والرسوم والخرائط اللازمة
3. تكتب المقالات على آلة الحاسوب، وأن لا يتجاوز المقال عشرة صفحات مقاس 22/16
4. أن تخضع البحوث المقدمة للتحكيم العلمي قبل نشرها
5. لا ترد البحوث التي تتلقاها المجلة لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر
6. المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن رأي أصحابها وحدهم.

المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية
دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع
في الحديث والمعاصر جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس / الجزائر
العدد الحادي عشر جوان 2015 labtarikh@yahoo.fr

مدير المجلة

أ.د محمد مجاود

هيئة التحرير

أ.د محمد مكحلي	جامعة	س.بلعباس
د.بلعربي خالد	جامعة	س.بلعباس
د. الزين محمد	جامعة	س.بلعباس
أ.د ولد النبينة كريم	جامعة	س.بلعباس
د. بن حويذقة علي	جامعة	س.بلعباس
د. بن عون بن عتو	جامعة	س.بلعباس
د. تيززي ميلود	جامعة	س.بلعباس
د. أوراغي سيد أحمد	جامعة	تلمسان

هيئة الاستشارية

أ.د. عمران محمد الطيب	جامعة الزاوية / ليبيا
أ.د. تليلي العجيلي	جامعة منوبة / تونس
أ.د. بلخروف عمار	جامعة الجزائر
أ.د. فغورور دحو	جامعة وهران
أ.د. دادة محمد	جامعة وهران
أ.د. سعيدي محمد	جامعة تلمسان
أ.د. بشير محمد	جامعة تلمسان
أ.د. بلوحي محمد	جامعة تلمسان

الفهرس

11	الكلمة العلمية الأستاذ الدكتور محمد مجاود
13	الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الجزائر خلال القرن السادس عشر أ/ الشيخ لكحل - جامعة غرداية
29	اهتمام «المجلة الإفريقية» بحملة الضابط أوريلي reilly'0 على مدينة الجزائر 1775 أ.عبد الجليل رحموني - جامعة سيدي بلعباس
35	التعليم المهني بالجنوب الغربي الجزائري. (1962 – 1900) بن علي بوبكر - جامعة بشار
47	طلبة جامع الزيتونة والإصلاح بمنطقة تبسة في النصف الأول من القرن العشرين سليم بعلوج – جامعة سيدي بلعباس
59	دور المغرب في دعم النشاط الاجتماعي للثورة الجزائرية. الأستاذ / لعرج جبران - جامعة سعيدة.
81	الدراسات التاريخية المشرقية حول الثورة الجزائرية (فتحي الديب ومصطفى طلاس نموذجاً) أ/ الميلىق عبد القادر - جامعة غرداية
91	أضواء على واقع النشاط الكشفي النسوي الجزائري قبل اندلاع ثورة التحرير 1954. د/ علوان أمال - جامعة سيدي بلعباس
101	جبهة التحرير الوطني (FLN) من أزمة حزب الشعب (PPA) 1953 إلى أزمة صيف 1962. هل هي أزمة سلطة أم أزمة حزب من أجل السلطة؟ الدكتور: تيزي ميلود - جامعة سيدي بلعباس
113	الإجرام الفرنسي ضد الإنسانية خلال ثورة التحرير في منطقة سيدي بلعباس مركز التعذيب ببوشبكة - بوخنفيس - «نموذجاً» أ/ كركب عبد الحق - جامعة تيارت
121	الثقافة السياسية من خلال عمل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مجاود حسين – طالب دكتوراه – جامعة سيدي بلعباس
135	غار الشهداء جريمة فرنسية ضد الإنسانية علي عيادة - طالب دكتوراه - جامعة سيدي بلعباس

145	المناورات الفرنسية لفصل الصحراء الجزائرية وإستراتيجية الثورة لإفشالها أ.بلجة عبد القادر-جامعة الجيلالي ليابس - سيدي بلعباس
159	مسألة المياه في السياسة الفرنسية في الجزائر 1830 – 1954 هامل عبد المنعم - طالب دكتوراه - سيدي بلعباس
169	العُنف عند الأطفال والمراهقين في ضوء عامل وسائل الإعلام ووسائل التواصل المُعاصرة ودور المجتمع في مُواجهته. د.حلوش مصطفى. - جامعة سيدي بلعباس
177	الحدائثة وأزمة الوعي العربي بين الغياب والحضور أ. بن طرات جلول –سيدي بلعباس
183	التربية الأسرية والتغير الاجتماعي أية علاقة؟ عبد الرحيم ليندة. أستاذة محاضرة - ب-
193	الكتابة الجنائزية بأضرحة ومقابر سيدي بلعباس - مقارنة سوسيو تاريخية - د. بوشوشة الهادي -جامعة سيدي بلعباس
211	واقع العلوم الإنسانية أمام التقدم التكنولوجي د. مغربي زين العابدين - جامعة سيدي بلعباس
221	الخلفية التاريخية لظهور الإرشاد و التوجيه أ. موسى محمد -جامعة سيدي بلعباس
231	دلالات صدق وثبات غير اللفظية –اختبار كاتل للذكاء نموذجاً حبال ياسين –جامعة سيدي بلعباس
243	العنف الاسري وعلاقته بالتفاعل الاجتماعي عند المراهق. جدوي زهية - جامعة سعيدة
257	الفاعل التربوي والتثقيف الصحي للمتمدرسين في المدرسة الجزائرية-المطعم المدرسي أنموذجا- أ.دندان أسماء. أ. حجايل فاطمة الزهراء -جامعة معسكر.
277	دور الصحافة المكتوبة في مجابهة أشكال الجريمة في المجتمع الجزائري أ.رفيق عبد الكريم -سيدي بلعباس
293	الإسلاميات التطبيقية كمفهوم نظري وإطار منهجي "رهانات جديدة للعلوم الاجتماعية". د/ لحسن رضوان. جامعة مستغانم

الكلمة العلمية

يتضمن هذا العدد الجديد من المجلة مجموعة من المقالات العلمية يتناول فيها أصحابها الذين ينتمون إلى جيل الشباب موضوعات جدية بالاهتمام في المجالات التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية يبرهن من خلالها عن قدراتهم العلمية والمنهجية تتميز بعقلية ناقدة.

يسعى فريق المخبر فتح النقاش حول المواضيع التي مازالت تبدو غامضة وتحتاج إلى المزيد من البحث والتنقيب بالرجوع إلى الوثائق الأرشيفية التاريخية وتوظيفها والنزول إلى الميدان بالنسبة للدراسات الاجتماعية والسيكولوجية مساهمة منه إثراء المعرفة في ميدان العلوم الإنسانية ووضعها تحت تصرف القارئ ليس فقط داخل أوصار الجامعة بل خارجها، لتمكين العلاقة بينها وبين محيطها وبناء التفاعل الإيجابي والتواصل المثمر بينهما.

لعل المعرفة التاريخية المتراكمة تساعد بني البشر على فهم ماضيه واستيعاب حاضره وبناء مستقبله، كما أن معالجة الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تعيشها المجتمعات تؤكد على ضرورة مساهمة الجامعة في تنوير المجتمع من خلال إنتاج الأفكار وصناعة المعرفة التي أصبحت تشكل قوة إنتاجية أساسية لا يمكن استبدالها أو إنكارها، فمن يتحكم في المعرفة يتحكم في القوة ومن يتحكم في القوة يتحكم في المعرفة. إن المعرفة هي التي تصنع الإنسان العالم الذي يمكنه أن يساهم في عملية تغيير الأوضاع باستمرار لصالح العام ومواجهة التحديات المختلفة بوعي كبير وبمنظرة ثاقبة لا مجال فيها للمقاربات الضيقة.

ولهذا الغرض، تسعى المجلة لفتح المجال لكل الأقاليم الجزائرية والعربية باعتبار أن قضايانا السياسية والاجتماعية والاقتصادية واحدة والمستقبل الذي نصبو إليه جميعا يبقى الهدف المشترك.

الأستاذ الدكتور محمد مجاود

الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الجزائر خلال

القرن السادس عشر

أ/ الشيخ لكحل - جامعة غرداية

تمهيد:

عرف الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خلال القرن السادس عشر، احتدام الصراع بين ضفتيه المتقابلتين الشمالية والجنوبية، وقد مثل الصدام العثماني الإسباني أهم فصوله؛ إذ شهد في مطلعها تصاعد الغارات الأيبيرية على شمال إفريقيا منذ سقوط الأندلس، وما تلى ذلك من وفود الأتراك العثمانيين؛ الذين أخذوا على عاتقهم ردّ تلك الهجمات، وتحرير المدن المغربية من التواجد الأيبيري. وقد مثلت الجزائر أهم واجهة لهذا الصراع؛ فبالإضافة إلى جغرافيتها الكبيرة، والممتدة على مساحة معتبرة من الضفة الجنوبية، فقد شكّلت، بعد انضوائها تحت السلطنة العثمانية، رأس الحربة الإسلامية في مواجهة قوى غرب أوروبا المسيحية.

أما الدولة الفرنسية الطامحة إلى استعادة مجدها الصليبي، فقد أجبرتها المنافسة الإسبانية على التحالف مع العدو العثماني. إلا أنّ ذلك لم يكن مُيسراً مع الجزائر؛ فرغم ولائ الجزائر للعثمانيين، إلا أنها كانت تتوجّس من الحليف الفرنسي، الذي لم يُخفِ مطامعه في الاستيلاء على الجزائر كلما توفّرت الظروف المناسبة.

ورغم ذلك التحفظ الذي كانت تبديه الجزائر اتجاه حلفاء السلطان، إلا أنّ فرنسا نجحت في تثبيت قواعد لها في الجزائر، مستغلة جشع بعض حكام الجزائر حيناً، وتحالفها مع السلطنة العثمانية أحياناً كثيرة؛ إذ نجحت شركة لينش المرسلية في الحصول على امتيازات اقتصادية وتجارية في شرق الجزائر، وأسست أول شركة تجارية فرنسية على أرض الجزائر، والمعروفة بوكالة حصن فرنسا، أو الباستيون. فكيف كانت بداية الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الجزائر؟ وما مظاهر نشاطها وتطورها خلال القرن السادس عشر؟

1. التعريف بوكالة الباستيون (Bastion de France):

الباستيون هو حصن فرنسا التجاري الواقع على بعد بضعة كيلومترات شرق مدينة عنابه، على الساحل الشرقي للجزائر، وقد أسس خلال القرن السادس عشر، حين قدم المرسلين توماس لينش (Thomas Linche)، و كارلين ديديه (Carlin Didier)، وتحصّلا على موافقة

الأهالي باستغلال حوالي 30 كيلومتر من الشريط الساحلي الممتد من الرأس الأحمر (CapRoux) إلى وادي سبيوس. فقاما بإنشاء أول محطة تجارية، على شاطئ خليج بومالك، أطلقا عليها اسم «لوباستيدون» (Lou Bastidoun)، والتي تعني بالبروفانسية، الحصن الصغير، و الذي أصبح يسمى فيما بعد بحصن فرنسا.1 أما هيكله، فهو عبارة عن حصن ضخم مربع الشكل على ساحل البحر، يشتمل على ساحة كبيرة، وأخرى أقل حجماً، يتوسطهما برج المراقبة.2 كما يضم كنيسة ومقبرة، ومنازل للضباط، ومخازن للبضائع، يحيط به سور ضخم ومجموعة من المدافع. ويتسع لحوالي 800 شخص، ويتبع له عدد من المراكز الصغيرة بين جيجل والقالا، ويضم أيضاً أطباء وصيادلة للعلاج ولتحضير الأدوية.3

1- الاتصالات الأولى:

يذهب كثير من المؤرخين إلى أن الاتصالات بين الجزائر وفرنسا قديمة جداً، وقد لا يبدو هذا مستغرباً بالنسبة لقطرين يتربعان على مساحة معتبرة من ضفتي المتوسط المتقابلتين، ولهذا فقد قامت علاقة بين هذين الكيانين، أخذت عدة أشكال تجارية وسياسية وغيرها، وتقلبت بين مظاهر التقارب والتعاون حيناً، والتنافر والتنافس أحياناً كثيرة.

فقد كان للمرسيليين، منذ القرن الثاني عشر، علاقات تجارية بالسواحل المغربية، منافسين في ذلك الجنوبيين، والكتليين، وغيرهم من الأوروبيين. وهكذا عقد حكام مرسيليا، في بداية القرن الرابع عشر، معاهدة تجارة وملاحة مع ملك بجاية، أبو يحيى زكريا.4 وكان المرسيليون يأتون إلى بجاية بمعادن، وأقمشة، وآلات حديدية، ويأخذون منها خيولاً، وأصوافاً، وزيتاً، وجلوداً، وهذه الأخيرة كانوا يعيدون بيعها بأثمان غالية في اسبانيا وإيطاليا، وكان لهم قنصل يرعى مصالحهم لدى سلطان بجاية.5 وإذا سلمنا بما ذكره أوجين بلانتي (Eugène Plantet)، فإنّ التجار البروفانسيين؛ القادمين من جنوب فرنسا، يكونون قد تحصلوا من شيوخ الأهالي على امتياز صيد المرجان على الشريط الساحلي الممتد من طبرقة إلى عنابة، منذ سنة 883هـ/1478م.6 ويبدو أن هذا الاتفاق كان تمهيداً لبناء الحصن التجاري الفرنسي، أي الباستيون.

ورغم التعثر الذي عرفه هذا المشروع، بسبب الأحداث التي شهدتها المنطقة، في مطلع القرن السادس عشر، من الاحتلال الإسباني للمدن والمراكز الساحلية الجزائرية؛ حيث احتلت بجاية سنة 916هـ/1510م، وعنابة سنة 942هـ/1535م، وما نتج عنه من تنقذ الجنوبيين في هذه المناطق، وكذلك قدوم الأتراك العثمانيين إلى المنطقة، وسعيهم لتوحيد البلاد تحت حكومة

مركزية في مدينة الجزائر، إلا أنَّ التحالفَ العثماني الفرنسي، وما نتج من معاهدة الامتيازات، قد ساهم في ازدياد النفوذ الفرنسي في الولايات العثمانية، ومنها الجزائر.

لقد اعتُبرت معاهدة الامتيازات؛ التي وقَّعت سنة 1536م، بدايةً لتوسُّع النفوذ الفرنسي في ممالك السلطنة، إذ نصت على منح الفرنسيين الكثيرَ من الامتيازات القنصلية، والتجارية، وحتى الدينية. لكن هل نصت على المراكز التجارية الفرنسية في الجزائر؟

إنَّ هذه المعاهدة قد جعلت الفرنسيين يدَّعون بأنَّ لهم وجوداً مَوْغِلاً في القدم فوق هذه الأراضي؛ فهذا أوجين بلانتي يجزم بأنَّ البند الثاني عشر من معاهدة الامتيازات لسنة 942هـ/1536م، يعدُّ اعترافاً من الدولة العثمانية بالامتيازات التجارية للفرنسيين في الجزائر وفي تونس. كما أنَّ فيرو (Féraud) قد سبق بلانتي في إشارته إلى تنصيب المعاهدة على المراكز الفرنسية في الجزائر. وهو، وإن لم يُشر إلى رقم البند المذكور، إلا أنه ذكر بأن دي لافوري (De Laforest) 8 قد نجح في إدراج بندٍ إضافيٍّ متعلقٍ بالموضوع في النسخة التي بعثها السلطان إلى حكام الجزائر، مع أوامرٍ مشددةٍ باحترام بنود المعاهدة. 9 لكنَّ بول ماسون (Paul Masson) ردَّ هذا الادعاء، عندما أكد بأنَّ البند المذكور، في نُسَخ المعاهدة التي اطلَّع عليها في المراكز الأرشيفية، لا يشير بأيِّ حال إلى المراكز الفرنسية في الجزائر، كما أنه لم يعلق على ما أضافه فيرو. 10

وعلى كل حال، فإننا وجدنا أنَّ البند المذكور، في النسخ التي اطلَّعنا عليها، لا يحتوي على أيَّة إشارةٍ لهذا الموضوع. 11 ولهذا، فقد يكون هناك التباس لدى أوجين بين معاهدة الامتيازات الأولى، سنة 1536م/942هـ، وتلك التي تمَّ تجديدها من طرف السلطان أحمد الأول سنة 1012هـ/1604م، والتي نصَّت بشكل صريح، على حقِّ الفرنسيين في صيد المرجان في ساحل سطورة (Stora)، شرق الجزائر، إضافةً إلى أنَّ فيرو لم يُشر إلى المصدر الذي أخذ منه هذه المعلومة الهامة.

2- تأسيس الباستيون:

إنَّ التاريخَ الدقيق لتأسيس وكالةِ الباستيون يكتنفه الكثيرُ من الغموض؛ وذلك نظراً لتضارب الروايات التاريخية التي تتحدث عن هذا الموضوع. وإن كانت الرواياتُ المحليَّةُ تعوزنا، إلا أننا نجد في الروايات الأوربية؛ الفرنسية على وجه الخصوص، اختلافاً بيناً حول هذا الموضوع.

هناك من توغل كثيراً في الزمن حينما زعم أنَّ بداية تأسيس الباستيون يعود إلى حملة الدوق دوبربون (De Bourbon) على المهدية، في تونس، سنة 792هـ/1390م، لكن هذا مستبعد جداً كما يقول لبريموداي (La Primaudaie)؛¹³ ذلك أنَّ الرسالة التي بعثها الملك الفرنسي لويس الحادي عشر (Louis XI) إلى سلطان تونس وابنه أمير عنايه وبجاية، سنة 887هـ/1482م، والتي تتضمن الرغبة في تطوير العلاقات التجارية بين هذه المدن ومنطقة البروفانس، لا تتضمن أية إشارة إلى صيد المرجان، ولا إلى الممتلكات البروفانسية في هذه المناطق.¹⁴ وهذا عكس ما ادعاه بلانتي من أنَّ البروفانسيين، قد استفادوا من استغلال هذه المناطق منذ سنة 882هـ/1478م. كما أنَّ نيكولاس دي نيكولاي (Nicolas de Nicolay)؛ مبعوث الملك الفرنسي إلى اسطنبول رفقة السفير دارامون (d'Aramont)، والذي زار السواحل الجزائرية، من مدينة الجزائر حتى عنايه، وفي هذه المدينة التقى مع القاضي؛ وذلك في سنة 956هـ/1550م، لم يحدثنا عن وجود الباستيون في هذه المناطق، ولا حتى عن مراكز فرنسية لصيد المرجان، بل أكثر من ذلك، فهو يحدثنا عن تواجد الجنوبيين في هذه المناطق.¹⁵ وقد سبقه يري رايس العثماني (¹⁶Piri Reis)، الذي زار هذه المناطق في عشرينات القرن السادس عشر، واستطرد في وصف نشاط الجنوبيين في مرسى الخرز وغيره من المناطق الساحلية المجاورة، بينما لم يأت على ذكر أي نشاط للفرنسيين.¹⁷ إضافة لكل ذلك، فإنَّ مؤرّخي القرن السادس عشر؛ حسن الوزان ومارمول (Marmol)، قد أشارا إلى نشاط الجنوبيين قرب عنايه؛ إذ أكد كلاهما على تحصيل الجنوبيين على امتياز صيد المرجان في هذه المناطق، ورغبتهم في بناء تحصينات لمراكزهم من هجمات القراصنة، لكن الأهالي تدخلوا لدى السلطان الحفصي خشية أن يستغل الجنوبيون هذه المراكز للهجوم على مدينة عنايه.¹⁸

إنَّ كل تلك المصادر لم تُشر إلى أي نشاط فرنسي في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهذا ما يفتد ما ذهب إليه بلانتي من أنه في الوقت الذي كان فيه خير الدين يحاول بسط سيطرته على عنايه وقسنطينة سنة 926هـ/1520م، كان التجار البروفنسيون يعقدون اتفاقاً مع الأهالي لاستغلال الشريط الممتد من طبرقة إلى عنايه لصيد المرجان.¹⁹ ويتعارض أيضاً مع ما ذهب إليه فيرو؛ من قدوم المرسيليين توماس لانش (Thomas Linche)، وكارلين ديديه (Carlin Didier)، سنة 931هـ/1524م، وتحصلهما على موافقة الأهالي باستغلال حوالي 30 كيلومتر من الشريط الساحلي الممتد من الرأس الأحمر (CapRoux) إلى وادي سيوس وقيامهما بإنشاء أول محطة تجارية، على شاطئ خليج بومالك، أطلقا عليها اسم «لوباستيدون» (Lou

20. Bastidoun) لكن متى تمّ بناء الباستيون؟

يقول الأب دان (Pierre Dan): « أنّ الباستيون قد شُيّد، سنة 968هـ/1561م، من طرف تاجرين من مرسيليا هما توماس لانث وكارلين ديديه». 21 ويرى كالبيير (Galibert) أنّ هذين التاجرين المارسيّين قد أنشئا، سنة 968هـ/1561م، مركزاً تجارياً في القالة؛ والذي يُعدّ، حسب رأيه، باكورة المؤسسات التجارية الفرنسية في شمال إفريقيا. 22 وقد وافقه على ذلك روتالييه (Rotalier) حينما أكد أنّ هذين البحّارين قد تمكنا من تأسيس الباستيون سنة 968هـ/1561م. 23 وكذلك هو الشأن عند لابريموداي. 24 وقد وجدنا، في القسم الخاص بالتجارة من الموسوعة المنهجية (Encyclopédie Méthodique)، مذكراً، تعود إلى سنة 1188هـ/1775م، تتحدث عن البروفانسيّين لانث وديديه اللّذين تحصلا، سنة 967هـ/1560م، على موافقة الأهالي لصيد المرجان في الساحل الجزائري بين طبرقة وعنابه، مع السماح لهما بإنشاء مركزٍ بسيط غير محصن، أضحي يعرف في ما بعد بحصن فرنسا. 25 لذلك، فإنّ ماسون يرى أنّ ظهور المراكز الفرنسية يعود، على الأرجح، إلى سنة 967هـ/1560م. 26 كما أنّ معاهدة الامتيازات، لسنة 942هـ/1536م، لم تتحدث عن هذه المراكز، كما بيّنا آنفاً. وهذا دليل آخر على تأخر تأسيس الباستيون.

ويمكن القول أنّ الباستيون أُسس سنة 968هـ/1561م، على الساحل الشرقي للجزائر، على بعد اثني عشر فرسخاً 27 شرق عنابه، وأربعة فراسخ غرب القالة، من طرف مؤسسة المرجان المارسيّية 28؛ التي تحصّلت من السلطان سليمان القانوني، في مقابل رسوم تصل إلى 1500 أوقية (29) ذهبية تدفع إلى إيالة الجزائر، 30 على حقّ صيد المرجان في المناطق والخلجان الممتدة من الرأس الأحمر إلى واد سييوس، مع السماح ببناء وكالة الباستيون، وبإجراء التحصينات اللازمة. 31

3- نشاط وكالة الباستيون خلال القرن السادس عشر.

بعد تأسيسها، سنة 968هـ/1561م، نشطت وكالة الباستيون في صيد المرجان، وذلك لتوفّر هذه المادة في السواحل القريبة منها، وقد ذكر ماسون أنها عرفت ازدهاراً مطّرداً بسبب نوعية المرجان الرفيعة والمتوفرة بكميات كبيرة، ولهذا فقد ازدادت مداخيل هذه الشركة، وتوسّع نشاطها، حيث أقحمت نفسها في تجارة القمح منذ وقت مبكر؛ إذ كانت تستثمر جزءاً من مداخيلها في شراء كميات معتبرة من الحبوب من الأهالي، وتوريدها نحو مرسيليا وجنوة. 32

كما أنّ هذه الوكالة قد عرفت توسعاً جغرافياً بعد ضم مرسى الخرز33، سنة 986هـ/1578م، بعد أن كان محلّ صراع بين الفرنسيين والجنوبيين. وتتضمن وثيقة من وثائق مهمة دفترى أمراً صادراً إلى بيلرباي الجزائر، بالسماح للفرنسيين بصيد المرجان في هذا المكان، وذلك بشرط عدم تحصينه أو تسليحه. وتشير الوثيقة أيضاً إلى ضرورة دفع الفرنسيين المستغلين لهذا المرسى، مقدار العُشر من مداخله إلى خزانة الجزائر.34

ورغم طابعها «المرجاني»، إلا أنّ الشركة تحصلت على امتياز شراء الجلود والصوف والشمع من أهالي المنطقة، وكذلك شراء ما يكفي من الحبوب لغذاء الصيادين وعائلاتهم، أي حوالي ألف قفيز35 من الحبوب؛ حسب الاتفاق الذي أبرمته مع حكام الجزائر. إلا أنها كانت تنجح في تصدير كمّيات غير محدودة من الحبوب بفضل الهدايا التي كانت تقدمها للحكام المحليين.36 وكان هؤلاء يحتكرون بيع المنتجات الزراعية لهذه الشركة وذلك بسعر أغلى من ذلك الذي تشتري به من الأهالي. وكان الحكام يتابعون الأسعار في الخارج لتحديد سعر بيعهم؛ وفي هذا الإطار فقد كان الاتفاق بين الشركة وخضر باشا على سعر 7 أوقية لقفيز القمح، لكنّه لما علم بأن مناطق فرنسا الجنوبية بحاجة ماسة للقمح، قام برفع السعر إلى 12 أوقية.37

ونظراً للنشاط الكبير الذي كانت تقوم به هذه الوكالة التجارية، وأهميّة مداخلها بالنسبة لبيلربكية الجزائر، فقد كان إقليمها مطمعاً لمسيّري الإدارة المحلية، سواءً في بايلك الشرق أو حتى في تونس، لهذا فقد قام السلطان العثماني بإجراء ترتيبات إدارية في بايلك الشرق، تمثلت في استحداث لواء جديد يتركب من مناطق عنابة والباستيون وطبرقة وباجة، سنة 988هـ/1580م، وذلك بهدف إحداث التوازن الاقتصادي في مداخل ومصاريف أوطان الجزائر، كما تشير الوثيقة التي نشرها خليل ساحل أوغلي.38

ورغم الامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيون للفرنسيين، خلال القرن السادس عشر، إلا أنّ وضع وكالة الباستيون لم يستقر إلا في نهاية القرن؛ إذ أنّ السلطان محمد الثالث 39 جدّد للفرنسيين هذه الامتيازات للمرة الرابعة، سنة 1006هـ/1597م، والتي مكنتهم من استغلال هذه الوكالة في صيد المرجان، وفي أنشطة تجارية علنية، مثل تجارة الجلود والشمع والكتان، وغيرها. وغير علنية، كتجارة الحبوب والقمح.40

4- ملحقات الباستيون:

هي تلك المراكز والموانئ ومناطق الأنشطة الاقتصادية الفرنسية التابعة للباستيون، وقد كانت منتشرة على الساحل الشرقي الجزائري. 41 ورغم اختلاف نشاطها؛ من حيث تلك المتخصصة بصيد المرجان، أو التي استأثرت بتصدير نوعية معينة من السلع نظراً لقربها من مناطق جلب تلك السلع، أو تلك التي أخذت على عاتقها مهمة حماية مخازن المواد التي جمعت من الأهالي قبل نقلها نحو موانئ التصدير، قلت رغم كل ذلك، إلا أنها كانت تتبع إدارياً للباستيون، حيث أن كل تكاليف تلك المراكز؛ من أجر الموظفين والجنود، إلى مبالغ الكراء والتجهيز، وليس أخيراً بمدفوعات الضرائب المستحقة إلى السلطة المركزية، أو إلى الحكام المحليين، كانت كلها تُدفع من خزينة الوكالة الأم؛ الباستيون. 42 ورغم تلك التبعية الإدارية، إلا أننا وجدنا بأن بعض تلك الملحقات؛ والتي لم تتعرض للهدم، كانت تشهد حركة تجارية، رغم تعطل وكالة الباستيون بسبب تعرضها للهدم، كما حدث عدة مرات في النصف الأول من القرن السابع عشر. 43 وأهم هذه الملحقات هي:

1. القالة (La Calle): كما ذكرنا آنفاً أن القالة هي أول مركز طالب الفرنسيون بضمه إلى الباستيون وذلك لقربه من هذه الوكالة، 44 وقد استعمل كمحطة وملجأ لسفن الباستيون لأن تضاريس ساحل الباستيون لم تكن تسمح بالرسو المريح للسفن. كما كانت تضم مخزنين كبيرين، وحامية مكونة من قائد و14 ضابطاً، ويذكر الأب دان أنها تقع على بعد سبعة أميال شرق الباستيون، وأنها كانت تعتبر ميناء الباستيون، نظراً لاستقبالها لسفن الشحن الكبيرة. 45

2. وكالة عنابة (Bône): اشترى من عوائد الباستيون، وكانت كبيرة وفسحة، تُشغل خمسة وكلاء للتداول، والذين يقيمون هناك. وتبلغ النفقات السنوية التي تغطي تكاليف صيانة الوكالة والموظفين الخمسة الذين يقيمون فيها خمسة آلاف جنيهاً. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تم احتساب مبلغ 800 جنية سنوياً لرؤساء وجنود الحامية التركية، للاحتفاظ بهم كأصدقاء في الأعمال التجارية للباستيون، وإذا اقتربت سفن حربية من ميناء عنابه، فإن المطلوب من الوكالة الفرنسية توفير كل ما تحتاجه. 46

3. سكيكدة أو سطورة (Stora): يعتبر خليج سطورة؛ الذي بنى الفرنسيون على ضفافه مدينة سكيكدة، 47 من أولى المراكز الفرنسية، إن لم يكن الوحيد، الذي نصت عليه معاهدة

الامتيازات.48 وحسب المصادر، فإنه كان من المناطق المفضلة للفرنسيين لصيد المرجان، وذلك لغناه وجودة مرجانه.49 كما أن نشاط ميناء سطورة كان لا يقتصر على تجارة المرجان فحسب، بل تعداه إلى مواد أخرى مثل الخيول والجلود والشمع وغيرها.50

4. القل(Collo): يعتز هذا المركز؛ القريب من المركز السابق، أهم مركز لتصدير الجلود ذات الجودة العالية والتمن الرخيص، كما أن هناك مواد أخرى تصدر من هذا الميناء؛ كالشمع والخيول.51

5. الرأس الوردي(Cap rose): يقع على بعد حوالي 18 كيلومتر غرب الباستيون، ويمتد داخل البحر مكوناً الحد الشرقي لخليج عنابه.52 ويعتبر الرأس الوردي قلعة أقرب منه إلى المركز التجاري؛ حيث يعد من أشد أماكن منطقة عنابه تحصيناً، ويقيم فيه ضابط وثمانية جنود، مقابل إحدى والثلاثين جنياً في الشهر للضابط وتسع جنهات لبقية الجنود، كما يقيم فيها مترجم. ويمكن تعزيز المكان، إذا لزم الأمر، بجنود إضافيين53 وحسب التاجر جاك سافاري (Jacques Savary) فإن هذا المركز يقع في أراضي قبيلة الشيخ امبارك، وبالتالي فهو يعمل على تأمين مرور البضائع المشتركة من الأهالي، في مقابل دفع مبلغ من المال لهذه القبيلة.54

6. دار الجزائر(Maison d'Alger): يستعمل هذا البيت كمحل إقامة مؤقتة لموظفي الباستيون في مدينة الجزائر، سواء القادمين من فرنسا، أو المكلفين بمهمة لدى حكام الجزائر، قبل التحاقهم بمكان عملهم. ويصفها لبريموداي بأنها كانت كبيرة وأنيقة، وثمان إيجارها 500 جنياً، يقيم فيها موظف مكلف بنقل المراسلات بين وكلاء الباستيون والسلطات المركزية، كما تبلغ تكلفة صيانة هذه الإقامة، إضافة إلى أجره الموظف القيم، حوالي 800 جنياً في السنة.55

وهكذا نرى أن النشاط الاقتصادي الفرنسي في تلك الفترة كان منحصراً في موانئ بايلك الشرق، وأن شركة لينش؛ المالكة للباستيون، كانت هي المحركة للتجارة مع الجزائر.

خاتمة:

يمكننا أن نستنتج من كل ما تقدم أن الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الجزائر قد بدأت ونمت خلال القرن السادس عشر؛ فقد تطورت من حصن صغير غرب القالة إلى وكالة تجارية كبيرة تضم عدة مراكز وموانئ، وأن النشاط التجاري الفرنسي كان منحصراً في شرق الجزائر.

وقد تمكنت فرنسا من الحفاظ على هذه الامتيازات بفضل تحالفها مع السلطان العثماني؛ فقد سعت الدبلوماسية الفرنسية جاهدةً لتحصل على تجديدٍ لمعاهدة الامتيازات، كلما اعتلى سلطانٌ جديدٌ عرشَ اسطنبول. كما أنَّ الجزائريين لم يجدوا بُدًّا عن الاستجابة لطلبات السلطان العثماني بمنح تلك الامتيازات للفرنسيين، خلال القرن السادس عشر، حين كان ارتباطهم قويا بالدولة العثمانية.

الهوامش والإحالات:

1-Charles Féraud: Histoire des villes de la province de Constantine. La Calle, Typ.de l'Association ouvrière V. Aillaud et C^{ie}, Alger, 1877, p93.

2-R.P.Pierre Dan: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire ordinaire de Roi, Paris, 1646, p54.

3- يحيى بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص70.

4M. L. De Mas Latrie: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge, Henri Plon imprimeur-éditeur, Paris, 1866, p99.

5- مولود قاسم نيت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبته العالمية قبل سنة 1830، جزآن، دار الأمة، الجزائر، 2007، ج2، ص9.

6Eugène Plantet: Les consuls de France à Alger avant la conquête 1579 -1830, Messagerie Hachette, Paris, 1930, p5.

7Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France(1579-1833), 2 Tomes, Paris, 1889, T1, Introd, p XXVIII .

8- اسمه الكامل جون دي لافوري، أحد فرسان القديس يوحنا في القدس، وأول سفير فرنسي في استانبول، عين بتاريخ 11 فيفري 1534م، مهندس أول معاهدة بين فرنسا والدولة العثمانية، توفي في القسطنطينية سنة 1537م. أنظر:

Le Comte de Saint-Priest: Mémoires sur l'Ambassade de France en Turquie, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1877, p181.

9- لكنَّ فيرو لم يوضح لنا كيف استطاع دي لافوري أن يضيف هذا البند على هذه النسخة فقط. أنظر:

Charles Féraud: op.cit, p91.

10Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque(1560-1793), librairie Hachette et C^{ie}, Paris, 1903, p5.

11- للاطلاع على بنود هذه المعاهدة أنظر:

محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: احسان عباس، دار النفائس، بيروت، 1401هـ/1981م،

ص223./ياسر بن عبد العزيز القاري: دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى مكة، المملكة العربية السعودية، 1422هـ/2001م، ص220. وأنظر أيضاً:

Le Baron I. De Testa: Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, 4Tomes, Amyot Editeur, Paris, 1867, T1, p15.\M. Belin: Des Capitulations et des Traités de la France en Orient, Challamel Libraire-éditeur, Paris, 1870, p60.

12- السلطان أحمد الأول: ولد في 12 جمادى الثانية 998هـ/18 أبريل 1590م، تولى السلطنة بعد وفاة والده محمد الثالث؛ شهد عصره اشتداد الصراع مع الدولة الصفوية في الشرق ومع النمسا في الغرب، كما أن العلاقات السياسية مع فرنسا قد ازدادت متانة، من خلال تجديده لمعاهدة الامتيازات سنة 1604م؛ إضافة إلى ذلك، فقد شهدت سنة 1609م تجديد الاتفاقيات التي عقدها السلطان محمد الثالث مع مملكة بولونيا، كما أن هولندا قد تحصلت، سنة 1612م، على امتيازات تجارية تضارع تلك الممنوحة لفرنسا و إنجلترا. توفي السلطان أحمد الأول في 23 ذي القعدة 1026هـ/22 نوفمبر 1614م. أنظر: محمد فريد بك: المرجع السابق، ص271.

-13F.Elise de La Primaudaye: «Le Commerce et la Navigation De l'Algérie», in, R. A. C, Librairie L. Hachette et C^{ie}, Paris, N°:2, juin 1860, p448.

-14De Mas Latrie: op.cit, p317.

-15Nicolas de Nicolay: Les navigations, pérégrinations et voyages faits en la Turquie, Guillaume Silvius, Imprimeur de Roi, Anvers, 1576, p24.

16- هو محي الدين بيري رايس، ولد سنة 1485م، أتاحت له مشاركته المبكرة في عمليات البحرية العثمانية التعرف على كثير من الموانئ الإسبانية والتونسية والجزائرية والفرنسية، وكان يسجل أخباراً وملاحظاتٍ عن هذه المناطق، جمعها فيما بعد في كتاب أسماه «كتاب البحرية»، وأثبتها في خريطة مفصلة. عين سنة 1547م، أميراً للبحرية العثمانية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، لكنه أعدم سنة 1554م بعد اتهامه بالتقصير في الحرب ضد البرتغال حول مضيق هرمز. في القسم الثاني من كتابه يصف الجزائر بموانئها: المرسى الكبير، وهران، مستغانم، الجزائر ، بجاية، عنابه...أنظر:

زهرة زكية: «لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني بيري رايس»، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1413هـ/1992م، ع06، ص106-101.

-17Robert Mantran: «La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Piri Reis», in, R.O.M.M, MMSH- IREMAM, Aix-en-Provence, N°: 15-16, 1973, p167.

ويقول فيرو، معلقاً على النشاط المكثف للجنوبيين في منطقة عنابه حتى سنة 1551م، أن ذلك بسبب عدم التزام الجزائريين بأوامر السلطان العثماني. أنظر: Charles Féraud: op.cit, p92.

18- لقد اقتصر وصف المصدرين لنشاط الجنوبيين ولم يتعرضوا لأي نشاط فرنسي في هذه المناطق. أنظر: حسن الوزان: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، جزآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2، ص62. / مارمول كربخال: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، 3أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، 1984، ج3، ص8.

-19Eugène Plantet: Les consuls de France à Alger avant la conquête, p5.

-20Charles Féraud: op.cit, p93.

- 21R.P.Pierre Dan: op.cit, p57.
- 22M. Leon Galibert: Histoire de l'Algérie Ancienne et Moderne, Furne Et C^{ie} Libraires-Editeurs, Paris, 1843, p217.
- 23Ch. De Rotalier: Histoire d'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée, 2Tomes, Paulin Libraire- Editeur, Paris, 1841, T2, p507.
- 24F.Elise de La Primaudaie: op.cit, p448.
- 25Nicolas Baudeau: Encyclopédie Méthodique. Commerce, 3Tomes, Panckoucke Libraire, Paris, 1783, T1, p643.
- 26Paul Masson: op.cit, p9.
- 27- الفرسخ: أصله فرنسك، لفظ فارسي، دخل إلى العربية بمعنيين، الأول يدل على الزمن، والثاني ارتبط بمسافة معلومة اتفق على تقديرها بالمسافة التي إذا مشاها الرجل قعد واستراح. وهي تقدر بثلاثة أميال؛ أي ما يقارب 5 كيلومتر. أنظر:
- مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1996م، ص337.
- 28- هي مؤسسة تجارية أسسها توماس لانث في مرسيليا، سنة 1553م، وكانت تضم نخبة التجار المرسيليين، من أمثال دوميرابو (Jean Riqueti de Mirabeau)، بوسيه (Pierre Bausset)، وديديه (Carlin Didier). وقد ازدهر نشاطها منذ حصولها على امتياز صيد المرجان على السواحل الشرقية للجزائر سنة 1561م. أنظر:
- Paul Masson: Les compagnies du corail, fontemoing éditeur, Paris, 1918, p17.
- 29- أوقية (Ecu): أطلق هذا المصطلح على الترس الفرنسي خلال العصور الوسطى، ثم استخدم لنوع من العملة القديمة، وكان يحمل على أحد الوجوه صورة ترس يمثل شعار فرنسا، وقد بلغت قيمته في بداية القرن السابع عشر حوالي أربعة قروش. (Piastres) أنظر:
- [Henri Lamirault](#) et C^{ie}: La Grande Encyclopédie inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts, 31 Tomes, H. Lamirault et C^{ie}. Editeurs, Paris, 1885-1902, T15, p533.
- 30- يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص59.
- 31Pierre Heinrich: L'Alliance Franco-Algérienne au XVI^e siècle, Imprimerie V^{ie} Mougin-Rusand, Lyon, 1898, p109.
- 32Paul Masson: op.cit, P18.
- 33- مرسى الخرز: هو الاسم القديم للقالة، يقع شرق الباستيون بأربعة فراسخ، كان معروفاً منذ القرون الوسطى بغنى منطقته بالمرجان؛ حيث استغله الجنوبيون فترة من الزمن، وقبل خروجهم منه عمد روجير دي لوريا (Roger de Loria) الجنوبي إلى تخريبه، سنة 1286م. وبقي على حاله، إلى غاية منحه إلى الفرنسيين. وقد أسموه القالة (Calle) لأنهم اعتبروه بمثابة موقف وملجأ للسفن التي تعمل في الباستيون. أنظر: Charles Féraud: op.cit, p93.
- 34- مهمة دفترى رقم 35، صحيفة 122، حكم رقم 314، الرصيد العثماني، الأرشيف الوطني الجزائري. وأنظر الملحق رقم 2.

- 35- القفيز(2.250= Kaffiz قنطار. أنظر:
- Le baron baude: l'Algérie, 2Tomes, Arthus Bertrand Libraire, Paris, 1841, T2, p64.
- 36- المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، جزآن، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ج1، ص83.
- 37-Paul Masson: op.cit, p96.
- 38- خليل ساحل أوغلي: «إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتكبد من بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة»، في الأصاله، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ع34/35، 1396هـ/1976م، ص163. وأنظر الملحق رقم 5.
- 39- هو السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث، ولد في 7 ذي القعدة 974هـ/16 مايو 1566م. أمه صفية الإيطالية الأصل، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 1003هـ/1595م. شهد عصره عدة حروب في المجر، وبعض الثورات في الأقاليم الآسيوية، قادها بعض جنود الانكشارية. توفي في 12 رجب 1012هـ/16 ديسمبر 1603م. أنظر: محمد فريد بك: المرجع السابق، ص267.
- 40-Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p15.
- 41- أنظر الخريطة المرفقة في الملحق رقم 1.
- 42-Jacques Savary: Le Parfait négociant, 2 Tomes, Chez les frères Estienne, Paris, 1757, T2, p474.
- 43-Féraud: op.cit, p101.
- 44- مهمة دفتري رقم 35، صحيفة122، أمر رقم314-314.
- 45-R.P.Pierre Dan: op.cit, p58.
- 46-F.Elle de La Primaudaie: op.cit, p456.
- 47-Charles Féraud: op.cit, p104.
- 48- ذكر اسم هذا المركز صراحةً في نص معاهدة الامتيازات التي قام بتجديدها السلطان أحمد الأول سنة1604م.
- 49-Le Baron I.De Testa: op.cit, T1, p146.
- 50-Feraud: op.cit, p101.
- 51-Jacques Savary: op.cit, T2, p475.
- 52-Peyssonnel et Desfontaines: Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, 2 Tomes, Librairie de Gide, Paris, 1838, T2, p224.
- 53-F.Elle de La Primaudaie: op.cit, p456.
- 54-Jacques Savary: op.cit, T2, p476.
- 55-F.Elle de La Primaudaie: op.cit, p457.
- 56- هذه الخريطة من تصميم الباحث.
- 57- الأرشيف الوطني الجزائري: الرصيد العثماني.
- قائمة المصادر والمراجع
- أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

الوثائق:

- الأرشيف الوطني الجزائري: الرصيد العثماني، مهمة دفترى رقم 35، صحيفة 122، حكم رقم 314.

المصادر:

كريخال مارمول: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، 3 أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، 1984.

الوزان حسن: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، جزآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.

المراجع:

بوعزيز يحيى: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1830-1500، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.

الخطيب مصطفى عبد الكريم: معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1996م.

فريد بك محمد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان عباس، دار النفائس، بيروت، 1401هـ/1981م.

مروش المنور: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، جزآن، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009.

نايت بلقاسم مولود قاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، جزآن، دار الأمة، الجزائر، 2007.

ج - المقالات والدوريات:

أوغلي خليل ساحل: «إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتكبد من بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة»، في الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ع34/35، 1396هـ/1976م.

زكية زهرة: «لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني بيري رايس»، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع06، 1413هـ/1992م.

هـ- الرسائل الجامعية:

القاري ياسر بن عبد العزيز: دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى بمكة، المملكة العربية السعودية، 1422هـ/2001م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

المصادر:

Baudeau Nicolas: Encyclopédie Méthodique. Commerce, 3Tomes, Panckoucke Libraire, Paris, 1783.

Dan R.P.Pierre: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire ordinaire de Roi, Paris, 1646.

Nicolay Nicolas de: Les navigations, pérégrinations et voyages faits en la Turquie, Guillaume Silvius, Imprimeur de Roi, Anvers, 1576.

Savary Jacques: Le Parfait négociant, 2 Tomes, Chez les frères Estienne, Paris, 1757.

المراجع:

Baude Le baron: l'Algérie, 2Tomes, Arthus Bertrand Libraire, Paris, 1841.

Belin M.: Des Capitulations et des Traités de la France en Orient, Challamel Libraire-éditeur, Paris, 1870.

Féraud Charles: Histoire des villes de la province de Constantine. La Calle, Typ. de l'Association ouvrière V. Aillaud et C^{ie}, Alger, 1877.

Galibert M. Leon: Histoire de l'Algérie Ancienne et Moderne, Furne Et C^{ie} Libraires-Editeurs, Paris, 1843.

Heinrich Pierre: L'Alliance Franco-Algérienne au XVI^e siècle, Imprimerie Vve Mougin-Rusand, Lyon, 1898.

Lamirault Henri et C^{ie}: La Grande Encyclopédie inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts, 31 Tomes, H. Lamirault et C^{ie}. Editeurs, Paris, 1885-1902.

Mas Latrie M. L. De: Traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge, Henri Plon imprimeur-éditeur, Paris, 1866.

Masson Paul: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793), librairie Hachette et C^{ie}, Paris, 1903.

Masson Paul: Les compagnies du corail, fontemoing éditeur, Paris, 1918.

Peyssonnel et Desfontaines: Voyage dans les Régence de Tunis et d'Alger, 2 Tomes, Librairie de Gide, Paris, 1838.

Plantet Eugène: Les consuls de France à Alger avant la conquête 1579 -1830, Messagerie Hachette, Paris, 1930.

Plantet Eugène: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), 2 Tomes, Paris, 1889.

Rotalier Ch. De: Histoire d'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée, 2tomes, Paulin Libraire-éditeur, Paris, 1841.

Saint-Priest Le Comte de: Mémoires sur l'Ambassade de France en Turquie, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1877.

Testa Le Baron I. De: Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, 4tomes, Amyot Editeur, Paris, 1867.

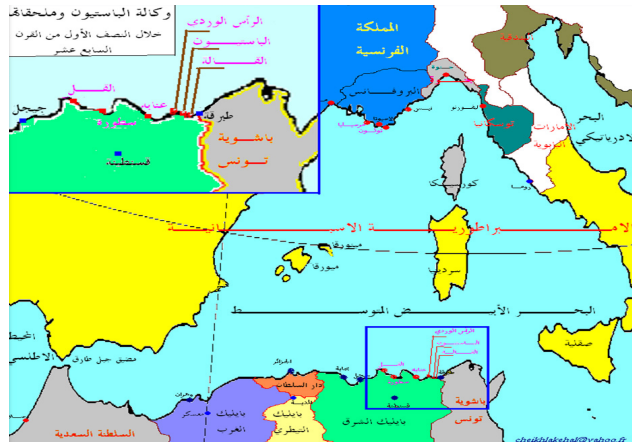
المقالات والدوريات:

La Primaudaie F.Elle de: «Le Commerce et la Navigation De l'Algérie», in, R. A. C, Librairie L. Hachette et C^{ie}, Paris, N^o:2, juin 1860.

Mantran Robert: «La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis», in, R.O.M.M, N^o: 15-16, 1973.

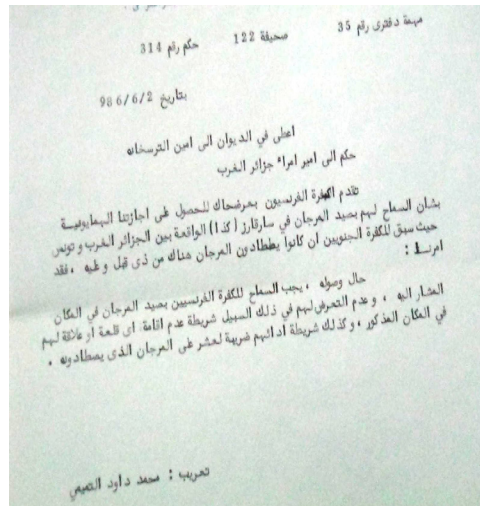
الملحق رقم 1

خريطة توضح أماكن تواجد وكالة الباسيتيون وملحقاتها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر 56



الملحق رقم 2

مهمة دفتری رقم 35 صحيفة 122 حكم رقم 314-57



اهتمام «المجلة الإفريقية» بحملة الضابط أوريلي reilly'0 على مدينة**الجزائر 1775****أ.عبد الجليل رحموني - جامعة سيدي بلعباس****تمهيد:**

تعتبر الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر من الأحداث الهامة، والوقائع الحاسمة في تاريخ الجزائر الحديث، وذلك للأحداث التي تميزت بها والنتائج التي أسفرت عنها، فكانت هذه الحملات إحدى مخططات إسبانيا المسيحية الصليبية للسيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، فقد تنوعت كتابات المجلة الإفريقية حول هذه الحملة التي تعد من أهم حملات القرن 18م على مدينة الجزائر، وسنحاول في هذه الورقة البحثية التركيز على الأسباب الحقيقية لهذه الحملة، والأحداث التي جرت فيها، والنتائج التي خرجت بها.

أولا: أسباب هذه الحملة

لقد تعددت وتنوعت أسباب هذه الحملة منها ما هو ديني محض، ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي نوجزها في النقاط الآتية:

- ✓ لقد مثل العامل الديني السبب الأول والرئيسي لهذه الحملة، وهذا ما يعكس مدى التعصب المسيحي الكاثوليكي لإسبانيا تجاه العالم الإسلامي، ويتضح ذلك جليا في مباركة الكنيسة لهذه الحملة وتأييدها لها منذ البداية.⁽¹⁾
- ✓ ضعف الباب العالي الذي كان يقوم بإرسال المساعدات العسكرية لصد الحملات المتكررة على السواحل الجزائرية مما أفسح المجال للتحرش الإسباني.
- ✓ سوء الأوضاع الداخلية لإيالة الجزائر ذلك أن في هذه الفترة كانت البلاد تشهد العديد من الاضطرابات نتيجة الثورات التي كانت تنشب بين بعض القبائل.
- ✓ تمرد بعض القبائل على الحكام العثمانيون ودخولهم في حلف مع الأسبان ضد الأتراك العثمانيون.
- ✓ وجود عملاء وجواسيس أقاموا بمدينة الجزائر بحيث أنهم استطاعوا كتابة تقارير وافية ونقل أخبار وأوضاع الإيالة إلى الأسبان، وبناء على هذه التقارير تم تجهيز حملة عسكرية

لشن هجوم على مدينة الجزائر.⁽²⁾

✓ توتر العلاقات الجزائرية الاسبانية نتيجة الوجود الاسباني المستمر في وهران والمرسى الكبير، خاصة بعد فشل محاولات التقارب و التفاهم بين اسبانيا و الجزائر لذا لجأ الملك الإسباني لاستخدام القوة العسكرية، ولأجل ذلك سخرت اسبانيا جيوشا كبيرة في كل من برشلونة و قرطبة وغيرها.⁽³⁾

ثانيا: أحداث هذه الحملة

أعد الملك الإسباني شارل الثالث⁽⁴⁾ حملة بحرية انطلقت من خليج قرطاجنة الاسبانية في 23 جوان 1775 شكلت هذه الحملة أسطولا حربيا كبيرا بلغ تعداده حسب إحصائيات المجلة الإفريقية حوالي 400 سفينة، من بينها 60 سفينة حربية، أما الباقي فكان عبارة عن سفن شراعية ذات مجاديف، كما خصصت سفن أخرى لإطلاق القذائف، أما السفن الباقية فكانت محملة بالذخيرة الحربية والجنود، متجهة إلى واد الحراش حيث وصلت في 30 جوان من السنة نفسها،⁽⁵⁾ وفي الفاتح من جويلية اكتملت قطع الأسطول كلها وتم إطلاق أربع أو خمس طلقات بالمدفعية دليل على اكتمال كل القطع الحربية واقرعوا الطبول وارنوا المزامير وزينو البواخر بالألوان، وقاموا بوضع خطة إستراتيجية لشن هجوم على المدينة،⁽⁶⁾ كانت كل واحدة من هذه السفن محملة بـ 80 مدفعا يزن الواحد منها 24 إلى 36 رطلا،⁽⁷⁾ وبدأت المدافع في إطلاق القذائف، فكانت تلك الصورة تعبر عن مدى قوة ووحشية هذا الهجوم الذي تعرضت له المدينة.⁽⁸⁾ كما رد السكان المحليين بالمثل على تلك القذائف.

ولمواجهة هذه الحملة قام أحمد باشا بوضع خطة إستراتيجية وتوفير القوات اللازمة لصد هذه الحملة فأمر بإبقاء قوة عسكرية تحت إمارة خوج الخيل قرب باب الواد، وقوة أخرى تحت إمارة الخزنجي بواد خميس تحت إمارة الصالح باي قسنطينة، وتمركزت أمام جسر الحراش خلف القوة العسكرية الكائن عند مصب واد الخميس، أما باي الغرب فقد تموقع بقوات عسكرية للدفاع على المرسى الكبير.⁽⁹⁾

و تفيد المجلة الإفريقية بأن محمد باشا قام بتجنيد كل الشباب البالغين سبع سنوات فأكثر وكوناً جنودا وعساكر، كما قام بتوزيعهم على شكل محلات كالآتي:

جزء أرسله إلى محلة الخزنجي الشريف سيدي حسن، كما أضاف محلة في عين الربع وجزء

آخر انضم إلى قوات آغا العرب، وفئة أرسلت إلى خوجة الخيل الذي كانت قواته ممرزة خارج باب الواد، أما باي الغرب إبراهيم باي بقي يتربح نواحي مستغانم،⁽¹⁰⁾ وهكذا كانت القوات العسكرية الجزائرية مستعدة تمام الاستعداد لمواجهة هذه الحملة، وذلك بإقامة التحصينات القوية التي كان لها دورا كبيرا في تطويق القوات الإسبانية وإحباط كل مخططاتها التي كانت تهدف إلى محاولة حصار المدينة والسيطرة عليها، ولعل هذا ما أجبر القوات الإسبانية على النزول في مصب واد الحراش.⁽¹¹⁾

ولم تتوقف الطلقات النارية من طرف السكان المحليين، ولتخفيف الضغط وإرباك الأسبان قام باي قسنطينة بهجوم مباغت على الحصن الذي كان الإسبانيون متحصنين به حيث أن هذا الحصن قد أحيط بأسلاك شائكة وهذا ما حال دون اقتحامه، فارتفعت حرارة الجو بسبب القذائف المتبادلة بين الطرفين، وكانت النساء تنحن و تبكين ويدعون الله أن يرد هؤلاء الأسبان على أعقابهم خاسئين، وفي هذه الأثناء هبت عاصفة قوية قضت على ما تبقى من الجنود الأسبان⁽¹²⁾ ولعل هذا ما أدى بالقائد الإسباني الأميرال مازاريد « Mazarredo » بالقول: «بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر واجهتنا رياح وعاصفة قوية مما أعاق عملية إنزال الجنود».⁽¹³⁾ متجاهلا شراسة وقوة الجنود الذين قاموا بإهلاك معظم السفن الإسبانية.⁽¹⁴⁾

بدأت عملية الانسحاب وأعطيت الأوامر للسفن الإسبانية بالابتعاد عن الساحل، ويبدو أن القائد العام أوريلي « reilly » تفاجأ لما حدث لجنوده فقرّر قصف مدينة الجزائر بالقنابل في 13 جويلية و لكنه وجد معارضة من طرف أعضاء المجلس الحربي فأضطر للتراجع عن قراره.⁽¹⁵⁾

ثالثا: نتائج هذه الحملة

انتهت هذه المعركة بالفشل الذريع لإسبانيا وأسفرت هذه الحملة عن مجموعة من النتائج نوجزها في النقاط الآتية:

- ✓ لقد زرعت هذه الحملة الخوف و الرعب والهلع في أوساط الرعية.⁽¹⁶⁾
- ✓ ساهمت هذه الحملة في إبراز العديد من الشعراء الشعبيين، وبذلك ظهرت القصائد والمدائح الشعبية تعبيرا على النصر المبين، ولم تنطفئ هذه الحملة في ذهن هؤلاء الشعراء.

✓ تم قتل أكثر من 10000 مسيحياً في هذه الحملة حسب إحصائيات المجلة الإفريقية، أما المصادر الإسبانية فتصرح بـ 4000 شخص فقط بين قتيل وجريح،⁽¹⁸⁾ في حين قَدَّرت بعض المصادر المحلية أن الأسبان قتل منهم حوالي 8000 شخص و جرح منهم حوالي 3000 شخص.⁽¹⁹⁾

✓ وتفيد المجلة الإفريقية بأن حوالي 200 شخص قد استشهد من الجنود الجزائريين.

✓ أما الخسائر المادية فقد تم إحصاء حوالي 500 جمل قد قتلت، وأطلق على هذه الحملة بعام الرمال لأن الحملة وقعت علي شاطئ الرمال.⁽²⁰⁾

وفي نهاية هذا المقال لا يسعنا إلا أن نقول بأن هذه الحملة قد باءت بالفشل الذريع للأسباب وذلك راجع بالأساس للتحصين الجيد للإيالة والدور الجهادي للجزائريين ومهاراتهم الحربية والعسكرية، فقد حاول الأسبان التقليل من حجم خسائرهم الفادحة وإرجاع سبب هزيمتهم إلى أخطاء إستراتيجية وسوء الأحوال الجوية، لكن في حقيقة الأمر قد فوجأوا بالمهارات الحربية و التحصينات المنيعة التي أربكتهم، ورغم هذا الفشل الذريع الذي منيت به اسبانيا إلا أنها لم تتعظ و أعادت الكرة مرة ثانية تمثلت هذه المرة في حملة دون أنطونيو.

الهوامش:

⁽¹⁾ Berbrugger (A), « Expédition d'Oreilly Contre Alger en 1775 », R.Af, n°8, Alger, 1864, p173.

⁽²⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly d'après Un Document Turc », R.Af, n°3, Alger, 1858, p 437.

⁽³⁾ Berbrugger (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°8, op.cit, p173.

⁽⁴⁾ ولد بمدريد سنة 1716، وهو ابن فليپ الخامس، كان دوق على بارما ما بين (1731-1735)، ثم ملك نابولي وصقلية ما بين (1734-1759)، ثم ملك اسبانيا ما بين (1759-1788). ينظر: عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ / 1505-1792م)، دار هومة، الجزائر، 2012، ص 84.

⁽⁵⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°3, op.cit, p437.

⁽⁶⁾ Feraud (L), « Traduction d'un Récit Arabe de Expédition d'Oreilly en 1775 », R.Af, n°9, Alger, 1865, p181.

- ⁽⁷⁾ Feraud (L), « Traduction d'un Récit..... », n°9, op.cit, p182.
- ⁽⁸⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°3, op.cit, p437.
- ⁽⁹⁾ Feraud (L), « Traduction d'un Récit..... », n°9, op.cit, pp181-182.
- ⁽¹⁰⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°3, op.cit, pp438-439.
- ⁽¹¹⁾ Mazarbedo, « Expédition du Contre Alger en1775 », R.Af, n°8, Alger, 1864, pp 256-257.
- ⁽¹²⁾ Feraud (L), « Traduction d'un Récit..... », n°9, op.cit, pp186-187.
- ⁽¹³⁾ Mazarbedo, « Expédition du Contre..... », n°8, op.cit, pp256-257
- ⁽¹⁴⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°3, op.cit, p439.
- ⁽¹⁵⁾ Mazarbedo, « Expédition du Contre..... », n°8, op.cit, p256.
- ⁽¹⁶⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°3, op.cit, p438.
- ⁽¹⁷⁾ *ibid*, p 440.
- ⁽¹⁸⁾ *ibid*, p 441.
- ⁽¹⁹⁾ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973، ص261.
- ⁽²⁰⁾ Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly..... », n°3, op.cit, pp140-141.

التعليم المهني بالجنوب الغربي الجزائري.**(1900 – 1962)****بن علي بوبكر - جامعة بشار****تقديم:**

تدرج مدارس التعليم المهني enseignement professionnel ضمن التعليم الفرنسي الخاص، وهي مدارس الآباء البيض و تمول من قبل الجيش الفرنسي وبعض الجمعيات الدينية و غيرها من الهيئات، بمعنى آخر هي غير تابعة للحكومة الفرنسية في كل الأمور كما نعرف أن فرنسا دولة لائكية علمانية تنادي بالشعار المعروف (فصل الدين عن الدولة)، فهي مدرسة خاصة يشرف عليها جماعة الآباء البيض فكان لها تواجد في القطر الجزائري بشكل عام كما كان لها تواجد في الجنوب الغربي، مركزها في المنطقة كان في عين الصفراء و بعض فروعها منتشرة في منطقة بشار و بني عباس .

إن اهتمام السلطات الاستعمارية بقطاع التعليم في بشار والقنيطرة يعود أساسا إلى إقامة تعليم محترف لتخريج الإطارات التي ستدعم الشركات والمؤسسات التي تعمل بالمنطقة، أي خدمة لأغراضها الاقتصادية من جهة، وترقية التعليم الأوربي من جهة أخرى، وفي المقابل حصر تعليم الجزائريين في نطاق محدود وفق ما تريده المصالح الاستعمارية، ومهما يكن فإن هذا التعليم الاستعماري صنع نخبة مثقفة باللغة الفرنسية.

1 - نشأة مراكز التعليم المهني بالمنطقة:**أولا: منطقة العين الصفراء:**

إن مدارس الآباء البيض أحدثت صراعا بين أهالي منطقة الجنوب الغربي وفرنسا بسبب أهدافهم الرامية إلى غايتين أساسيتين: غزو الأرض وغزو الأفكار أسند الهدف الثاني إلى رجال الدين كما اصطحب الغزاة معهم رجال الدين حتى يكتمل غزوهم العسكري بالغزو الفكري فصرح أحد رجال الكنيسة قائلا: «إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا ونأمل أن تنبع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع».¹

تجسيدا لتلك الأهداف جاءت زيارة المفتش العام لتعليم الأهالي إلى منطقة العين الصفراء و بشار في بداية الأربعينيات القرن الماضي وحددت الأهداف المتوخاة من خلال تصريح أحد

الفرنسيين «فيلمان» Fellman فرنسا بعد احتلالها للمنطقة بدأت تفكر في إنشاء مدارس تخص النشاط الفلاحي لفرض سيطرتها على المنطقة: أن رئيس البلدية المختلطة بالعين الصفراء أرسل طلب تكوين قسم فلاحي إلى مفتش أكاديمية وهران بالتعليم الفلاحي غرب الجزائر يطلب منه فتح هذا القسم في 1 أكتوبر 1953 وضرورة تقديم له المعدات اللازمة للتعليم المتطور وتبيان ساحة الأرض لتصميم بناية مع تقويمه للنفقات.

لقد تجاوب مفتش أكاديمية وهران مع رئيس البلدية المختلطة بإعطائه معلومات خاصة بالمساحة لفتح قسم فلاحي في العين الصفراء من خلال الوثيقة يلاحظ الإسراع في عملية فتحه من خلال طلب الإعانة المالية الملحة لتشييده وإعطاء نماذج على المعدات الضرورية لفتح المدرسة: طاولة، سبورة، مكتب... إلخ، علما أن أول مدرسة للذكور أنشأت بالعين الصفراء بقرار 08 ماي 1888، كما أنشأت مدرسة للبنات بقرار 10 أكتوبر 1894 وفي 04 نوفمبر 1905 فتح قسم ثاني للبنين بعدما فتح الثاني للبنات في أكتوبر 1903.

إن أهداف فرنسا من إنشائها لمثل هذه المدارس هي أضعاف عملية المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، واعتمد عليها كوسيلة لنشر الثقافة الجديدة محل الثقافة التقليدية من جهة وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي من جهة أخرى، كما أوكلت مهمة التدريس والتعليم لمعلمين فرنسيين مدنيين. فالفلاحون الجزائريون الذين يشكلون الفئة الواسعة أصبحوا ضحايا الإجراءات الفرنسية. كما أن الهدف من فتح المدارس الفرنسية وتبديل لغة بلغة، وديننا بدين، وعادات بعبادات، وليس الهدف منها تكوين عقولا مثل: عقل فولتير أو مونتسكيو أو جون جاك روسو وقد عملت على نشر الجهل والامية حتى تتسلل إلى أغراضها العدوانية، ووصف الجزائريين بأنهم شعب همجي جاهل. ويكذب هذا الزعم قول أحد أعضاء مجلس الشيوخ أوجين كومب: (مما لا شك فيه هو أن التعليم في الجزائر كان قبل الاحتلال الفرنسي أكثر انتشارا وأحسن حالا مما وصل إليه الآن)،² الأمر الذي لم يكن يرضي السلطات الفرنسية في الجزائر.

هذا عن التعليم الرسمي أما المدارس التابعة للآباء البيض فقد تم فتح أول مدرسة بالعين الصفراء سنة 1903 تزامنا مع تعيين ليوتي Lyautey على قيادة الإقليم ، فقد كان للكنيسة الكاثوليكية ومعهد لا فيجري الخيري الذي كان بجوار الكنيسة وسط المدينة إشعاع روحي لا يقبل النقاش.

تمكن الآباء البيض التقرب من الأهالي وكسب محبتهم وثقتهم فأكملوا بذلك الدور الأساسي للتربية والتعليم للمدارس اللائكية الأخرى للبنات والبنين، وإنشاء مراكز للتكوين المهني عددها اثنتين تحمل تخصصات مختلفة كالكهرباء والميكانيك... تكون أكثر من 250 تلميذا بينما تشرف الأخوات البيض على تكوين 240 فتاة في ورشات حرفية متخصصة في نسيج وإنتاج الزرابي المغربية والبربرية.

كان رجال الدين تابعين لأسقفية الصحراء على رأسها الأسقفى Gneurmeurche ومن الآباء البيض الذين نشطوا وكان لهم باع طويل بالملحقة نذكر الأب «هرمل» Harmel نقيب سابق في القوات البحرية والأب «دلبس» Delbes رئيس خط السكك الحديدية.

شهدت منطقة العين الصفراء التعليم الخاص بمعهد لافيغري ويشمل ما يلي:

عدد الأوروبيين 151 بينما بلغ عدد الجزائريين 125.

مركز الإعلان به صنفين أولا التحريك يضم 4 أوروبيين و 10 جزائريين، وثانيا كهربائي به 12 جزائريين به معهد ومركز الإعلان أما الأول به 88 تلميذ: 80 أوروبيين و 8 جزائريين أما الثاني به 17 تلميذ: 4 أوروبيين و 13 جزائريين.

كما نذكر المبالغ المالية سواء إلى قس رجل دين في مجتمع إفريقي راقى الآباء البيض بمعهد لافيغري في العين الصفراء (وهران): 135.17 فرنك الجزائر أو إلى رجل دين في مجتمع إفريقي مقتصد الآباء البيض المقتصدين بالعين الصفراء (وهران) 40.60 فرنك الجزائر.³

ثانيا: منطقة بشار:

هذا فيما يخص تأسيس مدرسة الآباء البيض بصفة عامة أما عن الجنوب الغربي منطقة بشار فتم فتح أول مدرسة 1936.

وكشهادة حية عن معالم نشاطات الآباء البيض بمنطقة بشار أخذنا شهادة السيد «آغا شريف» الذي ذكر لنا سنة بناء مركز التكوين في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وكان المنظمة تقوم بعدة أدوار أهمها بناء مراكز التكوين المتعدد الاختصاصات، ولم يكن يقتصر على الذكور فقط بل شمل أيضا الإناث من خلال تعليمهن فن الخياطة والطبخ، وكانت تشرف عليه الأخوات البيض، والغرض من تكوين هؤلاء الشباب بعد تخرجهم هو توظيفهم في إكمال مشروع السكة الحديدية واستغلالهم في مناجم الفحم بالقنادسة.⁴

ويذكر التقرير ما يلي:

(المؤسسة التعليمية الوحيدة للآباء البيض في العين الصفراء هي الملجأ المتوفر حاليا، وهذا غير كاف أمام التزايد السكاني السريع، علما بأن المؤسسات التعليمية في الشمال بعيدة عن أقاليم الجنوب، ولا يمكن لأبناء الأوربيين التنقل المستمر، أو رؤية ذويهم في الأعياد والعطل، ولذا ينبغي أن تحظى عائلات الجنوب بنفس امتيازات عائلات الشمال).

2 - انتشار مراكزها:

مدرسة الآباء البيض تسمى مدرسة التكوين المهني تكفل بها الآباء البيض في منطقة بشار ومن الآباء المشهورين: الأب دستي، الأب كروتوف، Père Krotoff بيار اندري، pierre André المدير كوتريس cotresse بعض الأساتذة منهم من سهر على تكوين الشباب الذين طردوا من المدارس أو لمواصلة دراستهم التعليمية كتعليم حرف معينة بالنسبة للإناث: الخياطة، الطرز... حرف يدوية أخرى.

فالآباء البيض الذين كانوا موظفين في الإدارات التالية: التربية، العدالة.. أو ينتمون إلى الوحدات المتعددة المقيمة في مدينة بشار ذات الطابع العسكري.⁵

من بين مدارس الآباء البيض في بشار مدرسة كانت موجودة قرب الحديقة العمومية وحاليا هي مركز التكوين المهني، وكانت مدرسة لتكوين عمال متخصصين في: الرسم الهندسي، الميكانيك العمومي، كهرباء السيارات، كهرباء العمارات، وفي حالة تفوق المتربص يوجه إلى مقاطعات أخرى لإتمام دراستهم أو التعمق في التخصص نفسه، أما الغير المتفوقين ممن لديهم مستوى متوسط يوجهون إلى البناء و السياقة بعد نيل الشهادة المهنية، ويوجه المتربص إلى العمل في شركة من الشركات الفرنسية مثل شركة سكك الحديد، والأشغال العمومية بصفة عامة أو إلى الخدمة عند الجيش الفرنسي.

يشرف على هذه المدارس الآباء البيض بحيث يكون المدير منهم، ومن يقوم بتدريس هم عساكر فرنسيين، ويعمل المشرفون على المركز لإيجاد مناصب عمل للمتربين. وكانت مدرسة الآباء البيض الخاصة بالذكر داخلية « الإقامة، الأكل، النوم »، ويذهب المتربص إلى بيته لرؤية عائلته يومي السبت والأحد.

أما مدارس الآباء البيض الخاصة بالإناث فكانت تشرف عليها الأخوات وهي متواجدة في بشار والقنادسة أيضا و حاليا هي المدرسة الابتدائية « عبد المالك براتخي » كانت عبارة عن روضة للأطفال بالإضافة إلى تعليم الفتيات أعمال يدوية مثل: الخياطة ، الطرز وبعض المهن الأخرى... إلخ ،

و كان الإقبال عليها محتشما من قبل العائلات، وهذا يعود للحياء وعدم الظهور أمام الفرنسيين.

وفي سنة 1951 فتح مركز صحراوي للتكوين المتخصص ببشار مسيرا من طرف الكنيسة تحت إشراف القس «كروتوف» Père Krotoff وبعدها بسنوات فتح مركز التعليم التقني البلدي ومتوسطة التعليم العام فتحت سنة 1955 م من طرف السيدة ليوبرت Wriotte .

وكانت تقوم بعدة أدوار أهمها بناء مراكز التكوين المتعدد المهني الاختصاصات، وكان من أبرزها اختصاص البناء والميكانيك والخرابة والتلحيم، وكانت مدة التربص تستغرق سنتين بعد مرور ستة أشهر تسلم شهادة للمتربص من طرف الإدارة، و يحتوي المركز على إقامة داخلية لاستقبال الطلاب من المناطق المجاورة وتقع الداخلية بالقرب من واد بشار، كما يوجد مركز ثان للآباء البيض قرب محطة السكة الحديدية الذي يقوم بتكوين الطلبة في التخصصات السالفة الذكر.

وكنموذج لمنطقة بشار نجد نشاط القس «كروتوف» من خلال السيرة الذاتية لكتاب محمد طاب والذي كان أحد المتربصين والشاهد على أعمال القس كروتوف، حيث ذكر في سيرته بشكل عام مسار تكوين المتربصين الذي كانت تشرف عليه كنيسة بشار، ودخل محمد طاب كمتربص في المركز منذ سنة 1956 إلى غاية 1958، ووصل عدد المتربصين تخصص خراطة 12 فردا، ففي السنة الأولى يتعلمون المبادئ الأولية للخرابة (عملية البرد) ومع مرور الوقت أصبح محترفا، ولإتقان عملية الخراطة (الأداة أو الشكل الذي يتم صنعه) فيقومون بمسحه بالطباشير ثم وضعها على الرخام لإظهار المناطق الغير مستوية في الخراطة وأثناء التربص تعلموا التلحيم وصهر الحديد. وسمح لهم بصناعة سياج حديدي «لمدرجات الملعب»،⁶ الذي كان تابعا للآباء البيض، وتمكن من الانتقال إلى السنة الثانية سوى ثلاثة متربصين من أصل اثني عشر، وقبل نهاية السنة الثانية أنهوا البرنامج قبل ثلاثة أشهر وطلب المتربصون من الأب كروتوف تعليمهم

الجبر، وعن الحديث عن المعاملة التي كان يتعامل بها مع المتربين حيث يعاملهم بقسوة في حالة الخطأ، ويقدم مساعدات عديدة لطلبته.

يتوجه الأوروبيون الصغار ابتداء من السن 13 إلى منطقة بشار لمواصلة الدراسة على مستوى مختلف الأقسام الخاصة و أقل تخصصا يسيرها الآباء البيض بشار.

فتح بشار مركز صحراوي للتكوين المتخصص منذ سنة 1951 من طرف القس كروتوف Crotove لأبناء عمال المناجم، وبالنسبة للتلاميذ الذين لا يعمل أولياؤهم بالمناجم يبقون من 4 سنوات إلى 5 سنوات في قسم كبير بإشراف المدير، أما الناجحون منهم فيواصلون السنة السادسة بالمراسلة.

ويمكث التلاميذ في قسم مدير المدرسة من الأقسام المتوسطة الأولى إلى السنة الثانية الثانوي ثم يواصلون كلهم تقريبا في مدارس التكوين المهني تحت إشراف الآباء البيض وهذا كان من سنة 1951 إلى سنة 1955.

أصبحت المدرسة منذ سنة 1956 مؤسسة بارزة، و في كل سنة تسجل ما بين 120 إلى 150 تلميذ، إضافة إلى فتح أقسام جديدة، المدارس الرسمية الدينية كذلك كانت لها علاقة مباشرة مع السلطات الإدارية العسكرية بهدف تغطية كل النقائص المطروحة وكان التلاميذ بشكل دائم تحت مراقبة الصحة المدرسية المتكفلة بوضعيتهم الصحية.

3 - مناهجها التعليمية

تتميز الدراسة في هذه المراكز التنصيرية بالخصائص التالية:

- الدراسة فيها دينية بحتة موجهة إلى خدمة المخططات التنصيرية، فلم تهتم إطلاقا بالتعليم العلمي التجريبي الذي يساعد على تقدم الأمم ونهضتها وإنما ركزت كل جهودها على التعليم النظري المجرد.

21 يقول هنري جب: «إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية وهذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراد مسيحيين وشعوب مسيحية لكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض و النبات وخيرة الجراحين والأطباء.. فإننا لا نتردد في أن نقول أن

رسالة مثل هذه قد خرجت عن الدين التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض مثل هذا العمل لا يمكن أن تقوم به الجامعات التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فحسب⁷.

ولذلك كانت هذه المدارس تجبر طلابها على دخول الكنيسة يوميا وعلى الاستماع إلى دروس التوراة والإنجيل حتى ولو كانوا مسلمين، وحينما احتج طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت من المسلمين على دخولهم أصدرت الجامعة منشورا قالت فيه «أن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية وكل هذا فعله هؤلاء ليجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده.

وتتضح أهداف التعليم الفرنسي بالجنوب الغربي على النحو التالي:⁸

بالنسبة للجالية الأوربية	بالنسبة للسكان
أ- فتح المدارس جاء كضرورة لتعليم أبناء العائلات الأوربية المتواجدة في الإقليم الجنوبي من أبناء الضباط، المهندسين، عمال السكة الحديدية.	أ- أهم إنجاز هو مضاعفة الجهود لتعليم وتربية أكبر عدد ممكن من الأطفال بوسائل تجعلهم يكتفون ويكتشفون ويحبون الحضارة الغربية.
ب- توفير أكبر عدد من الأيدي العاملة بعد تكوينها لتشغيلها في ورشات السكة الحديدية.	ب- يجب حمل المسلمين على الاعتقاد تدريجيا بأن المدرسة الفرنسية نعمة وذات فائدة عظيمة وليست أمر إجباري أو إلزامي .
ج- إنشاء مراكز التكوين يعود بالفائدة على السلطات المحلية لاستغلال الثروات الطبيعية التي تزرع بها المنطقة.	ج- تكييف مناهجنا التعليمية مع عقلية هؤلاء وتفكيرهم وعاداتهم... إلى أن تتمكن من إدماجهم في مجتمعنا وحضارتنا.
د- استقرار الجالية الأوربية لأنها كثيرا ما تجبر على الانفصال عن أطفالها من أجل متابعة دراستهم	

- ومناهج الدراسة كلها باللغة الفرنسية و كانت تدرس المواد التالية :

رياضيات، قواعد اللغة الفرنسية، التاريخ والجغرافيا والاختصاص المختار من قبل المتربص أو الطالب.

أوقات التدريس: يستيقظ الطالب 6:00 صباحا ينظف المكان حتى الساعة 6:30 بعدها

يتناول الطالب وجبة فطور الصباح.

وفي الساعة 7:00 إلى 9:00 يدرس المتربص داخل القسم ما يريد أن يتعلمه في مجال اختصاصه النظري.

أما عند الساعة 9:00 إلى 12:00 ينتقل المتربص إلى مكان التطبيق أو الورشة ومن 12:00 إلى 14:00 وقت تناول وجبة الغداء وراحة، وعند الساعة 14:00 إلى 17:00 يرجع المتربص إلى ورشة العمل أو التطبيق يكمل تطبيقه.

بعد الانتهاء من التطبيق يرجع المتربص إلى الإقامة على 18:00 يتناول اللبحة في مقر الإقامة وبعد ذلك يتوجه الطالب عند 18:15 إلى القسم إلى لمطالعة ما تعلمه في الصباح في الورشة وينتهي الدرس عند ساعة 19:15 بعد ذلك الطالب هو حر حتى وقت العشاء والنوم تغلق الإقامة على الساعة 21:00

فكان «القس» يلقي درسا في الأسبوع حول الأخلاق الإنسانية مثال على ذلك: يعلم المتربص على ضرورة الانتباه عند قطع الطريق الالتفاف إلى اليمين ثم اليسار وقطع الطريق يلقي الأب على المتربصين درس كل مرة في الأسبوع.

لقد وضعت تعاليم الديانة المسيحية في البرامج التعليمية حيث كان هدف المبشرين تنصير الطلبة لذلك فإن هذه البرامج تمثل إحدى الوسائل التي ستقود المدارس إلى تحقيق أهدافها بتنصير المجتمعات والسيطرة فكريا وعقائديا بعد أن تمت السيطرة على أراضيهم.

4 - الأهداف التي كانت ترمي إليها هي:

الإغراء و ذلك بجلب الطلبة إليها و تقديم الهدايا لهم، كالمواد الغذائية بمعنى المساعدات المادية.

نزع هويتهم وهذا عن طريق تقديم مراسلات بين تلاميذ سكان منطقة بشار و بنات في خارج الجزائر كفرنسا، كندا... وغيرها بهدف تشجيع هجرة الأهالي.

نشر المسيحية عن طريق منشورات و مراسلات كان يقدمونها لتعليم التلاميذ الديانة، هذه المنشورات كانت تقدم من مركز دين مقره بفرنسا، كما كانت تنظم رحلات خاصة للأطفال والمتربصين وهذا بالسفر إلى فرنسا لتبهرهم و تجذبهم إليها.

كما لا يمكننا أن ننسى المتربصين الذين أخذوا شهادة مهنية يوجهون إلى عالم الشغل وهذا لاستغلالهم كأيدي عاملة رخيصة .

و في مقدمة أهداف التعليم الذي تؤسس الدولة المستعمرة مؤسساته أو تشرف على مناهجها وبرامجها بسلطة إدارتها الاستعمارية، تربية أجيال من أبناء المسلمين تدين بالولاء والطاعة للمستعمرين حكومة وشعبا وتنسلخ عن ولائها للإسلام وولائها لأمتها الإسلامية، وتقتبس المفاهيم والعادات الغربية وكل أنواع السلوك التي يأتي بها المستعمرون، وتتقبل مجتمعاتها الأنظمة التي تزينها لها الدوائر الاستعمارية أو تفرضها عليها.⁹

ومن هنا يظهر لنا جليا أهداف التعليم التنصيري المتمثلة فيما يلي:

ومن هذه الأساليب الغير مباشرة في تطعيم البرامج التعليمية بالمسيحية ما يلي:

- استخدام نصوص مستخرجة من الإنجيل في دروس تقدم للتلاميذ أو فروض يطلب منهم إنجازها يقول «بورجوا» (إن أغلب الدروس التي يقدمونها للتلاميذ مأخوذة من الكتاب المقدس يظهر منها الطابع الديني في كل سطر).

- تدريس مادة تاريخ الديانة المسيحية للتلاميذ (تاريخها في إفريقيا)، وقد بدأ هذا بأمر من الكاردينال لافيغري الذي أعطى تعليماته لتقديم هذه الدروس للأطفال الجزائريين ابتداء من أواخر 1886 م وذلك على شكل حصص تاريخية، وعن هذا يقول «تبكي» (إن لافيغري أوصى مبشريه قائلا يجب أن تحدثوهم عن تاريخ الدين والكنيسة وبشكل تلقائي، وسيعرفون الكثير عن معتقداتنا وديانتنا عندما نعلمهم هذا التاريخ بشكل أفضل مما لو يحفظون دروس الديانة المسيحية عن ظهر قلب).

- قيام المنصر «تولوت» بتكليف من لافيغري بوضع مطبوعة للتربية الدينية باللغة العربية جمع فيها سور من القرآن ونصوص من الإنجيل، تتناول مواضيع مشتركة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية.

- اختتام العمل الدراسي اليومي بتراويل دينية.¹⁰

أما برامج التعليم فتكون بالفرنسية بدل العربية، والهدف من ذلك إبعاد التلاميذ عن اللغة

العربية والدين الإسلامي، كما تم تطبيق مخطط الكاردينال لافيغري لنشر النصرانية في الجزائر على النحو التالي:

1- محاربة القرآن واعتبار اللغة العربية لغة فلكلورية أو لهجة محلية،

2- إيهام السكان بأنهم من أصل روماني باختلاق الشبه بين آثار جنوب وشمال البحر المتوسط.

وبهذا يتسنى لهذا الكاردينال ولمن يأتي بعده من المنصرين أن ينشر المسيحية في الجزائر ويضربوا وحدة الشعب ومقومات الشخصية الوطنية.

الهوامش:

- 1- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط 1، شركة دار الأمة للنشر الجزائر، 1999، ص 66
- 2- بسام العسلي، جهاد الشعب الجزائري ج 3، دار العزة والكرامة الجزائر، 2009، ص 591.
- Archives Wilaya de Naama, télégramme, officiel, N° 69. L'Administrateur Ain SEFRA, DU 3-22/03/1955.
- 4- شهادة آغا شريف، طالب سابق بمعهد التكوين التابع للآباء البيض، وهو متقاعد الآن.
- Jacob Oliel les juifs de Colomb Bechar et des villages de la Saoura 1903/1962 -Auteur - 5-éditeur, 2003, p 33.
- STADE DES PERES BLANC 6-
- 7 - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، غزو في الصميم، سلسلة أعداء الإسلام، ج 5، ط 4، 1996، دار القلم، دمشق/ دار الشامية بيروت، ص 25.
- Archives Commune Kenadsa, Correspondance N° 3358 du 11/12/1941, Alger - 8
- 9- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، غزو في الصميم، المرجع السابق، ص 30.27.
- 10- محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر (-1830 1904) دراسة تاريخية تحليلية، مطبعة دحلب، الجزائر، 2009، ص 144.143.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر باللغة العربية:

الشهادات:

شهادة آغا شريف، طالب سابق بمعهد التكوين التابع للآباء البيض، وهو متقاعد الآن.

المصادر باللغة الأجنبية:

- Archives Wilaya de Naama, télégramme, officiel, N° 69. L'Administrateur Ain SEFRA, DU 22/03/1955.

- Archives Commune Kenadsa, Correspondance N° 3358 du 11/12/1941, Alger.

- Jacob Oliel, les juifs de Colomb Bechar et des villages de la Saoura 1903/1962 -Auteur éditeur, 2003.

المراجع باللغة العربية:

- بسام العسلي، جهاد الشعب الجزائري ج 3، دار العزة والكرامة، الجزائر، 2009.
- حسين رايس: بعض جذور الإشكالية الثقافية حاليا بالمغرب العربي، شؤون عربية، العدد 30.
- عبد الجليل التميمي: التفكير الديني والبشري، المجلة المغربية التاريخية، العدد 1، 1974.
- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، غزو في الصميم، سلسلة أعداء الإسلام، ج 5، ط 4، دار القلم، دمشق/ دار الشامية بيروت 1996.
- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، شركة دار الأمة للنشر، الجزائر، 1999.
- وعلي محمد الطاهر ، التعليم التبشيري في الجزائر (-1830 1904) دراسة تاريخية تحليلية، مطبعة دحلب، الجزائر، 2009.

طلبة جامع الزيتونة والإصلاح بمنطقة تبسة في النصف الأول

من القرن العشرين

سليم بعلوج – جامعة سيدي بلعباس

مقدمة

تعد فترة النصف الأول من القرن العشرين المرحلة التي برز فيها التلاحم العلمي الثقافي بين الجزائر وتونس، حيث كان جامع الزيتونة قبلة لعدد كبير من الجزائريين عموماً، والراغبين في العلم من منطقة تبسة خصوصاً، إذ كان يستهوي طلبة العلم، كما كان للأساتذة الذين قدموا من مختلف مناطق تونس للتدريس بنواحي تبسة، دور كبير في تعريف السكان بجامع الزيتونة، وكان من هؤلاء الأساتذة البشير صفية⁽¹⁾ إضافة إلى الأستاذ عمار الصبيحي الذي حضر من قفصة إلى ناحية بئر العاتر⁽²⁾ وكذا الطاهر الحداد أحد المدرسين بنقطة الذي حضر إلى ناحية الشريعة⁽³⁾. فإلى أي مدى استطاع طلبة منطقة تبسة الذين درسوا بجامع الزيتونة تغيير الواقع المحلي بتبسة بعد عودتهم من تونس؟ ومن هم أهم الطلبة الذين تكوّنوا بالزيتونة وساهموا في عملية الإصلاح بمنطقة تبسة؟ وما هي أهم النشاطات التي قاموا بها؟ وهل كان لجهودهم أثر يذكر؟

أولاً: أهم الطلبة الزيتونيين: كان الطلبة الجزائريون الراغبون في تعلم مختلف العلوم والارتقاء إلى أعلى مراحل التعليم، يتوجهون إلى الأقطار التي بها المعاهد الإسلامية الكبرى⁽⁴⁾ المؤهلة لذلك، حتى يتمكنوا من تكوين ذواتهم ونقل هذه الخبرات لغيرهم بعد العودة. ومن هذه المعاهد: جامع الزيتونة بتونس، الذي يعتبر أحد أقدم المعاهد التعليمية العربية حمل لواء الثقافة العربية «ما لا يقل عن اثني عشرة قرناً ونصف وحافظ على المقومات الحضارية لمنطقة المغرب العربي وقد استطاع أن ينشئ جسر دائم بين التونسيين والجزائريين»⁽⁵⁾. ولقرب جامع الزيتونة من منطقة تبسة، فقد التحق للتعلم به عدد كبير من الطلبة. ومن هؤلاء من لم يتمكن من العودة مثل أحمد هوام (1913-1942) الذي التحق به سنة 1935، وشغل منصب مستشار في الهيئة التنفيذية لجمعية الطلبة الجزائريين بتونس⁽⁶⁾. لم يعد إلى الجزائر لاستشهاده في الحرب العالمية الثانية بمنطقة مقرين بتونس إثر غارة جوية⁽⁷⁾. أما الذين درسوا بجامع الزيتونة وتمكنوا من العودة والمساهمة في عملية الإصلاح بالمنطقة نذكر منهم: علي هوام، إبراهيم مزهودي محمد الصالح الجلاي، مصطفى زمري، حامد روابحية، العيد مطروح، معمر

عليه، الشاذلي المكي، عبد الحفيظ بدري، محمد الشبوكي⁽⁸⁾، حسين خليف⁽⁹⁾ الحبيب فارس⁽¹⁰⁾،
العربي التبسي⁽¹¹⁾، والطاهر سعدي حراث⁽¹²⁾.

ظل جامع الزيتونة يستقبل الطلبة إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، كان الطلبة في هذه الفترة يدرسون عند خيرة الأساتذة⁽¹³⁾ ويتلقون مختلف العلوم وهي: التفسير، والحديث، وعلم الكلام، والفقه، وأصول الفقه، والنحو، والصرف والبلاغة، والعروض، والأدب، إضافة إلى الحساب لضرورته في علم المواريث ومبادئ علم الفلك، لمعرفة مطالع الأهلة ومواقيت الصلاة. في هذا الجو العلمي أخبر الطلبة الزيتونيون الشيخ محمد الشبوكي، بأن سبب هجرتهم إلى تونس إنما للتزود بسلح العلم من جامع الزيتونة الذي وصفوه بالمنقذ من الضلال، وأن الغاية بعد ذلك هي العودة إلى الجزائر لخدمتها حاملين لواء لغة قرآنها⁽¹⁴⁾.

كان من الطلبة التبسيين من لم يكمل دراسته بجامع الزيتونة لظروف اجتماعية حالت دون مواصلة تعلمه، وبالتالي لم يحصل منها على شهادة ومن هؤلاء علي مخازنية⁽¹⁵⁾، وعبد الحفيظ بدري⁽¹⁶⁾، واللذين رغم ذلك، تحصلا على تكوين مكّنهما من تعليم غيرهم والنشاط في مختلف المجالات عندما عادا واستقرا بالمنطقة. وكان من الطلبة من تحصل منه على شهادة أو أكثر. فقد تحصل على شهادة العالمية سنة 1925 جلالي محمد الصالح⁽¹⁷⁾ أما شهادة التطويغ فقد كان من الأوائل الذين تحصلوا عليها محمد الطيب باشا⁽¹⁸⁾ والعربي التبسي⁽¹⁹⁾، وفي سنة 1939 تحصل عليها الحبيب فارس⁽²⁰⁾ وفي سنة 1942 تحصل عليها محمد الشبوكي⁽²¹⁾ أما سنة 1951 فقد تحصل على ذات الشهادة حسين خليف⁽²²⁾.

ثانيا: أهم نشاطاتهم: عرفت منطقة تبسة كغيرها من المناطق في الجزائر أعلاما برزوا في العديد من المجالات، حيث كان لهم نشاط واسع في مختلف الميادين سواء في التعليم أو بالتوازي الثقافية والفنية أو الكتابة في الصحف.

1 الكتابة في الجرائد والمجلات:

تعد الجرائد والمجلات مدرسة عمومية فهي المنبر الذي من خلاله يمكن تبليغ الأفكار، فالدور الذي تؤديه هو: «الاهتمام بالجماعات البشرية وتثقيفها وتسليةها وتناقل أخبارها ووصف نشاطها وتوجيهها إلى ما فيه خيرها ومنفعتها»⁽²³⁾. كان للطلبة الزيتونيين دور في إثراء مختلف الجرائد بما كانوا يكتبونه من مقالات وقصائد في جميع المجالات.

حيث كتب الشاذلي المكي مقالا بيّن فيه إقبال الجزائريين المتزايد على جامع الزيتونة⁽²⁴⁾. أما محمد الشبوكي فقد نشر قصيدة وجّهها بالخصوص إلى شباب قرية الشريعة دعاهم فيها لعدم الاستسلام للعيش المهين، والاستشهاد في سبيل تحقيق الكرامة⁽²⁵⁾. كما كتب مقالا تحدث فيه عن تربية النشء⁽²⁶⁾، في حين نشر علي هوام بن الشريف قصيدة حول التعليم⁽²⁷⁾، وكتب مقالا ذكر فيه الحركية التي يعيشها أولاد سيدي يحيى⁽²⁸⁾ بمنطقة تبسة من خلال نشاط رجال الإصلاح⁽²⁹⁾. وكتب مصطفى زمري مقالا بيّن فيه أن أهل تبسة كانوا سبّاقين في الاستجابة للدعوة الإصلاحية التي ينشدها رجال الإصلاح⁽³⁰⁾. وكتب العربي التبسي مقالا تحدّث فيه عن افتقار الجزائر لمؤسسة شبيهة بالقرويين والزيتونة والأزهر، جراء ما قام به الاستعمار الفرنسي من اغتصاب للأوقاف وتخريب للمساجد، حتى صار في الجزائر تعليم القرآن من الجرائم⁽³¹⁾. أما العيد مطروح فقد كتب مقالا عن أمانة التعليم بالنسبة للمعلم⁽³²⁾. ونشر إبراهيم روابحية مقالا بيّن فيه أن عيد الفطر تغيرت النظرة إليه في تبسة، فبعدما كان فرصة ملء البطون أصبح يوم شكر للنعمة على تأدية الواجب⁽³³⁾.

2 تأسيس الجمعيات والنوادي والنشاط فيها:

عرفت تبسة تأسيس أول جمعية بها هي «الجمعية الخيرية»⁽³⁴⁾ وذلك في أواخر الحرب العالمية الأولى، والتي كانت أهدافها تتعلق بحل الخلافات والنزاعات بين العائلات⁽³⁵⁾. وعند عودة الطلبة الزيتونيين من تونس، بدأ نشاطهم الجماعي يبرز في تأسيس الجمعيات والنوادي الثقافية والفنية. ففي سنة 1932 تأسست جمعية تهذيب البنين والبنات بتبسة، وكان الهدف من إنشائها إحياء السنّة ومحاربة البدعة، ونشر التعليم ومحاربة الجهل والامية⁽³⁶⁾. وعرفت أول رئيس لها السيد حواس بن اسماعيل، ثم خلفه سنة 1938 الشيخ الصادق بوذراع⁽³⁷⁾، وفي سنة 1952 انتخب لرئاستها الشيخ العيد مطروح⁽³⁸⁾. وفي سنة 1937 تأسس بتبسة نادي الشبان المسلمين⁽³⁹⁾، وكان الغرض منه التغلغل في وسط الشبان⁽⁴⁰⁾. حيث وصفه الشيخ إبراهيم مزهودي⁽⁴¹⁾ في قصيدة له، بأنه صرح علم وبرّ وتقوى، وأنه مكمل لكل من المسجد الحر⁽⁴²⁾، ومدرسة تهذيب البنين والبنات بمدينة تبسة⁽⁴³⁾. عرف النادي نشاطات مكثفة، كإلقاء المحاضرات وإقامة التظاهرات الثقافية والفنية، وإحياء أيام وليالي الأعياد⁽⁴⁴⁾. فالنادي من خلال مختلف النشاطات التي كانت تقام به في كل المناسبات، يرجع له الفضل الكبير في تنشيط الحركة الإصلاحية والنهضة بتبسة⁽⁴⁵⁾ مع شريحة الشباب، خاصة الذين لم تضمهم المدارس والمساجد، لأن النادي يعتبر من أهم الوسائل لنشر الوعي والثقافة بين الشباب⁽⁴⁶⁾. وفي سنة 1938 تأسست

بتبسة جمعية الوتر الجزائري⁽⁴⁷⁾ الفنية التي نشط بها عدد من طلبة جامع الزيتونة وكان منهم السيد مصطفى زمري⁽⁴⁸⁾. ومن غاياتها تقديم الفن الطاهر البديل، بإحياء الموسيقى العربية، وتمثيل الروايات في مختلف المناسبات⁽⁴⁹⁾، لتهذيب وغرس الفضائل في الناس، لأن الأثر الذي تركه رسالة المسرح يبرز: «في تقويم الأخلاق وزرع المكارم، وتوجيه النفوس إلى كل الأغراض الشريفة وكل الأهداف النبيلة»⁽⁵⁰⁾.

في شهر جويلية لسنة 1937 دعا مجموعة من المصلحين من قرية الشريعة الشيخ العربي التبسي لزيارتها، قصد تكوين شعبة لجمعية العلماء المسلمين بها، فزار الشيخ القرية وحث أبناءها على العمل في إطار منظم وجماعي، لأنه السبيل الذي من خلاله يستطيع الشعب أداء رسالته وصنع تاريخه⁽⁵¹⁾. وقد قام الحاضرون بانتخاب المجلس الإداري لها⁽⁵²⁾ الذي سهر على القيام بالعمل الاصلاحى بهذه القرية.

كان بعض مصلحي قرية العينات المتأثرين بالنهضة التي عرفتها منطقة تبسة، يعملون على نشر الفضيلة بقريتهم، من خلال توجيه العامة من الناس وتوعيتهم وإرشادهم، غير أن ذلك لم يكن في إطار منظم. وقد استمر ذلك لمدة سنوات، حيث اهتموا إلى العمل الجماعي، فسعوا إلى تكوين جمعية⁽⁵³⁾. وفي مطلع سنة 1938 حضر كل من العربي التبسي ومصطفى زمري أول اجتماع أقامه هؤلاء المصلحون، حيث تمّ فيه انتخاب مكتب لشعبة جمعية العلماء المسلمين بالقرية⁽⁵⁴⁾. وفي سنة 1938 تأسس بتبسة فوج الأمل للكشافة الإسلامية الجزائرية⁽⁵⁵⁾ وقد كان للطلبة الزيتونيين دور كبير في مختلف النشاطات التي أقامها الفوج سواء محليا من خلال الخرجات والمخيمات⁽⁵⁶⁾ أو وطنيا في إطار المشاركة في مختلف المؤتمرات⁽⁵⁷⁾. ونظرا للحركة التي عرفتها بعض المدن والقرى من تأسيس للمدارس، والمساجد، والجمعيات، تأثر بعض رجال بلدية مرسط⁽⁵⁸⁾، حيث حاول الأخضر هوام تنشيط العمل بها⁽⁵⁹⁾ من خلال إحيائه لمختلف المناسبات لإذكاء الشعور بالمسؤولية لدى سكانها.

3 التعليم بالمدارس الحرة

حاول رجال الإصلاح بذل جميع مجهوداتهم في نشر التعليم والتهذيب من خلال إنشاء المدارس الحرة على نظام حديث⁽⁶⁰⁾، وقد عرفت منطقة تبسة حركة تعليمية كبيرة قام بها الطلبة الزيتونيين في مختلف المدارس التي تم إنشاؤها، وإن بلدا كمنطقة تبسة «رجالهم يمثلون العز الشامخ والهمم العالية لجدير بوجود حركة علمية لتغذية الشبيبة المقبلة بلبان التعليم

وتعتبر بناية الحاج حواس⁽⁶²⁾ بتبسة أول مكان تم فيه التعليم من طرف خريجي الزيتونة بطريقة حديثة، بداية من سنة 1929 حيث درّس بها كل من الشيخ العربي التبسي، الشاذلي المكي وعبد الحفيظ بدري⁽⁶³⁾. وفي سنة 1933 تنقل الشيخ العربي التبسي إلى مدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة، وكان من معلميهما عليّة معمر⁽⁶⁴⁾ الذي أوكلت له مهمّة تدريس القرآن، فيما قام بتدريس المواد العلمية السّادة العيد مطروح ومحمد الشّبوكي⁽⁶⁵⁾ كما درّس بها مختلف الطلبة الزيتونيين وهم: إبراهيم مزهودي، مصطفى زمري، محمد الطيب قواسمية عيسى سلطاني، وحامد روابحية⁽⁶⁶⁾. وفي الموسم الدراسي 1952/1951 ونظرا لتزايد عدد التلاميذ، لم تتمكن مدرسة تهذيب البنين والبنات من استيعاب كل المسجلين، فتبرع السيد محمد العمري⁽⁶⁷⁾ بسكنه لمجموعة من طلبة الزيتونة لفتحها مدرسة لتعليم الأطفال، وقد درّس بها السادة حسين خليف وبدري عبد الحفيظ⁽⁶⁸⁾.

وفي قرية الشريعة ورغم أن المدرسة كانت في بدايات أشغالها إلا أنها بدأت تستقبل التلاميذ. وتعد المدرسة من بين المؤسسات التربوية التي قامت جمعية العلماء المسلمين بتعيين معلّميه ومنهم الطلبة الزيتونيون كالطاهر حراث ومحمد قواسمية⁽⁶⁹⁾. وفي مدرسة التربية والتعليم ببلدية مرست درّس بها خريج جامع الزيتونة علي هوام⁽⁷⁰⁾. ثم درّس بها ثلاثة معلمين قامت لجنة التربية والتعليم لجمعية العلماء بتعيينهم وهم محمد بن الأزهري، والطاهر بن عبد الله ومصباح هوام. أما في مدرسة قرية العوينات فقد تنقل من مرست للتدريس بها علي هوام⁽⁷¹⁾.

الخاتمة

في الأخير يمكن أن نخلص إلى جملة من الاستنتاجات لعل أبرزها أن جامع الزيتونة كان له الفضل الكبير في تكوين الطلبة خاصة منهم الذين كان لهم استعداد كبير في التكوين.

نظرا للأمية الرابضة بالأمّة منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولأن السبيل الوحيد للقضاء عليها يتم بالتعلّم، فإنّ عددا كبيرا من رجال تبسة تبرعوا بمساكنهم وجعلوها تحت تصرف رجال الإصلاح عموما وطلبة جامع الزيتونة خصوصا ليتعلم فيها أبناءهم.

إن هذه المدارس التي تم فتحها بمنطقة تبسة، كانت بها حركة تعليمية من طرف طلبة الزيتونة لتوجيه الأمّة وتهذيبها، والتي وصفها الشيخ البشير الإبراهيمي بأنها: «الأساس المتين

للوطنية الحقيقية وهي التوجيه الصحيح للأمة الجزائرية»⁽⁷²⁾.

لقد تنوع عمل الطلبة الزيتونيين فكانت نشاطاتهم تعليمية تربوية ترفهية، سواء في الكتابة بالمجلات أو التدريس بالمدارس أو الخطب والندوات في مختلف النوادي والجمعيات التي تم إنشاؤها.

الهوامش:

نظم البشير صافية قصيدة عن البلدين الجزائر وتونس يدعو فيها للوحدة ولم الشمل ويحذر من عدوين هما الجهل والاستعمار، للتفصيل أنظر: البصائر، س4، ع162، الجزائر، 21/04/1939، ص07.

² مقابلة مع السيد هيبى بشير، بمنزله، بلدية نقرين، ولاية تبسة، بتاريخ 02/05/2014، الساعة 08 ساو30 د.

³ مقابلة مع السيد براهيم محمد، بمنزله، بلدية الشريعة، ولاية تبسة، بتاريخ 17/05/2014، الساعة 18 سا.

⁴ سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1860-1900)، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر، 2009، ص386.

⁵ شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956)، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع الجزائر، 2009، ص157.

⁶ شترة، المرجع السابق، ص102.

⁷ مقابلة مع السيد هوام محمد الشريف بن أحمد، بمنزله، مشنة خشين، بلدية مرسط، ولاية تبسة، بتاريخ 2014/08/05، الساعة 12 سا و30 د.

⁸ للتفصيل حول الطلبة التبسين بجامع الزيتونة أنظر: عيساوي أحمد، مدينة تبسة وأعلامها، بوابة الشرق ورثة العروبة وأريج الحضارات، دار البلاغ للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص89-133. شترة المرجع السابق، ص92-12.

⁹ مقابلة مع السيد خليف نور الدين بن حسين، بمنزله، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 2014/05/19، الساعة 18 سا.

⁰ مقابلة مع السيد فارس البدر بن الحبيب، بمسجد الشيخ العربي التبسي، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 2014/03/04، الساعة 15 سا و30 د.

¹¹ الصديق محمد الصالح، نماذج للاقتداء، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص131.

¹² الامتحانات بجامع الزيتونة، البصائر، س2، سل2، ع43، الجزائر، 12/07/1948، ص8.

¹³ من الأساتذة: محمد بن يوسف، الطاهر بن عاشور، بلحسن النجار، الصادق النيفر، البشير النيفر محمد النخلي، عبد العزيز اجعيط، للتفصيل أنظر: دبوز محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى 1975، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974، ص57.

¹⁴ الشبوكي محمد، الاجتماع العام لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، البصائر، س4، ع152، الجزائر، 11/02/1939، ص7.

¹⁵ علي مخازنية (1914-1981) معلم بمدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة، بعد الاستقلال بقي يمارس مهنة التعليم إلى غاية وفاته بتاريخ 1981/12/21، أرشيف مديرية التربية لولاية تبسة.

¹⁶ بدري عبد الحفيظ (1914-1976) معلم بمدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة، ثم بمدرسة الهداية القرآنية، فضلاء محمد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، دار هومة، الجزائر، 2006، ص53.

¹⁷ ابن باديس عبد الحميد، رجال العلم، المنتقد، ع3، الجزائر، 16/07/1925، إعتنى بها قطش الهادي، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص53.

- ¹⁸ عيساوي أحمد، الحياة العلمية والدعوية للشيخ سيدي محمد الطيب باشا بن مبروك باشا الزيتوني التبسي الجزائري (1873-1952)، مطبعة الفنون الخطية، الجزائر، [د. س. ن. ص. 21].
- ¹⁹ الصديق محمد الصالح، المرجع السابق، ص. 131.
- ²⁰ فارس، المصدر السابق.
- ²¹ شتر، المرجع السابق، ص. 59.
- ²² عاشوري كمال، شخصيات في الذاكرة، حوار مع خليف حسين، إذاعة تبسة، الجزائر، 1998/05/30.
- ²³ الخطيب أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص. 265.
- ²⁴ المكي الشاذلي، بشرى للوطن العزيز، البصائر، س. 2، ع. 65، الجزائر، 1937/04/30، ص. 2.
- ²⁵ الشبوكي محمد، إلى شباب الشريعة، البصائر، س. 3، ع. 94، الجزائر، 1938/01/07، ص. 7.
- ²⁶ الشبوكي محمد، التربية أساس التعليم، البصائر، س. 1، سل. 2، ع. 2، الجزائر، 1947/08/01، ص. 4.
- ²⁷ ابن الشريف علي، إلى العلم يا قوم أدعوكم، البصائر، س. 3، ع. 106، الجزائر، 1938/04/02، ص. 7.
- ²⁸ هي قبيلة من قبائل منطقة تبسة تتواجد أكثر في الجهة الشمالية لمنطقة تبسة.
- ²⁹ هوام علي، أولاد يحي والنهضة الإصلاحية، البصائر، س. 3، سل. 3، ع. 130، الجزائر، 1950/09/11، ص. 5.
- ³⁰ زمرلي مصطفى، الحق والباطل يتصارعان، البصائر، س. 3، ع. 119، الجزائر، 1938/06/24، ص. 4.
- ³¹ التبسي العربي، دين في ذمة الله يقضى، البصائر، س. 2، سل. 2، ع. 44، الجزائر، 1948/07/26، ص. 6.
- ³² مطروح العيد، إلى المعلم، البصائر، س. 2، سل. 2، ع. 56، الجزائر، 1948/11/15، ص. 1.
- ³³ روابحية إبراهيم، سنة العمل، البصائر، س. 7، سل. 2، ع. 278، الجزائر، 1954/07/09، ص. 7.
- ³⁴ ابن الطاهر بوبكر، الجمعية الخيرية، النجاح، س. 4، ع. 144، قسنطينة، الجزائر، 1924/02/01.
- ³⁵ ابن نبي مالك، شاهد للقرن، ط. 2، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984، ص. 79.
- ³⁶ ش. ص. م. جمعية التهذيب ودورها الثالثة، البصائر، س. 3، ع. 130، الجزائر، 1938/09/09، ص. 2.
- ³⁷ ش. ص. م. جمعية التهذيب ودورها الثالثة، البصائر، س. 3، ع. 131، الجزائر، 1938/09/19، ص. 3.
- ³⁸ دبوز محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى 1975، ج. 2، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1976.
- السابق، ص. 32-33.
- ³⁹ البصائر، س. 2، ع. 67، الجزائر، 1937/05/14، ص. 7.
- ⁴⁰ عاشوري كمال، عقب من تاريخ تبسة، حوار مع قصري عبد الحفيظ المدعو الصادق، إذاعة تبسة، الجزائر، 1998/05/07.
- ⁴¹ مزهودي إبراهيم (1910-2010)، مفتش بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للفترة (1947-1954)، مقرر مؤتمر الصومام 1956، الرئيس الشرفي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- ⁴² الذي أنشأته جمعية التهذيب يسمى حاليا مسجد الشيخ العربي التبسي.
- ⁴³ مزهودي إبراهيم، الأدب الجزائري، البصائر، س. 3، ع. 104، الجزائر، 1938/03/18، ص. 7.
- ⁴⁴ المكي الشاذلي، بمناسبة عيد الفطر، البصائر، س. 3، ع. 96، الجزائر، 1938/01/21، ص. 8.
- ⁴⁵ مرحوم علي، حديث المتجول، البصائر، س. 3، ع. 121، الجزائر، 1938/07/08، ص. 6.
- ⁴⁶ بوصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية (1931-1945)، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981، ص. 162.

- ⁴⁷ رحومة علي، الوتر الجزائري، البصائر، س3، ع104، الجزائر، 1938/03/18، ص3.
- ⁴⁸ زمري مصطفى، الوتر الجزائري، البصائر، س3، ع110، الجزائر، 1938/04/22، ص3.
- ⁴⁹ مرحوم علي، حديث المتجول، المرجع السابق، ص6.
- ⁵⁰ فضلاء محمد الطاهر، رسالة المسرح التي يجب العمل بمقتضاها، البصائر، س6، سل2، ع255، الجزائر، 1954/01/22، ص5.
- ⁵¹ ابن نبي مالك، شروط النهضة، تر، عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1986، ص23.
- ⁵² ابن عمارة الوردی، تأسيس جمعية دينية إسلامية بالشريعة، البصائر، س2، ع77، الجزائر، 1937/07/30، ص8.
- ⁵³ رحومة علي، الجمعية الدينية في العوينات، البصائر، س3، ع94، الجزائر، 1938/01/07، ص3.
- ⁵⁴ اجتماع الجمعية الدينية بالعوينات، البصائر، س3، ع99، الجزائر، 1938/02/11، ص4-5.
- ⁵⁵ زمري مصطفى، هيا بنا إلى العمل الكشفى، كشافة الأمل، البصائر، س4، ع151، الجزائر، 04/02/1939، ص8.
- ⁵⁶ مقابلة مع السيد سواعي نور الدين، بمنزله، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 02/06/2014، الساعة 14 سا و30د.
- ⁵⁷ في عام 1942 أقيم مؤتمر بالجزائر، أبو عمران الشيخ، جيجلي محمد، الكشافة الإسلامية الجزائرية (1935-1955)، دار الأمانة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص30. وفي عام 1944 أقيم مؤتمر آخر بتلمسان، أبو عمران الشيخ، المرجع نفسه، ص219.
- ⁵⁸ هوام الأخضر، الإصلاح في مرست، البصائر، س4، ع151، الجزائر، 04/02/1939، ص3.
- ⁵⁹ هوام الأخضر، احتفال مرسط، البصائر، س4، ع153، الجزائر، 18/02/1939، ص7.
- ⁶⁰ المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص383.
- ⁶¹ وطني، تبسة، النجاح، س6، ع230، قسنطينة، الجزائر، 11/09/1925.
- ⁶² تقع في حي باب الزياتين بمدينة تبسة بالقرب من شركة التبغ.
- ⁶³ دبوو محمد علي، المرجع السابق، ص30.
- ⁶⁴ كان علية معمر يدرس القرآن الكريم في كتاب لمدة أربعة سنوات دون ترخيص من الإدارة ورغم التحاقه للتدريس بمدرسة تهذيب البنين والبنات إلا أنه ظل يحفظ التلاميذ القرآن الكريم في كتابه حيث تحصل على الترخيص لتعليم القرآن بتاريخ 1939/07/25، أنظر:
- A.W.C, Service de Réforme, Bte n°62, Répertoire Ecoles Coranique, Arrondissement Constantine (1937-1962).
- ⁶⁵ أرشيف مدرسة تهذيب البنين والبنات تبسة، التوزيع الأسبوعي للمواد.
- ⁶⁶ نفسه، السجل المدرسي للتسجيلات العامة لجمعية العلماء المسلمين.
- ⁶⁷ العمري محمد المدعو حمه (1899-1964)، عضو جمعية تهذيب البنين والبنات بتبسة، أول رئيس بلدية عربي ببلدية تبسة لسنة 1947، مقابلة مع السيدة العمري القائمة بنت محمد، بمنزله، بلدية عين البنيان، ولاية الجزائر، بتاريخ 2014/08/18، الساعة 16 سا و30 د.
- ⁶⁸ عاشوري كمال، شخصيات في الذاكرة، المصدر السابق.
- ⁶⁹ قائمة أسماء المعلمين ومراكزهم، البصائر، س2، سل2، ع57، الجزائر، 1948/11/22، ص7.
- ⁷⁰ عيساوي أحمد، مدينة تبسة وأعلامها، المرجع السابق، ص107.

⁷¹ المعلمون والمدارس، البصائر، س1، سل2، ع10، الجزائر، 13/10/1947، ص8.

⁷² تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية (-1931 1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص233.

قائمة المصادر والمراجع

الأرشيف

ولاية قسنطينة

A.W.C. Service de Réforme, Bte n°62, Répertoire Ecoles Coranique, Arrondissement Constantine (1937-1962).

ولاية تبسة

أرشيف مديرية التربية لولاية تبسة.

أرشيف مدرسة تهذيب البنين والبنات تبسة.

المؤلفات باللغة العربية

1- أبو عمران الشيخ، جيجلي محمد، الكشافة الاسلامية الجزائرية (1935-1955)، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

2- ابن نبي مالك، شاهد للقرن، ط2، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984.

3- ابن نبي مالك، شروط النهضة، تر، عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1986.

4- بوصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية (1931-1945)، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981.

5- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية (-1931 1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

6- الخطيب أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

7- دبوز محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى 1975، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974.

8- دبوز محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى 1975، ج2، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1976.

9- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (-1860 1900)، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

10- شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (-1900 1956)، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

11- الصديق محمد الصالح، نماذج للاقتداء، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

12- عيساوي أحمد، مدينة تبسة وأعلامها، بوابة الشرق ورثة العروبة وأريج الحضارات، دار البلاغ للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

13- عيساوي أحمد، الحياة العلمية والدعوية للشيخ سيدي محمد الطيب باشا بن مبروك باشا الزيتوني التبسي الجزائري (-1873 1952)، مطبعة الفنون الخطية، الجزائر، [د. س. ن.].

14- فضلاء محمد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، دار هومة، الجزائر، 2006.

15- المديني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.

المجلات والدوريات

النجاح، س4، ع144، قسنطينة، الجزائر، 1924/02/01.

النجاح، س6، ع230، قسنطينة، الجزائر، 1925/09/11.

المنتقد، ع3، الجزائر، 1925/07/16، إعتنى بها قطش الهادي، دار الهدى، الجزائر، 2009.

البصائر، س2، ع65، الجزائر، 1937/04/30.

البصائر، س2، ع67، الجزائر، 1937/05/14.

البصائر، س2، ع77، الجزائر، 1937/07/30.

البصائر، س3، ع94، الجزائر، 1938/01/07.

البصائر، س3، ع96، الجزائر، 1938/01/21.

البصائر، س3، ع99، الجزائر، 1938/02/11.

البصائر، س3، ع104، الجزائر، 1938/03/18.

البصائر، س3، ع106، الجزائر، 1938/04/02.

البصائر، س3، ع110، الجزائر، 1938/04/22.

البصائر، س3، ع119، الجزائر، 1938/06/24.

البصائر، س3، ع121، الجزائر، 1938/07/08.

البصائر، س3، ع130، الجزائر، 1938/09/09.

البصائر، س3، ع131، الجزائر، 1938/09/19.

البصائر، س4، ع151، الجزائر، 04/02/1939.

البصائر، س4، ع152، الجزائر، 11/02/1939.

البصائر، س4، ع153، الجزائر، 18/02/1939.

البصائر، س4، ع162، الجزائر، 21/04/1939.

البصائر، س1، سل2، ع2، الجزائر، 01/08/1947.

البصائر، س1، سل2، ع10، الجزائر، 13/10/1947.

البصائر، س2، سل2، ع43، الجزائر، 12/07/1948.

البصائر، س2، سل2، ع44، الجزائر، 26/07/1948.

البصائر، س2، سل2، ع56، الجزائر، 15/11/1948.

البصائر، س2، سل2، ع57، الجزائر، 22/11/1948.

البصائر، س3، سل3، ع130، الجزائر، 11/09/1950.

البصائر، س6، سل2، ع255، الجزائر، 22/01/1954.

البصائر، س7، سل2، ع278، الجزائر، 09/07/1954.

الحصص الإذاعية

عاشوري كمال، عبق من تاريخ تبسة، حوار مع قصري عبد الحفيظ المدعو الصادق، إذاعة تبسة، الجزائر،

07/05/1998

عاشوري كمال، شخصيات في الذاكرة، حوار مع خليف حسين، إذاعة تبسة، الجزائر، 30/05/1998.

المقابلات الشخصية

مقابلة مع السيد فارس البدر، بمسجد الشيخ العربي التبسي، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 04/03/2014، الساعة 15 سا و 30 د.

مقابلة مع السيد هبيي بشير، بمنزله، بلدية نقرين، ولاية تبسة، بتاريخ 02/05/2014، الساعة 08 سا و 30 د.

مقابلة مع السيد براهيم محمد، بمنزله، بلدية الشريعة، ولاية تبسة، بتاريخ 17/05/2014، الساعة 18 سا.

مقابلة مع السيد خليف نور الدين، بمنزله، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 19/05/2014، الساعة 18 سا.

مقابلة مع السيد سواعي نور الدين، بمنزله، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 02/06/2014، الساعة 14 سا و 30 د.

مقابلة مع السيد هوام محمد الشريف، بمنزله، مشقة خشين، بلدية مرسط، ولاية تبسة، بتاريخ 05/08/2014، الساعة 12 سا و 30 د.

مقابلة مع السيدة العمري القائمة، بمنزلها، بلدية عين البنيان، ولاية الجزائر، بتاريخ 18/08/2014، الساعة 16 سا و 30 د.

Résumé

Les étudiants du Zaitouna pouvaient animer l'activité réformiste dans la région de Tébessa, surtout après avoir revenir du Zaitouna, ou ils avaient enrichi les différents journaux et revues grace à leurs écrits, et ils avaient fondu des association de bienfaisance, qui avaient comme objectif l'activité réformiste dans des groupes. Ainsi qu'ils avaient créé des clubs culturels et artistiques, et aussi ils veillaient à condenser leurs activités dans les différentes occasions pour diffuser la conscience et la culture, en particulier avec les jeunes et ils fournissaient des efforts pour éduquer le plus grand nombre et lutter pour limiter le taux d'ignorance et d'analphabétisme.

دور المغرب في دعم النشاط الاجتماعي لثورة الجزائرية.

الأستاذ / لعرج جبران - جامعة سعيدة.

مقدمة :

لم تتوان أي شريحة من الجماهير العربية عن دعم الثورة الجزائرية و مساندتها و التضامن معها و الوقوف إلى جانبها إما بالكلمة أو المال أو المظاهرات التي ترجمت في أكثر من موعد عن وعي الشعوب العربية بأهمية ما يجري في الجزائر. و لم تشد النقابات العمالية و الطلابية عن هذه القاعدة، إذ راحت في أكثر من محفل و تجمع تذكّر دوماً بوقوفها أمام مثيلاتها في الجزائر.

فلقد طالبت النقابات العمالية كل الدول المحبة للتحرر و السلام و الحركات النقابية على الوقوف مع الثورة الجزائرية و تفعيل التضامن مع حرب التحرير الوطني، و هذا ما عبر عنه المؤتمر الذي انعقد بمدينة طنجة المغربية ما بين 20 - 22 أكتوبر 1957 (1) و الذي جمع نقابات عمال المغرب العربي (ليبيا- تونس- و المغرب)، و قد طالب المؤتمر بترقية التضامن و تقويته مع كل « القوى العالمية المناهضة للاستعمار و المساندة لحق الشعوب في تقرير مصيرها. »(2)

كما أكد مؤتمر طنجة على أن التضامن بين الأقطار الشمال إفريقية لم يعد تضامنا عاطفيا بل أصبح مبنيا على قاعدة متينة ترتكز على واقع القرارات التي اتخذت في الميدانين الاقتصادي و الاجتماعي. فهل ترجم المغرب الشقيق هذه القرارات إلى أفعال على أرض الواقع؟ و كيف كانت مساندته للثورة الجزائرية على صعيد دعم النشاط الاجتماعي للجانين الجزائريين؟

أولا : دور المغرب في دعم النشاط الاجتماعي للثورة الجزائرية:

في هذا الموقف سنتحدث عن المجال الاجتماعي و نشاطات جبهة التحرير الوطني بالمغرب الأقصى الذي أكد حضوره القوي و قدم دعما كبيرا و مميزا للثورة الجزائرية.

لقد كان لتطور صراع الحرب في الجزائر بين جيش و جبهة التحرير الوطني و بين الجيوش الفرنسية ميلاد العنف الثوري الذي يقابله العنف الاستعماري (3) ، و قد كان لهذا الوضع امتدادات واسعة و متشعبة في بلدان المغرب العربي و انعكاسات داخلية كان أبرزها هو لجوء

الآلاف من الجزائريين إلى البلدان المجاورة خاصة إلى تونس و المغرب.

يمكن الاعتقاد للوهلة الأولى أن الحرب في الجزائر التي شنتها فرنسا، فرضت على الشعب الجزائري الجمود و عدم الحركة و التنقل، خاصة عندما أعلنت حالة الطوارئ و هي بذلك قد أكدت و بدون وعي منها على إخفاقها في القضاء على الثورة رغم كل الوسائل الحربية و الزجرية المعتمدة.(4) ففي ولاية وهران مثلا و ابتداء من عام 1955، فإن المدن الأهلية فرضت عليها سياسة العزلة عن طريق الأسلاك الشائكة و مراكز التفتيش و المراقبة عند مداخلها و مخرجها. أما في الريف فإن مناطق العمليات الحربية ضد المجاهدين أصبحت مناطق ممنوعة و خطيرة، فالتنقل إلى منطقة العمل أصبح شيئا خطيرا و مؤلما في أحيان أخرى من جراء التفتيش، الانتظار الطويل و التعامل الوحشي من قبل الجنود الفرنسيين. لكن كيف يمكن تجميد العمل، الحياة لمدة سنوات؟ فكلما زادت التناقضات كلما زاد تحرك الناس. من استطاعوا هاجروا إلى المدينة عند الأقارب و تركزوا في الأحياء القصديرية و منهم من هاجر إلى خارج البلاد. والكثير منهم و منذ المنتصف الثاني من 1957 سيعزل و بعيدا عن أراضيهم في المحتشدات (5) و التجمعات. فبالنظر إلى بعض الإحصائيات فمثلا: في مارس 1960، يمكن إحصاء 1800000 فلاح نقلوا في مراكز التجميع العسكري بالجزائر: 700000 بالقطاع القسنطيني، 600000 بالجزائر، 500000 في القطاع الوهراني.(6) و هذا بهدف قطع جبهة التحرير الوطني عن قواعدها الشعبية من جهة، و من جهة أخرى وضع الرقابة على الشعب الذي يمكن فرض عليه الانتخاب في أي وقت، فالكشوف المزورة للمواطنين المجمعين تعتبر كذلك جزءا من الجزائر المهمة.

إن تنقل المواطنين المدنيين خلال حرب الجزائر ظاهرة قوية تنبع من الإرادة الاستعمارية. لكن التجمعات ليست الشكل الوحيد في التنقل الإجباري، فهناك كذلك أشخاص يتنقلون بأشكال أخرى و هذه المرة إلى خارج التراب الجزائري، و هذا تحت ضغط الحياة الصعبة في التجمعات.

بدأت هجرة اللاجئين(7) الجزائريين إلى تونس و المغرب مع اندلاع الثورة الجزائرية، و أخذت أعدادهم في تزايد مستمر مع استمرار و اشتداد لهيب الحرب، و مع قرار فرنسا سنة 1956 إجلاء كل سكان المناطق الحدودية بهدف غلق الحدود و عزل الثورة الجزائرية عن شعبها - الذي سرعان ما التف حولها و دعمها بكل ما يملك من وسائل و مجهود- فعملت على تقتيل السكان و تدمير القرى و المداشر و إحراق القرى، فاضطر السكان إلى الهروب و اللجوء

إلى الأراضي التونسية والمغربية.(8)

إن العدد الكبير كما سبق و ذكرنا من اللاجئين الجزائريين قدموا فارين من الضغط و منهم كان ضحية النفي أو نتيجة تدمير قراهم - لأنهم كانوا يؤوون مناضلي جيش التحرير الوطني- و إن المتمعن في التوزيع الجغرافي للاجئين يلاحظ أن توزعهم كان على شكل سيل (سبحة) في مراكز و مناطق قريبة من الحدود.

من سعيدية إلى ملوية، على مدى 15 كلم، تشكلت عدة قرى صغيرة، تقطن فيها عائلات قادمة من المداشر الجزائرية القريبة، مثل: 'العنابرة'، 'بدار'، 'بوفكارن'، و خاصة 'صباينة'.

و في بركان و نواحيها فاللاجئون ينحدرون معظمهم من 'سواحلية'، 'النمورس'، هم كذلك مغاربة فلاحون قدموا من الجزائر أو من المنطقة الإسبانية.

أما أحفير و نواحيها و كذلك قرية بني درار، التي تبعد 21 كلم عن وجدة، تستقبل لاجئين من قبائل 'مسيرة' الشمال و الجنوب و 'لعشاش'، و فيما يخص وجدة فهي المكب التي يتواجد بها اللاجئون الحضريون القادمون من وهران،الجزائر أين وجدوا الأمان.و هنا لا يعتبر مشكل اللاجئين جد صعب لأنهم تم استقبال معظمهم من قبل ذويهم و بعض المناضلين.

على بعد 45 كلم جنوب شرق وجدة، نجد قرية بوبكر، مركز منجمي التي التف حولها عدد من اللاجئين ينتمون إلى: 'ولاد نهار'، 'بني بوسعيد'، و 'بني واسين'، إن لاجئي 'بني بوسعيد' و 'بني سنوس' يبقون دائما فلاحون، ينشرون على مقربة من وادي تارت إلى غاية وجدة.بينما 'ولاد نهار' الذين يعيشون حياة رعوية ينتشرون نحو الجنوب باتجاه 'تيولي'.انطلاقا من هذه القرية و باتجاه الجنوب، نجد نفس 'ولاد نهار' يتواجدون في قنفودة، و جرادة و الذين التحق بهم 'حميان' في برقانت و تندرارة.

و أخيرا بوعرفة و فقيق، التي التف حولها لاجئون ينتمون إلى 'طرافي'، 'رزاينة' و 'العمور'.

انطلاقا من هذا التوزيع الجغرافي للاجئين يتضح جليا أن تركزهم لم يكن في المراكز المهمة، لكن في المراكز القريبة من الحدود.و هكذا ففي وجدة، حوالي 6193 لاجئ، بينما في أحفير و بوبكر نجد حوالي 16400 و 17053 لاجئ.فوجدة تتواجد على مقربة 14 كلم من الحدود، بينما بوبكر فلا تبعد سوى بـ 500 م. و لا يفصل أحفير عن الجزائر سوى وادي غيس، في هذه

الناحية من جانب الوادي، يرى اللاجئون حقولهم التي فارقوها، و التي يجب استعادتها بعد تحرير الجزائر.

و الملاحظ أن معظم اللاجئين استقروا بالمنطقة الشرقية و قليلا هم الذين انتقلوا إلى الجهة الغربية من المغرب.(9)

لقد كان الاستقبال بالمغرب ممتاز و كريم. فكل السكان تسارعوا لنجدة إخوانهم. «أصدقاء الجزائريون» لوجدة، نظموا أولى الإسعافات و كل محاولة كانت مرحب بها(مقر الدعارة مثلا تحول إلى مركز استقبال). أوجه التضامن، من الشفقة و الأخوة كانت غير كافية بالنظر إلى عدد اللاجئين الذي أخذ في التضاعف يوما بعد يوم. الأمر الذي أدى إلى تدهور حالة اللاجئين بالمغرب. و أمام هذا الوضع المتردي أبدت شعوب المغرب العربي كل أنواع التضامن و المساندة الأخوية إزاء اللاجئين بشكل جعل السلطات الرسمية تتجاوب و تتحمل كل تبعات التواجد الجزائري.(10)

أمام اشتداد الإجراءات القمعية الفرنسية خاصة بعد إقامة خطي مورييس و شال، أخذت جموع اللاجئين تنهمر على تونس و المغرب بأعداد ضخمة و هائلة فقدرت أعدادهم بتونس و المغرب سنة 1958 حوالي 350 ألف لاجئ منهم حوالي 50% أطفال، 35% نساء و حوالي 15% رجال.(11)

كانت فرنسا تأمل من هذا الوضع خلق مشاكل لكل من تونس و المغرب عليها تمارس ضغوطها على قادة الثورة قماشيا مع مشاريعها الاستعمارية. و السؤال الذي يطرح نفسه هو ماذا كان حال اللاجئين الجزائريين الذين نزحوا نحو التراب المغربي فارين من ويلات الاستعمار؟

لقد لعبت الارتباطات الحضارية و التاريخية التي تربط الشعبين الجزائري و المغربي دورها في ترحيب المغاربة المقيمين على الحدود بإخوانهم الجزائريين حيث قدموا لهم كل المساعدات المتاحة في حدود إمكانياتهم من مأوى و غذاء. و يذكر المؤرخ الإنجليزي الأمريكي 'روم لاندو' (Rom Landau)، أن خلال زيارته لأحد مراكز اللاجئين الجزائريين الواقع في مدينة 'أحفير' (12) و بينما هو ينتقل في الحي المخصص للاجئين اندهش أن هناك بيوتا مخصصة لهم و كان ينتظر أن يرى خيما و أمام هذا الوضع أيقن أن هناك مجتمعا واحدا، فاللاجئون إخوة لا غرباء(13) لأن المغاربة قد تقاسموا معهم حتى المساكن. و هنا تستحضرني حادثة تاريخية

حينما هاجر المسلمون إلى المدينة فتقاسم الأنصار كل ما يملكونه مع إخوانهم المهاجرين. فبفضل استقبال الشعوب الشقيقة و كذلك بفضل تكفل حكومتهم، وجدوا في غربتهم وسائل عيش في انتظار الرجوع إلى بلدهم.(14)

لقد بذلت الحكومة المغربية جهودا كبيرة لاستقبال جموع اللاجئين و خصصت لهم الأماكن و قدمت إليهم الإعانات الأولية و نظمت الجمعيات الوطنية عدة اكتتابات شعبية تجمع فيها الأموال و الأغذية و الثياب لفائدة إخوانهم الجزائريين المنكوبين.(15)

و عند تزايد عدد اللاجئين بصورة مكثفة و بأعداد هائلة في أعقاب حملة الإبادة و سياسة التجويع(16) التي اعتمدتها السلطات الفرنسية، زاد من تفاقم مشكلة و سوء الوضع الاقتصادي بالمغرب خاصة و اضطراب السلطات المغربية من تحمل مسؤولية إعانة اللاجئين الجزائريين. كما ساهم بعض الإخوة المغاربة و المناضلين باستيراد المواد الغذائية لصالح الجزائريين باسمهم الخاص و بأموال الإعانات التي جمعتها جبهة التحرير الوطني من الدول الشقيقة و الصديقة مثل: مصر و التي قررت في ضوء صعوبات الاتصال مع لاجئي الجزائر في المغرب إلى إرسال المال لشراء الحاجيات الغذائية و المعاشية.و لا يمكن تصور الحالة التي يعيشها اللاجئين الجزائريون و هم عشرات الآلاف، و ما زاد الوضع سوءا أنهم لم يجدوا في بداية هجرتهم مراكز منظمة لإيوائهم. أما الذين نزحوا إلى وجدة فكانوا أوفر حظا لأنهم استقبلوا من قبل «ودادية الجزائريين المسلمين» الذين تمكنوا من إسعافهم بفضل إمكانياتها المالية، إضافة إلى استجابة سكان وجدة لنداء الواجب و التضامن الأخوي الذي وجه لهم.

لقد برهن جميع السكان الجزائريين(17) و المغاربة على اختلاف طبقاتهم و إمكانياتهم عن ضرب من التضامن الأخوي الكريم نحو إخوانهم المنكوبين يدعو للتقدير و الإعجاب. فكانت بعض النساء تتجردن في الشارع من اللحاف أو الجلابة التي يحتجن بها، و يسلمنها لبنات الجمعيات الكشفية المكلفات بجمع الهدايا. و كان كل رجل و كل امرأة يشارك في التعاون و لو بأبسط الأشياء. و وردت العطايا من كل نوع، فكانت تجمع إلى أكوام من الثياب الجديدة و القديمة و الأواني، و الأحذية، و الحصر، و المناضد، و الأغطية، إلى غير ذلك من بضائع و أثاث تعبر عن حملة التضامن التلقائي العظيم التي يبلغ سخاء أهلها و كرمهم، فإن إمكانياتهم محدودة، و لا تستطيع إعانتهم المادية أن تتجاوز حدود التأييد الرمزي، فقد جمع على طريق الاكتتاب مليون و نصف مليون من الفرنكات.

و كان الكثير من اللاجئين قد وجد المأوى و المسكن عند السكان، و أسكن البقية في محلات خصصت من طرف السلطات المغربية. و هي ديار فسيحة تحتوي فيما بينها على مائة و ثلاثة و أربعين بيتا، سكنها ألف و مائة و أربعون لاجئا ينامون فيها، و يتناولون طعامهم، و في كل بيت مسؤول و تشرف مصلحة عامة على التموين.(18)

و يؤكد الشيخ 'محمد خير الدين' على كل الدعم و المعونة التي وجدها من قبل السلطات المغربية حينما يقول:«وجدت معاونة صادقة من رجال السلطة هناك...»(19) كما يذكر فيما يخص مساعدة السلطات للإطارات الجزائرية التي فرت من ويلات الاستعمار و بطشه و رفضت التعاون معه حينما يقول:«...هجرة بعض الجزائريين إلى المغرب في وقت اندلاع الثورة من ذوي الكفاءات العالية و الشخصيات العلمية و الإدارية الهامة الذين رفضوا التعاون مع السلطات الفرنسية بالجزائر، و كان منهم الأطباء و الصيادلة و المحامون و المختصون بالشؤون الإدارية، فاتصلت بالسلطان محمد الخامس و أطلعته على حقيقة أمرهم، فلم يدرج جهدا حتى وفر لهم الأعمال المناسبة و المقام الطيب بين أخوانهم المغاربة.»(20)

و في هذا الصدد كذلك وجب التنويه بالدور الذي لعبته الأميرة 'لالا عائشة'(رئيسة المكتب المركزي للمساعدة الوطنية) التي ضمنت مؤازرة الموظفين في وزارة الصحة العمومية و السلطات المحلية في وجدة و نواحيها، لمساعدة الجزائريين و تتوسط بالقرب من المدير العام للجنة الدولية للصليب الأحمر(CICR)، التي كانت جد قيمة.و رغم بعض المشاكل الخاصة بعملية توزيع الهبات على اللاجئين الجزائريين إلا أن هذا لم يمنع المغاربة و على رأسهم الأميرة 'لالا عائشة' من التضامن الفعلي في كل مناسبة.(21)

لقد أولى المغرب شعبا و حكومة اهتماما كبيرا بقضية اللاجئين و احتضن أعدادهم المتزايدة هذا رغم أن المغرب حديث العهد بالاستقلال حسب معاهدة 1956 فبعد صراع مرير استطاع أن يحقق استقلاله، فرغم الإدارة الكبيرة و القوية للتضامن، فإن الأمر يبقى دائما شاقا.الجزء الأكبر من اللاجئين سيتمركزون من البحر الأبيض المتوسط إلى الهضاب العليا إلى الصحراء، لكن عموما ليس بعيدا عن الحدود الجزائرية المغربية. يمكن أن نفهم من ذلك أن الإيواء سيكون متاحا على مختلف أنواعه، فبعد 4 أو 6 سنوات من التواجد الإجباري فإن كل مصادر العيش ستستهلك.

في ظروف استثنائية وجد بعض اللاجئين الذين تم استقبالهم من قبل العائلة فرص العمل خاصة في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو في الإدارة. لكن المغرب بلد الاستقبال هو كذلك كان يعاني من مشاكل ناتجة عن عهده الجديد بالاستقلال. إن فرص العمل كانت جد ضئيلة مقارنة بالكم الهائل من اللاجئين و خاصة أن 50% منهم أطفال لا تقل أعمارهم عن 15 سنة أضف إلى ذلك النساء و الشيوخ.

إن مسألة النشاط الاجتماعي و الإنساني للثورة الجزائرية بالمغرب لقيت تجاوب و مؤازرة شعبية و رسمية معتبرة هذا بالرغم من الحساسيات السياسية و العسكرية التي كانت تأزم في عدة حالات العلاقات بين الأطراف المغربية. و فيما يخص هذا التعاون و المساعدة فقد ذكرت اللائحة الصادرة عن الندوة الدولية للصليب و الهلال الأحمر الدولي المنعقدة من 24 أكتوبر إلى 7 نوفمبر 1957 بنيودلهي (الهند)، مؤكدة على هذا الدعم و المساعدة، « و بما أن الإعانات التي قدمتها الحكومتين التونسية و المغربية و اللجنة الدولية للصليب الأحمر، و جمعية الهلال الأحمر التونسي و جمعيات أخرى متمسكة بمبادئ الهلال الأحمر...» (22)

لقد أبدى المغرب الأقصى شعبا و حكومة دعما و مساندة قوية بعد احتضانه لجموع اللاجئين الجزائريين، حيث أزر قضيتهم بتضامن أخوي، (23) و هذا رغم ما لحق بالمغرب من استفزازات و اعتداءات فرنسية على الأرض و الشعب.

ثانيا: تنظيم اللاجئين بالمغرب:

لقد كان من بين اهتمامات الثورة الجزائرية هو تنظيم الجوانب الاجتماعية للاجئين هذا رغم أن المغرب و تونس كانتا تقدمان مساعداتهما الاستعجالية، إلا أن جبهة التحرير الوطني أخذت على عاتقها تنظيم هذا المجال و التكفل به إيماناً منها بمدى حاجة اللاجئين المشردين إلى الإيواء و التغذية و العناية الصحية، فأنشأت «لجنة الشؤون الاجتماعية» منذ 1956 (24) و أمام كثرة مهام هذه اللجنة تم خلق هيئة «مصلحة اللاجئين» أوكلت لها مهمة الإشراف على اللاجئين في تونس و المغرب. و منذ سنة 1958 تشكلت وزارة الشؤون الاجتماعية للتكفل بمهام الشؤون الاجتماعية للمجتمع الجزائري خاصة اللاجئين بتونس و المغرب. و بهذا عنيت الثورة بكل اللاجئين أطفالا و شيوخا، رجالا و نساء، مرضى و معطوبين، فلقوا كل الرعاية و الاهتمام في مراكز خاصة للراحة و الاستشفاء بتونس و المغرب. و من جملة مراكز الراحة التي تشكلت في المغرب و بالتعاون مع السلطات المغربية و الشعب المغربي نجد ماييلي: مركز وجدة، مركز

بركان، مركز الخميسات، مركز زغنغن و غيرها.

أمام التوافد الكبير للأجئيين كانت الوسائل جد محدودة إن لم نقل منعدمة. كل ما يمكن توزيعه هو القليل من الشعير. و ما بين 1957/1958 قامت المنظمات الإنسانية و المتخصصة مثل: الصليب الأحمر السويسري ثم الدولي و المنظمة الدولية للاجئين (IOR) و منظمة الصحة العالمية (OMS)، و النقابات، و الجمعيات و التضامن العالمي: مصر، البلدان الاشتراكية التي قدمت المون و سيارات الإسعاف، الصين الشعبية التي قدمت الأدوية، يوغسلافيا. و كذلك الجمعيات الإنسانية الفرنسية التي تصادمت مساعداتها مع ضغط الحكومة الفرنسية فمثلا: قيام الوزير الأول 'م.دبري' (M. Debré) لدى الجنرال 'ديغول' باحتجاز باخرة التضامن المحملة بالأدوية و التي أرسلت إلى الجزائريين عن طريق الإسعاف الشعبي.

إبتداءا من 1958 استطاعت الثورة أن تقف أمام احتياجات اللاجئين. (25) ففي ربيع 1961 فإن المطعم كان يقدم حوالي 700 وجبة يوميا و أما الخاصة بالصليب الأحمر السويدي فكانت تقدم 2000 وجبة يوميا. كما كانت تقدم مختلف الحاجيات لسدّ المتطلبات اليومية من قمح، حليب الأطفال، ملابس، أغذية، الخيم، إعانات مالية، أدوية، علاج مجاني، كلها كانت جد منظمة و دائمة.

لقد قدر عدد اللاجئين الذين يتم إسعافهم شهريا من قبل جبهة التحرير الوطني في النواحي الاثنتين للمغرب الشرقي، ما بين 2000 إلى 2300 عائلة أي حوالي 11000 و 11500 شخص في منطقة وجدة، أما في باقي المغرب الشرقي (المناطق الحدودية) فما بين 2500 إلى 3200 عائلة أي ما بين 10000 و 15000 شخص. فمجموع الأشخاص المسعفين خلال الفترة الممتدة ما بين شهر فبراير 1960 و أبريل 1961 وصل إلى حوالي 344935 شخص، و قد تطلبت عملية إسعافهم حوالي 78627700 فرنك، كما أن جبهة التحرير الوطني صرفت من أجل تسيير مراكز استقبال اللاجئين في وجدة و الدار البيضاء خلال نفس الفترة مبلغ 15607900 فرنك بدون حساب مصاريف التنقل. (26) كما كان اللاجئ يحصل على منحة تمكّنه من تغطية مصاريفه اليومية.

1- المغرب و نشاط الهلال الأحمر الجزائري:

إنّ الدليل على المساعدات التي كان يقدمها المغرب للثورة الجزائرية هو تجربة الهلال الأحمر الجزائري الأولى (27) التي تم هيكلتها في المغرب تحت إشراف قيادة الولاية الخامسة في

ديسمبر 1956. (28) حيث اتخذ مقر له بعمالة طنجة منذ 29 ديسمبر 1956 و تم الإعلان عن ميلاد الهلال الأحمر الجزائري في الإذاعة و الصحافة يوم 18 يناير 1957.

بخلاف المشاكل التي لاقاها الهلال الأمر الجزائري بتونس ن قبل الهلال الأحمر التونسي فيما يتعلق بتوزيع المساعدات الدولية و سوء تسييرها، إضافة إلى مشكل فرض الضرائب الجمركية على هذه المساعدات الموجهة باسمه إلى الجزائريين. فقد لقي هذا الخير بالمغرب دعما كبيرا لنشاطاته منذ استقراره بطنجة حيث كان يشرف بنفسه على تقديم المساعدات للاجئين و الإسعافات للجرحى و المرضى.

لقد ساهمت السلطات المغربية و الهلال الأحمر المغربي في تقديم المساعدات الضرورية للاجئين و كذلك جمع المساعدات الغذائية و الطبية و التبرعات، كما استعان المغرب بهيئة الصليب الأحمر الدولي (29) و المنظمات الإنسانية لتقديم المساعدات و التي كانت جد معتبرة مقارنة بنظيرتها في تونس. (30) كما لعب مكتب المساعدات الوطنية المغربية دورا في هذا المجال بتعاونه مع الصليب الأحمر الدولي الذي لم يكن يتعامل مع الهلال الأحمر الجزائري بشكل رسمي.

لقد أكد الهلال الأحمر المغربي وقوفه الدائم و المساند للثورة التحريرية إلى جانب نظيره الهلال الأحمر الجزائري حيث ساهم في تذليل الصعوبات و إسعاف المرضى و توزيع المساعدات و تنظيم الاكتتابات التضامنية، و قد دفع حوالي مليون فرنك فرنسي و 500 طن من القمح لمساعدة اللاجئين سنة 1958. كما لعب الهلال الأحمر المغربي إلى جانب الحكومة المغربية في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين سنة 1959 (31) و هذا بالتنسيق مع مسؤولي الثورة و الذين عبروا في عدة مناسبات عن العلاقة الحميمة التي تربطهم بالمغرب، و هذا كان له الأثر على القضية الوطنية في إبراز البعد الإنساني للثورة الجزائرية و كسب المزيد من التأييد الدولي خاصة من جانب المنظمات الدولية و هذا لمضاعفة مساعداتها للاجئين الجزائريين.

و في ندوة صحفية قدمها ' شوقي مصطفى ' في 4 أكتوبر 1960 التي أوضح فيها تزايد حركة الفرار في صفوف اللفيف الأجنبي العاملين بالجيش الفرنسي. (32)

2- تعليم اللاجئين بالمغرب:

لكل حرب أو ثورة ضحايا وخاصة الأطفال الذين يتشردون بعد أن أصبحوا يتامى لا مأوى لهم ولا معيل. وقد نزح العديد من هؤلاء الأطفال أثناء الثورة الجزائرية نحو الحدود التونسية والمغربية، فارين من بطش وحشية الاستعمار الفرنسي. (33)

و لقد اهتم الإتحاد العام للعمال الجزائريين بمصيرهم و هذا بتأسيس دارين بالمغرب تضمان مائتي (200) يتيما. و أمام هذا البرنامج الاجتماعي و الإنساني فقد تم إعداد دارين للبنات إحداهما في تونس و الأخرى بمدينة طنجة المغربية.

لقد عملت هذه الديار و التي كانت كذلك بمثابة مدارس على إعداد الأطفال و تعليمهم باللغتين العربية و الفرنسية و هذا وفقا لمنهج التعليم الابتدائي الشامل لجميع المواد: الدين، الحساب، الجغرافيا، التاريخ، التربية البدنية و الرياضية، و التعليم المهني: البناء، و الكهرباء، و النجارة، و الدهن، و الخياطة، و الفلاحة. و هذا تحضيراً لإعداد شباب يتكفل بعملية بناء الجزائر المستقلة.

و مع المساعدات المغربية استطاع الأطفال تلقي تعليمًا غير أن الحظوظ كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، ففي المناطق الأقل حظا كان التعليم تقليدي في الخيم عن طريق الألواح (حفظ القرآن و تعلم مبادئ اللغة العربية. أما في المناطق الأوفر حظا من المناطق الصغيرة إلى غاية العاصمة المغربية، الأطفال كانوا يستقبلون في مدارس مغربية حسب الطاقة، كذلك استطاعت جبهة التحرير الوطني من فتح بعض المؤسسات جزائرية محضة في وجدة بداية من سنة 1961 حوالي 31 قسما بسعة 790 تلميذا. يؤطر بها مدرسون غالبا من اللاجئين باستثناء بعض المدرسين الأوروبيين. (34)

و أما بالقرب من ملوية كانت تتواجد مزرعة نموذجية عبارة عن تعاونية فلاحية من جهة و مركز تكوين مهني من جهة أخرى. على مساحة 350 هكتار (ملكية جزائري كان مستقرا بالمغرب أهداها إلى الثورة، أما الوسائل و الأموال فكانت مقدمة من قبل منظمة دولية). المنتوج كان موجها لدعم مطاعم جبهة التحرير الخاصة باللاجئين. يتواجد بها 40 عاملا منهم 26 شابا يتراوح أعمارهم ما بين 6 و 15 سنة كانوا يتلقون تكوينًا مهنيًا لمدة سنتين مع تلقي تعليمًا باللغتين العربية و الفرنسية.

أما بالنسبة للأمهات و ربات البيوت، فخصص لهن مركز يوزع عليهن الحليب و كذلك يعطيهم دروسا في الخياطة بهدف تحضير الملابس. كذلك انتشرت مدارس «ابن باديس» التي تم إنشاءها من قبل الإتحاد العام للعمال الجزائريين في كل مناطق المغرب تقريبا بالدار البيضاء، مهدية، خميسات، و التي كانت تستقبل الأطفال الذين فقدوا أولياءهم.

لعب الطلبة و المثقفون طيلة حقبة الاحتلال الفرنسي للجزائر دورا بارزا في استنكار سياسة الاستعمار و مقاومته و في ترسيخ الكفاح الوطني. فبرز خلال القرن التاسع عشر رجالا عدة أمثال 'حمدان بن عثمان خوجة' و 'بوضربة' و الأمير عبد القادر و الشيخ 'بوزيان' و الشيخ 'الصادق الرحماني'، و الحاج 'عمر الرحماني' (35) و في القرن العشرين تضاعف عدد الطلبة و المثقفون (36)، و من أبرز مثقفي هذه الفترة نجد الشيخ 'حمدان لونيبي'، الشيخ 'المولود بن الموهوب'، و الشيخ 'عبد الحميد بن سماية'، و الشيخ 'الطبيبي العقبي'، و الشيخ 'عبد الحميد بن باديس'، و الشيخ 'البشير الإبراهيمي' (37).

و لقد لعب الطلبة دورا بارزا في إطار الجمعيات و الأحزاب السياسية سيما في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و جمعية نجم شمال إفريقيا و غيرها (38)، فعملوا على تشجيع التعليم و التمسك بمعالم الشخصية العربية الإسلامية للجزائر و طالبوا بتحسين أحوال التعليم و فرض اللغة العربية و آدابها و هذا بدعم من إخوانهم التونسيين و المغاربة. (39) و بدأ تيار الطلبة ينمو و يتطور بكل اتجاهاته و مشاريعه حتى غدى عام 1954 يمثل جيلا كبيرا و واسعا.

و عند اندلاع الثورة في الفاتح نوفمبر 1954 لم يتردد جموع الطلبة في الالتحاق بصفوفها و لو بصفة جزئية، كما شكلوا القاعدة التي راحت تعرف بالثورة الجزائرية في أوساط الطلبة خاصة الأوروبيون.

و لأهمية هذه الشريحة فقد أولت جبهة التحرير الوطني لها أهمية كبرى، خاصة أمام تصلب مواقف الطلبة الفرنسيون و صم آذانهم عن شرعية الكفاح المسلح للشعب الجزائري، فأطرتهم من خلال «الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين» (40). (U.G.E.M.A) و في خلال شهر ديسمبر 1957 عقد هذا الإتحاد مؤتمره الثالث ببافيس، غير أن الحكومة الفرنسية أصدرت قرار حل الإتحاد يوم 28 يناير 1958 (41) و اعتقلت و عذبت الكثير من الطلبة، فكان أن هجر الطلبة فرنسا إلى عدة بلدان من العالم مروراً بسويسرا. و من بين الذين احتجوا على

هذا القرار التعسفي و المعاملات الهمجية نجد وزير خارجية المغرب الأقصى لدى وزير خارجية فرنسا، الأمر الذي يدل على قسوة القرار و بعد آثاره.

و تبعا لأهمية «الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين» و تبعا لاهتماماته قام بإرسال البعثات إلى البلدان العربية فكانت تونس و المغرب من بين الدول التي تضخم فيها عدد الطلبة بسبب تضخم عدد اللاجئين. فكانت تونس تضم حوالي 560 طالبا خلال عام 1958 و المغرب الأقصى في حدود 100 طالب في نفس السنة.(42)

و كما سبق أن ذكرنا فلأهمية شريحة الطلبة بالنسبة للثورة الجزائرية فقد أولت اهتماما كبيرا لها، و لمطالبها إيمانا بأنها الشريحة التي ستعمل على بناء الجزائر المستقلة. و خلال زيارة(43) السيد 'أحمد توفيق المدني' للمغرب التقى بالطلبة بالرباط مع الشيخ 'محمد خير الدين' و رتب لهم أمر المالية و وعدهم بأن المنح لن تتأخر عنهم منذ هذا العهد. بعد ذلك انطلق إلى فاس و اجتمع بحوالي ثلاثمائة(300) طالب جزائري في جامعة القرويين و كلف أمرهم إلى السيد 'فرجاني خطاب' كمعتمد لوزارة الشؤون الثقافية التي كان على رأسها السيد 'أحمد توفيق المدني' و كلفه على أن يدفع لهم شهريا و دون أي تأخير، ما خصص لكل واحد منهم.(44)

و في خلال طريقه للعودة قابل السيد 'ابن جلون' وزير المعارف في الرباط، و قدم له باسم الحكومة الجزائرية ما يود تحقيقه للطلبة الجزائريين فوعد خيرا. و من خلال تبادل الرسائل بين السيد 'توفيق المدني' و السيد 'فرجاني خطاب' حول مصاريف المنح يتضح جليا أن المغرب كان يدعم الطلبة في المنح « مع الوقوف عند أمرهم بقطع إعانة حكومتنا عن الطلبة المشمولين بالمنحة الدراسية المقررة في ميزانية الحكومة المغربية.»(45)

و في تقرير وزارة الشؤون الثقافية الخاص بسنة أكتوبر 1958 - آخر نوفمبر 1959 المقدم إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية تم عرض وضعية حال الطلاب بالمغرب الأقصى إذ ذكر أن الطلاب الذين يزاولون دراستهم «بالثانويات و المعاهد العليا تشملهم رعاية و عناية الحكومة المغربية، حيث أنهم يتناولون منحا تكفي للقيام بالضروري من الحياة...»(46) كما جاء في التقرير أن مجموعة أخرى من الطلاب يحتاجون إلى رعاية أكثر رغم أنهم من حيث المسكن لا يجدون مشكلة لأن بعض من موسري المغرب و الجزائر قد اشتروا لهم دارين، و لو

أنهم يحتاجون إلى تجديد الأثاث، من هنا يتبين مدى مساعدة بعض الأغنياء المغاربة للطلبة الجزائرية إيماناً منهم بضرورة الوقوف إلى جانب أشقائهم الجزائريين. كما أن الحكومة المغربية خصصت لهم إعانة لا تتجاوز ألفي (2000) فرنك لكل طالب شهرياً. ورغم أن هذا المبلغ ضئيلاً إلا أنه يبقى مساهمة من قبل الحكومة المغربية وقوفاً عند مبدأ التضامن مع الثورة الجزائرية.

كما يذهب التقرير في نفس المجال على الاعتراف بجميل و فضل «الإتحاد العام المغربي للشغل» الذي هياً في مدينة الرباط داراً تستقبل عشرون (20) طالباً من طلاب الثانويات يقوم بالإشراف عليها من حيث الملبس و الإطعام، فقامت أمام هذا العمل وزارة الشؤون الثقافية بتعيين منحة ألف (1000) فرنك لكل طالب شهرياً. وهذا يبين مدى مساهمة «الإتحاد العام المغربي للشغل» في رعاية الطلبة الجزائريين مادياً و معنوياً.

أما فيما يخص المنح التي كانت تقدم إلى الطلبة لمزاولة دراستهم في الخارج فقد سجل التقرير قبل تشكيل الحكومة المؤقتة، منح الحكومة المغربية حوالي ست (6) منح للجزائريين. (47)

كما عمل طلبة المغرب العربي في إطار الإتحاد المغربي بالوقوف مع إخوانهم الطلبة الجزائريين و دعمهم، ففي المؤتمر المنعقد لهم بتونس من 20 إلى 23 أوت 1958 و الذي جمع ممثلي البلدان الثلاثة (تونس- الجزائر- المغرب)، قامت اللجنة السياسية العامة بتحرير تقرير عنوانته بـ «الطلبة المغاربة و تشييد المغرب» و قد جاء في هذا التقرير ما يلي: «الطلبة المغاربة، الجبهة الدفاعية لشباب شمال إفريقيا، وعيا منها بمسؤولياتها و دورها في بناء المجتمع، تعلن عن إرادتها للمساهمة بكل الوسائل في تشييد صرح المغرب العربي... فتشكيل «إتحاد الطلبة الشمال إفريقيون» يندرج ضمن هذا الإطار... إنها تميل للنزعة الطبيعية للشعوب الشمال إفريقية الملتحمة بروابط متينة، لنفس الغايات، لماض تاريخي مشترك و بنفس الإلزاميات لنفس المقاومة لكسب الاستقلال السياسي، و التحرر الاقتصادي و الاجتماعي... خلال الحرب التحريرية لتونس و المغرب، هذا التضامن الطبيعي للشعوب الثلاثة الشمال إفريقية، ظهر في عدة مناسبات، و يوم 20 أوت 1955 (48) قد كرس في دمائنا وحدة القتال و المبادئ. استقلال تونس و المغرب فتح الآفاق لوحدة حقيقية. العائق الوحيد الحالي أمام بناء المغرب العربي يكمن في الحالة بالجزائر و استقلال الجزائر يشكل الشرط الأساسي لإنجاز هذا الهدف.» (49)

و قد أكد التقرير على أن الحرب في الجزائر هي حرب شمال إفريقيا، و عليها أن تجد حلها في هذا الإطار الشمال إفريقي. عليها أن تحظى باهتمام أساسي من قبل جميع شعوب المغرب العربي، و تفرض الالتزام و التعهد الكلي و الكامل للشعوب و الحكومات.

و قد عبر الطلبة على الدعم المتواصل لكل من المغرب و تونس للقضية الجزائرية و هذا ما جاء في تقريرهم الذي أكد على أن الشعوب «التونسية و المغربية أظهرت عفويا و بشكل ملموس، دعمها و تضامنها للشعب الجزائري. لقد جندت الجهود الكبيرة لمساعدة و بكل المقاييس و الإمكانيات، إخوانهم الجزائريون، و بالخصوص اللاجئين». (50)

كم كانت الحكومات المغربية و التونسية حاضرة في هذا المجال من دعم إخوانهم الجزائريين، و ذلك بتنسيق الجهود السياسية لتوجيه السياسة الفرنسية نحو حل سلمي للمشكل الجزائري، و ما الجهود و النوايا الحسنة للملك 'محمد الخامس' و الرئيس 'بورقيبة' إلا دليل على ذلك، رغم أن فرنسا لم ترد على إلزامية الحرب بالجزائر، فقد كانت هذه المساعي محل قبول و رضى من قبل مسيري جبهة التحرير الوطني.

و إيماننا من الطلبة بالسياسة المتبعة من قبل الجنرال 'ديغول' الرامية إلى تحطيم مقررات مؤتمر طنجة و بالتالي الوقوف أمام الوحدة المغربية، فقد طالبوا من الحكومتين المغربية و التونسية باستعمال كل الوسائل و الجهود لتحطيم هذه السياسة المبنية على زرع الفرقة بين الأشقاء. و يعلنون بذلك أن « تشييد المغرب العربي يجب أن يمر أساسا باستقلال الجزائر، و أن هذا التشكيل لا يجب أن يؤجل إلى ما بعد الاستقلال، بل يجب أن يصطنع في خضم الكفاح التحرري للشعب الجزائري». (51)

و طالب المؤتمر الأول لإتحاد طلبة شمال إفريقيا، من حكومات شمال إفريقيا لمواصلة تشييد صرح المغرب العربي الكبير. و توجيه سياسة حكومتي تونس و المغرب نحو هدف واحد هو تحرير الجزائر، عن طريق استعمال قوى الشعب و الإمكانيات الوطنية في الكفاح الذي يخوضه الشعب الجزائري من أجل استقلاله. كما طالب بتشكيل جبهة مغاربية تتخذ سياسة مشتركة اتجاه فرنسا انطلاقا من سياسة هذه الأخيرة اتجاه المشكل الجزائري. سياسة مبنية على مبدأ استقلال الكتلة، و الديمقراطية الاجتماعية، الاقتصادية، و السياسية المبنية على احترام حريات الرأي و التعبير و الاجتماع.

لقد أظهر الطلبة مدى تمسكهم باستقلال الجزائر و توجيه حكومات بلادهم في هذا المنحى إيماناً منهم أن بناء صرح المغرب العربي الكبير لن يكون ناجحاً بدون استقلال الجزائر.

3- الواقع الصحي للاجئين الجزائريين بالمغرب:

بما أن الجانب الصحي يعد من أولويات بناء المجتمع و من الأجهزة الحساسة لأي ثورة أو حرب فقد عنت به جبهة التحرير الوطني أيما اعتناء. و حسب ما جاء في كتاب محمد قنطاري 'التنظيم السياسي و الإداري و العسكري للثورة الجزائرية (1954-1962) في جزئه الأول، أن التركيبة الصحية للثورة الجزائرية على مستوى الحدود الغربية تتمثل في نواة تتألف من طبيبين و صيدليين و جراح أسنان، و كانت هذه هي النواة الأولى قبل سنة 1956.

و لما كان لزاماً على الثورة أن تتطور بتطور الحرب، و أمام تكالب القوات الاستعمارية و تشرذ العديد من اللاجئين، إضافة إلى كثافة الجرحى و المصابين جراء العمليات العسكرية، فقد تطورت الهيكلية الصحية ما بين 1956 و 1960 لتتماشى و الواقع السياسي و العسكري للثورة، فمن المعالج المتواجد على مستوى العرش ثم الكتبية ثم الناحية مروراً بالمنطقة و وصولاً إلى مستشفى وجدة (موريس لوسطو) الذي كان يستقبل كبار الجرحى و المعطوبين و كذا المصابين بالكسور و الحروق، كما أصبحت القاعدة رقم 15 أو قاعدة العربي بن مهيدي مخصصة للمصابين بالأمراض المزمنة.

أما بعد سنة 1960، فقد تطورت التركيبة الصحية لتتماشى و تطور أوضاع الحرب و كذا ارتفاع مستوى خبرات مناضلي جبهة التحرير الوطني لتصبح على الشكل التالي :

- مراكز متقدمة في جبهة الحدود.
- مراكز التناوب للربط بين المراكز العلاجية و مختلف القيادات.
- مراكز خلفية (قاعدة العربي بن مهيدي) تحت القيادة الحدودية.
- مستشفيات تحوي من 50 إلى 60 سريراً مخصصة للجرحى، ومنها: موريس لوسطو بوجدة، و الدار البيضاء للمعطوبين.
- مراكز التحويل قصد العلاج في الخارج (الدر البيضاء).

كما خصصت الثورة مراكز للتكوين نذكر منها:

- مركز التكوين بالعرائش.
- مركز التكوين لبركان.
- مركز التكوين كبداني.
- مركز التكوين الخميسات.
- مركز التكوين بزغنغن.

لقد أنشأت قيادة الثورة في كل مركز مستوصف مجهز بأحسن الأجهزة و مؤطر من قبل ممرضين و أطباء عموميين و مختصين ذووا كفاءات عالية، إلى جانب توفر قاعات العلاج الأولى الخاصة بالمرضى و المصابين بجروح تحوي من 4 إلى 6 أسرة. أما فيما يخص مركز العرائش، فعند الضرورة أو عدم القدرة على إغاثة المعطوبين، فإنهم يحولون إلى المدرسة العسكرية للممرضين بزغنغن ثم يعالجون بالمستشفيات المغربية و ذلك لعدم توفر الإمكانيات العلاجية من جهة و لضمان سر العمليات من جهة أخرى. أما فيما يخص مراكز كبداني و بركان، فإن تحويل مرضاهم أو معطوبي الحرب نحو قاعدة العربي بن مهيدي بوجدة كان الحل الأنسب لقرب المنطقة، كما استفاد جرحى و مرضى جيش التحرير الوطني من العلاج داخل المستشفيات المغربية المتواجدة في المنطقة كمستشفى الناظور و بركان و كان الاستقبال جد جيّد من طرف أطباء مغاربة و أسبان، و كان السكان المغاربة كذلك يستفيدون من التغطية الصحية التي كانت توفرها جبهة التحرير الوطني.

كما كانت هناك مراكز خلفية للتداوي و النقاهاة و هي كالتالي :

- مستشفى لوسطو بوجدة :

و كان تحت رئاسة الدكتور عبد السلام هدام، كان يمثل القاعدة الرئيسية الصحية و الجراحية لجيش التحرير الوطني، و كانت هذه الوحدة تستقبل في ظروف جد حسنة الجرحى و الخاضعين للعمليات الجراحية (طب العيون- الطب العام- و طب الأمراض الصدرية).

- القاعدة 15 (العربي بن مهيدي) :

بسبب تكاثف العمل الثوري و لأسباب أمنية قررت قيادة الثورة إنشاء في صيف 1956 وحدة صحية داخل المركز بهدف استقبال المرضى.

● مركز أحفير :

يتواجد هذا المركز بين وجدة و سعيديّة مخصصا للتكوين خاصة تكوين الممرضات اللواتي كن ينتقلن إلى مراكز الوحدات العسكرية لجيش التحرير قصد علاج المرضى.

● مركز بركان :

لقد أنشأ ضمن ضيعة فلاحية، و كان الغرض منه تجميع الجنود الغير قادرين على مواصلة مهامهم بسبب المرض أو الجروح أو الإعاقات.و كان الجنود يتلقون فيه الرعاية الصحية إلى جانب ممارسة الأشغال الفلاحية مما كان يضمن لهم المحافظة على اللياقة البدنية من جهة و كان يضمن التزود بالمحاصيل الزراعية للمطبخ من جهة أخرى.

● مركز العرائش :

كان عبارة عن ثكنة عسكرية للجيش الإسباني و بعد استقلال المغرب، أهدته السلطات المغربية إلى جبهة التحرير الوطني قصد إنشاء قاعدة لوجستكية، و أمام الاحتياج المتزايد حول إلى مركز للتدريب ثم إلى مركز نقاهة للمرضى و المصابين و الجرحى.

● مركز الخميسات :

يقع ما بين مكناس و الرباط، أنشأ عام 1957 في ضيعة تملكها جبهة التحرير الوطني، كان في بداية الأمر عبارة عن ملحقة لمركز التدريب بالعرائش ثم مركز لأبناء الشهداء، ثم باشر المركز مهامه في تكوين المسعفين و علاج المرضى و تحويل المصابين إلى مستشفيات الرباط و مكناس.

● مركز الدار البيضاء :

لقد رأى الوجود في سنة 1960 إضافة إلى مهامه الصحية، فقد استعمل كمركز عبور يوجه المصابين نحو المستشفيات المختلفة.

● دار أبناء الشهداء و المهاجرين.

لقد كانت هذه المراكز معظمها مؤطرة من قبل الجزائريين لاسيما ابتداء من جوان 1956 عند «وصول الإمدادات من الأطباء المتخصصون و طلبة الطب، بعد إضراب الطلبة الثانويين و الجامعيين.» (52) إلى جانب الأطباء الجانب فمثلا من بين الأطباء العاملون بمركز الدار البيضاء نجد على النحو التالي:

اللقب و الاسم	التخصص	الجنسية
د/ نايت	القلب و الجراحة	جزائرية
د/ مولود بلعوان	الأعصاب	//
د/ مكوسي (Miccuci)	الأمراض العقلية	فرنسية
د/ محمد سعيد شرفة	طبيب عام	جزائرية
د/ عبد الرحمان محمد تازي	العيون	مغربية
د/ بن مبارك	الأذن و الحنجرة	جزائرية

(53)

لقد ترجمت المساعدات المغربية كذلك بحيوية في هذا المجال خاصة بمراكز الراحة المخصصة للمقاتلين و بالمتشفيات و المراكز الطبية بالنواحي. كما أن جمع التبرعات يتم بشكل دائم و مستمر، فحسب الإدارة الفرنسية فإن «دعم مثل هذا يمكن أن يؤدي إلى تشكيل مناطق استقبال حقيقية، في الجانب الآخر من الحدود ما بين وجدة و فكيك و فم الحسن.» (54)

يذكر فاروق بن عطية أن الدكتور 'عبد السلام هدام' الذي كان مسؤولا عن مصلحة الصحة بالمغرب، سيجد مساعدة و دعما قيما من لدن الأطباء و الصيادلة الجزائريون المقيمون بالمغرب، و كذلك من قبل مصالح الصحة العمومية للمملكة الشريفة (55)

كما يقول الدكتور 'مقاسي مصطفى' (طبيب رئيسي في مركز العرايش بالمغرب)، بأن هذا المركز تم التنازل لنا عنه من قبل جيش التحرير المغربي و حزب الاستقلال. و باعتبار أهالي المنطقة يتحدثون اللهجة الريفية القريبة من الأمازيغية الجزائرية (كنا نعتبر أغرابا نوعا ما)، و بعد أن قام 'سعيد عبد العظيم' (جراح أسنان من منطقة تيزي وزو) بالتحدث مع أحد أعيان المنطقة باللهجة الأمازيغية، بدأت جموع السكان تتضامن معنا و قبلوا تموين المركز بالمواد المحلية، مما جعل الدكتور 'مقاسي' يقترح على الملائم الأول 'بوشاقور' (رئيس مركز العرائش)،

بفتح مركز العلاج لعلاج السكان مجانيا مرتين في الأسبوع. الأمر الذي سيساعد على تحسين وضعية المغاربة و الجزائريون على حد سواء.(56)

الخاتمة :

و عليه و أسوة منا بجموع المؤرخين الفرنسيين أمثال بن 'يامين ستورا' (Benjamin,Stora) الذين يناشدون بضرورة نسيان الماضي الاستعماري الحافل بكل أنواع التعذيب و التنكيل و السياسات الهمجية التي طالت شعوبنا المغربية عامة و الشعب الجزائري خاصة، و فتح صفحة جديدة من العلاقات التي لا يؤثر عليها الماضي القريب، فإننا ارتأينا في خاتمة عملنا هذا أن ننادي من هذا المنبر العلمي- و نحن أولى بذلك- بضرورة نسيان الماضي الأليم الذي كان بالأمس سبب العداء و قطع العلاقات بين الجزائر و المغرب الأقصى، و العمل على طي الصفحة المخزية في تاريخنا و فتح صفحة جديدة من العلاقات المبنية على أساس مصلحة شعوبنا و تحقيق أمل الطبقات العريضة في مجتمعاتنا، لكي نزيد في تاريخ المغرب العربي إشراقا و نورا.

و إيماننا منا بضرورة الوحدة كعامل أساسي لإنجاح مشروع التنمية الاقتصادية لبلدان المغرب العربي، و رجوعا منا إلى أرشيف تاريخ المغرب العربي فإن من الضروري بل من الإلزامية الجنوح للوحدة. و لأن الجزائر تعتبر المحور الأساسي و مركز الثقل الذي تدور حوله الأحداث، فإنه من الأهمية بمكان أن نناشد حكمانا إلى ضرورة إحراز سبق في هذا المجال و أن يجعلوا من الجزائر النواة التي تدور حولها الإلكترونيات التي ستسرع عملية إنجاز الوحدة الحقيقية التي لطالما انتظرتها شعوب المغرب العربي و لم ترتوي لحد الآن من ينبوعها.

الهوامش و الإحالات:

1-دبش،(إسماعيل)، السياسة العربية و المواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية(1962/1954)، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2003، ص، 64.

2-المرجع نفسه، نفس الصفحة.

3-اتبعت فرنسا سياسة الإبادة الجماعية ضد الشعب الجزائري بهدف إضعاف الثورة الجزائرية. فانطلاقا من عبارة «ماو تسي تونغ» «بأن الجيش الثوري في أوساط الشعب بمثابة السمك في وسط الماء»، قرر الضباط الفرنسيون في إطار الحرب النفسية أن لا يتركوا الثوار في الأرياف كما السمك في الماء، لذلك عمدوا إلى حرمان الثورة من شعبها عن طريق تجميعه في محتشدات تحيط بها الأسلاك الشائكة و تحت مراقبة فرنسية دائمة و اعتبار المنطقة محرمة. و حسب التقارير التي جاءت بها مصلحة الإحصائيات العامة للجزائر فإن نسبة الشعب المجمع في الغرب الجزائري فهي كالتالي: مقاطعة تمور: 98 بالمائة، بني صاف: 37 بالمائة، تلمسان: 25 بالمائة، سبدو: 63 بالمائة، تلاغ: 36

بالمائة، مشرية: تقريبا 100 بالمائة، عين الصفراء: 44 بالمائة. و في عام 1961 بلغ عدد المجمعون في المحتشدات بالجزائر حوالي 2350000 بمثابة 1 من 3.

4- البصائر، العدد 311، 25 مارس 1955، ص1.

15- المحتشد عبارة عن مكان واسع و فسيح من الأرض الخالية و الجرداء يتموقع عادة بالقرب من ثكنة الجيش الفرنسي، و يحاط بالأسلاك الشائكة المجهزة بأجهزة الإنذار التي تعلم الحراس عن لمسها، و مجهزة كذلك بأبراج للمراقبة و أضواء كاشفة. تصف جريدة البصائر المعتقلين في هذه المحتشدات بأنهم صاروا يحسدون سكان السجون إن لم يحسدوا سكان المقابر، ذلك أنهم لا يتناولون إلا نحو 400غ من الخبز و قليل من الحساء و البطاطس في محتشد أفلو، بينما نزلء محتشد علال الذي يبعد نحو 30 كلم عن مسيلة فلا يتناول الواحد منهم خلال يوم و ليلة سوى ¼ لتر من الحساء و 100غ من الخبز. أنظر : البصائر، العدد 324، 25 جوان 1955، ص1.

6- El Moudjahid, volume3, imprimé en Yougoslavie, Aout 1962, p 42.

7- إن مصطلح اللاجئين يقصد به كل جزائري إضرطته ظروف الحرب إلى ترك الجزائر و اللجوء إلى البلدان المجاورة خاصة تونس و المغرب، بينما عمار بوحوش يعرف اللاجئين على أنه كل شخص خرج من الجزائر و توجه إلى بلد آخر للإقامة و ذلك هروبا من القمع و الاضطهاد السياسي في أرض الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي من سنة 1830 إلى غاية 3 جويلية 1962، للمزيد أنظر بوحوش، (عمار)، التاريخ السياسي، مرجع سابق، ص، 542.

8- مقلاني، (عبد الله)، النشاط الإنساني للثورة الجزائرية بمراكز اللاجئين و أثره على العلاقات الجزائرية المغربية (نشاط الهلال الأحمر نموذجا)، مجلة المصادر، عدد خاص، عدد 10، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2004، ص، 149.

9- El Moudjahid, volume1, imprimé en Yougoslavie, Aout 1962, p 205.

10- Benatia, (Farouk), les Actions Humanitaires pendant la lutte de libération (1954-1962), Editions Dahlab, Alger, 1997, p 91.

11- بوحوش، (عمار)، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص، 543.

12- مدينة مغربية تقع شمال وجدة.

13- الإدريسي، (علي)، العلاقات المغربية الجزائرية ما بين 1954 و 1975 من خلال شهادات و وثائق جزائرية، مجلة الذكرة الوطنية، عدد خاص، المندوبية السامية لقدماء المقاومين و أعضاء جيش التحرير، الرباط، 1427هـ/2006، ص، 138.

14- El Moudjahid, volume3, op.cit, p 42.

15- المجاهد، العدد 12، 15 نوفمبر 1957، وزارة الإعلام، الجزائر، 1984، ص، 3.

16- الديب، (فتحي)، عبد الناصر و ثورة الجزائر، الطبعة الثانية، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1990، ص، 367.

17- الجالية الجزائرية التي نزلت قبل الثورة الجزائرية و التي كانت متواجدة بالمغرب.

18- المجاهد، العدد 14، الأحد 15 ديسمبر 1957، وزارة الإعلام، الجزائر، 1984، ص، 4.

19- خير الدين، (محمد)، مذكرات، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص، 182.

20- المرجع نفسه، ص، 182.

21- Benatia, (Farouk), op.cit, p 92.

- 22-مقلاني،(عبد الله)، النشاط الإنساني للثورة الجزائرية بمراكز اللاجئين و أثره على العلاقات الجزائرية المغربية،المرجع السابق،ص، 157.
- 23-مقلاني،(عبد الله)، دور بلدان المغرب العربي في دعم الثورة الجزائرية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير،إشراف حميدة اعمرراوي،قسم التاريخ،جامعة قسنطينة،2000،ص، 199.
- 24-مقلاني،(عبد الله)، النشاط الإنساني للثورة الجزائرية بمراكز اللاجئين و أثره على العلاقات الجزائرية المغربية،المرجع السابق، ص، 151.
- قدر تعداد الجالية الجزائرية بالمغرب حوالي 130000 في الفترة الممتدة ما بين يناير 1960 إلى ماي 1961، أنظر- 25- Archives National algérien, Répertoire des Archives de la Révolution, fond G.P.R.A-C.N.R.A (1958-1962), documents analysés ou utilisés, Microfiche 37, Organisation du Maroc : action sociale et situation intérieure.
- 26- Archives National algérien, Répertoire des Archives de la Révolution, fond G.P.R.A-C.N.R.A (1958-1962), documents analysés ou utilisés, Microfiche 37, Organisation du Maroc : action sociale et situation intérieure, p 11.
- 27-كونت اللجنة بتاريخ 1956/12/29 بطنجة و التي ترأسها «بوكلي حسان» و تم المصادقة عليها.ثم أذيع القانون الأساسي في عمالة طنجة يوم 1957/01/8.و بعده تعلن الإذاعة و الجرائد عن ميلاد الهلال الأحمر الجزائري
- 28-مقلاني،(عبد الله)، النشاط الإنساني للثورة الجزائرية بمراكز اللاجئين و أثره على العلاقات الجزائرية المغربية،المرجع السابق،ص، 154.
- الصليب الأحمر،هيئة(جهاز) إنساني،أنشأ غداة أول اتفاقية دولية بجنيف في 1864 بمبادرة السويسري «هنري» 29- دنو، هدفها حماية وضع الجرحى، السجناء في حالة الحرب و كذا حماية السكان المدنيين،و قد قام بالكثير للجزائر El moudjahid، إذ زار السجون الجزائرية، و استطاع خلال مرتين من تحسين حال السجناء.للمزيد أنظر جريدة volume 1,op.cit. p, p 294-295
- 30- Ibid., p 162.
- 31- El moudjahid, volume 1, op.cit., p163.
- 32-مقلاني،(عبد الله)، النشاط الإنساني للثورة الجزائرية بمراكز اللاجئين و أثره على العلاقات الجزائرية المغربية،المرجع السابق،ص، 164.
- 33-العسلي،(بسام)، المجاهدون الجزائريون،الطبعة الثانية، دار النفائس،بيروت،لبنان،1986، ص، 134.
- 34- L.Eimandi, un rêve algérien, Histoire de listette Vincent, 1994, p 6.
- 35-بوعزيز،(يحي)،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر و الإشهار، الجزائر، 1996، ص، 367.
- 36-لقد تنوعت اتجاهاتهم بتنوع مشاربهم الثقافية، فبرزت على حد قول بوعزيز يحي، ثلاث كتل: المثقفون بالثقافة العربية الإسلامية المحضة، المثقفون بالثقافة الفرنسية المحضة، المثقفون بثقافة مزدوجة فرنسية و عربية، و الذين يحلو لي أن أسميهم بالكتلة الهجينة تمسكت بأصالتها و نهلت من الثقافة الغربية.
- 37-بوعزيز،(يحي)،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين،المرجع السابق، ص، 368.
- 38-كما لعبت المساجد الدور الكبير في الوعظ و الإرشاد، و تعليم الدين الإسلامي، كما لا يخفى علينا دور الزوايا

و النوادي و المعاهد، خاصة نادي الترقى عام 1927، الذي كان بمثابة ملتقى الطلبة و الطبقة المثقفة، حيث كانت تقاوم فيه الحوارات و الندوات و النقاشات فيما يخص شؤون الشعب الجزائري. و بفضل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أصبح تفسير القرآن و السنة النبوية وفق تفسير منطقي و شرعي، و كذلك تعليم اللغة العربية و لكن الاستعمار حاول و بكل الطرق خنق عملية التعلم في أوساط الأهالي عن طريق تضيق الخناق حول إصدار رخص فتح المدارس، الأمر الذي أجبر قسما كبيرا من الأهالي إلى اللجوء إلى وسيلة التعليم السرية، و منهم من فضل الانتقال خلسة إلى المغرب و تونس لطلب العلم. للمزيد أنظر : عسول، (صالح)، اللاجنون الجزائريون بتونس و دورهم في الثورة -1956 1962، مرجع سابق، ص، ص 35-36.

39-بوعزيز،(يحي)،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين،المرجع السابق، ص 369.

40-أسس الطلبة الجزائريون هذا الإتحاد في شهر جويلية 1955.

41-بوعزيز،(يحي)،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين،مرجع سابق، ص، 382.

42-المرجع نفسه، ص، 383.

43-هذه الزيارة العربية الكبرى التي قام بها «أحمد توفيق المدني» و هو على رأس وزارة الشؤون الثقافية التابعة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، إلى البلدان العربية بهدف شكرها على ما قدمته من عون و إعراف بالحكومة المؤقتة إبتداءا من شهر فبراير 1959.

44-المدني،(أحمد توفيق)، حياة كفاح (مذكرات)، الجزء الثالث، مع ركب الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص، 417.

45-المرجع نفسه، ص، 419.

46- نفسه، ص، 473.

47-نفسه، ص، 481.

48-عبرت هجومات الشمال القسنطيني عن وحدة مصر الشعوب المغربية، إذ جاءت لتعبر عن تضامن الثورة الجزائرية مع المغرب الأقصى شعبا و ملكا، خاصة و أن 20 أوت يعبر عن تاريخ نفي السلطان «محمد الخامس» و خلعه من عرشه.

49 - El Moudjahid, volume1, imprimé en Yougoslavie, Aout 1962, p 566.

50 - Ibid., p 566.

51- El Moudjahid, volume1, op.cit, p 567.

52- Guentari, (Mohamed), Organisation politico-Administrative et Militaire de la Révolution Algérienne de 1954 à 1962, tome 1 O.P.U, Algérie, 2000, p 317.

53- Ibid., p, 327.

54- Benjamin, (Stora), Algérie-Maroc, Histoires parallèles, destins croisés, Editions barzakh, Algérie, 2002, p 51.

55- Benatia, (Farouk), op.cit, p 74.

56- Ibid., p, 77.

الدراسات التاريخية المشرقية حول الثورة الجزائرية

(فتحي الديب ومصطفى طلاس نموذجاً)

أ/ الميلىق عبد القادر - جامعة غرداية

تعد الثورة الجزائرية أهم ثورات القرن 20م؛ فهي شهادة حية لنضال شعبنا منذ التواجد الفرنسي الذي دام مدة قرن ونصف من السنين الطوال وهي نبراس أضاء الطريق للعديد من الثورات التحريرية في العالم وما زالت رايتها رفرافة. فالثورة الجزائرية هي ثورة؛ لأنها تحمل مشروع متكامل يستهدف تغيير جذري وشامل لوضع ما من الأسوأ إلى الأحسن، أو هي حركة تمتلك مشروع متكامل مرفوق بمستقبل زاهي¹.

لعل هذا ما دفع بالبعض التطرق إلى التمييز بين كونها أنها ثورة أم حرب تحرير، وفي هذا يقول الباحث رابح لونيسي : « ... يلاحظ أنه قد أطلقنا مصطلحي الثورة والحرب التحريرية على الأحداث التي عرفتها الجزائر ما بين 1954 و1962م ويعود ذلك إلى رفضنا، ذلك النقاش البيزنطي... وكأنه محكوم علينا أن نختار واحد من المصطلحين، وأهملت أمراً هاماً جداً، وهو أن تلك الأحداث هي الحقيقة ثورة وحرب تحرير في نفس الوقت، فهي ثورة لما حمله القامون عليها من مشروع اجتماعي... وفي الوقت نفسه هي حرب تحرير، لأنها استهدفت أيضاً التخلص من احتلال بغيض للأرض... »².

في هذه المداخلة سأحاول أن أتناول العوامل التي دفعت بالمشاركة إلى الاهتمام بالثورة الجزائرية، معرجاً عن أهم التواليف التاريخية المشرقية، يليها نماذج لكتاباتهم.

1- العوامل التي دفعت بالمشاركة إلى الاهتمام بالثورة الجزائرية:

تم اختيارنا لهذا الموضوع بالذات لجملة من العوامل فرضتها الثورة الجزائرية على المشاركة تتمثل فيما يلي³ :

- الوهج الذي عرفته هذه الثورة في فترتها وتعلق الشعوب العربية بها.
- التعاطف المادي والمعنوي الذي كانت تلاقيه هذه الثورة.
- الانتصار الذي حققته هذه الثورة لدرجة قول البعض أن العرب والمسلمين لم يحققوا

انتصارا بهذا الحجم من انتصارات صلاح الدين الأيوبي.

- نظرة العرب إلى الثورة الجزائرية بأنها مدرسة وتجربة للمقاومين العرب الذين يجب عليهم الاستفادة من تاريخ هذه الثورة.

هذه الخصائص والميزات هي التي حاول المشاركة استلهاها وفهمها، وذلك عن طريق البحث والتأليف فيها. فماهي أبرز الكتابات التاريخية المشرقية التي تناولت الثورة الجزائرية ؟ قبل التطرق إلى موضوع الكتابات التاريخية المشرقية، يجب أن نميز بين تجربة المشاركة في الكتابة التاريخية عن الثورة الجزائرية.

إن الكتابة التاريخية المشرقية لم تكن في نسق واحد، بل فيها ما هو على شكل كتاب⁴، والبعض الآخر جاء كمذكرات شخصية⁵، وجاءت بعض الكتابات ممنهجة وأكاديمية في طرحها التاريخي، لكن هذه الكتابات الأكاديمية انحصرت وانصبت كلها على الحركة الوطنية ممثلة في حزب الشعب، والحركة الإصلاحية الجزائرية المتمثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁶. بينما نجد كتابات أكاديمية وعلمية لكنها وضعت أساسا للمقارنة⁷.

1- التأليف المشرقية حول الثورة الجزائرية (فتحي الديب ومصطفى طلاس نموذجا):

تكاد تنعدم الدراسات التاريخية المشرقية حول الثورة الجزائرية، باستثناء بعض الكتابات التي يغلب عليها الطابع الدعائي والأدبي⁸، نذكر منها كتابات بسام العسلي التي تدور حول بعض الشخصيات وأهم الأحداث التي عرفتها الثورة، بالإضافة إلى كتابات حول الفترة المسلحة للثورة، ففي هذا يقول الباحث رابح لونيسي: «... كتاب مصطفى طلاس الثورة الجزائرية الذي هو ليس بكتاب تاريخ أكثر مما هو كتاب يغلب عليه الطابع الأسطوري، ولا يرقى إلى الطابع الأكاديمي العلمي، بالرغم من أنه قد وضعه بطلب من الرئيس هواري بومدين الذي قال أنه وضع في يده الإمكانات المادية والوثائقية، وكان الهدف من هذا العمل هو الرد على كتاب إيف كوريير⁹ (yvecourrière)، الذي أقلق بومدين لأنه حسب ما يبدو قد مسه في عقده تجاه الكثير من القيادات البارزة للثورة التي أبرزها إيف كوريير...»¹⁰.

ويضيف رابح لونيسي قائلا: «... كما يبدو أن كتاب هذا الأخير قد كشف عن بعض مناورات بومدين في كل من وجدة وغار الدماء للاستيلاء على السلطة بعد استرجاع الجزائر استقلالها

الذي كان فيه هؤلاء الأبطال مجاهدون في الجبال والفيافي من أجل تحرير الأرض...»¹¹.

وأما بشأن المذكرات فلا نكاد نجد إلا مذكرات فتحي الديب بعنوان «عبداناصر والثورة الجزائرية» استعرض فيه دور عبداناصر في دعم الثورة الجزائرية، ولكن بشكل مبالغ فيه إلى درجة الاعتقاد أن المفجر والمخطط لها هو عبداناصر¹².

مع أن الأمر يؤكد مدى ضخامة الثورة الجزائرية في انتمائها العربي الإفريقي ومحاولة كل من العرب والأفارقة إدراج نهج وعمل الثورة في أعمالهم التحريرية، فهذا كل من الدكتور فيكاس مومي زعيم حزب اتحاد الكاميرون، والزعيم الصومالي محمود حربي، وجيبو بكاري زعيم سوابا في النيجر، وغيرهم من ألهمتهم الثورة الجزائرية¹³. التي فرضت نفسها على فرنسا واعتقدت بأنها أصبحت بابا رئيسا إلى كل من العالم العربي والعالم الثالث¹⁴.

وحول كتاب فتحي الديب ناقش الباحث رابح لونيسي منهجه في كتابه فيقول: «...لدرجة أن بعض المصريين البسطاء وحتى الكثيرين من المتعلمين منهم يعتقدون أن عبداناصر هو الذي حرر الجزائر...»¹⁵.

الشيء الذي يدفعنا إلى التساؤل كيف كانت نظرة فتحي الديب إلى قادة الثورة؟

كانت نظرتة لا تخرج عن البعد القومي، الأمر الذي به في نهاية المطاف إلى إبراز أحمد بن بلة على حساب القيادات الأخرى الأكثر منه شأنا، كون بن بلة قيادة موالية لبن بلة¹⁶، وفي المقابل نجده لا يعتني بأمور القيادات الأخرى، بل الحط منها، وذلك من أجل إبراز ما يسمى بالثورة المصرية وتجربتها في التحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي¹⁷.

هذه هي أهم ملامح كتابات فتحي الديب ومصطفى طلاس التي وضعها الباحثون في المشرق العربي حول الثورة الجزائرية. إذ نسجل منذ البداية أنها شحيحة جدا، وقد أولى أصحاب هذه الكتابات اهتماما كبيرا بالحركة الإصلاحية أكثر من الحركات الأخرى، خاصة الاستقلالية منها، ومنهم من يرى بأنها زيفت تاريخ الثورة إلى درجة اعتقاد الكثير من الدارسين لهذه الكتابات المشرقية دون الكتابات الأخرى¹⁸.

وممكن الزيف في كتاباتهم حسب البعض يكمن في إبراز جمعية العلماء المسلمين في إشعال فتيل الثورة، ويلاحظ أن هذا الاعتقاد ساد بقوة لدى التلاميذ والطلبة المعربين الذين لا يقرأون

فمن خلال كلامنا السابق كنا قد بسطنا القول عن دور فتحي الديب في نشر حقائق مهمة عن الثورة لا شيء سوى أن هي التي أثرت فيه وأخرجته بقدر ماتلمذ في رحابها، فالثورة الجزائرية أثرت وتأثرت بالمحيط الخارجي شأنها شأن بقية الثورات في العالم. وهو يجب أن نوضح أن المصريين في فترة من فترات التاريخ كانوا قد تأثروا بفكر علماء الجزائر ومصلحيها، فهذا على سبيل المثال الخالدي صالح بن عمار²⁰

بعد أن استقر في القاهرة نشر عدة مقالات سياسية في بعض الصحف المصرية عالج فيها الوضع المأساوي الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية²¹. فهذا دأب الجزائريين لايحيدون عنه قيد أمله في تعاطفهم مع القضايا العربية الإسلامية، ومما جاء في هذا: «...ومن مقالاته أي (الخالدي) نخص بالذكر مقالا هاما نشرته صحيفة مصرية ناطقة بغير العربية تحت عنوان (الإسلام) وقعه باسمه الكامل صالح بن عمار الخالدي الحسين، وقد جلب هذا المقال أنظار كثير من المثقفين العرب. منهم أحد الكتاب المصريين المدعو خليل أفندي الذي أراقه كثيرا فقدم صاحبه إلى القراء العرب في مقال نشره في صحيفة المؤيد بتقدير واحترام كبيرين مشيرا إلى أن صالح بن عمار الخالدي هو شاب في مقتبل العمر لايعرف الكلل والملل يزخر حيوية ونشاطا تتمثل فيه كل صفات الرجولية والمروءة العربية تجول في أوروبا طولا وعرضا وزار كثيرا من البلدان الإسلامية مخترقا الصحاري الإفريقية العربية، واعترافا بما بذله من جهود لنصرة الإسلام والمسلمين خصص السلطان العثماني لضيافته إقامة دامت عدة أشهر...»²²

فمن المعلوم أن الثورة الجزائرية كان لها صدى وتأيد الرأي العام العالمي لها لسببين اثنين: - أولها: أن الثورة الجزائرية تعد أحد الثورات الكبرى في القرن العشرين، وذلك من خلال تناول الخطاب التاريخي لها، وإشعاعها وتأثيرها العالمي²³.

- ثانيا: دور الصحافة الجزائرية في إبلاغ أخبار الثورة، وهذا مايتجلى في ملاحظة الكاتب المصري سعد زغلول فؤاد الذي عاش مدة من الزمن مع الثوار في الجبال المحررة إذ كتب يقول: «... كل شيء يدور في الميدان أو خارجه إنما يسجل على الورق ويتحرك بأمر كتابي أو شفاهي وفق قوانين الجيش، وكل عملية حربية تدور في الميدان يكتب عنها قائد الفصيلة التي قامت بها تقريراً مفصلاً إلى قائد المنطقة الذي يعتمد عليه ويصدر عنه بلاغ رسمي يتولى

قسم الدعاية التوزيع الصور منه على دور الصحف ووكالات الأنباء كما يحتفظ - الشيف
سكرتير- بالأصل في الأرشيف...»²⁴.

وقد لعبت الصحافة الجزائرية دورا هاما في نهضة الأمة العربية فقد جاء في جريدة المجاهد في العدد 28 الصادر في أوت 1958 ماي: «... ثورة القومية التي نحيها في أيامنا هذه هي لتصليح المفاهيم المغلوطة للقيم الخلقية والاجتماعية، كما أنها ثورة على اليأس والانقياد، اليأس من مستقبل نهضة هذا الشعب العربي، ثورة على الوطنيات والقوميات الضيقة، ثورة على السلبية والخمول وأسباب التصدع، والفساد والطغيان واستغلال الوطنية. ثورة المواطن على الرعوية...»²⁵.

2- العوامل المؤثرة في الخطاب التاريخي المشرقي (فتحي الديب ومصطفى طلاس):

يمكننا هنا تسجيل بعض الملاحظات منها :

1- المركزية المشرقية: يتضح لنا من خلال تصفحنا لهاذين الكتابين أنهما لا يخلوان من المركزية المشرقية . وأن هذه الأخيرة في نظرهما هي الأصلح للمجتمع الجزائريين، فالمركية المشرقية تختفي وراءها مصر التي تعد مركز ميلاد النهضة العربية بالإضافة إلى بلاد الشام ، فلهذا جاءت كتابتهم حافلة بهذه المعاني وأضيفا صفة المركزية المشرقية على تاريخ الثورة الجزائرية كلها²⁶.

20- العائق اللغوي: هناك عامل يتمثل في العائق اللغوي ، بأن المشاركة لا يتقنون اللغة الفرنسية ، فمن الصعب ومن المستحيل الكتابة والبحث في تاريخ الثورة الجزائرية ، فلهذا جاءت كتاباتهم مركزة فقط على الحركة الإصلاحية ، لأنها هي الوحيدة التي كتبت أدبياتها باللغة العربية²⁷.

3-البعد القومي العربي للثورة الجزائرية: ركز كل من فتحي الديب ومصطفى طلاس على إبراز هذا البعد القومي ، على سبيل المثال يركز فتحي الديب على إبراز أحمد بن بلة على حساب القيادات الأخرى الأكثر شأنًا منه ، بل حاول من ذلك الحط من شأن الكثير من القيادات الكبيرة للثورة الجزائرية ، وهذا دون أن ننسى أن الهدف من ذلك هو إبراز قيادة موالية لعبد الناصر ، ولاشك أن هذا يؤثر على الثورة الجزائرية ، ولهذ جاءت مذكرات فتحي الديب في الأساس تقزما لهذه الثورة ، لا لشيء سوى إبراز الثورة المصرية وتجربتها في التحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي²⁸ ، هذا عن فتحي الديب ، أما منهج مصطفى طلاس فقد وصفه أحد

الباحثين:«... فكتاب مصطفى طلاس» الثورة الجزائرية» كان أبعد من أن يكون كتاب تاريخي وكان أقرب من الكتابات الأسطورية ، ولايرقى إلى الطابع الأكاديمي العلمي...»²⁹

3- نماذج من كتابات (مصطفى طلاس وفتحي الديب):

1- نماذج من كتابات مصطفى طلاس :

1- إعجابه الشديد وحبه الفياض لأرض الجزائر: يظهر هذا في جل كتاباته فمثلا عندما يتكلم في الفصل الأول عن «دراسة جيولوجية الأرض والسكان» يقول : « ... قبل زيارتي للجزائر كنت أقول لماذا يتمسك الفرنسيون بهذا الأرض التي ليست وطنهم ولكن بعد زيارتي للجزائر الحبيبة في العام 1974م أدركت أن الفرنسيين كانوا يدافعون عن الفردوس المفقود...»³⁰

2- نظرته إلى الثورة الجزائرية :جاء في الفصل الثاني من كتابه مايلي : «... لقد بدأ الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانتهى في الجزائر...»³¹، يفهم من كلامه أن دحض المستعمر لا يكون إلا عن طريق ثورة مظفرة حسب مصطفى طلاس :«... ستبقى الثورة الجزائرية أو حرب التحرير ، هي الفترة الحاسمة في التاريخ المعاصر للجزائر الحديثة ، وهي تمثل بصدق مأساة الجزائر وعظمتها في وقت واحد ، وقد كتبت هذا المرحلة بدماء الشهداء وتضحيات المجاهدين...»³² هذه هي نظرة مصطفى طلاس التي تمثل في نظرنا الموقف السوري الرسمي ، فماهو ياترى الموقف السوري الشعبي من الثورة الجزائرية .

في هذا الشأن يذكر الباحث أحمد طرا بين موقف المجلس النيابي السوري من الثورة الجزائرية فيقول : «... ويلاحظ أن غالبية النواب اعتبروا قضية دعم الثورة الجزائرية وتحرير الجزائر جزءا ليتجزأ من عملهم الدائم لتحقيق الوحدة بين أقطار الأمة العربية . وفقا للدستور السوري الذي أقسم النواب على احترام نصوصه والالتزام بتنفيذها كذلك صبا جام غضبهم على جامعة الدول العربية التي اتهمت آنذاك بأنها لم تصنع شيئا مذكورا للثورة الجزائرية ... وأكد النواب أن انتصار القطر الجزائري لابد أن يسهم في تحرير الأجزاء العربية الراححة تحت الاستعمار بل إنه فاتحة لتحرير شعوب العالم المغلوب على أمرها...»³³

3- إيراده لإحصائيات وأرقام حول معارك التحرير إبان الثورة الجزائرية : يذكر في الفصل

الثالث الموسوم بـ « الثورة في بدايتها »... أظهر الشعب في هذه الفترة حماسة رائعة للقيام بعمل عظيم سيبقى خالدا في تاريخ الثورة الجزائرية. وهو معركة (جبل عمور) التي وقعت في 2 تشرين الأول 1956م ، وشارك فيها 500 جندي من جيش التحرير الوطني ، في حين كانت القوات الفرنسية تضم آلاف المقاتلين ، وقد استمرت المعركة أسبوعا كاملا . وكانت نتيجتها قتل 1375 جنديا فرنسيا ، من بينهم 92 ضابطا دفنوا في تيارت وإحراق 82 سيارة (ج.م.س)... ولم يخسر المجاهدون في المعركة سوى 40 شهيدا. وذلك لأن المجاهدين أفادوا من عنصر المباغتة، بقدر ما أفادوا من الموقع الطبيعي لميدان القتال ، حيث الجبال المنيعه والأراضي الوعرة...»³⁴.

4- نماذج من كتابات (فتحي الديب) :

1-دوافع وأسباب تأليف فتحي الديب لكتاب «عبد الناصر وثورة الجزائر» : نورد هنا فقرتين أوردتهما الكاتب لتبرير قيامه بنشر الكتاب وتقول الأولى : «... انطلاقا من إنفرادي بمعايشة ومشاركة الأخوة الجزائريين مخططي ومفجري ثورة أول نوفمبر 1954 ، ومتابعة النضالية لكل أحداث الثورة وتطوراتها من خلال تحملي لمسؤولية دعمها لكل إمكانيات مصر ثورة منذ تفجيرها إلى أن حقق الشعب الجزائري أهداف نضاله في الحرية والاستقلال...»³⁵.

ويورد في الفقرة الثانية مايلى : «... ومن ثم أصبحت من القلائل اللذين أتاحت لهم الفرصة للإطلاع المستمر والإلمام اليومي لكل أحداث مسيرة النضال الجزائري رغم تغيير وتبدل القيادات وما ترتب على ذلك التغيير من تطورات أثرت وتأثرت بها المسيرة النضالية الطويلة. وبقيت المحور الرئيسي الذي تتلقى عنده كافة الخيوط »³⁶

2- الهندسة المصرية لثورة الجزائرية :يجزم فتحي الديب أنه هو المهندس الحقيقي لثورة نوفمبر الجزائرية ، فيقول أنه هو الذي طرح مسألة الاختيار بين أسلوبين متباينين في بدأ الكفاح المسلح ، وهو الذي رجع كافة الأسلوب الذي يعتمد عنصر المفاجأة باستخدام المجاهدين في توجيه الضربة الأولى إلى أكبر مجموعة من التجمعات العسكرية للجيش والبوليس التي يتوفر بها السلاح والذخيرة ، بهدف الاستيلاء على هذه الأخيرة ونقلها إلى حيث يتم استخدامها في عمليات أخرى لحين وصول السلاح الذي ستقوم بهتريه وهو الذي استدعى ابن بله وأخبره بموافقة الرئيس عبد الناصر على مبدأ دعم حركة النضال المسلح بالجزائر ثم طلب منه أن يسافر ليخطر زملاءه في إطار من السرية التامة على أن يعود مع خطتهم التفصيلية للعمل

وإمكانياتهم في التهريب للسلاح مع بيان كامل باحتياجاتهم الأولوية لتحديد توقيت البدء في الكفاح³⁷.

3-تقييمه لمؤتمر الصومام : يذكر فتحي الديب أن مؤتمر الصومام شكل نقطة تحول خطيرة في مسيرة الثورة حسب إفادة السيد أحمد بن بلة رحمه الله وذلك لأسباب :

- إن اعتراض الولايات الشرقية والغربية التي تغيبت عن المؤتمر لن يتوقف عند حد الاعتراض على القرارات ، بل ينتظر أن يتطور إلى صدام في إطار من محاولات التصفية بين القيادات في نطاق صراع داخلي .

- إن الولايات المجاورة للحدود ستقوم بحجب السلاح عن الولايات الداخلية لإرغامها على التراجع عن القرارات المؤتمر،وقد وصلته رسائل تفيد بذلك .

- احتمال انتقال صورة الصراع الداخلي المتوقعة إلى الخارج بعد خروج المجموعة الموالية لعبان رمضان ، الأمر الذي سيزعزع ثقة الرأي العام العربي والعالمي في الصورة المشرفة التي أمكن تحقيقها لثورة الجزائر.

- بدء مرحلة الصراع بين السياسيين والعسكريين وما تحمله من آثار ضارة بالمسيرة الثورية خاصة بعد انتشار نغمة ، سياسي وعسكري ،في أوساط جيش التحرير الوطني³⁸.

خاتمة :

يمكننا أن نقول في الختام أن الثورة الجزائرية ، والفكر الجزائري عموما فرضا نفسيهما على الكتابات التاريخية المشرقية ليس على مصر وسوريا فحسب،بل على العالم العربي فعلى سبيل المثال تعدى ذلك إلى اليمن حيث يذهب الكثير من اليمنيين³⁹ إلى درجة القول أن تاريخ اليمن المعاصر قد بدأ بمجيء الشيخ الورتيلاني⁴⁰ إليها عام 1947م وأنه هو الذي أدخل اليمن في العالم المعاصر⁴¹.

الهوامش :

⁽¹⁾ حول هذا ينظر : André Découflé , sociologie des révolutions , Presses : universitaires

de France , 2^eéd paris 1970 .

⁽²⁾ رابح لونيسي :الصدى العالمي لأفكار ومبادئ الثورة الجزائرية ، في مجلة الحضارة الإسلامية ،مجلة تصدر عن جامعة وهران ، الجزائر 2011، العدد15،ص 235.

- ⁽³⁾ رابح لونيسي :دراسات حول إيديولوجية وتاريخ الثورة الجزائرية ، الطبعة الثانية ، دار كوكب العلوم ، الجزائر 2012،ص ص 319-320.
- ⁽⁴⁾ مثل كتاب مصطفى طلاس : الثورة الجزائرية .
- ⁽⁵⁾ مثل مذكرات فتحي الديب : جمال عبد الناصر والثورة الجزائرية .
- ⁽⁶⁾ مثل كتاب أحمد الخطيب : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986.
- ⁽⁷⁾ مثل كتاب أسعد السحمراني : الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي ، دار النفائس ، بيروت 1984 .
- ⁽⁸⁾ رابح لونيسي : دراسات حول ... ، مرجع سابق ، ص 320.
- ⁽⁹⁾ هو صحفي فرنسي له كتابات حول الجزائر نذكر منها : «حرب الجزائر »
- ⁽¹⁰⁾ رابح لونيسي : دراسات حول ... ، مرجع سابق ، ص 321.
- ⁽¹¹⁾ نفسه ، ص 321.
- ⁽¹²⁾ نفسه ، ص 321.
- ⁽¹³⁾ محمد البسيوني عبد الحليم : بحث في الثورة الجزائرية ومساندة مصر لها ، بحث مقدم للأستاذة الدكتورة سعيدة محمد حسني ، كلية التربية بالعريش، مصر 2009-2008، ص ص 31-32.
- ⁽¹⁴⁾ محمد البسيوني عبد الحليم : المرجع السابق ، ص 34.
- ⁽¹⁵⁾ رابح لونيسي : دراسات حول ... مرجع سابق ، ص 321.
- ⁽¹⁶⁾ نفسه ، ص 326.
- ⁽¹⁷⁾ نفسه ، ص 326.
- ⁽¹⁸⁾ نفسه ، ص 326.
- ⁽¹⁹⁾ نفسه ، ص 326.
- ⁽²⁰⁾ ولد صالح بن عمار في قرية بني مزلين شرقي قالمة سنة 1879م، أُلقي عليه القبض 06 أوت 1906م ونقل إلى وهران حيث سجن سنة بعدها نفي إلى دمشق ، ومنذ هذا التاريخ إنقطعت أخباره ولا نعرف كيف واين إنتهت حياته .
- ⁽²¹⁾ عمار هلال : مساهمة الخالدي صالح بن عمار في التعريف بالقضية الجزائرية 1903-1906، في مجلة الدراسات التاريخية ، مجلة يصدرها قسم التاريخ جامعة الجزائر ، الجزائر 1992 ، العدد 6، ص 152.
- ⁽²²⁾ عمار هلال : المقال السابق ، ص 152.
- ⁽²³⁾ بوعزة بوضرساية : لمحات تاريخية عن مقدمات ثورة نوفمبر 1954م ، في مجلة الدراسات التاريخية ، مجلة يصدرها قسم التاريخ جامعة الجزائر ، الجزائر 1992 ، العدد 6، ص ص 173-183.
- ⁽²⁴⁾ أحمد حمدي : الثورة الجزائرية والإعلام دراسة في الإعلام الثوري ، الطبعة الثالثة ، الجزائر 2007، ص ص 138-139.
- ⁽²⁵⁾ أحمد حمدي : المرجع السابق ، ص 180.
- ⁽²⁶⁾ رابح لونيسي : دراسات حول ... ، مرجع سابق ، ص ص 323-324.
- ⁽²⁷⁾ نفسه ، ص 325.
- ⁽²⁸⁾ نفسه ، ص 325.

- ⁽²⁹⁾ نفسه ، ص 326.
- ⁽³⁰⁾ مصطفى طلاس : الثورة الجزائرية ، تقديم بسام العسلي ، طبعة الأولى ، دار الشورى ، الجزائر 1972م ، ص 13.
- ⁽³¹⁾ مصطفى طلاس : المرجع السابق ، ص 35.
- ⁽³²⁾ نفسه ، ص 35.
- ⁽³³⁾ أحمد طرابين : أصداء التضامن في المجلس النيابي السوري مع الثورة الجزائرية 1954م-1962م ، في أعمال الملتقى الدولي الأول حول الثورة ، منشورات المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر 1984م ، ص 33.
- ⁽³⁴⁾ مصطفى طلاس : المرجع السابق ، ص 129.
- ⁽³⁵⁾ محمد العربي الزبيري : قراءة في كتاب عبد الناصر وثورة الجزائر ، الجزائر 2007 ، ص 10.
- ⁽³⁶⁾ محمد العربي الزبيري : المرجع السابق ، ص 10.
- ⁽³⁷⁾ نفسه ، ص 35.
- ⁽³⁸⁾ نفسه ، ص 61.
- ⁽³⁹⁾ منهم الباحث محمد أحمد الشامي في كتابه «رياح التغيير في اليمن» ، الطبعة الثانية ، بيروت 1985م .
- ⁽⁴⁰⁾ حول شخصية الفضيل الورتيلاني أنظر : علي مرحوم : مواقف من جهاد الفضيل الورتيلاني ، نشر بمجلة الثقافة .
- ⁽⁴¹⁾ رابح لونيسي : محاضرات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، الطبعة الثانية ، كوكب العلوم ، الجزائر 2012م ، ص 106-107.

أضواء على واقع النشاط الكشفي النسوي الجزائري قبل اندلاع ثورة التحرير 1954.

د/ علوان أمال - جامعة سيدي بلعباس

مقدمة:

يبدو للبعض من الوهلة الأولى بعد قراءة العنوان أنه من العادي أن يكون لكل نشاط رجالي إن صحّ التعبير نشاط نسوي يوازيه أو يكمله، بمعنى بما أنّ النشاط الكشفي الذكوري كان موجودا في الجزائر سنوات الثلاثينيات من القرن الماضي فلا عجب أن يوجد له فرعا نسوي، بيد أنه من المهم جدا وضع الأحداث في سياقها التاريخي، وتفهم ذهنيات وعقليات كل وقت وكل عصر، فالمرأة في المجتمع الجزائري زمن الاستعمار الفرنسي، كان لها وضع خاص، فالفتاة بمجرد ظهور علامات البلوغ عليها مطالبة بالتحجب¹ قبل الخروج من البيت، تلك الخرجات التي كانت قليلة وبرفقة الأم أو الجدة باتجاه المقبرة يوم الجمعة، أو الحمام، أو لحضور حفل زفاف، فالحماية كانت ضرورية، للبنات والمرأة التي هي رمز كل كرامة، أو شرف، أو عرض بقي للرجل الجزائري، بعد أن اغتصب الاستعمار منه الأرض، وبالتالي فإنّ التفريط في المرأة يعني النهاية لكل وجود لا يزال يعتز به الرجل، وقلة هنّ الفتيات اللاتي أتممن دراستهنّ الابتدائية وأقلّ منهنّ اللواتي وصلنّ إلى الثانوية أو الجامعة، لأن الاختلاط كان ممنوعا و منبوذا في ذلك الوقت، انطلاقا مما تقدم يحق لنا التساؤل عن: ماهو واقع الكشافة النسوية الجزائرية قبل الثورة التحريرية 1954 ؟ هل كانت بنفس حجم وفعالية النشاط الكشفي الذكوري؟ هل كان هذا النشاط مشابها للنشاط الكشفي النسوي الأوروبي أو المشرقي؟ أم امتاز بطابع خاص نابع من مقومات المجتمع الجزائري؟

1- ميلاد الكشافة في العالم: يرجع تأسيس أول فرقة كشفية إلى رائدها الذي أصبح اسمه مرتبط بها، «روبرت بادن باول» المولود 22 فيفري 1857 بدأ تجربته الكشفية عام 1899-1900 م لما كان ضابطا مسؤولا للدفاع عن إحدى مواقع المستعمرات البريطانية في جنوب إفريقيا ضد قبائل البوير التابعة للهولنديين الذين حاصروا مدينة مفكنج « Mafeking » طيلة سبعة أشهر كاد يقضى عليهم فيها لولا جهود الأطفال في الحرب، حيث فكر بادن باول في جمع بعض فتيان المدينة وشبانها وتدريبهم على أعمال الإسعاف والطهي وإرسال الرسائل، والشفرة العسكرية وغيرها من أعمال الدفاع المدني، فاستطاع هؤلاء الأطفال أن يحلوا محل الجنود الذين كانوا

مكلفين بالقيام بهذه الخدمات، وبذلك أتيح للجنود تدعيم صفوف القتال ورفع الحصار عن المدينة بفضل ما أداه هؤلاء الأطفال من أعمال جليلة.

عاد بادن باول إلى إنجلترا عام 1907 م وكون أول فرقة متكونة من عشرين شابا أقام لهم معسكرا بجزيرة بروان سي « Brown Sea » بجنوب إنجلترا، تعلموا خلال إقامتهم كيفية تنظيم أيامهم، وتسيير أمورهم، بأداء مختلف النشاطات، وتعرفوا على تقنيات الاكتشاف وفنيات التمويه والنضال الشريف²، فأعجب الشباب بهذه التجربة، كما استخلص منها «بادن باول» نتائج هامة، أدرك من خلالها بأن أسلوبه في تربية الشباب يجب أن يتم عن طريق الشباب أنفسهم، بتعليمهم قيمة الحياة الجماعية في ظل الأفواج والوحدات الشبانية التي تنظم وفق الأعمار، كما أصدر لهذه الوحدات قانون الكشاف (la loi scout) الذي ينص على الشرف والأمانة وحسن الطباع، روح المبادرة والإخلاص والوفاء وحب الوطن فكلها خصال وقيم أساسية لرجال المستقبل³.

كما حرر قانون و عهد الكشاف (la promesse scout) الذي جاء فيه:

أعاهد الله على أن أبذل جهدي:

1- لأقوم بواجبي نحو الله و الوطن.

2- لأساعد غيري في سبيل الخير.

3- لأحفظ نفسي: قويا في جسدي نيرا في عقلي كريما في خلقي.

4- لأن أطيع شريعة الكشاف⁴.

كل كشافة العالم تبنت هذا القانون والعهد الكشفي مع تعديله كل حسب ثقافته ونظامه الإجتماعي والسياسي.

كما اختار بادن باول بدلة بسيطة ذات مظهر عسكري تتمثل في سروال قصير وقميص ذو لون مسمر، و منديل رقبة، و قبعة عريضة الحواف.

في الجزائر ظهر أول فرع للكشافة سنة 1914م على أيدي المستوطنين الذين رأوا فيها أداة صالحة لتربية أبنائهم وكانت صورة طبق الأصل للحركة الكشفية في فرنسا، حيث كان لها

جامعات و اتحادات تمثلها مجالس عليا في الجزائر كما في فرنسا، وقد كان ظهورها بالجزائر على النحو التالي:

سنة 1914 م تأسست الكشافة الفرنسية (اللائكية) (France les Eclaireurs de)

في عام 1920م ظهرت كشافة الوجدويين لفرنسا (بروتستانية)

(Les Eclaireurs Unionistes de France E.U.F) لتظهر سنة 1922م الكشافة الفرنسية

(les Scouts de France S.D.F) (كاثوليكية)

أما سنة 1929م شهدت ميلاد ثلاثة جمعيات كشفية فرنسية هي:

كشافة الأحرار (les Eclaireurs indépendants E.I) و هي منبثقة عن الكشافة الفرنسية

(E.D.F)، و المرشدون الفرنسيون للبنات الكاثوليك (les guides de France G.D.F) و أخيرا الفيدرالية الفرنسية الكشفية للبنات (لائكية).

la Fédération Française des Eclaireurs de France F.F.E)5)

أما الكشافة الفرنسية النسوية في الجزائر فلم تظهر إلا سنة 1929م، بعد نجاح التجربة الكشفية للذكور، وقد شابهتها في كل شيء ومن ذلك المشي في الهواء الطلق و التخيم في الغابات نهارا وليلا، وهذا النشاط سرعان ما لقي استحسانا خاصة و أن العديد من النساء القائدات كنّ يشرفن في بداية الأمر على فروع الأشبال من الصبيان.. 6

2- كشافة الفتيات المسلمات المنظمة من قبل «الأخوات البيض»:

نشأت هذه التنظيمات ابتداءً من سنة 1940م، إذ اهتمت «الأخوات البيض» بالفتيات المسلمات داخل المراكز الصحية و الاجتماعية كمقرّ الصليب الأحمر بالجزائر (العاصمة) ومستشفى ميشلات Hôpital Michelet في عين الحمام بمنطقة القبائل 7.

أما في الجنوب الوهراني و تحديدا في البيض، كانت غالبية الفتيات المسلمات اللاتي جمعنّ داخل هذا التنظيم يتييمات أو من عائلات فقيرة، دخلنّه لما فيه من أجواء كالتسلية والترويح عن النفس كالغناء و الألعاب التي تناسب سنهنّ الصغير.

بيد أنّ هذه التنظيمات واجهت مشكلة الاستمرارية، فالفتيات الصغيرات ما إن يبلغنّ سنا معيناً حتى يتوجب عليهنّ المكوث بالبيت. وأمام هذا العائق عمدت «الأخوات البيض» إلى إبعاد فكرة التخييم والجولات التي هي من أساليب الكشف في التربية الجسمية والأخلاقية لأنها لا تتناسب مع عادات وتقاليد المسلمين الجزائريين، والاكتفاء بتعليم الفتيات المسلمات التدابير المنزلية، الخياطة وتربية الأطفال داخل مقراتها، لتتوقف هذه التنظيمات في نهاية سنة 1945م 8.

3- الكشف النسوي الإسلامي الجزائري :

[2]- الإرهاصات الأولى: وجد الفرع النسوي الكشفي في القطاع القسنطيني منذ السنوات الأولى لنشأة الحركة الكشفية الإسلامية، فاستناداً لتقارير السلطة الاستعمارية، شهد فوج البلدية المختلطة «سدراتة» سنة 1941 انضمام فتیان وفتيات المدارس القرآنية إليه 9، فضم حوالي ثلاثين فتاة إلى جانب ثمانين صبي 10، كما حاولت الأنسة «حدة بنت لخضر» ابنة «زراية لخضر» ذات العشرين ربيعاً، تمديد نشاطها الكشفي من باتنة إلى منطقة الزيبان، بإنشاء فرع كشفي ببسكرة، وكان دليلها في المنطقة السيد «موهوب» من سيدي عقبة 11. هذه الأنسة تصفها التقارير أنها كانت تلميذة بن باديس، ومعلمة بمصالحه، 12.

في حين لا نجد فروعا نسوية للأفواج الكشفية بالقطاع الوهراني، باستثناء تجربتين اثنتين تطلعنا عليهما الوثائق الأرشيفية أحدهما تتمثل في إقبال السيدة بن كيملة يمينه على رئاسة فوج كشفي بوهران في أفريل 1941م من بين أعضاء لجنتها العاملة:

- الرئيسة: بن كيملة يمينه ممرضة بمصلحة حفظ الصحة لبلدية وهران.

- نائب الرئيس الأول: بن كيملة مجاهد: ابن الرئيسة و شرطي سابق.

- نائب الرئيس الثاني: محاني عبد الرحمن، عامل بميناء وهران، و نائب لحزب الشعب الفرنسي و عضو في الاتحاد الشعبي للشباب الفرنسي 13.

هذا الفوج بالرغم من أنه لم يحتوي على فرع الأشبال إلا أن تقارير الأمن للإدارة الاستعمارية تشير إلى ارتفاع عدد أعضائه الذي فاق الستون بعد شهرين من تكوين الفوج، أغلبهم من العمال 14، إلا أنّ تقرير آخر يشير إلى «اندماج هذا الفوج إلى الكشف الإسلامية الجزائرية

حيث أصبح تعدادهم في مدينة وهران حوالي 180 كشافا (أشبال وجواله)» 15.

لم نصادق اسم تلك الرئيسة مرة «أخرى و لا نعلم إن كانت هي المرأة الوحيدة داخل الفوج قبل اندماجه أم هناك بعض النسوة إلى جانبها، خاصة و أن تقارير الأمن اهتمت بتعداد الفوج و لجنته العاملة على حساب اسم الفوج الذي لم تذكره.

[2]- الإنطلاقة الحقيقية للنشاط: انطلقت الحركة الكشفية النسوية الإسلامية بصفة رسمية، إثر الجمعية العامة التأسيسية التي انعقدت بقسنطينة عام 1946م بهدف تجديد اللجنة المسيرة و تحسين تنظيم الحركة 16.

يمكن القول أن التاريخ الذي اختير لإنشاء هذه الحركة كان يحمل الكثير من التحدي لأنها تزامنت مع انعكاسات الأزمة الكبيرة التي أوقعتها أحداث 8 ماي 1945م داخل الحركة، والتي ذهب العديد من قادتها كضحايا أبرياء لقمع أعمى، في حين من بقي منهم كان يحركهم إيماننا راسخا وعزما للمضي نحو الأمام. و بذلك نشأت داخل الفيدرالية (F.S.M.A) الموحدة فرع كشفي نسوي، استفاد من الخبرات المتوفرة لدى فرع الذكور خلال عشرية من النشاط، في كل من الجزائر (العاصمة)، قسنطينة و تيزي وزو.

تعاملت فيدرالية فتيان الكشفة الإسلامية مع قضية تكوين الفرع الكشفى للإناث بحذر وحرص شديدين نظرا لحساسية الوسط الاجتماعي وما تمثله المرأة فيه، فلم تتعجل الفيدرالية في مسألة تأسيس أفواج للرائدات قبل أن تشكل نواة صلبة للقائدات الكفوآت، لأن قادة الفيدرالية كانوا على علم بأن الفشل هنا غير مسموح به، لما سيسببه من ارتدادات خطيرة على الحركة الكشفية ككل، لذلك وضعت ضوابط صارمة لاختيار العناصر الشابة قصد تكوين الإطارات النسوية من بين الفتيات المسلمات اللائي ترددن على المدارس العربية والمؤسسات الثانوية أو الجامعية، وذلك لتدعيم الضمانات الأخلاقية للقائدات بثقافة قاعدية تمكنهن من استيعاب المنهجية الكشفية ثم تطبيقها بذكاء في الأفواج التي كلفن بها.

وقد تم إطلاع الفتيات بصعوبة المهمة الملقة على عاتقهن في العديد من المرات ومن ذلك توجيهات المرشد العام لجامعة الكشفة الإسلامية الأستاذ «محمود بوزوزو» 17 الذي تولى هذه المهمة سنة 1946 إذ جاء في مستهل حديثه المطول عن تعريف الإرشاد ومسؤوليات المرشد حيز خص به القائدات عنونه ب«توجيهه إلى فتياتنا الكشافات 18» نقتبس منه مايلي: «...إن

الكشافة الإسلامية الجزائرية تمارس كشافة تلتزم بالأحكام الإسلامية وتحترم عاداتنا الصالحة، فهي تستجيب لتطلعات شعبنا الذي يريد لأبنائه أن يشب على احترام شخصيته... فالمرأة في الإسلام تشغل مكانة رفيعة في المجتمع وإشعار المرأة المسلمة بدورها واجب لا بد منه، إننا نريد أن تكون الجزائرية مثلاً للمرأة التي تحترم نفسها وتفرض احترامها على الغير.... فقد علمنا أن الكشافة النسوية على ما يبدو غير مرضي عنها في المشرق، ولا نحب أن نسمع مثل هذه الانتقادات عندنا، لذا يجب على قائداتنا المحترمات أن تمتنعن عن التقليد الأعمى للشرق والغرب، فهل نأخذ من الآخرين أخطاءهم التي يشتكون منها؟

نصيحة أخرى نريد أن نسديها لكن: إياكن أن تعتبرن الكشافة ملهأً ترفيهية لتمضية الوقت، بل الواجب أن نسخر هذه الوسيلة التربوية لرفع مستوى قومنا ووطننا، إنكن تعهدتن بتربية فتياتنا ومعنى ذلك تهيئة الأجيال المقبلة، ستكون امرأة الغد التي سننشئها صورة منكن لا محالة، وستكون مسلمة صادقة وجزائرية صالحة، وصرفها عن هذا الطريق جريمة من الجرائم التي لا يغفرها التاريخ.....» 19

أنشئت حركة « جمعية الدليلات المسلمات » و نظمت طبقاً لصورة حركة الذكور، غير أنها حملت إشارة وقانون خاصة بها ، إضافة إلى مقرها العام ، و فيما يخص التربص كانت فيدرالية «فتيان الكشافة» تتفق مع الكشافة الفرنسية لتنظيم مخيمات تكوينية لصالح الإطارات النسوية، ويتم اختيار قائدات الكشافة الفرنسية من بين اللائي يعرفن الوسط الإسلامي وتقليده أكثر من غيرهن، كما كانت للإناث دورات تدريبية خارج الوطن كتلك التي كانت باتجاه فرنسا في صائفة 1952 في جانب قافلة للذكور كانت هناك قافلة للإناث 20.

تمحور برنامج التكوين في المخيمات حول الانشغالات المستعجلة للحياة اليومية كتكوينهن على الإقتصاد المنزلي، النظافة التطبيقية وتربية الأطفال من أجل تحضيرهن لدورهن المستقبلي كزوجات وكأمهات، والقضاء على المعتقدات الخرافية التي شابت الدين وهنا يبرز دور المرشد العام في شرح المبادئ الكبرى للدين الإسلامي الحنيف وما يحمله من مثل عليا، ليختم كل تربص بامتحان، وتحصل كل ناجحة من المتربصات على شهادة كفاءة لمهنة قائدة، مسلمة من القيادة العامة للكشافة الإسلامية الجزائرية بعد تقرير مديرة المخيم، علما أن القائدات الحائزات على هذه الشهادة هن فقط القادرات على تكوين فوج من «الدليلات المسلمات» بعد تكليفهن بذلك.

زيّ الدليلة: يتمثل في قميص أبيض طويل الذراعين وتنوره زرقاء قائمة دون زخارف تحمل بحمائل (bretelles) مسندة على الكتفين وقبعة زرقاء قائمة، إضافة إلى منديل يربط حول العنق وجوارب بيضاء.

من خلال ما تقدم نستنتج أن مجهودات كبيرة بدلتها الكشافة الإسلامية الجزائرية (S.M.A) ثم إدارة فتيان الحركة الكشفية الإسلامية (B.S.M.A) -بعد انشقاق عام 1948م- لتكوين بنات المنظمة الكشفية وسد الطريق أمام محاولات مصالح الشبيبة التابعة للولاية العامة التي كانت تسخر إمكانات معتبرة من أجل استقطاب الكشافة النسوية، غير أنّ الحركة الكشفية النسوية انحصرت نشاطها في مجال جغرافي معين، كقسنطينة التي كانت تشهد حركة تعليمية كبرى تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين، هذه الأخيرة التي شجعت الحركة الكشفية عامة و الفرع النسوي خاصة باختيار قائدات الأفواج من بين معلمات المدارس العربية الحرة أو زوجات للقادة الكشفيين، كالسيدة جيجلي والسيدة تيجيني 21، كما وجدت في الجزائر (العاصمة) التي كانت مركزا لكل النشاطات الفكرية والتفاعلات الثقافية و الاجتماعية والاقتصادية باعتبارها أبرز عمالات البلاد.

كما نخلص إلى أنّ فيدرالية فتيان الكشافة الإسلامية F.B.S.MA برئاسة «طاهر تيجيني» كانت تهتم بالنشاط الكشفي النسوي أكثر من نظيرتها فيدرالية «الكشافة. إ.ج «S.MA F» برئاسة «عمر لاغا» ، فعلى سبيل المثال احتضنت مدينة تلمسان مخيما كشفيا نظمته فيدرالية فتيان الكشافة يوم 10 أبريل 1950م دام 03 أيام حضره 80 كشافا و30 كشافة أنشئ من العملات الثلاث وهران، قسنطينة والجزائر (العاصمة) 22 ساهم هذا اللقاء في بروز أول فرع نسوي للكشافة الإسلامية بفوج «النصر» لفرنده (تيارت) التابع لفيدرالية فتيان الكشافة B.S.MA، أوائل سنة 1954 بقياد الأنسة «خليفة تالية بنت عيسى» .

ساهمت المخيم مساهمة كبيرة في إرساء حركة الكشافة للإناث 23 ، من خلال سلوك القادة في التأطير والعناية المستمرة التي قدّمتها إليهن لجان خاصة مكونة من أصدقاء الكشافة، كما تطلعنا الوثائق الأرشيفية أيضا أنّ الفرع النسوي استمر في النشاط حتى ديسمبر 1955 تاريخ آخر اجتماع لقادة « فتيان الكشافة الإسلامية» 24 ، بسيدي فرج (العاصمة)، وقد مثلت الفرع النسوي السيدة «تيجيني»، قبل انضمام قادة الفيدرالية « بصفة فردية في شبكات المقاومة لجبهة وجيش التحرير الوطنيين 25 .

حسب رأي المتواضع، فإنَّ سبب نقص الفروع النسوية الكشفية في عمالة وهران -وبالتالي قلة النشاط الكشفى النسوي- يعود إلى انتماء غالبية أفواج العمالة لفيدرالية «الكشافة. إ.ج. S.M.A» بعد انقسام 1948 هذا الفرع الذي لم يكن يخفي ميوله وعمله السياسي المتأثر بحزب الشعب-ح.إ.ج.د مما جعله عرضة لجملة من العراقيل والمراقبة الشديدة من قبل إدارة الاحتلال، بالتالي لم ترغب هذه الفيدرالية بالمجازفة وتعريض الفتيات إلى نفس مصير الرجال، فالمرأة في المجتمع الجزائري كانت مقدسة ولها حرمتها ولا يجب المجازفة بها مهما كانت النوايا حسنة .

الهوامش والاحالات:

- 1- كانت الفتاة البالغة تلف حولها قطعة قماش كبيرة ذات لون أبيض تغطي كافة جسمها من الرأس إلى الرجلين تسمى في الغرب الجزائري بـ « الكسى » أو « الملحفة » في حين تعرف في الوسط الجزائري بـ « الحايك » أما في الشرق الجزائري فلونها اسود و تعرف بـ « الملاية ».
- 2- شافية عبد اللاوي ، سامية خامس: « دور الكشافة الإسلامية الجزائرية قي الحركة الوطنية». دراسات و بحوث الندوة الوطنية الأولى حول تاريخ الكشافة الإسلامية الجزائرية،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 1999، ص 26.
- 3- Mohamed Tayeb Illoul-Ali Aroua : « le groupe Emir Khaled de Bel court Un Maillon de Scouts Musulmans Algériens 1946-1962 ». Edition : Dahleb, 1991.p50
- 4- Mohamed Fares : « Histoire du Scoutisme Musulman Algérien. » Travaux du premier Séminaire National d'études historiques, N°19, Alger, 1985, p 52.
- 5-Mohamed Derouiche : « Le scoutisme école du patriotisme », E.N.A.L, O.P.U, Alger, 1985, pp20-21
- 6-Idem, p 200.
- 7- Idem, P205 .
- 8- Idem, p 201.
- 9-CAOM .BOITE : 9 H 40, Préf de Constantine, C.I.E, N° 9672,le 1Juillet 1941.
- 10 CAOM .BOITE : 9 H 40, Préf de Constantine, N° 2684, le 22 Aout 1941.
- 11-CAOM .BOITE : 9 H 40, Préf de Constantine, Scoutisme Musulmans Féminin, Territoire Militaire de Touggourt, Biskra, N°551/S, Le 26 Nov 1940.
- 12- Idem.
- 13- D.A.W.O. Boite 4063, Préf d'Oran, C.I.E, N° 217, le1^{er} Juin 1941.
- 14-Idem.
- 15- D.A.W.O. Boite 4063, préf d'Oran, C.I.E, N°304, le1^{er} Août 1941.
- 16- أبو عمران الشيخ، محمد جيجلي: «الكشافة الإسلامية الجزائرية -1935 1955 م»، ط1، شركة دار الأمة للطباعة

والنشر، الجزائر: 1999، ص 139.

17- محمود بوزوزو: (22 فيفري 1918-27 سبتمبر 2007)، بن قاضي منطقة القصر بمدينة بجاية، تتلمذ على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، مدير مجلة المنار التابعة «لحركة انتصار ح.د»، أسس عدة مدارس في منطقة بجاية و البليدة، أين كان يمارس التدريس، عضوا فعالا بالحركة الكشفية الإسلامية خلال فترة الاحتلال إلى جانب «عمر لاغا» و «محفوظ قداش» وله العديد من المقالات بالمجلة الكشفية «صوت الشباب»...، اعتقل غداة اندلاع الثورة التحريرية 1954...، اشتهر بالإمام المنظر والعالم اللغوي والإسلامي والصحافي.

ينظر: جمعية قداماء الكشفة الإسلامية: «الكشفة مدرسة الجودة»، الجزائر، 2010، ص 80.

18- أبو عمران الشيخ، محمد جيجلي: «الكشفة الإسلامية...»، المرجع السابق، ص -ص 207-209 ملخص ومعرب من نشرة الكشفة الإسلامية، العدد 14 نوفمبر-ديسمبر 1946.

19- نفسه.

20- أبو عمران الشيخ، محمد جيجلي: «الكشفة الإسلامية...»، المرجع السابق، ص 227.

21-Mohamed Drouiche op. cit. P205.

22-D.A.W.O. boite 6992, Département d'Oran, sous- Préf de Tlemcen, B.S.M.A, le 17/04/1950.

23- Idem.

24- أثناء الجمعية العامة للكشفة الإسلامية الجزائرية المنعقدة بسيدي فرج (27-29 مارس 1948م) بالجزائر (العاصمة) ظهر اتجاهين متعاكسين ضمن الجهاز القيادي للحركة هما:

الأول: رأى أصحابه لا دخل للكشفة في القضايا السياسية، إقتداءً بالرئيس الأول للحركة الكشفية «محمد بوراس» الذي قدّم استقالته يوم 16 مارس 1941 لتأكيد عدم ارتباط الحركة الكشفية بالسياسة، قصد تجنبها العقاب السيئة لالتزامه السياسي، قادة هذا الاتجاه انسحبوا من الكشفة الإسلامية الجزائرية وأنشؤوا فتيان الكشفة الإسلامية الجزائرية (B.S.M.A) للحفاظ على استقلالية الحركة بعيدا عن أي حركة سياسية ومن أبرز قادته: الطاهر التجيني، أبو عمران الشيخ، صادق الفول، «محمد الغريسي» مرشدا عاما للحركة.

أما الاتجاه الثاني: فلم يرى مانعا من مساهمة الكشفة في النضال السياسي ضد الاستعمار، و الانضمام إلى «حركة الانتصار للحريات الديمقراطية» لدرجة أن المرشد العام «بوزوزو» والرئيس «عمر لاغا» عيّنا بالمناسبة لتمثيل الحزب في الخارج بملتقى «السلام» بمواسون و«المهرجان العالمي للشباب» في براغ عام 1947م، حافظ على هذا الاتجاه على تسمية الحركة الكشفة الإسلامية الجزائرية (S.M.A) من أبرز قادته: عمر لاغا، محفوظ قداش، محمود بوزوزو مرشدا عاما للحركة. ينظر كل من:

- Ageron Charles Robert: «Histoire de l'Algérie contemporaine (1871-1954), Paris, P.U.F, 1979, T3, p592.

- Mahfoud Kaddache, Djillali Sari: «L'Algérie pérennité et résistances (1830-1962), O.P.U, 2002, p283.

25- أمال علوان: مساهمة الحركة الكشفية الإسلامية الجزائرية في الثورة التحريرية 1954-1962، مجلة عصور الجديدة لمختبر تاريخ الجزائر، عدد 09 * خاص بخمسينية الإستقلال الوطني*، جامعة وهران: 2013، ص 173.

جبهة التحرير الوطني (FLN) من أزمة حزب الشعب (PPA) إلى أزمة**صيف 1962. هل هي أزمة سلطة أم أزمة حزب من أجل السلطة؟****الدكتور: تيزي ميلود- جامعة سيدي بلعباس**

إن المثقف هو ضمير المجتمع الذي يعيش فيه و لكنه سيكون محل شك لما يساير الأحداث من حوله و هي تتعارض مع مبادئه، فلا بد عليه أن يمتلك القدرة المعرفية و الرؤية الاستشرافية و يحمل هموم المجتمع و الأمة و يمارس الفعل الاجتماعي.⁽¹⁾

و بناء على هذا التقديم فإن الساحة السياسية الجزائرية اليوم يغلب عليها النزعة الشخصية و الأهواء الذاتية في كل التيارات الممثلة لها، و هذا ما أدى إلى الحكم على المسار الوطني الذي أصبح في مأزق رهيب و عميق، دفعنا لطرح التساؤل الآتي: هل التاريخ في الجزائر يعيد نفسه؟

يتساءل الجميع عن أسباب هذا الوضع المرعب لواقع سياسي وطني تقوده جبهة التحرير الوطني لكن ليس بوحدها فكل التشكيلات السياسية المعتمدة تعاني الحيرة و الخوف بل و العدوى، زاعمة أنها تحمل قيم الحرية و الوفاء للوطن و العدالة الاجتماعية و سيادة الشعب الجزائري.

1- واقع الأقالان المزمّن منذ التاريخ:

ظهر الأقالان نتيجة للانسداد الذي عرفته الحركة الوطنية عام 1954 و الذي تسبب فيه السياسيون حيث انتهى بتفجير ثورة نوفمبر و في 1956 عادت الأزمة بعودة هؤلاء تحت جدلية الأولويات (أولوية السياسي على العسكري) بعد مؤتمر الصومام، ثم عاود الصراع نفسه بتسميات أخرى عام 1962 أبرزها حرب الإخوة أو ما يعرف بأزمة السلطة.⁽²⁾ علما أن الاختلافات كانت بمبرر الشرعية الثورية التي يدعيها كل طرف.

لا ينكر أحدا أن اعتماد جبهة التحرير الوطني على شرعيتها الشعبية من بيان أول نوفمبر الذي لا يقصي أحدا، لكن ليس عن طريق بدعة التحالفات التي نسمع عنها اليوم أو بفرض لغة أجنبية على لغتنا الوطنية في الخطابات الرسمية و استنساخ نفس الأساليب التي مارسها من كانوا ينادون بالجزائر الفرنسية (المعمرون).

إن مواقف جبهة التحرير في الآونة الأخيرة لا تستعمل النضال السياسي بطريقة تنسجم

مع مبادئها و ما تستلزمه قيم الثورة الذي غابت عن خطابات أعضائها و مرجعياتها الأدبية و بالتالي أصبحت فضاء واسعا للمؤامرات و الصراعات المفتعلة التي أضعفت تراثها النضالي و أتلفت برنامجها السياسي الوطني، فهي اليوم لجنة مساندة ستدفع ثمنها لوحدها لأنها ابتعدت عن أسس تجعل من المناضل فيها يشعر بأن الجزائر هي بلد الثورة و الشهداء و الأرض و الشعب و المستقبل فهي جزائر الجميع و للجميع و لا يمكن أن نختزلها في لحظات أو حملات أو زعامات أو نزوات شخصية.⁽³⁾

2- جبهة التحرير و السلطة:

يتضح أن كل الأحزاب و الزعامات السياسية الكثيرة في الجزائر ما بعد التعددية في الجزائر و التي منها من يعارض السلطة أو من يتحالف معها، هدفها هو أن يكون فيها أو يمتلكها، لكن كل الذين يبحثون عن ذلك سواء كانوا من الصامتين أو الطامعين أو الراغبين يعلمون أنه حينما يصل أي نظام سياسي إلى نهايته فإنه يلجأ إلى الحلول الترقيعية و التي من بينها مثل هؤلاء الذين لا يقدمون أنفسهم و برامجهم للشعب، و ينطبق تماما هذا الوضع على جبهة التحرير اليوم لأنها تحمل تناقضات بداخلها فهي لا تؤمن بحيوية الشباب و لا بدورة الحياة حيث نسيت مشروعها نحو الأمة و انغمست في صراع الأجيال بتسميات متعددة (تصحيحية، تقويمية، شرعية).

إن السياسة هي الشك في كل شيء،⁽⁴⁾ و على هذا الأساس استمر هذا الورم السياسي الخبيث الذي بدأ منذ مؤتمر طرابلس 1962 نتيجة لاتفاقيات إيفيان وازداد بدخول جيش الحدود مجال السياسة فكان المبرر أن من أجل الثورة اختلف بومدين مع فرحات عباس و حسين لحول و خير الدين و بن يوسف بن خدة.⁽⁵⁾ و من أجل الثورة أزاح بومدين أحمد بن بلة 1965 و من أجل الثورة أراد الطاهر الزبيري و هو رئيس أركانه أن ينقلب عليه عام 1969، لكن البعد الاجتماعي في بيان أول نوفمبر 1954 معناه العدالة بين الريف و المدن و البعد الديمقراطي معناه التعليم و الصحة و العمل و البعد الإسلامي معناه التسامح و التصالح و العدل.

لقد أضعفت جبهة التحرير الوطني طينة هؤلاء و دخلت مستنقع الإخفاق المبكر و المجاني و تلاشت هيبتها من جراء الأوامر الفوقية و صودرت قراءاتها السياسية التي كانت لا تخرج إلا عن لجنتها المركزية فقط، فهي اليوم تلعب دور شاهد الزور عند كل موعد أو قرار يكون من الحكم أو من السلطة.

و مخطئ من يفرق بين الجبهة أثناء الثورة و بعد الاستقلال 1962 و حزب جبهة التحرير الوطني بعد التعددية (1989).

3- متى يفرق أهل الربط بين الشرعية الثورية و الديمقراطية أي (الشرعية الدستورية)؟
بغض النظر عن الظروف التاريخية التي أدت إلى ترسيخ هذا الحق أي (الشرعية الثورية) في أذهان هؤلاء، فلا بد أن يظيفوا لها اليوم أن الديمقراطية أصبحت واقعا سياسيا لا تتحقق إن لم تتوفر شروطها في بناء شخصية المناضل أو المواطن، فتلك العموميات هي التي حددت الرداءة السياسية و عمقت الأزمة الحزبية السياسية في كل الأحزاب. و معنى هذا، أن الشعور بالديمقراطية مقيد بالوطنية و المواطنة الجزائرية أي تقديره لنفسه و تقديره للآخرين من أجل بناء سلطة قوية و دولة المؤسسات لأن السياسة التي لا تخرج الناس من القابلية للاستبداد النضالي و الولاء الشخصي فهي لا تمارس وظيفتها في توعية الناس و هذا ما لا تقوم به كل المؤسسات و التنظيمات الممثلة للمجتمع المدني.

من المؤسف أن كل الذين قاموا بالثورة، و بعد مرور 50 سنة من الاستقلال و خاصة الذين يمارسون السياسة لم يجرؤوا على تناول هذا الموضوع الذي في تقديره يشعر به الجميع سياسيون و عسكريون. لقد كتبوا المذكرات و الشهادات و لم يفصلوا في الخلافات و الاختلافات سواء أثناء الثورة أو بعدها داخل جبهة التحرير الوطني أو في تشكيلات سياسية أخرى، علما أن بيان أول نوفمبر 1954 عبر عن عجز الحركة الوطنية في إخراجها من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص.⁽⁶⁾

إن المشكلة الرئيسية التي يعاني منها الجيل الأول من جبهة التحرير الوطني لما بعد الاستقلال، أن الشرعية الثورية لا تحتاج إلى قرار سياسي للتخلي عنها و لكن دورة «دورة الحياة» تذيبها شيئا فشيئا، فهي مرهونة ب حياة يحددها الزمن و هذا ما كان بين جيل نوفمبر و جيل الحركة الوطنية أثناء الثورة الذي كان يسيطر على المشهد السياسي بحكم الشرعية التاريخية داخل النظام الكولونيالي إبان الحقبة الاستعمارية.⁽⁷⁾

تتفق كل الآراء و التحاليل السياسية أن نظام التسيير و الحكم بهذه الشرعية قد انطفأ و حان الوقت لتقديمه لجيل الاستقلال مع الإيمان بمقولة الرئيس الراحل هواري بومدين «الثورة لا يعني الثروة». و كان آخر من تداول هذه الفكرة الراحل عبد الحميد مهري في كل مداخلاته

و مواقفه حول الشرعية الثورية و الشرعية الدستورية، فهذه هي الحقيقة التي تنطبق على كل إنسان مهما تكن ظروفه التاريخية و هذا هو المقياس العام الذي يقاس به أي تطور ديمقراطي كان واقعاً في التاريخ أو كان مشروعاً في المستقبل.

4- الجانب التاريخي و تأثيره على نفسية الجزائريين من المقاومة المسلحة إلى سنوات الاستقلال:
يلاحظ على كتابات بعض المؤرخين الفرنسيين التركيز على نفسية الجزائريين منذ قيام الثورات الشعبية المناهضة للاحتلال، بحيث طيلة قرن من الزمن (1830-1930) قامت ثلاثين ثورة مسلحة رغم أساليب الإجرام و الضغط النفسي، من ترهيب و تعذيب و تشريد فكان ذلك تأكيداً على الانتماء الروحي و المعنوي و الفداء لهذه الأرض.⁽⁸⁾

لقد حاول النظام الاستعماري بكل الطرق تحطيم الجانب النفسي و الجانب المعنوي للشعب بالموازاة مع التعذيب و التقتيل في حرب إبادة تستهدف الخفي و المعلن، بحيث حمل الجزائريين ألقاباً لتحقيرهم، مثل تسمية قائد مقاومة الونشريس (1845-1847) محمد بن عبد الله بـ «بومعزة» و زعيم مقاومة منطقة البويرة و جرجرة (1847-1849) محمد الهاشمي بـ «بوعود» و قائد ثورة منطقة «زواوة» (1851-1852) محمد بن الأمجد بـ «بويغلة» و قائد ثورة الجنوب الشرقي 1863-1875 محمد بن التومي بـ «بوشوشة» و ثورة الأوراس في سنة 1879 محمد أمريان بـ «بوبرمة» و قائد ثورة الجنوب الشرقي الأوسط (1858-1859) الصادق بن الحاج بـ «بومصران» و قائد ثورة أولاد سيدي الشيخ (1881-1908) العربي بن التاج بـ «بوعمامة».⁽⁹⁾

أما خلال الثورة التحريرية (1954-1962) فقد أطلقوا نعتاً تعبر عن استكبارهم و نفهم للآخر، فسموا المجاهدين الفدائيين و المسبلين «بالقلاقه» و «الخارجون عن القانون» و «المتمردون»، هذا بغض النظر عن الألقاب المهينة و الخادشة للحياء و كرامة الإنسان بعد استحداث قانون الحالة المدنية بالجزائر ما بين (1891-1895) من قبل.⁽¹⁰⁾

إن تجذر روح الكراهية لدى فئة من الفرنسيين و تشبعها بالعنصرية اتجاه كل ما هو جزائري بسبب عقلية التعالي التي مارسوها طيلة فترة معتبرة من الزمن هي التي أفرزت عقد متعددة و متوارثة قد أسقطتها الثورة التحريرية بمختلف الطرق و بذكاء لكن هذا الفكر، لازالت جماعات قليلة من أبناء هذا الوطن و من المتشبعين بالثقافة الفرنسية

و المنبهرين بحضارتها يجملونه رغم أن بذوره لا تنبت على هذه الأرض و التي يسجل التاريخ أنها موطن التحدي و الأمجاد و الاستعداد الدائم للدفاع عنه.

لقد أنجبت هذه الأمة ممن وضعوا أيديهم على هذا الجرح العميق الذي تركه الاستعمار فينا، فكان «مولود قاسم نايت بلقاسم»⁽¹¹⁾ مناضلا عنيدا في سبيل مقومات الأمة الجزائرية رغم تأثره بالفكر الألماني الذي تعتمد عليه الأمة الألمانية و هو اللغة و الدين و التاريخ. كان يحمل مشروعا متكاملا لدولة حديثة و عصرية تقوم على الأصالة و المعاصرة حيث كتب في جريدة المجاهد الأسبوعي في شهر نوفمبر 1962 عن «تعريب الأمخاخ قبل تعريب اللسان»، و أثبت ذلك بإشرافه على مؤتمرات المذاهب الإسلامية في السبعينات، فقد كان يجمع بين الشيعي و السني و بين القساوسة المسيحيين و الأئمة المسلمين (مثلا في 1972 حضر 1800 طالب و 150 أستاذ و 70 محاضرا) و قد حضر الرئيس الراحل بومدين جلسات هذا الملتقى إلى جانب قس لبنان (ميشال حايك)، كما يعود له الفضل في إقناع قادة المذهب الإباضي بالصلاة في مساجد المالكيين و العكس صحيح.

فعلا كانت الفترة الممتدة من 1965 إلى 1978 في الجزائر من أخصب المراحل التي عبرت عن بصمات التاريخ الجزائري سياسيا و فكريا و دوليا عبر حركة عدم الانحياز و دول العالم الثالث.

كان الصراع خفيا بين أولئك الذين يؤمنون بما قد طرحه هذا النموذج و بين أولئك الذين كانوا يصنفون على أنهم يحملون الحداثة و التطور و الانتقال بالشعب إلى مصاف الدول المتطورة و من هنا يظهر التباعد الذي جمع بينهما في عدة لحظات من التاريخ.

في أواخر السبعينات (سبتمبر 1977) طرحت مسألة «مشكلات التربية و التعليم في الجزائر» في مناظرة بين مصطفى الأشرف⁽¹²⁾ و الدكتور عبد الله شريط أحد المثقفين الذين كانوا ينادون بضرورة إقرار «مبدأ التعريب» بينما كان الأشرف ينادي «بالازدواجية» التي تعتمد على التعريب المرحلي و من هنا أخذ النقاش طابع الصراع بين المثقف الحداثي و المثقف التقليدي و ظلت هذه الصفة تلازم كل واحد يريد أن يثير مسألة اللغة ثم تحول الأمر إلى المثقف المفرنس و المثقف المعرب، رغم أن الطرفين كانا ينظران إلى الأمر من زاوية منهجية مغايرة.

و من نتائج هذه الإشكالية يمكن استخلاص مستوى النقاش و الصراع الفكري الذي كان

سائدا و هو المعيار الحقيقي لكل مجتمع و أمة سيدة في قرارها بعيدا عن الإملاءات.

كانت الجزائر في وقت قريب فضاء يسع كل من ضاقت به و كل هارب من الاستبداد الفكري و السياسي سواء من المشرق أو من المغرب و منهم من جاء إليها من أمريكا اللاتينية. لقد جاء المثقفون و الكتاب و الشعراء و عاشوا فيها معلمين و صحفيين و سياسيين رغم أن البلاد كانت في زمن الحزب الواحد (جبهة التحرير الوطني إبان الاشتراكية)، لأن نفسية الجزائري و فلسفته منذ الثورة التحريرية تكمن في طباعه و صراحته و مواقفه و هذا ما اعترف به مانديلا و شي غيفارا و أحمد فؤاد نجم و حيدر حيدر و ماريو سواريز و مانويل ألغيري و... إلخ. فكانت تباع فيها مجلة «شؤون عربية» من العراق و «روز اليوسف» من سوريا و «آخر ساعة» من مصر و «الحياة الثقافية» من تونس و «الفكر» من المغرب و «باري ماتش» Paris Match و «جون أفريك» Jeune Afrique و «لو بوان» Le point من فرنسا.⁽¹³⁾ و هذا ما كان يميز الجزائري عن غيره في الدول العربية الأخرى.

تمر كل الشعوب عبر التاريخ بأزمات و حالات من الانقطاع و التوقف لكن لما تسترجع عافيتها، تقوم بدراسة الأسباب للبحث عن مواطن الخلل و التقصير و الأكيد أن هذا هو دور المثقف الذي يطرح الأسئلة و يستنتج الإجابة، لإعادة بناء القيم التي يحتاجها المجتمع و توجيهه نحو الوجهة الصحيحة.

مثل المثقفون عبر التاريخ، المؤسسون الفعليون للأفكار الثورية و ليس التراجع للفئات الأخرى حسب ما يذهب إليه «الطاهر وطار» لما يقول: «الثورات التي لا تتخذ المثقفين سمادا لها ستظل تسير عرجاء». و على هذا الأساس نقرأ الفكرة و نرى المثال من الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» الذي اتخذ موقف مناهضا للحرب الهمجية الفرنسية على الجزائريين و هو صاحب كتاب «عارنا في الجزائر»، و مورييس أودان⁽¹⁴⁾ الذي تعرض للاعتقال و الاختفاء القصري جراء موقفه من الثورة الجزائرية، كذلك المخرج الأمريكي «مايكل مور» الذي امتنع عن استلام جائزة أوسكار بسبب الحرب على العراق و الروائي الاسباني «خوان غوتيسسلا» الذي رفض استلام جائزة القذافي الدولية للأدب التي كان الكثير يتزاحمون عليها.

منذ الاستقلال فوتت علينا الكثير من الشخصيات الوطنية و المحسوبين على النخبة

الجزائرية الكثير من الفرص لصياغة مشروع بمثابة عقد وطني منفتح على الآخر و مؤسسات دستورية ثابتة تتضمن توزيع متوازن للسلطات يوفر تحقيق التداول و هذا الأمر تفسره عدة معطيات تاريخية هي:

1/ طبيعة جيل 1954 الذي رسم لنا سياسة من خلال موقع كل واحد في التاريخ.

2/ اختلاف أعضاء الحركة الوطنية من حيث التصورات الإيديولوجية، فمنهم من كان يرى الجزائر من وجهة نظر قومية و منهم من يراها أمازيغية و آخر عروبية و آخر فرانكفونية.⁽¹⁵⁾

3/ انتشار ثقافة التهميش و الإقصاء منذ مطلع الاستقلال رغم أن بيان أول نوفمبر كان ينبذ ذلك فهو البيان الذي دعا كل التيارات إلى احتضان الثورة، و قد تجسد ذلك في حل فرحات عباس لحزبه و الالتحاق بالثورة و إقناع جمعية العلماء المسلمين و أنصار التيار الشيوعي بذلك.

4/ الاختلاف حول مؤتمر الصومام 1956 بدون إقناع رغم أن هذا المؤتمر أوجد للثورة مؤسساتها بتأسيس لجنة التنسيق و التنفيذ (CEE) و المجلس الوطني للثورة (CNRA) و إنشاء الحكومة المؤقتة (GPRA) و إحداث المحاكم الشرعية و تنظيم الجيش و أعطى الثورة طابعها الشمولي و الشعبي.

5/ تنكر الكثير من القياديين لبعضهم البعض بدليل تعرض الكثير منهم للتهميش بحسب الكتابات التاريخية الرسمية التي فصلت بين الثوريين و الغير ثوريين رغم أن الجميع كانوا وطنيين و متفقين حول مسألة الحرية و الاستقلال لأن الثورة خلقت جيلا من المناضلين المسؤولين الذين أصبحوا قادرين على تأسيس نظام هزم أكبر قوة استعمارية في القرن العشرين.⁽¹⁶⁾

5- تداعيات الأزمة السياسية إلى ما بعد التعددية الحزبية من خلال الكتابات و الشهادات:

يؤرخ الكثير من المهتمين السياسيين أو المؤرخين لبداية المسار الديمقراطي في الجزائر بأواخر الثمانينات، إثر أحداث أكتوبر 1988 و التي عرفتها كل مناطق الوطن و دفعت ثمنها مؤسسات الدولة حيث كان المستهدف الأول فيها حزب جبهة التحرير الوطني (FLN). لكن لا بد أن نشير هنا أن الدوافع كانت انتقامية من عهد سابق سمي

بالأحادية و تراجع مداخيل البلاد و بداية التمهيد إلى الخصخصة العشوائية التي وجدت في انخفاض أسعار المحروقات و قيود صندوق النقد الدولي و التي أدت إلى تسريح العمال و تخفيض العملة الوطنية و بالتالي تراجع الانتماء السياسي المتمثل في الخطاب الشعبوي و الإيديولوجي.⁽¹⁷⁾

لقد أدى كل هذا إلى ظهور البديل الإسلامي تحت عنوان الإسلام هو الحل المنقذ⁽¹⁸⁾ و أعقب ذلك دوامة من الصراع و المواجهة انتهت بالمأساة الوطنية و سقوط الضحايا من النخبة ما زالت خباياها غامضة إلى اليوم.

إن التحولات السياسية في الجزائر هي في الحقيقة جزء لا يتجزأ من تأثيرات النظام العالمي الذي يوصف بالجديد المسطر من قبل القوى الكبرى في العالم بشكل لم تعد فيه الديمقراطية شأنا داخليا و أن ممارستها قائمة على أساس مصالح تلك الدول المراقبة لها عن طريق الهيئات الرسمية و المنظمات الغير حكومية،⁽¹⁹⁾ و من هنا تتضح مساهمة المؤرخين و الباحثين بالتاريخ الحديث و خصوصا تاريخ الثورة الجزائرية من المذكرات و الوثائق التي تنشر لأول مرة بحيث ألهمت العديد من المؤرخين الفرنسيين الذين استفادوا من أرشيف كامل يؤرخ لأربعين سنة كاملة أمثال بنجامين ستورا⁽²⁰⁾ (Benjamin Stora) و جيلبر ميني (Gilbert Meynier) الذي أرخ لجهة التحرير الوطني بعنوان «التاريخ الداخلي لجهة التحرير الوطني» و محمد حربي (Mohamed Harbi) «جهة التحرير الوطني بين الواقع و الخيال».

إن هذا التحول أثر بشكل جلي على الفاعلين في الجزائر حول كتابة تاريخ الثورة و الحركة الوطنية حيث ساهم إلى حد بعيد في إعطاء وجهة نظر جزائرية رغم ما تثيره من تساؤلات و استفهامات، و رغم أن العديد منها كانت تنشر في فرنسا خلال الفترة البومدينية أو في عهد الشاذلي بن جديد⁽²¹⁾ و بالتالي كانت مسألة الانفتاح بعد أحداث أكتوبر 1988 مفيدة لرفع الغطاء عن مرحلة الانغلاق التي استغلها الباحثون الفرنسيون أمثال إيف كوريير Yve Couriere و كلود بادي Claude Badie.

يلاحظ في الآونة الأخيرة أن الجامعيين و الباحثين الأكاديميين تجاوزوا بكثير السياسيين و التاريخيين من حيث الجرأة و الطرح و من خلال الملتقيات التاريخية

و المنتديات الإعلامية و الشهادات المحلية،⁽²²⁾ التي تحدثت فيها عن بعض القضايا المسكوت عنها، لأن إحجام باقي قادة الثورة الأحياء أو الذين تركوا الشهادات لا زال غير مفهوم لكن منهم من لم تنشر مذكراته أمثال أحمد يزيد نظرا لأهميتها و تفيده في معرفة موقف الولايات المتحدة الأمريكية من الثورة الجزائرية و دور السيناتور كيندي.⁽²³⁾ و مذكرات لخضر بن طوبال و عبد الحفيظ بو الصوف.

إن إثارة مثل هذه القضايا و إبراز العوامل المؤثرة في الأحداث، يفيد كثيرا الباحث و المؤرخ عند توظيفه للمعلومات في بحثه بهدف فصل ما هو موضوعي عما هو ذاتي، إضافة إلى استخدام المنهج المناسب لاستخراج ما يخفيه أو يخشى أن يقوله صاحب المذكرات أو الشهادات.

و عليه فإن تشجيع الكتابة التاريخية حول الثورة من قبل الفاعلين يعد ممارسة تبرر الظروف التي أدت إلى الانقلاب على المؤسسات الشرعية للثورة في صائفة 1962 أو مقتل العقيد شعباني أو التراجع عن أولويات وثيقة الصومام 1956 أو دخول الكثير ممن لا علاقة لهم بالثورة المجلس الوطني CNRA المستحدث، أو أسباب فشل مؤتمر طرابلس 1962 و استمر ذلك إلى السنين الأخيرة في مذكرات الرئيس الشاذلي بن جديد حول وفاة أحمد مدغري و قايد أحمد في ظروف غامضة أو الدفاع عن القاعدة الشرقية أثناء الثورة التي فرضها مجاهدو المنطقة أو خلافت أعضاء مجلس الثورة و الحكومة في فترة هوارى بومدين أو اكتشاف وفاة الشهيدين عميروش و سي الحواس أو الصراع بين قادة الثورة التي نشرها المؤرخ الفرنسي «كلود بايا» اعتمادا على اعترافات «عاجل عجول» أو وثائق اجتماع العقلاء الأربعة عام 1958 التي وجدت لدى الشهيد عميروش أو مذكرات الرائد لخضر بورقعة التي آثرت ضجة كبيرة لأنها تناولت تبعات انقلاب العقيد الطاهر الزبيري الذي كان أحد مساعديه أو حتى خلفيات شهادات أحمد بن بلة و أحمد محساس و نفيهما لدور عبان رمضان في الثورة و حتى نفي أوعمران من قيادة الولاية الرابعة و تغيب حسين آيت أحمد رغم أنه كان نائبا بلوزداد منذ المنظمة الخاصة (O.S).

كل هذا يطرح عدة استفهامات و الكثير من التساؤلات، لأن منطق الثورة و جبهة التحرير الوطني التاريخية آنذاك أثبت ضم كل التوجهات الإيديولوجية و الثقافية و الشرائح الاجتماعية و كل مناطق البلاد، فمن المنطق أن يحاول الجميع أن يبحث عن نفسه

في دولة الاستقلال، بمعنى «دولة الامة الجزائرية» و بإقامة نظام ديمقراطي تعددي.

فماذا نقول عن مصالي الحاج و رفاقه في الحركة الوطنية و جمعية العلماء المسلمين و الحكومة الجزائرية المؤقتة (GPRA) و الحزب الشيوعي الجزائري (PCA).

و أخيرا لا يمكن أن تكون هذه الثورة العظيمة حكرا على مجموعة تنفي نضال مجموعة أخرى، و كأنها من صنع البرجوازية أو النخبة بل هي من صنع الفلاحين و المحرومين و نجحت بتجاوز الأحقاد و الصراعات الحزبية قبل و بعد 1954 بانضمام البيانين و العلماء و الشيوعيين داخل المجلس الوطني للثورة المنبثق عن مؤتمر الصومام الذي احتوى كل التيارات الإيديولوجية و الشرائح الاجتماعية و الثقافية و كل مناطق الجزائر.

الهوامش:

- 1- (انطونيو غرامشي) (1891-1937) مفكر ايطالي ماركسي.
- 2- (فتحي الديب): جمال عبد الناصر و ثورة الجزائر، ط1، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1984.
- 3- جريدة الخبر: 2004/01/28، العدد 3997، الجزائريون الفرص الضائعة و الآفاق العريضة: محمد الصالح يحيى.
- 4- (عمار بوحوش): التاريخ السياسي للجزائر، دار الغرب، بيروت، 1997.
- 5- جريدة الخبر، العدد 7030 ليوم 2013/03/31، مجموعة الأربعة التي حررت بيانا ضد نظام بومدين في السبعينات.
- 6- من بيان أول نوفمبر.
- 7- سبق للرئيس عبد العزيز بوتفليقة أن قال ذلك أمام المنظمة الوطنية للمجاهدين عام 2005.
- 8- جريدة الخبر، ليوم 2012/12/21 مقال للعقيد المتقاعد محمد رضاني بعنوان «مسيرة إحقاق حق... الاعتراف بال جرائم».
- 9- (العفون عبد الرحمن بن ابراهيم)، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر، ج1 (1830-1930)، الجزائر 1983.
- 10- Agéron Charles Robert, Histoire de l'Algérie Contemporaine Que sais-je ? PUF, Paris 1977.
- 11- مفكر جزائري في الفلسفة و الدين و دبلوماسي سابق توفي في أوت 1992، صاحب كتاب «بيان إلى الأمة» الذي حدد فيه دور اللغة و إشكالاتها الحضارية لما كان وزيرا للشؤون الدينية في عهد هواري بومدين.
- 12- أحد الأعضاء الخمسة (محمد بوضياف، أحمد بن بلة، رابح بطاط، محمد خيضر) الذين اعتقلوا في أكتوبر 1956 من قبل الجيش الفرنسي و هي أول عملية قرصنة تقوم بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية.
- 13- Rachid Benblal, le colonialisme et ses injustices, ELWATAN 09/01/2007.
- 14- عالم رياضيات فرنسي (1932-1957) و تسمى باسمه ساحة في أحد شوارع العاصمة، رفضت ابنته استلام و سام استحقاق من الرئيس الفرنسي ساركوزي بسبب كشف حقيقة تعذيب و وفاة والدها.

- 15- Alilat larbi, L'année de toutes les turbulences (avocat et historien) El Watan mardi 9 janvier 2007
- 16- Leila Benameur Benmansour, l'écrivain controversé (Albert canus), El Watan jeudi 07 novembre 2013
- 17- Lounis Ait Aoudia : au ressourcement de la mémoire 122012/12/ N°7046
- 18- الخبر اليومي 3 ماي 2013، «تأملات و تحولات بين ما فات و ما هو آت» لمحمد أبو طارق باحث جامعي.
- 19- Harbi Mohamed : les archives de la Revolutions Algérienne, jeune Afrique, Paris, 1981.
- 20- خاصة كتاب «حرب الذاكرات، فرنسا في مواجهة ماضيها الاستعماري».
- 21- مثلا كتاب عبد الرحمن فارس «الحقيقة المرة» الذي تحدث عن قضية اغتيال محمد خميستي، الذي صدر بفرنسا.
- 22- مثلا مخبر الجزائر تاريخ و مجتمع قسم التاريخ جامعة الجيلالي الياابس العدد 3 و 4 و 5 و 6.
- 23- محمد عباس في ندوة الخبر حول مذكرات الفاعلين و كتابة تاريخ الثورة ليوم 04/07/2013
- 24- وردت هذه المسألة في كتاب بلعيد عبد السلام «الصدقة و التاريخ».
- 25- انظر كتاب «رؤساء الجزائر في ميزان التاريخ لمحمد عباس».

الإجرام الفرنسي ضد الإنسانية خلال ثورة التحرير في منطقة سيدي بلعباس مركز التعذيب ببوشبكة_بوخنفيس_« نموذجاً »

أ/ كركب عبد الحق -جامعة تيارت

إن الجرائم ضد الإنسان و المواطن الجزائري خلال الثورة التحريرية كثيرة و متعددة في المكان والزمان، في مختلف القرى والمدن الجزائرية شرقا وغربا شمالا وجنوبا، ومنطقة سيدي بلعباس على وجه الخصوص ولا يسع المجال لذكرها كلها وما هذه العينة_ من المنطقة الخامسة _إلا على سبيل المثال فقط، هذه هي حقيقة الاستعمار وما عاناه الشعب الجزائري الذي لم يدخر جهدا في الدفاع عن حقوقه المسلوبة، ولم يأت الاستقلال الوطني إلا ليضع حدا لقفلة الشهداء.

منذ اندلاع الثورة الجزائرية تصاعدت وتيرة اللجوء إلى استخدام التعذيب (1) كوسيلة للقضاء على الثورة الجزائرية و قد أدى تخوف المسؤولين الفرنسيين من اشتداد الثورة وانتشارها في كل أرجاء الوطن إلى التصريح باتخاذ الإجراءات العسكرية القمعية وفي 03 نوفمبر 1954 أعلن الوالي العام «روجي ليونارد» (Roger Leonard) بأنه يملك وسائل إضافية وأنه سيتخذ كل ما يجب اتخاذه من إجراءات لحماية مصالح فرنسا والفرنسيين والدفاع عنها(2).

إن القمع والبطش والتنكيل في نظر المسؤولين الفرنسيين هو الوسيلة المثلى للحد من انتصارات الثورة الجزائرية (3) وكانت مراكز التعذيب الوحشي منتشرة في جميع جهات الوطن، فقد بلغت مراكز التعذيب على مستوى الولاية الثانية وحدها 122 مركزا تقريبا ، وقد كان هناك مراكز تعذيب في ولايات أخرى فاقت هذا العدد عدة مرات، فقد مارست هذه المراكز إجرامها ضد كل من دخلها وهم يعدون بالألوف. (4)

وتجدر الإشارة إلى أن التعذيب لم يكن خاصا بمن ينتمي إلى الثوار بل كل أولئك المشبوهين و المتهمين، وتم وضعهم رهن الاعتقال دون التحقيق القانوني كما نص عليه قانون 14 نوفمبر 1939. (5)

وفي هذا السياق ونتيجة اشتداد وقع العمليات العسكرية في منطقة سيدي بلعباس لجأت فرنسا إلى إنشاء مراكز التعذيب (6) لتطبيق أساليبها القمعية و كان الهدف منها هو الاستئطاف بهدف انتزاع الاعترافات من الأشخاص الذين توقفهم أجهزة الأمن الفرنسية، وكانت أغلب هذه المراكز سرية ومحجوبة عن الأنظار غير خاضعة لأي شكل من أشكال الرقابة (7) ورغم

اختلاف تسمياتها فيما يخص السجون و المعتقلات والمحتشدات ومراكز التعذيب إلا أن الوظيفة التي كانت تؤديها هي واحدة إضعاف وإفشال الثورة التحريرية و ذلك باستعمال كل أساليب التعذيب بأنواعها.

وفي إطار الحديث عن جرائم السلطات الفرنسية ضد شعبنا أثناء ثورتنا المجيدة أردت الإحاطة بجانب معين من تلك الجرائم والتي يتمثل في مراكز التعذيب والمعتقلات التي أقامها المستعمر الفرنسي في شتى ربوع بلادنا حيث كانت سياسته تصب كلها في بوتقة إفشال الثورة وتفريغها من محتواها الشعبي وقطع الصلة بين المجاهدين وعامة الشعب لمنع المساعدات الضرورية عنهم ونقل الأخبار إليهم، طبعاً سوف لن أحيط بكل الجرائم التي اقترفتها زبانية المستعمر بجميع أصنافها في منطقة سيدي بلعباس أثناء الفترة الواقعة ما بين 1954-1962 نظراً لأنها كثيرة ومتعددة في المكان والزمان وما سوف نتطرق إليه ما هو إلا عبارة عن نموذج من نماذج فقط بجرائم متعددة الأشكال في حق كل ما هو جزائري للسياسة الفرنسية المطبقة و بكل شتى أنواع الأساليب التي فاقت في نوعيتها و حجمها ما شهدته معسكرات الاعتقال النازية إبان الحرب العالمية الثانية.

أولاً: مركز التعذيب ببوشبكة (بوخنفيس) (8):

لقد قررت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بناء محتشد سمي بالبرج العسكري، أو القصة كما يسميه البعض من المجاهدين ببوشبكة ، وكما أسلفنا الذكر أن الهدف الأساسي من بنائه هو مراقبة سكان المنطقة وتحركاتها والتعرف على كل غريب يدخلها من جهة والقبائل الثائرة عليها كقبيلة بني عامر من جهة ثانية.

قد شرع في بناءه من طرف سجناء جزائريين وطينين مخلصين رفضوا الوجود الاستعماري حكم عليهم بالأشغال الشاقة (9) ومن خلال تحصيلي على الأرشيف (10) الدال على المراسلات حول بناء سجن بوشبكة وهي صور طبق الأصل، و التي تكشف أن السجن كان سجن للأهالي و بالتالي هذا الحبس كان مخصصاً فقط لأهالي المنطقة و هم العرب كما يقصد المعمر (11)، انتهت الأشغال به في 04 أكتوبر سنة 1877 كما جاء في الوثيقة التاريخية، والتي تؤكد كذلك أن هذا السجن كان تابع للقطاع العسكري حيث نلاحظ من خلال المراسلات التي حدثت ما بين إدارة أملاك البلدية والسلطات العسكرية آنذاك والتي تشير إلى أن السجن بمساحته الكبيرة المقدرة ب 201 هكتار وسط أراضي دوار تيفلاس في الضفة اليسرى لوادي مكرة في أعالي

بوشبكة (12)، وكان تابعا لهذه السلطة وهي التي قامت ببنائه ومنه نكتشف أن هذا السجن كان عسكريا والمساجين الذين وجدوا فيه خلال هذه الفترة هم سجناء سياسيين والذين رفضوا الوجود الاستعماري (13)، ومن جهة أخرى فإن السجن عند إتمام أشغاله كان بالشكل التالي:

● ثلاث غرف (03) تتسع لـ 120 سجين.

● أربع (04) زنايات.

● ساحة صغيرة.

● مكان خاص للإدارة والحراس.

ثانيا: نماذج وشهادات عن سياسة التعذيب الاستعماري بمنطقة سيدي بلعباس.

نحاول الآن أن نعطي صورة حية عن تلك الأعمال الشنيعة كنموذج من عشرات المئات لحالات التعذيب التي شهدتها سكان هذه المنطقة شأنها شأن بقية المناطق الأخرى من الجزائر، محاولا العدو الفرنسي من خلالها خنق كل صوت يؤمن بالثورة أو يحتضنها، وأصبحت إستراتيجية ومنهجية لديه للحد من قوة الثورة مبرهنا على شراسة جيش الاحتلال.

وهذه مجموعة من الشهادات من الذين اعتقلوا في سجن بوشبكة:

مباشرة بعد نهاية التحقيق مع الدرك الفرنسي الذي كثيرا ما يطول لمدة 5 أشهر ينقل المتهم إلى سجن البرج- بوخنفس- البداية تتم باستقبال غير معتاد إنها المعاناة النفسية والجسدية، فالغرفة رغم صغرها و نقص تسويتها تجمع بين جدرانها عددا من السجناء تصب عليهم الحركة حتى في لحظات النوم، لأن مكان الفرد محدود جدا إلى درجة يضيق بها الصدر، يعيش المرء ساعات طوال تفاجأ أحيانا بمراقبة من طرف الحرس مصحوبة بالضرب و الشتم.

أما عن الغرفة فيوجد بأحد أركانها برميلا يستعمل كمرحاض، إنارتها دائمة، يجب أن تعود بصرك على الحياة بها ليلا، فإذا دقت الساعة العاشرة ليلا خيم الصمت وغابت الحركة إنها إجراءات نظامية، حتى الأنين الذي يفرضه المرض يمنع في هذا الوقت، وأكثر من ذاك عند السعال يجب أن تكتم فمك.

في الصباح عندما تدق الثامنة ترى الطوابير داخل الساحة التابعة للحجرات، قد تسأل لماذا

؟ إنها بداية المناداة ليس لمعرفة الحاضرين والغياب فحسب بل للتأكد من عدم وجود الأموات، لأن الفرار مستحيل، ثم تتقدم جماعة من السجناء لتوزع رغيف الصباح، وأي رغيف هذا، إنه شرب شاي (نعناع يابس ممزوج بالماء)، بعد ذلك ينتشر السجناء داخل الساحة وتبدأ لحظات أصعب ما فيها أن الحارس يبحث عن وسيلة للعقاب، فبمجرد أن يقع السبب يحمل المتهم إلى الزنزانة، تتكون هذه الأخيرة من أربعة جدران، و مساحتها لا تزيد عن 3 أمتار مربعة ما يفاجئك عند المعاينة، تجد حلقتين مشدودتين بالجدار، إنها وسيلة يعلق بها المتهم من طلوع الشمس إلى غروبها، لا حق له في قضاء الحاجات الطبيعية قد تدوم شدة العقوبة إلى أكثر من 15 يوما تتخللها استراحات للنوم مع حرمانه من الزيارات العائلية وما تجود به، إنها أيام يقضيها المرء على الجمر(14).

و لأخذ فكرة عن هذا المركز ننقل لكم دون زيادة أو نقصان شهادة أحد الذين زج بهم، و هو المجاهد « قندوسي عبد الله » الذي أسر في هذا المركز لمدة سنة كاملة من 1957 إلى 1958 وحول ما تعرض له قال مايلي: « لقد دخلت مركز القصة لبوخنفيس وتعرضت لأبشع أنواع التعذيب ومن بينها التعذيب بالماء حيث بعد تقييدي من يدي وأرجلي بحيث لا أستطيع المقاومة بعدها يأتون بأنبوب من المطاط ويصلونه بين الحنفية وبين فمي ثم يرسلون الماء حتى امتلأ جوفي وكدت أختنق ليقوموا في نفس الوقت بركلي وضربي من كل جهة، ليخرج الماء من كل منافذ جسمي » وأحيانا كان التعذيب بواسطة الكهرباء، وعن هذه الكيفية يضيف قائلاً: « لقد تم إيصال التيار الكهربائي بالأجزاء الحساسة من جسمي حتى كدت في بعض الأحيان أن أفقد صوابي ووعيي من جراء هذا الأسلوب من التعذيب »، ومن أشنع وسائل التعذيب كذلك التي تعرض لها المجاهد « قندوسي » هي إرغامه على أكل عشرون كيلوغرام من البصل يقول في هذا الصدد: « في صباح إحدى الأيام قام بعض الجلادون بتكبيلي من كل جهة ليحضروا بعدها أكياس من البصل وأرغموني بالقوة على ابتلاعها وإلا سوف أقتل مباشرة، فكان علي إلا أن أمتثل لأمرهم وواصلت أكل البصل من الساعة التاسعة صباحا إلى غاية الخامسة مساء حينها انفجرت معدتي مما اضطر بهم لنقلي إلى المستشفى - حساني عبد القادر حاليا- ومكث فيه شهرا كاملا ليعودوا بي إلى المركز ثانية وبعدها تم تعرضي إلى اعتداء من طرف جنود الاستعمار مما أجبرت على القيام بعملية جراحية، إلى أن تم بعدها إطلاق صراحي لعدم ثبوت الأدلة الكافية »، ولم يكتفي المستعمر بتسليط هذا العذاب فقط بل شمل شتى أنواعه أثناء الاستنطاق والتي لا

تقل خطورة وبشاعة كسابقاتها يضيف المتحدث(15).

شهادة المجاهد «بوشنتوف قدور» يقول :

ولدت في 26 أبريل 1929 ببلدية بوشبكة ولاية سيدي بلعباس كان نشاطنا يتمحور حول مساندة الثورة وذلك في مختلف المظاهر من امتدادات للثوار بكل الوسائل والمطالب التي يحتاجونها لإنجاح عملياتهم وتزويدهم بكل المستلزمات، كان هذا في بداية الثورة، وبعد استمرار الاستعمار الفرنسي في عدوانيته على سكان المنطقة، قمت برفقة مجموعة من أصدقائي بتخريب وحرق المزارع الممتدة على نطاق بلدية مسار والتي استولى عليها المعمرين على حساب الأهالي، كان هذا في بداية 1957، وعلى إثر وشاية عملت فرنسا على أخذ كل أربعة أو خمسة من كل دوار من دواوير بلدية مسار المشكوك فيهم في هذه العمليات التخريبية والبحث عن آخرين، لتلقي بعدها فرنسا صب غضبها وتجمع كل من له علاقة بالأعمال، وتدخلنا إلى سجن القصبة ببوشبكة فتعرضنا كلنا لشتى أنواع العذاب فلقي (04) أربعة سجناء حتفهم مباشرة إثر التعذيب، أما السجناء الآخرون وبعد إقرارهم على الأعمال التي ارتكبوها فتمت محاكمتهم، وإصدار حكم بالسجن لمدة تتراوح ما بين سنة وخمس سنوات، إلى جانب إلقاء القبض على كل منفذي الأعمال التخريبية وكان مصدر الخبر إما بعض الخونة وإما المجاهدين الأوائل والتي تمت محاكمتهم وتعذيبهم للإقرار بمرتكبي الأعمال كل هذا من جراء طائلة التعذيب.

وبدوري قد تعرضت طيلة مراحل سجنني واعتقالي بسجن القصبة ببوشبكة أو سجون أخرى داخل منطقة سيدي بلعباس أو بوهراة إلى أنواع مختلفة من التعذيب، كان الضرب واستعمال الكهرباء وإيصاله بمختلف أجزاء من جسمي هو السمة البارزة في كل يوم وأصبح هذا التعذيب من الروتين اليومي المستعمل لدي حتى كان يتغير لوني وأشعر بأنني سوف أفارق الحياة ويغمرني علي ومن بين التعذيب الممارس علي أيضا هو التعذيب بالماء وذلك عن طريق أنبوب ماء في فمي لينتفخ بطني بعدها ويتم الضغط علي من معدتي لخروج الماء من كل جهة من جسمي، هذا لا شيء إلا للاعتراف بأعمالي وأعمال رفقاائي المجاهدين، وناهيك كذلك عن الحياة داخل هذه السجون التي مررت بها والتي أقل ما يمكن القول عنها أنها كارثية لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتصور حجم المعاناة بداخلها إلا لمن عاشها ولاحظها.

ومن شدة التعذيب والخوف والفرع من التعذيب ووسائله التي كانت تمارس علي ليل نهار

وبقية السجناء، تم إعطائي إياهم معلومات خاصة ظنوا من خلالها أنها صحيحة وهذا بغرض استرجاع نفسي من جديد وقواي ولو لبرهة من الزمن وهذا بعد تهديدهم بقتلي.

لكن من الصدف أن أحد رجال الدرك الفرنسي التابع لبلدية برمانتي - سيدي بوسيدي حاليا- قد أتى إلى السجن واستجوبني حول الملف الخاص بي وبعائلي والذي كان مفصلا ودقيقا وأمر بعدم تنفيذ حكم القتل على أي أحد من المجاهدين الأربعة وأمر بمحاكمتي من جديد، وبالفعل أصدروا قرارا بسجني للمرة الثانية على التوالي وبسنة كاملة في سجن الحمري بوهران حيث لم تختلف الظروف والمعاناة فيه عن السجن الذي سبقه، فهنا قد تعرضت أيضا للتعذيب ومختلف طرقه ليتم إطلاق سراحي في أواخر سنة 1959، ليتم القبض علي المرة الثانية وتم إدخالني إلى السجن للمرة الثالثة في سجن بودانس - قايد بلعربي حاليا - أحيانا ومعصرة الزيتون بمدينة سيدي بلعباس أحيانا أخرى، وبقيت على هذا الحال حتى الاستقلال عام 1962. (16)

ومن أغرب الأحداث التي وقعت بالمنطقة وداخل سجن القصبة هو ما قام به الشهيد «شويرف بوعلام» (17) حيث قام بقتل المسؤول عن السجن المسمى سونشاز (Sanchez) في صبيحة يوم من أيام سنة 1959 حيث شاء القدر أن تقع يد «سي بوعلام» على مسدس المسؤول تحت الفراش حين كان يقوم بجملة النظافة المأمور بها، ومن هنا يقرر البطل «سي بوعلام» الانتقام من شونزي بطلقة نارية أودته طريقا على الأرض، وعندها أعلنت حالة الطوارئ داخل السجن تم القبض على السجين الثائر، ويقول الشهود أن حراس السجن رمت البطل برصاصات أصابته بجروح، ثم حمل على مروحية لمكان مجهول ليرمى منها. (18).

والجدير بالذكر أن هناك مواقع أخرى داخل المدينة وخارجها كان يستعملها العدو كمراكز لتعذيب أبناء المنطقة من مدنيين وثوار حيث لا زالت البنايات شاهدة على آثار التعذيب والتنكيل الذي لقيه السكان خلال الثورة التحريرية والتي كانت منتشرة في معظم أرجاء منطقة سيدي بلعباس، وكانت تستعمل في كل المراكز الاستعمارية في محافظات الشرطة والسجن ومديرية عمليات الشرطة...وما تطرقت إليه ما هو إلا عين قليلة، ما عاشه المجاهدون والمواطنون وخاصة في معمل المصبرات والزيوت في شاطو بيري- بماكوني- (Chatto PÉRET-MACONNAIS) وهو المقر العام لفرقة المشاة الثالثة عشر، وفي فلاج الرياح من طرف الملازم المسمى بولحية و في المدرسة الوطنية القديمة في نهج باستور المصادرة، وفي المركز العسكري لسيدي ياسين «دار المباركة» إلى جانب ثكنة الليفيف الأجنبي، و في بلديات المنطقة

كعين البرد و مولاي سليسن و مطمورة أولاد أ مبارك بقرية وازن بلدية رجم دموش -دائرة رأس الماء- وغيرها من مراكز التعذيب من قبل المناضلين السياسيين من أعضاء جبهة التحرير الوطني والسكان الأبرياء و بمختلف أساليب القهر والإرهاب النفسي والجسدي.

هكذا عاش كل المعتقلين الذين أسروا في هذه السجون الجهنمية، حيث لم تحترم فيها القواعد الإنسانية، وعانى سكان منطقة سيدي بلعباس على وجه الخصوص والشعب الجزائري على العموم من جرائم الحرب وليس من الحرب بحد ذاتها.

الإحالات:

1 - مفهوم التعذيب: يقصد به على العموم الآلام الجسدية و الذهنية التي يلحقها أعوان السلطة بالأفراد بصفة منظمة أو غير منظمة، دون سبب ظاهر من تلقاء أنفسهم أو بناء على أوامر السلطة الإدارية أو السياسية أو كلاهما معا، ويتضمن التعذيب عدة أشكال وأنواع وهو على درجات مختلفة و هو في الأساس يتشكل على نوعين: تعذيب نفسي وآخر جسدي.

2- L'Echo D'oran du 03/ 11/ 1954.

3- بلغيت (محمد الأمين)، «تاريخ الجزائر المعاصر»، دراسات ووثائق، الطبعة الثانية، 1428/ 2007م، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت، ص 206.

4 - الدرع (محمد)، «فضائح الجيش الفرنسي في الجزائر أثناء الثورة الجزائرية»، مجلة الرؤية، العدد الثالث، السداسي الأول 1997، نشر وطباعة مطابع الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص ص (181، 194).

5- عسال (نور الدين)، «سياسة التعذيب الاستعماري خلال الثورة الجزائرية 1962/1954»، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف مجاود محمد، 2006/2005، ص 26.

6- مراكز التعذيب من سجون و معتقلات فالسجن هو بناء مخصص للفئات المنحرفة و يدخله كل من ارتكب جريمة أخلاقية أو مخالفة اقتصادية أو قتل نفسا، كما يدخل إليه بعض الأشخاص ذوي الاتجاهات السياسية المخالفة لاتجاه الحكم القائم في البلاد، و السجن لا يتمتع بحقوقه المدينة عقابا له لمدة م الزمن و يؤثر هذا العقاب في حياة المسجونين، أما المعتقل فهو مكان يجمع فيه الناس و تقيد فيه حريتهم و يساقون إليه نتيجة فوضى طارئة أو لثورة قائمة فهو على عكس السجناء لا يتعوضون للمحاكمة و يتعرضون فيه للعداب النفسي لأنهم ليسوا مجرمين حتى يحاكموا، إذ يبقون مرهونين بحياة الحوادث الطارئة و تختلف حياتهم باختلاف الإدارة التي تسيرهم و لا يخضعون للباس معين كما في السجن و يتمتعون ببعض الحريات داخل المعتقل، فهو إذن رهن الظروف السياسية المحلية أو الدولية، أنظر: عزوي (محمد الطاهر)، «ذكريات المعتقلين»، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشتهار، وحدة الطباعة بالروبية، الجزائر 1996، ص ص (14، 11).

7- بلعدي (عابد)، «السجون والمعتقلات والمحتشدات إبان الثورة التحريرية»، المركز الوطني للدراسات، ص 23.

8- تقع القرية على بعد 16 كلم بالجنوب الغربي من مدينة سيدي بلعباس و هي قرية فلاحية على ضفاف وادي مكرة يحدها في جهتها الشمالية والغربية سهل مسار و سيدي خالد و بالجنوب الغربي أراضي سهل الطابية و سيدي علي بن يوب، إن القرية بنيت في موقع استراتيجي وجغرافي هام كان يمر به طريق تاريخي يربط تلمسان و معسكر

- سمي بالطريق الثقافي، ثم يتوسط الطريق الرابط بين وهران و الضاية بوابة الصحراء الكبرى.
- إن الطريق التي كانت تمر ببوشبكة كانت تربط يتلمسان و المغرب غربا بمعسكر و بجاية شرقا و سمي بطريق المحلة أو السلطنة الذي مر به كل من يوسف بن تشفين و يعقوب المنصور و سيدي بومدين بن شعيب و طارق بن زياد كلهم علماء و عظماء فالرحالة الكبار الوافدون من المغرب الأقصى و بلاد الأندلس و المتوجهين نحو الشرق العربي لتأدية فريضة الحج أو لطلب العلم مروا على هذه الطريق، و هكذا أصبحت بوشبكة نقطة توقف ومعقلا على طول الطريق، سمي بالشبكة لأنها محصورة كالشبكة، و أطلق فيما بعد اسم بوخنفيص، وهكذا اختار لها المعمر اسم بوخنفيص و أنشأت كبلدية في سنة 1848 و رسمت يوم 31 ديسمبر 1856، و بقي لها ذلك الاسم حتى بعد الاستقلال و إلى يومنا هذا.
- مذكرة خاصة «بمعتقل بوشبكة الجهني»، منشورات من إعداد مديرية الشباب والرياضة لجمعية نشاطات الشباب، دار البلدية ببوخنفيس.9
- 10الأرشيف والمراسلات الدالة على بناء سجن بوخنفيص، تحصلت عليها من طرف السيد«عدة عباس»، من خلال البحث الذي قام به وهو على شكل استمارة، عدة (عباس)، «دراسة وثائقية لسجن البرج بوشبكة»، أستاذ التاريخ سابقا، ومدير متوسطة قبان سليمان ببلدية بوخنفيص، والذي أجريت معه الحوار حول الأحداث العسكرية التي شاهدها البلدية (1954،1962)، يوم:09 فيفري 2009، بمقر مكتبه داخل المؤسسة، وبحضور السيد:«بوشنتوف قدور»، أحد أبناء المنطقة كان محافظ الشرطة سابقا.
- كان هذا السجن في أيامه الأولى عبارة عن مغارة (مطمورة)، عمقها ما بين 10 إلى 15 مترا.11
- 12شقرون (الجيلالي)، «دراسة وثائقية لسجن البرج بوشبكة 1874»، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830/1962، الجزء الثاني، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، ص ص(106،111).
- 13عدة(عباس)، المرجع السابق.
- 14نفسه.
- 15- مقابلة حية مسجلة مع قندوسي عبد الله، التحق بالثورة عام 1956 كمناضل في ج ت و ثم كمسؤول عن جمع الاشتراكات في الخلية ثم في الفوج ثم في العرش ثم في الفرع، القسمة الأولى، الناحية الأولى، في المنطقة الخامسة، يوم 09 جوان 2009، بمقر بلدية لمطار.
- 16- مقابلة مع «بوشنتوف قدور»: مناضل ثم مسبل دائم في صفوف جبهة التحرير الوطني، منذ 1956، يوم 09 فبراير 2009 بمقر بيته ببوشبكة.
- 17- إذ لم يكن عمره يتجاوز 24 سنة عند تواجده بالسجن البرج (بوشبكة)، ونظرا لصغر سنه مقارنة بالمحبوسين قرر «شونزي» أن يستعمله في خدمته، بين المكتب والبيت ليخفف بعض المشاق عن السيدة «شونزي»، لكن «سي بوعلام» رغم أنه رضي بالأمر الواقع نظرا للظروف ونظام السجن فإنه كان يتحين الفرصة لساعة الخلاص والانتقام.
- 18- مقابلة حية مسجلة مع «بودالة الطيب»، التحق بالثورة عام 1959 كجندي ثم نائب مسؤول مركز مكلف بالاتصال بين الناحية الأولى والثانية في المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة، يوم 13 ماي 2009، بمقر سكنه ببوخنفيس.

الثقافة السياسية من خلال عمل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية

مجاود حسين – طالب دكتوراه – جامعة سيدي بلعباس

لقد وصلت الثورة الجزائرية إلى أوج فعاليتها في المرحلة التي أعقبت مؤتمر الصومام حيث اتضحت هياكلها العسكرية والسياسية واتسع مداها العسكري وزاد التلاحم بين الشعب وجيش التحرير الوطني. كما حدد قادة الولاء والانتماء للشرعية الثورية الضوابط والقناعات بخصوص دور المؤسسات في تفعيل وترجمة مجموعة الاتجاهات والمعتقدات والمشار التي تعطي نظاما ومعنى للعملية الثورية. ومن خلال هذا يتحدد التصرف السياسي في نطاق هذه القيم الاجتماعية أو ما يعرف بالثقافة السياسية، التي تؤثر على سلوك الحاكم والمحكوم. ومعنى ذلك أن الثقافة السياسية تتمحور حول قيم واتجاهات وقناعات طويلة الأمد بخصوص الظواهر السياسية، ويفرز كل مجتمع مجموعة رموزه وقيمه وأعرافه الأساسية إلى أفراد شعبه، ويشكل الأفراد مجموعة من القناعات بخصوص أدوار النظام السياسي بشتى مؤسساته الرسمية وغير الرسمية في ظل الحقوق والواجبات. ولما كانت الثقافة السياسية للمجتمع جزءاً من ثقافته العامة، هذا ما يؤكد «فيربا وألموند» بأن «الثقافة السياسية ليست إلا جزءاً أو رافداً من روافد الثقافة الشاملة للمجتمع»⁽¹⁾، فهي تتكون بدورها من عدة ثقافات فرعية⁽²⁾، وتشمل تلك الثقافات الفرعية: ثقافة الشباب، والنخبة الحاكمة، والعمال، والفلاحين، والمرأة.. الخ. وبذلك تعطي الثقافة السياسية نظاماً ومعنى للعملية السياسية، وتقدم القواعد المستقرة التي تحكم تصرفات الأفراد داخل النظام السياسي⁽³⁾،

يعرف كمال المنوفي الثقافة السياسية على أنها «مجموعة القيم المستقرة التي تتعلق بنظرة المواطن إلى السلطة، والتي تعد مسؤولية إلى حد بعيد عن درجة شرعية النظام القائم، فالثقافة السياسية تؤثر في علاقة المواطن بالسلطة من حيث تحديد الأدوار والأنشطة المتوقعة من السلطة، ومن حيث طبيعة الواجبات التي يتعين على المواطن القيام بها، كما أن الثقافة السياسية تتضمن التفاصيل الخاصة بهوية الفرد والجماعة»⁽⁴⁾.

على ضوء هذه التعاريف سنتطرق للثقافة السياسية من خلال عمل الحكومة المؤقتة

للجمهورية الجزائرية ما بين 1958-1962، إذ يعد تأسيسها بعد أربع سنوات من عمر الثورة حدثاً تاريخياً هاماً في مسيرة الثورة التحريرية، واستكمالاً لبنائها المؤسسي، وإعادة بعث للدولة الجزائرية الحديثة، التي انتهكت مع بداية الغزو الفرنسي للجزائر في 14 جوان 1830، والتي خسر على إثرها الشعب الجزائري سيادته على أرضه، وبهذا أكد إعلان الحكومة على تقدم الثورة نحو تحقيق الاستقلال وذلك بتعزيز العمل العسكري بمجهود سياسي ودبلوماسي.

كما يعد تأسيس الحكومة المؤقتة منعرج حاسم في بلورة الثقافة السياسية لدى رجالات الثورة، لأن هذه الأخيرة سوف تكون على المحك، نتيجة لتغيرات في أسلوب النضال، حيث انتقلت الحركة الثورية من أسلوب العنف المحض إلى ممارسة السياسة الخالصة في تسيير حركية الثورة.

تعتبر هذه المؤسسة من خلال نشاطها عن الدولة الجزائرية بجميع مكوناتها الحضارية والثقافية والاجتماعية، وهذا سواء في تعاطيها مع الطرف الفرنسي أو من خلال عملها السياسي والدبلوماسي في مختلف المحافل الدولية، إذن فإن تأسيس الحكومة المؤقتة ونشاطها سيعطينا تصوراً للثقافة السياسية لرجالات الثورة، وهذا ما سوف نبينه من خلال تتبعنا لمختلف الأطوار التي مرت بها هذه المؤسسة .

أسباب تأسيس الحكومة المؤقتة:

يعتبر مفجري الثورة -من خلال موثيق الثورة- أن الإحساس بالانتماء من أهم المعتقدات السياسية، ذلك أن شعور أفراد الشعب بالولاء لجهة التحرير الوطني، يساعد على إضفاء الشرعية لها، و يساعدها على البقاء وتخطيها الأزمات والمصاعب التي تواجهها، فضلاً عن أن الإحساس بالولاء والانتماء للوطن يساعد على بلورة وتنمية الشعور بالواجب الوطني وتقبل الالتزامات⁽⁵⁾.

وفي خضم التطورات التي عرفتها الثورة الجزائرية كانت الحاجة ماسة إلى استكمال البناء المؤسسي، مما جعل تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة ضرورة حتمية لتحقيق النماء السياسي والدبلوماسي لجهة التحرير الوطني والثورة الجزائرية. وإعادة بناء اللحمة الوطنية وملمة الفوارق وزرع الثقة بين القادة، بعد الخلافات التي وقعت بين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ، وعدم قدرة أعضائها على الانسجام خاصة تورط بعضهم في تصفية عبان رمضان، حيث فقدت

اللجنة الكثير من مصداقيتها⁽⁶⁾.

ودافع القوي لتأسيس الحكومة المؤقتة هي الحاجة إلى طرف جزائري مفاوض له صفة تمثيل الثورة التحريرية، وذلك إثر ظهور بواردر في السياسة الفرنسية للجلوس على طاولة التفاوض، خاصة بعد وصول «الجنرال ديغول» إلى الحكم في فرنسا أوائل جوان 1958، حيث جرت محادثات بين «كريم بلقاسم» مرفوقا بـ «فرحات عباس» و«جان عمروش» وهو كاتب من أصل جزائري، كان صديق «لأوليفي غيشار» أحد المقربين من «الجنرال ديغول»، وعندها فهم كريم من محدثه أن الرئيس الفرنسي يبدي استعدادا واضحا للتفاوض مع جبهة التحرير الوطني⁽⁷⁾.

كما أوصى مؤتمر طنجة الذي جمع حزب الاستقلال المغربي وحزب الدستور التونسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية من 27 إلى 30 أبريل 1958 بتأسيس حكومة جزائرية بعد التشاور مع الحكومتين التونسية والمراكشية⁽⁸⁾، وبهذا توفرت الأسباب الكافية لتأسيس الحكومة المؤقتة.

أهداف الحكومة المؤقتة الجزائرية

تتمثل أهداف الحكومة المؤقتة في إقناع الرأي الوطني أن هناك مؤسسة سياسية تعمل على إضفاء الشرعية السياسية للكفاح المسلح، وتمهيدا لبناء الدولة الجزائرية الحديثة بمعايير وقيم جزائرية، وإقناع الرأي العام العالمي بأن المفاوض الجزائري الشرعي موجود، إنه مستعد للدخول في مفاوضات رسمية مع الحكومة الفرنسية للوصول إلى حل سلمي، حيث يؤكد فرحات عباس في هذا الصدد بقوله: «هذه الحكومة ستكون عاملا من العوامل المساعدة على إيجاد حل سلمي»⁽⁹⁾. ويتمثل الهدف الآخر في وضع حد فاصل لما تدعيه الحكومة الفرنسية في مناسبات عديدة بأنها لا تجد أمامها ممثلا حقيقيا للمسلمين الجزائريين تتفاوض معه رسميا⁽¹⁰⁾.

كما توضح أيضا الرسالة التي وجهتها الحكومة غداة تشكيلها للرئيس المصري جمال عبد الناصر الهدف من إنشاءها حيث جاء فيها: «إن تشكيل هذه الحكومة... في هذا الوقت بالذات، إنما هو رد عملي علني على ذلك التحدي الصارخ الذي ألقى به الحكومة الفرنسية على وجه الشعب الجزائري المجاهد عندما أعلنت سياسة الاندماج التام، وأخذت توافي تنفيذها بواسطة إرغام الشعب على المشاركة في الاستفتاء الذي تقوم به فرنسا يوم 28 سبتمبر 1958 حول

الدستور الفرنسي الجديد... وتضع حدا فاصلا لما تدعيه الحكومة الفرنسية في مناسبات عدة من أنها لا تجد أمامها ممثلا صحيحا تفاوضه رسميا لمحاولة إيجاد حل للقضية الجزائرية⁽¹¹⁾.

كما أن الهدف من تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية هو إيصال القضية الجزائرية أما الرأي العام. وقد لخص أحمد توفيق المدني هذا بقوله: «المقصود منها إقناع الرأي العام العالمي بأن المفاوضات الجزائري موجودة وهو يظهر رغبته في الاتصال ضمن مفاوضات رسمية بالحكومة الفرنسية على مقتضى الشروط التي أعلنتها الثورة... والمهمة الأساسية للحكومة المؤقتة هو تحقيق الاستقلال وتمكين الجزائر من إبداء صوتها في وسط عالمي، والتهيئة لهذا العمل»⁽¹²⁾.

من هنا تتحدد الثقافة السياسية لدى أعضاء الحكومة المؤقتة في إعادة ضخ وأحياء القيم الاجتماعية للشعب الجزائري بمنحه الاستقلال التام عن فرنسا وانسلاخه من كل الرواسب التي تركها المستعمر.

إعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة

جسد قادة الثورة من خلال ثقافتهم السياسية النطاق العام المعقول للعمل السياسي والحدود المشروعة للأفراد المسموح لهم بالمشاركة في العملية السياسية، كما حددوا النظام العام لوظائف ومهام الحكومة المؤقتة، من هذا المنطلق تم تحديد أعضاء الحكومة المؤقتة الجزائرية التي ستمارس مهامها⁽¹³⁾. يذكر محمد حربي أن لجنة التنسيق والتنفيذ عقدت عدة اجتماعات ما بين شهري جويلية وسبتمبر 1958 لطرح وجهات النظر حول الوضعية الصعبة التي تعرفها الثورة. وبعد مخاض عسير أخذت لجنة التنسيق والتنفيذ قرار تحويلها إلى حكومة⁽¹⁴⁾.

تشكلت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من ثمانية عشرة عضوا⁽¹⁵⁾ يمثلون مختلف التشكيلات التي انضمت إلى جبهة التحرير، وهي اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، والعلماء، ووسع تمثيلها ليشمل الداخل كذلك من خلال كتاب الدولة الثلاث (الأمين خان، عمر أو صديق، مصطفى اسطنبولي)، كما شملت السجناء الخمسة في فرنسا، ومن الملاحظ على هذه التشكيلة الحكومية أنها استبعدت أحد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية وهو، عمر أو عمران، وضمت إليها عضوين جديدين هما «بن يوسف بن خدة» الذي تم استبعاده من لجنة التنسيق والتنفيذ

الثانية بعد ما كان عضوا في الأولى و«محمد اليزيد» الذي كان مبعوثا لجبهة التحرير في الأمم المتحدة⁽¹⁶⁾. أما رئاسة الحكومة فأقترح أن تعود إما لصالح كريم بلقاسم بإعتباره أحد التاريخين أو تعود إلى الدكتور الأمين دباغين على اعتبار أنه كان رئيس الوفد الخارجي⁽¹⁷⁾، لكن الاقتراحين اصطدما بمعارضين، فالاقترح الأول القاضي بتعين كريم بلقاسم على رأس الحكومة اعترض عليه كل من لخضر بن طوبال وعبد الحميد بوصوف حيث رفضا إعطاء كريم سلطة أعلى من سلطتهما، وأما الاعتراض على الاقتراح الثاني المتعلق بتولي الأمين دباغين رئاسة الحكومة فقد جاء من السجناء وبالأخص من طرف أحمد بن بلة⁽¹⁸⁾، وعندها تم تعيين فرحات عباس بالإجماع على رأس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958⁽¹⁹⁾.

من خلال بناء هذا الصرح المؤسسي يتبن عمق دلائل الثقافة السياسية لدى أعضاء الحكومة المؤقتة، وهي ثقافة المشاركة وليس الاقصاء، وقاعدة الاختيار وسلم المسؤولية يكون وفق قاعدة الولاء والانتماء للشرعية الثورية. ولهذا سيكون لها صدى ايجابي خاصة على مستوى القاعدة الشعبية.

موقف المحلي ودولي من إنشاء الحكومة المؤقتة :

استقبل الشعب الجزائري خبر إعلان الحكومة المؤقتة بهذه الشخصيات التي تضمنتها بفرح بالغ، وأقام الشعب في كل جهة من التراب الجزائري حفلات كبيرة، فرحا بميلادها⁽²⁰⁾. كما أدى إعلان الحكومة واستجابة الشعب لها إلى زيادة الوعي في صفوف الرأي العام الجزائري الذي صار يتابع باهتمام بالغ مبادرات حكومته. وبهذا فإن الثقافة السياسية تؤثر في علاقة المواطن بالسلطة من حيث تحديد الأدوار والأنشطة المتوقعة من السلطة، ومن حيث طبيعة الواجبات التي يتعين على المواطن القيام بها. وهذا ما سوف نلاحظه من خلال استجابة الشعب الجزائري للنداءات الحكومة المؤقتة المختلفة.

جاءت مواقف الدول الشقيقة والصديقة للثورة الجزائرية من إعلان الحكومة المؤقتة مؤيدة ومعترفة بهذه الحكومة على الرغم من بعض التحفظات التي أبدتها القيادة المصرية حول شخصية رئيسها، فقد اعترفت بها في نفس اليوم كل من الجمهورية العربية المتحدة، والعراق، وليبيا وباكستان واليمن⁽²¹⁾. ثم توالى الاعترافات من باقي الدول العربية والأسبوية على غرار الصين، كوريا الشمالية، والفيتنام الشمالية، وهذا يعتبر تنويعا للنشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة⁽²²⁾.

تمثل رد فعل السلطات الفرنسية التي يتزعمها «الجنرال ديغول» على إعلان الحكومة المؤقتة في طرح اصلاحات سياسية واجتماعية تمثلت بالخصوص في مبادرتين هما مشروع قسنطينة الاقتصادي وسلم الشجعان في أكتوبر 1958، الهدف من هذه الاصلاحات عزل الشعب عن الثورة وخلق فئة بورجوازية موالية لفرنسا، وأما على المستوى الخارجي فقد حذرت فرنسا سائر الحكومات من الاعتراف بالحكومة المؤقتة والقيام بالتبادل الدبلوماسي معها⁽²³⁾.

محطات من عمل الحكومة المؤقتة الجزائرية

سارعت المناورات الاستعمارية والاستحقاقات المفروضة على الحكومة المؤقتة بالمبادرة إلى تفعيل دورها، إذ واجهت الحكومة مشروع استفتاء 26 سبتمبر 1958 على الجمهورية الخامسة الذي طرحه «الجنرال ديغول» على الشعب الجزائري بإصدار رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس بيانا قال في: «إن الشعب لن يلقي السلاح إلى أن يتم الاعتراف بحق الجزائر في السيادة والاستقلال، والجزائر ليست فرنسا، والشعب الجزائري ليس فرنسيا»⁽²⁴⁾.

وأما رد الحكومة المؤقتة على فكرة سلم الشجعان فقد جاء بتحديد مجموعة من الشروط لتحقيق الصلح وهي: التوجه للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لأنها ممثلة الشعب والاعتراف بنهاية الاستعمار وتطبيق حق تقرير المصير للشعب الجزائري، على أساس هذه الخطة يتم إعلان إيقاف النار⁽²⁵⁾.

ومن الإجراءات الميدانية التي اتخذتها الحكومة المؤقتة لتعزيز الثورة هي تأسيس لجنة العمليات العسكرية، ومن مهامها التموين والتسليح وتسيير العمليات العسكرية، كما اتخذ قرار آخر في نفس السياق وهو إدخال الوحدات العسكرية المرابطة بالحدود إلى الداخل في أجل أقصاه شهر⁽²⁶⁾.

تعد مفاوضات إيفيان من أهم الاستحقاقات التي واجهت الحكومة الجزائرية المؤقتة، حيث بعد إعلان ديغول مبدأ تقرير المصير في سنة 1959 الذي اعتبرته الحكومة المؤقتة وسيلة ديمقراطية وسلمية تمكن الشعب الجزائري من تحقيق الإستقلال⁽²⁷⁾، بدأت المفاوضات بلقاء «مولان» من 25 إلى 29 جوان 1960، لكنها فشلت لتعنت الطرف الفرنسي وتمسكه بفكرة وضع السلاح دون تحديد الشروط العسكرية والسياسية لوقف إطلاق النار. مما دفع بالمبعوثين الجزائريين «محمد بن يحيى» و«أحمد بومنجل» بالانسحاب من المفاوضات، الذي كان يهدف

منها الطرقي الفرنسي تحميل الحكومة المؤقتة مسؤولية فشلها أمام الرأي العام الدولي⁽²⁸⁾.

وخلال هذه الفترة شهدت الجزائر انتفاضة شعبية عارمة يوم 11 ديسمبر 1960 في المناطق الحضرية للجزائر، أقنعت السلطات الفرنسية بأن الحل الوحيد للقضية الجزائرية هو العودة إلى المفاوضات وأن محاولة فرض الحل العسكري لن يجدي نفعا⁽²⁹⁾.

والملاحظ هنا تجسيد مفهوم الثقافة السياسية المبني على علاقة الشعب بالحكومة من حيث تحديد الأدوار والأنشطة المتوقعة من السلطة، ومن حيث طبيعة الواجبات التي يتعين على المواطن القيام بها.

وبعد شهرين من هذه الأحداث جرى لقاء «لوسارن» (Lucerne) يوم 20 فيفري 1961 بسويسرا حيث أكد الوفد الجزائري تمسكه بحق تقرير المصير مقابل وقف إطلاق النار، كما رفض فكرة فصل الصحراء عن بقية التراب الوطني، ورغم ذلك كانت مفاوضات «لوسارن» بداية لطرح المشاكل وكان لها الفضل في إبراز النقاط التي كانت محل خلاف بين الطرفين بكل وضوح⁽³⁰⁾. والملاحظ في هذه المرحلة من المفاوضات التعبير عن الوحدة الترابية والانتماء للوطن وهي أهم سمات التي تشكل الثقافة السياسية لدى رجل القرار.

تمكنت الحكومة المؤقتة من خلال سلسلة من المفاوضات من افتكاك اعتراف الحكومة الفرنسية بها كممثل وحيد وشرعي للشعب الجزائري، فبدأت مرحلة جديدة من المفاوضات كانت بدايتها محادثات «إيفيان» 20 ماي 1961⁽³¹⁾، حيث حققت بعض التقدم إذا اعترف الجنرال «ديغول» بأن السياسة الخارجية هي من صلاحيات الدولة الجزائرية، ولكنه تمسك بموقفه إزاء الصحراء، وهو ما دعا الحكومة المؤقتة إلى تنظيم مظاهرات وطنية في يوم 5 جويلية 1961 ضد التقسيم، أين كانت استجابة الشعب واسعة رغم التهديدات والاستفزازات الفرنسية، ليعلن بذلك للعالم وحدته ووحدة بلاده رافعا شعار «الصحراء جزائرية»⁽³²⁾.

بادرت الحكومة المؤقتة بقيادتها الجديدة يوم 24 أكتوبر 1961 بطرح اقتراح جاء فيه: «التخلي عن فكرة تقرير المصير، إعلان الاستقلال من طرف فرنسا وبالمقابل وقف إطلاق النار فوراً أما المسائل المعلقة فهي: وضع الأقلية وجلاء القوات الفرنسية والتعاون الاقتصادي والتقني والثقافي، هذه المسائل ستحل مع الحكومة الجزائرية المستقلة»⁽³³⁾.

كما وجهت الحكومة المؤقتة الثالثة في 30 أكتوبر 1961 نداء إلى الشعب الجزائري تدعوه فيه إلى التظاهر يوم الفاتح نوفمبر 1961 الذي له رمزية خاصة، لتحقيق استقلال الجزائر في نطاق وحدة الشعب ووحدة التراب الجزائري وسلامته عن طريق التفاوض فوراً بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية ⁽³⁴⁾.

وقد كانت استجابة الشعب كبيرة في كل أنحاء الجزائر من العاصمة إلى وهران وقسنطينة وبسكرة والأغواط ، وهو ما دفع وزير الأخبار في الحكومة المؤقتة محمد يزيد إلى التصريح بأن هذه المظاهرات شكلت مصادقة واضحة على سياسة الحكومة المؤقتة حيث جاء في تصريحه: « أما الشعب الجزائري فقد قرر مصيره في هذه المظاهرات بالمصادقة على سياسة الحكومة المؤقتة الجزائرية ، وبذلك قدم الشعب الجزائري مساهمة حاسمة لقضية التفاوض والسلم » ⁽³⁵⁾.

والملاحظ هنا هو ذلك الالتفاف الشعبي حول العمل السياسي والدبلوماسي الذي تقوم به الحكومة المؤقتة مما أعطاهم مصادقية ديمقراطية أمام الرأي العام العالمي وعزز من موقعها التفاوضي أمام المستعمر الفرنسي.

مكن نضج الثقافة السياسية لدى أعضاء الحكومة المؤقتة بعدم التفريط في الصحراء، حيث تمكنت في لقاء بال الأول (28 Balle) سبتمبر 1961 من افتكاك اعتراف فرنسا بالسيادة الجزائرية على الصحراء ⁽³⁶⁾ ، كما تمكن من خلال لقاء بال الثاني 09 نوفمبر 1961 بطي ملف حقوق الأوربيين في الجزائر، حيث خيرتهم بين إحدى الجنسيتين ورفضت الجنسية المزدوجة ⁽³⁷⁾.

انتهت اتفاقيات «ايفيان» التي صوت عليها المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالإجماع في دورته المنعقدة بطرابلس من 22 إلى 27 فيفري 1962 ، وبعد التوقيع على هذه الاتفاقيات يوم 18 مارس 1962 أمر رئيس الحكومة بن يوسف بن خدة بوقف إطلاق النار على أمواج إذاعة تونس ومما جاء في خطابه :«باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وبتفويض من المجلس الوطني للثورة الجزائرية ابتداء من 19 مارس 1962 على الساعة الثانية عشرة ، أمر باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كل قوات جيش التحرير الوطني المكافحة بوقف العمليات العسكرية والاشتباكات المسلحة على مجموع التراب الوطني» ⁽³⁸⁾. وبذلك طويت صفحة الإستعمار الفرنسي في الجزائر.

المشاكل التي اعترضت عمل الحكومة المؤقتة:

تطورت الثقافة السياسية لدى رجالات الحكومة قد أصبحت أكثر نضجا، لكن ما يعاب عنها أنها لم تستطيع أن تكون مدرسة حقيقية للأجيال القادمة، وهذا ما سوف نلاحظه من خلال الخلافات والمشاكل التي اعترضت عملها، وكذا ما تمخض من مشاكل مباشرة عقب الاستقلال، من تشتت سياسي وعبث بالقيم الاجتماعية. كان السمة الغالبة على الساحة الوطنية .

واجهت الحكومة المؤقتة منذ تأسيسها مشاكل خطيرة كان أولها مؤامرة «محمد العموري»، الذي رتب لمحاولة انقلابية ضدها بمساعدة الطرف المصري، لكن تم افشال ذلك وألقي القبض عليه والمتآمرين معه في 16 نوفمبر 1958 وقدموا للمحاكمة، حيث تشكلت هيئة المحكمة من العقيد هواري بومدين رئيسا ، والرائد على منجلي وكيلا والعقيد الصادق محاميا ، وانتهت المحاكمة بإصدار حكم الإعدام في حق العقيد العموري ⁽³⁹⁾.

وما أن تخلصت الحكومة المؤقتة من المشكلة الأولى حتى برزت حادثة أخرى سرعان ما عملت على تفكيك الحكومة ففي أبريل 1959 وقعت ما يعرف بحادثة مقتل «علاوة عميرة» في القاهرة بمكتب رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس، اتهم عميرة الحكومة المؤقتة بالعجز عن إيجاد الحلول للمشاكل العويصة التي كانت تعاني منها الثورة، كما إتهم ملين دباغين كل من فرحات عباس وبوصوف بإغتيال صديقه علاوة ، وعندها ساءت العلاقة بين ملين دباغين والحكومة وانتهى الأمر باستقالته منها⁽⁴⁰⁾.

ومن المشاكل الأخرى التي واجهت الحكومة الاتهامات التي أطلقها العقيد هواري بومدين ضدها حيث اتهمها بالتقصير في إمداد الناحية الغربية من البلاد بالسلاح والمؤونة ، كما اتهمت بأنها لا تقوم بعملية إيصال الأسلحة التي تسلمها الجمهورية العربية المتحدة إلى الثوار بل تكدها في ليبيا ⁽⁴¹⁾، وكذا الاتهامات العقيد محمود الشريف لكريم بلقاسم بأنه وراء الفوضى الواقعة على الحدود، وأنه وراء مؤامرة العموري، وبلغ الأمر بينهما إلى حد التهديد بالقتل والتصفية⁽⁴²⁾.

وبهذا شكلت هذه الممارسات مشاكل كبيرة للحكومة وأعاق الممارسة الديمقراطية فيها، مما دفعها إلى الاستنجد بالعقلاء العشرة⁽⁴³⁾، الذين يسيطرون على الفعل العسكري سواء على مستوى الحكومة أو قيادة الأركان أو الولايات من أجل تشكيل حكومة جديدة ⁽⁴⁴⁾. ولكن

هناك مؤاخذات عليها، حيث يؤكد كل من علي كافي وسعد دحلب أنه لم يتم استشارة كل أعضاء المجلس الوطني للثورة⁽⁴⁵⁾، وأن هذا الفعل وضع الجميع أمام الأمر الواقع غير أن ذلك بحسب دحلب لم يدفع بأي عضو للمطالبة بتوضيحات حول القرار، وأن الجميع كان يثق في السياسية التي يتبعها القادة⁽⁴⁶⁾.

وما يؤخذ عن الحكومة كذلك أنها تشكلت من ثلاث فئات : فالفئة الأولى يشكلها الثوريون وعلى رأسهم الباءات الثلاث (بوصوف ، بن طوبال، بلقاسم كريم)، والفئة الثانية: تتشكل من الليبراليين وعلى رأسهم فرحات عباس وأحمد فرنسيس ، والفئة الثالثة: تتشكل من المركزيين وعلى رأسهم بن خدة وسعد دحلب ومحمد يزيد ، وبهذا كانت السلطة الحقيقية داخل الحكومة بيد الثوريين أصحاب النفوذ الكبير في الداخل، وكذا احتفاظهم بمناصب هامة وحساسة في الحكومات المؤقتة الثلاث، وهذا كان ينبئ بإمكانية تفكك الإجماع السائد بسهولة⁽⁴⁷⁾، حيث جاء في قول بن يوسف بن خدة عن عملها الداخلي: «لقد نشأت في المنفى بيروقراطية سياسية وعسكرية تميزت بغياب الحياة الداخلية، فقد جرى تجاهل الديمقراطية الداخلية والنقد الذاتي والعوامل الهامة في اختيار القادة فاتحين المجال للوصولية ، والمجاملات»⁽⁴⁸⁾.

يمكن القول أن الثقافة السياسية لأعضاء الحكومة المؤقتة أخذت منعرج جديد، تمثل في الصراع على مستوى القمة وتغيب القاعدة الشعبية وهذا ما سيخلق فجوة بين الحاكم والمحكوم ، ويشكل لدى الأفراد مجموعة من القنوات بخصوص أدوار النظام السياسي بشتى مؤسساته الرسمية وغير الرسمية، وهذا ما سيلقي بضلاله في الخلاف ما بينها وبين هيئة الأركان العامة وانعكاساته فيما يسمى بأزمة صائفة 1962 .

تعرضت الحكومة المؤقتة الجزائرية لعقبات في تسيير نشاطها وأخطرها خلافاتها مع هيئة الأركان التي بدأت عملها يوم 23 جانفي 1960، وكان الخلاف بينها وبين اللجنة الوزارية للحرب فيما يتعلق بالصلاحيات وطريقة سير الحرب وكذا حول الإشراف على الولايات في الداخل فكلاهما أراد أن تكون تحت رقابته⁽⁴⁹⁾.

وأخطر هذه الأزمات هي الاستقالة الجماعية لهيئة الأركان العامة بقيادة هواري بومدين في 15 جويلية 1961، وكانت مرفوقة برسالة مطولة⁽⁵⁰⁾ إلى رئيس الحكومة المؤقتة⁽⁵¹⁾، شرحت أسباب الاستقالة وقدمت نقدا صريحا للحكومة. كما كشفت وثيقتها عن برنامج سياسي حقيقي

سواء فيما يتعلق بالقضايا الداخلية أو الخارجية وظهر بومدين قائدا دون منازع لهذه العناصر ، وبهذا واجهت الحكومة صعوبة كبيرة في هيكلة الثورة وضبطها عسكريا.⁽⁵²⁾

كما استمر هذا الصراع بين الطرفين في المرحلة الانتقالية التي انتهت بإجراء استفتاء تقرير المصير، حيث عمد عناصر قيادة الأركان إبعاد عناصر الحكومة المؤقتة من السلطة السياسية، وتمكنت من ذلك بعد أزمة صائفة 1962 التي انتهت بسيطرة عناصر المكتب السياسي المشكل أساسا من أحمد بن بلة ومحمد خيضر ورابع بيطاط⁽⁵³⁾، على السلطة في الجزائر وتعيين أحمد بن بلة رئيسا للحكومة عام 1962 بدعم ومساندة من قبل قيادة الأركان.

نستطيع أن نسجل من خلال عمل الحكومة تبولر وتنمية الثقافة السياسية لدى أعضائها، فخلال سلسلة الاجتماعات والمداولات التي عقدتها الحكومة أمكننا الوقوف على الاتجاهات والمشارب السياسية، حيث نجد الليبرالي، والاشتراكي وحتى الاسلامي، وأن البعد الحضاري والقيم الوطنية كانت موجودة من خلال مختلف أطوار نشاط الحكومة، كما أن حرية التعبير والنقاش وإبداء الآراء كانت سائدة بين أعضاء الحكومة على الرغم من استئثار الباءات الثلاث بقوة التأثير عند صنع القرار ، ومن المظاهر الدالة على الثقافة السياسية لدى الحكومة الجزائرية هو تمثيلها العميق للإرادة الشعبية ، وهذا ما نستشفه من خلال استجابة الشعب الجزائري للنداءات التي دعت فيها إلى دعم المفاوضين بالمظاهرات كما كان عليه الحال في مظاهرات 11 ديسمبر والفتح نوفمبر 1961 .

أعطى عمل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بعد إقليمي وعالمي للثقافة السياسية، حيث نسجل انتصاراتها في المعركة الدبلوماسية والسياسية، فبعد الاعتراف بها من قبل عدد كبير من دول العالم واحتلالها لمكانة بارزة في وسط المجموعة الإفريقية الآسيوية، استطاعت أن تتوصل إلى تحقيق استقلال الجزائر في ظل المبادئ والسيادة الكاملة ووحدة الشعب الجزائري، غير أن عملها نحو الداخل وخاصة على الصعيد العسكري عرف صعوبات كبيرة حيث لم تتمكن من توفير السلاح اللازم للثورة بالكمية المطلوبة، وذلك رغم الأطر التنظيمية المختلفة التي أنشأتها وعلى رأسها قيادة الأركان العامة التي انقلبت على الحكومة وتوجهت لمعارضتها على الرغم من أنها هيئة تابعة لها وفق قرار تشكيلها. وبهذا يمكننا القول أن الحكومة المؤقتة رسخت القيم والاتجاهات السياسية والاجتماعية للشعب الجزائري عبر مسيرتها التي دامت أربع سنوات رغم ظروف الثورة الصعبة، واستطاعت أن تحقق الحرية والاستقلال للشعب

الجزائري .

ويبقى أن نقول أن الفكر السياسي الجزائري في الفترة الاستعمارية عامة وفي فترة الثورة خاصة يبقى خصبا بشكل استثنائي، يمكن أن نحدده من خلال التوجه السياسي الذي عرضه مفجري الثورة على الساحة الجزائرية ومتمثل في توحيد الصفوف في بوثة واحدة هي جبهة التحرير الوطني الممثل الشرعي للثورة. التي تهدف في الأساس إلى التخلص من الاستعمار الفرنسي.

قائمة المصادر والمراجع

- (1) عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع السياسي (النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والمعاصرة)، دار النهضة العربية، ب ت، ص 436.
- (2) الثقافات الفرعية: إن مصطلح الثقافة السياسية لأمة ما، في الواقع، لا يعدو كونه مجرد تجريد إلى رمز يشير إلى ظواهر تتحقق في العالم الخارجي. ويطلق هذا المصطلح -كما سبقت الإشارة إليه- على التوجهات القيمة والسيكولوجية للجماعات أو الأفراد نحو الموضوعات السياسية، إلا أنه يمكن أن نتصور في نفس الوقت أن يكون لدى هذه الجماعات المختلفة توجهاتها ورؤاها المختلفة التي يمكن أن ينتج عنها أولاً ثقافة متناسقة متماسكة. وهذه التوجهات الخاصة هي ما أصلح على تسميته أو التعبير عنه بالثقافات الفرعية. أنظر: علي الصاوي، مدخل في الاجتماع السياسي للإدارة، مكتبة نهضة الشرق: جامعة القاهرة، 1995، ص 84.
- (3) علي الصاوي، المرجع السابق، ص 89.
- (4) كمال المنوفي، الثقافة السياسية للفلاحين المصريين: تحليل نظري ودراسة ميدانية في قرية مصرية، دار بن خلدون، بيروت، 1980، ص 14.
- (5) نفسه، ص 286.
- (6) عقيلة ضيف الله: المرجع السابق، ص 362. مغراوي (لقمان) ، أزمة الهوية في السياسة التعليمية الجواررية، مذكرة ماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، تخصص: التنظيم السياسي والإداري، إشراف: عقيلة ضيف الله، جامعة الجزائر يوسف بن خدة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004/2005.
- (7) عمر بوضربة، النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (سبتمبر 1958-جانفي 1960)، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2012، ص 114. انظر كذلك: محمد عباس : ثوار...عظماء (شهادات 17 شخصية وطنية)، دار هومة، الطبعة الثانية، الجزائر، 2003، ص 128.
- (8) Ferhat Abbas , autopsie d'une guerre ,édition Garnier frères paris 1980,pp :232-233.
- (9) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مع ركاب الثورة التحريرية)، الجزء الثالث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص ص 404-402.
- (10) عقيلة ضيف الله: المرجع السابق، ص 363.
- (11) أحمد توفيق المدني، مصدر نفسه، ص ص 404-402.
- (12) مصدر نفسه، ص ص 399-400.
- (13) عبد الهادي الجوهري، دراسات في العلوم السياسية وعلم الاجتماع السياسي، المكتبة الجامعية، الطبعة

الثامنة، الاسكندرية، 2001، ص 287.

(14) Mohamed harbi , Le FLN Mirage et Réalité, Des origines a la prise du pouvoir 1954-1962, 2éme Ed, Ed J.A, Paris , 1985. pp 212-215.

(15) لمعرفة تشكيل الحكومة المؤقتة الأولى أنظر: يوسف بن خدة ، نهاية حرب التحرير في الجزائر ، اتفاقيات إيفيان ، تعريب: لحسن زغدار ومحل العين جبالي، مراجعة عبد الحكيم بن الشيخ الحسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1987، ص 52.

(16) بن يوسف بن خدة ، مصدر نفسه، ص 52.

(17) Ferhat Abbas , op.cit,p244

(18) ibid, p 244. أنظر كذلك: عمر بوضربة، المرجع السابق، ص 48.

(19) أزغيدى محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومة، الجزائر، 2009، ص 172

(20) نفسه، ص 172

(21) أحمد توفيق المدني، مصدر سابق، ص 400.

(22) عمر بوضربة، المرجع السابق، ص 60.

(23) محفوظ قداش، وتحررت الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 179 و ص 187.

(24) أزغيدى محمد لحسن : المرجع السابق، ص 191

(25) المرجع نفسه، ص 192.

* تعرف في مصادر أخرى باسم هيئة أركان شرقية وغربية وتأسست بعد "الكوم"، الهيئة الشرقية متمركزة في غار الدماء) على الحدود التونسية الجزائرية) وعلى رأسها 'محمدي السعيد' والهيئة الغربية متمركزة في الناظور على الحدود المغربية الجزائرية وعلى رأسها 'هوارى بومدين'. أنظر: علي كافي، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946-1962، دار القصة، الجزائر، 1999، ص 288.

(26) علي كافي ، المصدر السابق.

(27) عمار ملاح، المرحلة الانتقالية للثورة الجزائرية من 19 مارس إلى سبتمبر 1962، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص 71.

(28) Saad dahleb , pour l' indépendance de l' Algérie mission accomplie, édition dahleb, Alger 2001 , p133.

(29) محفوظ قداش، مرجع سابق، ص 233.

(30) بن يوسف بن خدة، مصدر سابق، ص ص 22-20.

(31) مصدر نفسه، ص 24.

(32) عمار ملاح، مرجع سابق، ص ص 76-78. أنظر كذلك: ازغيدى محمد لحسن :مرجع سابق ، ص 218

(33) بن يوسف بن خدة، مصدر سابق، ص 28.

(34) ازغيدى محمد لحسن ، مرجع سابق، ص 220

(35) مرجع نفسه، ص 220.

(36) عمار ملاح، مرجع سابق، ص 80..

- (37) مرجع نفسه، ص ص 79-80.
- (38) بن يوسف بن خدة ، مصدر سابق، ص 38
- (39) أحمد توفيق المدني، مصدر سابق، ص 405.
- (40) أحمد توفيق المدني، مصدر سابق، ص 405. أنظر كذلك: علي كافي، المصدر السابق، ص ص 235-236.
- (41) عقيلة ضيف الله : المرجع السابق، ص 373.
- (42) Mohamed Harbi, Le FLN... , op.cit, p 269.
- (43) لمعرفة العقداء العشرة: أنظر: محمد عباس، ثوار...عظماء، المرجع السابق، ص 304. أنظر كذلك: وليم ب، كواندت: الثورة والقيادة السياسية الجزائرية 1954-1968، مركز الدراسات والأبحاث العسكرية، دمشق 1981، ص 176.
- (44) لمعرفة أعضاء الحكومة المؤقتة الثانية، أنظر: بن يوسف بن خدة : اتفاقيات إيفيان، المصدر السابق ، ص 53
- (45) على كافي، مصدر سابق، ص 225.
- (46) Saad dahleb , op cit, p 97
- (47) وليم ب. كوندات ، المرجع السابق ، ص 175.
- (48) مرجع نفسه ، ص 176.
- (49) على كافي ، مصدر سابق، ص 258
- (50) لمعرفة محتوى الرسالة أنظر: على كافي ، مصدر سابق، ص ص 263-265.
- (51) محمد عباس ، المرجع نفسه، ص 411.
- (52) Saad dahleb : op cit, p 184.
- (53) Mohamed lebjaoui :op cit ,p172

غار الشهداء جريمة فرنسية ضد الإنسانية

علي عيادة - طالب دكتوراه - جامعة سيدي بلعباس

تحتل الولاية الأولى أوراس - النمامشة موقعا استراتيجيا، مما جعل الإدارة الاستعمارية تركز عليها في مجمل عملياتها العسكرية، نظرا لثقلها الكبير الذي تمثله في تعزيز العمل المسلح، وهذه المنطقة تختلف عن سائر مناطق الوطن الأخرى، من حيث مناخها وتضاريسها، إذ تتمتع بجو قاري شديد البرودة شتاء وشديد الحرارة صيفا وهي كمنطقة جبلية ذات وعورة شديدة يصعب فيها التنقل بسهولة، كانت دوما حصنا وملذا لكل الأحرار الذين وقفوا في وجه الاستعمار الفرنسي، ورفضوا الخضوع للذل والهوان¹.

ومن أبرز خصائصها، اتساع مساحتها وصعوبة تضاريسها، وتمتد الولاية الأولى على الجهة الشرقية، من جبل سيدي صالح شمالا إلى نقرين جنوبا مرورا بالحدود الجزائرية التونسية، أما من الجهة الغربية فتمتد من برج بوعريريج إلى المسيلة، أما شمالا فتمتد من سطيف إلى العلمة وأولاد رحمون فسيقوس، قصر الصبيحي، سدراته، مداوروش، وحدودها مع الولاية الثانية الوزنة والمريج، وجبل بني صالح كحدود لها مع القاعدة الشرقية².

ويمكن تصوير حدود الخريطة الجغرافية لها بوضوح كالتالي: جبال الأوراس - جبال النمامشة جبال تبسة - جبال الحضنة - الهضاب العليا سوق أهراس - بني صالح - طريق قالمة - عين عبيد سطيف - برج بوعريريج - وتسمى هذه المنطقة في الوثائق الفرنسية بالجنوب القسنطيني وتؤكد أن مجموعة الأوراس هي أصل ومنطلق الثورة الجزائرية³.

وتعتبر تبسة جغرافيا امتدادا للولاية الأولى وجزءا كبيرا منها شملت بعد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 المنطقتين الخامسة والسادسة اللتان تتشكلان كما يلي:

المنطقة الخامسة: تتكون من أربع نواحي وهي الكويف، الوزنة مداوروش، وسدراته، ولم يكن في هذه المنطقة عددا كبيرا من المجاهدين وذلك راجع إلى أن ناحيتين اثنتين من نواحيها الأربع كان تقعان على خط الموت (موريس وشال)، هذا ويلاحظ أن هذه المنطقة كان يعيش فيها المجاهدون الذين كانوا يتبعون المدعو صالح ثابت، الذي تمرد على النظام فقتله البعض من مرؤوسيه وانضموا بعد ذلك إلى صفوف جيش التحرير الوطني، أما من الجانب التأطيري فقد كانت هذه المنطقة مؤطرة بملازمين اثنين، وأما قادة النواحي والقطاعات فلم يكن لهم

حضور الإشراف على نواحيهم وقطاعاتهم وذلك يعني أنهم كانوا داخل الأراضي التونسية، وقد عرفت وضعية مالية مريحة فكانت مصاريفها الإجمالية لا تتعدى أربعة ملايين من الفرنكات كل عام أو خمسة، ولذلك فقد كان الفائض المالي فيها يحول إلى الصندوق العام للقيادة كما أنها كانت في وضع لا يبعث على القلق بالنسبة للتسليح والتموين⁴.

المنطقة السادسة: كانت المنطقة السادسة تتألف من ناحية تبسة الشريعة، بئر العاتر وششار، وتتشكل من عدد قليل من المجاهدين الذين لا يزيد عددهم عن الفوج وكان معظم إطاراتها على النواحي قد عينهم الحاج الأخضر ومن أشهرهم: محمد الصالح يحيوي، عيسى بخوش، إسماعيل شعباني مسعود بن عمارة، وعبد المجيد عبد الصمد⁵.

لقد ساعد الموقع المتميز تبسة الدخول مبكرا في معركة النضال والكفاح الوطني وذلك بفضل قربها من حدود تونس وليبيا، فقد كانت الإمدادات تأتي من هاتين الدولتين الشقيقتين ويقوم أهلها بإدخالها إلى جميع المجاهدين عبر سائر الوطن على ظهور الجمال والبغال، وحتى على ظهور الرجال مما حير فرنسا في كيفية وصول هذه المؤن والإمدادات⁶.

ففي بداية الثورة نذكر معركتين بمنطقة تبسة هما: معركة سيدي أحمد ومعركة أم الكماكم فالأولى حدثت بتاريخ 2 جانفي 1955 حيث بدأ الحصار من الساعة الثالثة صباحا إلى الساعة التاسعة مساء، وبلغ عدد المجاهدين فيها 10 أشخاص، أما قوات العدو فكانت أكثر من فيلق مدعما بالمدفعية والطائرات، ومن أشهر المشاركين في المعركة: ابن سودة محمد- عمارة النايلى- دربال زايدى- مشري الأخضر- حركاتي محمد- قاسمي العربيأزير الطاهر...وقد استشهد في هذه المعركة: ابن سودة محمد-عمارة النايلى- دربال زايدى- ومن الأسرى: أوزير الطاهر- حركاتي محمد- مشري لخضر... أما خسائر العدو: فكانت خمسين قتيلًا منهم ضابطان.

وكانت الثانية بتاريخ 23 جويلية 1955 وقد جرت في يوم عيد الأضحى، بقيادة بشير شيجاني ومعه بابانا ساعي، سيدي حني، جيلالي السوفي، ودامت المعركة حوالي 13 ساعة قتل فيها حوالي 152 جنديا فرنسيا وأسقطت طائرتان إحداها عمودية، واستشهد فيها 25 مجاهدا نذكر من بينهم: ممو مزيان أيمن السبتى- فارس إبراهيم- فرحي مقداد⁷.

وأشهر معاركها معركة الجرف الأولى بتاريخ 22 إلى 28 سبتمبر 1955، والتي دامت حوالي سبعة أيام (تختلف المراجع والمصادر حول المدة) بقيادة بشير شيجاني وعباس لغرور، وقد

بدأت بعد أن نصب المجاهدون وعددهم يربو على مئتين- كمينا محكما لقافلة من الجيش الفرنسي، متكونة من عدة سيارات مصفحة، وشاحنات محملة وكانت مفاجئة، فقتل عدد كبير من الجنود الفرنسيين، واحترقت بعض الشاحنات وطلب الجيش الفرنسي النجدة في الحين فوصلت قبل أن ينسحب المجاهدون فوجدوا أنفسهم محاصرين، فخاضوا المعركة بكل شجاعة 8 (تختلف المراجع والمصادر حول أسباب المعركة أيضا) 9.

خلال كل هذه المدة ارتكبت فرنسا عديد المجازر بهذه المنطقة وكان موقع «غار الشهداء» بالشرية ولاية تبسة، شاهدا وموثقا لإحدى جرائم الاستعمار الفرنسي من خلال ما يدل عليه الموقع نفسه وكذا الروايات المتداولة التي نقلتها عائلات بعض الشهداء، وأقاربهم وما تناقله بعض السكان المحليين في تلك المنطقة.

تعود حادثة موقع غار الشهداء زمنيا للفترة الممتدة ما بين 1957 و1958 م 10 وتوثق لجريمة حرب وجريمة ضد الإنسانية ارتكبتها سلطات الاحتلال الفرنسي 11، والفترة المذكورة كانت وقت التضييق الذي عرفته منطقة تبسة والمناطق المجاورة خاصة بعد مد الأسلاك الشائكة والمكهربة (شال وموريس) 12 على الحدود الجزائرية- التونسية بدءا من شهر جوان 1957 إضافة إلى حرب الإبادة المغلفة بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي اتبعها «الجنرال شارل ديغول» وكان هدفه إخماد الثورة الجزائرية ولو تطلب الأمر إحراق الجزائر بمن فيها 13.

يقع غار الشهداء في المنطقة المعروفة بـ«ظهيرة المستحية»، حوالي 10 كم جنوب مقر بلدية «الشرية» على السفوح الشمالية للجبال الممتدة ما بين «فج الردامة» على طريق «الشرية- ثليجان»، و«فج الكريمة» على طريق «الشرية الماء الأبيض»، وهذه الجبال تمتد لتصل شرقا بـ«الديكان»، ويقع في المنطقة الفاصلة بين إقليم «الشرية» وإقليم «ثليجان» على بعد 50 كم جنوب مركز ولاية تبسة، وموقعه وفق الإحداثيات الجغرافية الدقيقة كما يلي:

الموقع: - 7° 46' - 39,86 14 شرق خط غرينتش، و 11° 35' - 97,38 شمال خط الاستواء ويرتفع فوق مستوى سطح البحر بـ: 1142 مترا 15، بالموقع شظايا القذائف الحربية العائدة للحقبة الاستعمارية الفرنسية 16 وجميع تلك الآثار والبقايا تطوقها شجيرات الصنوبر التي جاء بها مشروع السد الأخضر في عهد الرئيس الراحل «هوارى بومدين»، داخل الحزام الأخضر وفي منطقة ظهيرة المستحية على بعد بضعة كيلومترات شمال الموقع الأثري «عين

المستحية»، يلاحظ وجود نصب تذكاري وحين سألت عنه قيل أنه «غار الشهداء» الذي أعدم فيه أبطال من ثورة التحرير.

يوجد بالموقع نصب تذكاري تتوسطه لوحة رخامية عليها أسماء بعض الذين استشهدوا في المكان وعلى يمينها مدخل المخبأ السري، استعنت بالسيد: محمد علي بوغرة 17 الذي سمع الرواية من عدة مصادر حيث كان خلال الفترة التي جرت فيها الأحداث يقيم بمخيمات اللاجئين بتونس، إذ كان يتابع دراسته هناك، وكذلك السيد بلقاسم بوغرة الذي أدى الخدمة العسكرية الإجبارية على الأراضي الفرنسية ليعود بعدها إلى الجزائر ويلتحق بالثورة بعد أن اكتسب الخبرة العسكرية، والسيد نوار سعيدان شقيق أحد الذين استشهدوا، إضافة لكل من السنيين لزهو بوغرة 18، والسيد العايش رحال 19.

في ربيع عام 1958م كان قد مضى من عمر الثورة الجزائرية أربع سنوات تقريبا، ودخلت في مرحلة حرب الإبادة فقبلها بسنة واحدة تم تطويق الحدود الشرقية والغربية بالأسلاك الشائكة لعزل الثوار عن مصادر تموينهم وقواعدهم الخلفية وراء الحدود، في تلك الفترة عبر الحدود التونسية-الجزائرية فيلق 20 من الثوار الجزائريين تعدادهم ما بين 300-400 مجاهدا، والذين كانوا يتدربون على الأراضي التونسية وكانت أصول أغلبهم تعود لمنطقة القبائل الكبرى، ونتيجة الرقابة المشددة على الحدود وقد تكون الإخباريات التي تصل العدو سببا في كشفهم في جبال بوجلالة، وحين علم قائدهم بالأمر قرر التحرك في ظلام الليل لتجنب دوريات العدو وطائرات الاستطلاع، ولأنهم لا يعرفون الأرض خاصة في الليل الذي غيب معالم المنطقة، فقد وصلوا إلى فج الكريمة المطل على إقليم الشريعة من إقليم ثليجان، ثم اجتازوا الأراضي الزراعية المنبسطة في ظهيرة المستحية ليلتفوا جنوب غرب المنطقة متجهين إلى جبل بوكماشويحتمل أنهم كانوا يريدون التوجه لجبال الجرف والتحصن بها.

في صبيحة اليوم التالي أرعدت المنطقة بما فيها، فالسلطات الفرنسية بعدتها وعتاها من الشاحنات والمدرعات وسيارات الجيب «Jeep» العسكرية 21 والفرق الخاصة المدعمة بالكلاب المدربة على التعقب، كانت تحاول اقتفاء آثارهم، في حين كانت طائرات الاستطلاع، والمروحيات توفر غطاءً جويًا، قائد إحدى المروحيات لاحظ وجود مجموعة أحمرّة محملة ببراميل مياه، في ظهيرة المستحية، فيما هو يدقق النظر في شأنها لفت انتباهه وجود أثر بين الحقول 22 فأعطى إشارة دخانية للفرق العاملة على الأرض لتتعقب المسار، وتذكر الروايات أنه تم اللحاق بالفيلق

في جبل بوكماش البعيد عن المنطقة واشتبكت معهم فأستشهد أغلبهم²³، وعادت القوات الفرنسية لمنطقة ظهيرة المستحية لأجل التمشيط والبحث عن المتخلفين من المجاهدين أو الناجين من المواجهات الذين شكوا في اختبائهم في المنطقة.

سكان ظهيرة المستحية كانوا مناوئين للسلطات الاستعمارية ومن لم يكن منهم في صفوف الثوار كان يقدم الدعم المادي والمعلوماتي والمأوى للمجاهدين (اللوغستي)، ولأن الدوريات الفرنسية تأتي من حين لآخر لأجل الإحصاء ومراقبة السكان خاصة في ظل الحاكم العسكري لبلدية الشريعة السفاح «جون بيير كونور»^{(24) Jean Pierre Conord}، كانوا يخشون على أنفسهم، وذويهم من التهم والشبهات، حيث تتركز السلطان القضائية والتنفيذية لدى الحاكم العسكري، بمعنى أن التهمة إدانة والإدانة قضية حياة أو موت لهذا كانوا حريصين على أخفاء ما يزيد عن حاجتهم من مؤن.

كان سماعيل محمد الناصر²⁵ رفقة بعض عناصر الدعم منذ شهور عدة يحفرون مخبئاً سرياً تحت الأرض، لتخزين المؤن وجعله ملجئاً للمجاهدين وتذكر الروايات أن الحفر يتم بطريقة سرية أثناء الليل وأطراف النهار، ففي كل أيام السنة تقوم الطائرات والمروحيات بالاستطلاع، ويتطلب الأمر تنسيقاً وحذراً بالغين فالبعض يحفر والبعض الآخر يحرس، والبعض يقوم بتمويه المكان عند حدوث أمر طارئ، ويتم إفراغ التراب ونثره على امتداد وادي لا يزال خلف المكان بواسطة سلال من السعف أثناء الليل، وقد بلغ المناضلون²⁶ مرحلة متقدمة من العمل، والغريب أن السكان في المنطقة لم يعلموا بوجوده هذا إذا استثنينا القائمين بالعمل.

لما عادت قوات العدو بعد ملاحقة فيلق المجاهدين، كانت تعتقل كل من وجدته في طريقها للتحقيق معه، ومن جملة المعتقلين سماعيل محمد الناصر الذي موه نفسه بصفته راعي غنم، بدل أن يختبئ مرتكباً خطأ قاتلاً (والحق أقول أنه لا ينفذ حذر مع قدر)، كان المعتقلون يساقون إلى وجهة مجهولة²⁷، وتذكر الروايات أن بعضهم قضي عليه أثناء التعذيب، واكتشف عساكر العدو المخبأ السري.

في يوم 26 مارس 1958م استكملت حصيلة الموقوفين بالمناضل بوغرارة محمد الصالح بن أحمد الذي جاءته القوات الاستعمارية إلى مقر إقامته بـ: «قابل المستحية»، بعد علمهم أنه كان أحد الذين حفروا المخبأ وجرى ضربه بواسطة مدق الهاون²⁸، ونقل لزهرة بوغرارة شهادته

الحية التي لا يزال يتذكرها وهو حينها طفل صغير أنه رأى بأم عينه أثار الدم والشعر ومادة لزجة بيضاء يُعتقد أنها المخ على الهاون بعد أن تلقى الشهيد محمد الصالح عدة ضربات على مستوى الرأس، وحمل بعدها ميتا أو شبه ميت، وفي منتصف ذلك اليوم أحضر الجميع وتعدادهم 36 فردا مابين ميت ومصاب وحي، من المعتقل لاحظ السكان تجمع القوات الفرنسية قرب الغار ثم انسحبوا لينفجر المكان الذي جرى نفسه بالمتفجرات بعد أن ألقى فيه جميع المعتقلين وهم أحياء.

منذ البداية وبمجرد أن خيم ظلام الليل سارع السكان المحليون بفؤوسهم، ومعاولهم، لنبش المكان بقصد إكرام الشهداء ودفنهم بطريقة لائقة لكنهم وقفوا على فظاعة المشهد الذي لم تتحمله قلوبهم فقد وجدوا أوصالا مقطعة، وأجسادا مشوهة، وأعضاء محترقة فأعادوا إهالة التراب عليهم حفظا لكرامتهم الإنسانية، فلطالما أثبت الاستعمار أنه تلميذ غبي فقد اعتقد أن هذا العمل الإجرامي كفيل بردع من تسول له نفسه مواجهة المحتلين، وجعل من أعدمتهم عبرة لمن يعتبر، إلا أن الوقائع أثبتت أن الجزائريين أصروا على الوقوف إلى جانب الثوار أحياء كانوا أو شهداء، بدليل ما حدث ليلة المجزرة وقد رُفع الضحايا لمصاف القديسين والشهداء.

ارتكبت السلطات الفرنسية صاحبة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مجزرة حقيقية بحق معتقلين عزل من السلاح، بعد يوم واحد من اعتقالهم دون محاكمة، فالدفاع عن النفس حق مقدس، وفي حالة إدانة المتهم ينفذ فيه الحكم فالمبادئ الزائفة التي قامت عليها الثورة الفرنسية التي خطط لها حفنة من الماسون، بدعوى الحرية، الإخاء، والمساواة سقطت أمام نضال الشعب الجزائري ولا تزال الأرض ليومنا هذا تتكشف عن جرائم الغاصبين²⁹.

بعد استقلال الجزائر مباشرة جرى استخراج رفات الشهداء من موقع الجريمة أو عيد دفنهم، في مراسم لائقة، وقد تم التعرف على بعضهم من خلال ثيابهم أو ما تبقى منها، يُذكر أن محمد الصالح بوغرة كان في إصبعه خاتم لحظة استشاده ووجدت أثار المعدن المتحلل على عظام أصابع إحدى الجثث فرجحوا أنها تخصه؛ كما وأنه جرى إقامة نصب تذكاري مخلدا لأرواحهم الطاهرة.

عُرف من الشهداء 17 شهيدا دونت أسمائهم على النصب في حين لم يعرف السبعة عشر الباقون، في انتظار أن يتاح للأبحاث الجادة في وثائق الأرشيف أن تعرف ما حدث فعلا في

التحقيق وأسماء من نجهل من الشهداء وأسماء المعروفين منهم كالتالي: سماعيل محمد الناصر رضاني صالح الوافي التلي بن مسعود، الوافي لحباسي بن مسعود، ضرايفية جفال بن بنور الوالي الوردي بن أحمد، بوزيدة قابدة بن عبد الحميد، سلايمية الربيعي بن سليمان بن عبد الحميد بن الصادق بن محمد بن لخضر، عبيد بلقاسم بن أحمد، سليمان عمر بن إبراهيم، بوغرة محمد الصالح بن أحمد، سعيدان علي بن محمد، هميلة إبراهيم بن الصديق، رقعة الكامل بن محمد، سماعيل الطاهر بن القرني، غلاب صالح بن أحمد، يوسف علي بن صالح.

في محاولة للتحقق من بقية أسماء الشهداء السبعة عشر التي يجهل أصحابها ليومنا هذا، وبعد أن أذن الأمين العام لبلدية الشريعة، سمح رئيس مصلحة الحالة المدنية بالإطلاع على سجل الوفيات الأصلي العائد لسنة 1958م، وكانت المفاجئة أن السلطات الاستعمارية ورغم أنها المسؤولة عن تصفية أولئك الشهداء، لم تتجشم عناء تدوين شهادات الوفاة الخاصة بهم، وهذا برهان قاطع على محاولتها طمس الحقيقة، وإخفاء معالم الجريمة في تنصل جبان من المسؤولية القانونية والجنائية والتاريخية.

حيث أن الوقائع حدثت بتاريخ 26 مارس 1958م، فقد وجدنا فراغا زمنيا بين تاريخ 10 مارس 1958م، الذي يحمل شهادة وفاة المدعو: خير الدين عثمان تحت رقم: 39، وتاريخ 22 أفريل 1958م الذي يحمل شهادة وفاة المدعو: «بيير أندريه ديوبوا» (Pierre André Dubois) والذي يظهر من اسمه أنه أحد جنود الاحتلال تحت رقم: 40، وهما مسجلتان على التتابع وفق ما تدل عليه أرقامهما التسلسلية.

لقد وقعت المجزرة نتيجة تسلسل دراماتيكي للأحداث في المنطقة وفي ظروف أقل ما يقال عنها أنها قاهرة، من الناحية الجغرافية، والزمنية، وكذا الأجواء السائدة في البلاد آنذاك، حيث طوقت الحدود بالأسلاك الشائكة وبدأت نذر حرب الإبادة التي راح ضحيتها العزل قبل المسلحين.

لم يثن هذا العمل الإجرامي من عزيمة الشعب الجزائري، الذي ظل يناضل بكل السبل الممكنة والمشروعة، مسخرا جميع الإمكانيات المتاحة في سبيل حريته، وفق ما أقرته وثيقة بيان أول نوفمبر 1954 بهذا الشأن.

تمت إعادة الاعتبار ولو بشكل رمزي لضحايا المجزرة من الشهداء وذويهم، بإقامة نصب

تذكاري بعد الاستقلال في مكان استشهادهم، إلا أن المسألة ليست بالتكريم بل بالعمل الجاد لكشف ما خفي من الحقيقة خاصة أن معالم تلك الجريمة جرى طمسها بشكل متعمد.

قائمة ببليوغرافية

- 1 جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر وحماية الثورة في الأوراس: مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية باتنة، الجزائر، 1999، ص 35.
- 2 أحسن بومالي: إستراتيجية الثورة في مراحلها الأولى 1954-1956، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، د.ت، ص 83.
- 3 جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر وحماية الثورة في الأوراس: المرجع السابق، ص 36.
- 4 عبد الله الشافعي: الوصف الجغرافي والاقتصادي للأوراس، جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر وحماية الثورة في الأوراس، باتنة، الجزائر، 1996، ص 30.
- 5 نفسه: ص 30.
- 6 عبد السلام بوشارب: تيسة معالم ومآثر، المؤسسة الوطنية الروبية، الجزائر، 1996، ص ص 43-60.
- 7 إبراهيم قاسمي: «الجرف، أم المعارك» في وزارة المجاهدين: أعمال الملتقى الدولي حول معركة الجرف، المركز الجامعي العربي التبسي يومي 27-28 أكتوبر 2007، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 الجزائر، 2008، ص 33 وما بعدها.
- 8 عبد السلام بوشارب: المرجع السابق، ص 43.
- 9 مصطفى طلاس وبسام العسلي: الثورة الجزائرية، ط1، دار الشوري، بيروت، لبنان، 1982 ص 52.
- 10 هذا التحديد الزمني جاء بناء على الشهادات الشفهية المقدمة، وكما يؤكد التاريخ المدون على النصب التذكاري في عين المكان.
- 11 هذا ما تنص عليه المواثيق الدولية أنظر: الإعلان الخاص بحقوق الإنسان والمواطن الصادر في باريس بتاريخ: 24 جوان 1793، أنظر أيضا: الإعلان الخاص بالحقوق والواجبات الصادر في باريس سنة 1795، وأيضا: الميثاق العالمي لحقوق الإنسان الصادر في باريس بتاريخ 10 ديسمبر 1948، أيضا: الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان الصادرة في روما بتاريخ: 4 نوفمبر 1950 دخلت حيز التطبيق بتاريخ: 3 سبتمبر 1953، وما نصت عليه اتفاقية جنيف المكملة 1949 بخصوص جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، للإطلاع على النصوص الكاملة يمكنك العودة للموسوعة الفرنسية:
- Dominique & Michèle Frémy, Quid99, RTL & Robert Laffont, 1998, P871- 874.
- 12 للاستزادة ينظر جمال القندل: خطا موريسوشال على الحدود التونسية والمغربية وتأثيراتها على الثورة الجزائرية -1957-1962، دار الضياء، الجزائر، 2006.
- 13 ينظر رمضان بورغدة: الثورة الجزائرية والجزائر ديغول (-1958 1962) سنوات الحسم والخلاص، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2012.
- 14 الرموز ° درجة، دقيقة، » ثانية. وهي رموز دولية لتحديد الإحداثيات الجغرافية.
- 15 الإحداثيات تم تحديدها بدقة بعد الاستعانة بصور القمر الصناعي التي يوفرها برنامج GoogleEarth للخرائط على شبكة الانترنت.

16 حدث قصف مدفعي مكثف على جبل الكريمة انطلاقا من المدخل الشرقي لمدينة الشريعة ما بين سنتي 1952-1953 م، وفق شهادة بوغراة محمد التي أدلى بها بخصوص المرحلة التي سبقت لجوؤه إلى تونس، وكان هذا القصف في إطار مناورة فرنسية قد تكون تحضيرا لاحتمال دخول الجزائر في ثورة تحريرية، خاصة بعد انطلاق ثورتين في كل من تونس المجاورة لمنطقة تبسة والمغرب الأقصى سنة 1952م، ولا تزال الشظايا متناثرة في المنطقة المستهدفة.

17 مدير ابتدائية متقاعد.

18 متقاعد من إدارة الغابات.

19 موال لا يزال يقيم بالمنطقة المجاورة.

20 يتكون الفيلق عادة من 350 فردا حسب مقررات مؤتمر الصومام 20-08-1956، والعدد المذكور أعلاه حسب الروايات مما دفع بي للاعتقاد أنه فيلق حسب التنظيم الثوري، لمزيد التفصيل أنظر: أمال شلي: التنظيم العسكري في الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1956، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور: بوالصفصاعبد الكريم، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2005-2006، ص ص398، 399.

21 تذكر الروايات سيارات الجيب وهي التسمية التي تعودوا إطلاقها على كل السيارات العسكرية.

22 تذكر الروايات أن المجاهدين كانوا يسرون في طابور طويل فردا وراء الآخر، ليسهل تنقلهم ويضمنوا عدم لفت الانتباه أو تشتت أفراد الفيلق، وبرأيي أن الحقول كانت خضراء في فصل الربيع ومرور ما يقارب 400 شخصا عليها سيخلف أثرا واضحا خاصة عند النظر إليه من على طائرة.

23 لم تتوفر وثائق تتحدث عن هذه المعركة وملابساتها.

24 ضابط عسكري برتبة نقيب مكلف بالحالة المدنية ببلدية الشريعة في الخمسينات تحمل سجلات الحالة المدنية لبلدية الشريعة العائدة لزمان الاستعمار ختمه وتوقيعه، ليخلفه في الستينات إلى غاية الاستقلال شخصية مدنية من كراغلة الجزائر يدعى أحمد شاوش مسعود، وذكر أحد المعاصرين لزمانه أن «كونور» قد اغتاله المجاهد علي بغوش أواخر الخمسينات في عملية استشهد فيها هذا الأخير.

25 سماعل محمد الناصر أحد أبطال القضية وعلى رأس قائمة الشهداء.

26 جمع مناضل وهي تسمية يطلقها العامة على كل شخص دعم الثورة خارج المجهود المسلح سواء ماديا أو استخبارتيا أو لوجستيا، لكن يتضح لنا من خلال نشاطهم أنهم مسبلون وفق ما جاءت به الإجراءات التنظيمية لمؤتمر الصومام.

27 المرشح أن السجن كان في مقر الحاكم العسكري مقر بلدية الشريعة حاليا، حيث اكتشف قربها في نوفمبر 2001، مقبرة جماعية تضم رفات مئات الشهداء، ولكن مركز التعذيب والاستنطاق كان في «حمام الفرجيوي» وسط المدينة، حيث كان ينضح بالدم الذي يسيل في ساقية مع المياه باتجاه منحدر إلى غاية مركز البريد سابقا، وهي مسافة تفوق 200 متر فلك أن تتخيل مقدار هذا الجحيم.

28 مدق خشبي ضخم يستخدم في طحن الحبوب بعد وضعها في وعاء حجري كبير يستجلب عادة من المواقع الأثرية الرومانية في المنطقة.

29 يذكر السيد بلقاسم بوغراة الذي أدى الخدمة الإلزامية في فرنسا أن القانون العسكري الفرنسي يمنع الإعدامات الميدانية للمعتقلين دون قرار موقع من السلطات، وإن من يعثر عليهم قتلى في المدينة أثناء الثورة، يعدهم الحركي أو الأقدام السوداء، وهذه الإفادة عكس ما تبدو عليه فهي تتضمن إدانة واضحة للدولة الفرنسية، فيتضح أن ما

كانت ترتكبه من جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية جاء بناء على أوامر فوقية موقعة، وليس مجرد سلوكات أفراد معزولة، وهي بهذا نابعة من الضمير الجمعي لبلد حقوق الإنسان والحريات ودولة القانون، وهذا العار ستتحمل مسؤوليته التاريخية، والأخلاقية والقانونية منذ 1830.

المناورات الفرنسية لفصل الصحراء الجزائرية وإستراتيجية

الثورة لإفشالها

أ. بلجة عبد القادر-جامعة الجيلالي ليابس - سيدي بلعباس

تعد قضية الصحراء الجزائرية حلقة من حلقات الصراع الذي خاضه الشعب الجزائري من خلال ثورته بشتى الوسائل ضد قوة استعمارية شعرت باقتراب رحيلها، فراهنت على الدسائس والمناورات للاحتفاظ بالصحراء الجزائرية لأنها مكنت فرنسا من موقع إستراتيجي داخل القارة الإفريقية من جهة وتأكدها من ما تزر به المنطقة من ثروات بترولية ومعدنية من شأنها دعم الصناعة الفرنسية بصفة خاصة. غير أن عزيمة الثورة التحريرية المسلحة ونضالات الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، مكنت الشعب الجزائري من إحباط محاولات الاستعمار الفرنسي، وإفشال مشاريعه الهادفة إلى فصل الصحراء عن الجزائر.

المساعي الفرنسية لفصل الصحراء الجزائرية:

عقب نهاية الحرب العالمية، وقيام الجمهورية الفرنسية الرابعة جرى نقاش حاد بين اليسار الاشتراكي والشيوعي وأحزاب اليمين، فخلص هذا النقاش إلى إصدار قانون ينظم شؤون الجزائر الإدارية و المالية.

ومن هنا عكفت الحكومة الفرنسية على وضع قانون خاص بالجزائر يوم 20 سبتمبر 1947، والذي كانت له انعكاسات مباشرة على الوضعية الإدارية في الجنوب الجزائري، إذ نص في مادته الخمسين(50) 1 على إزالة الحكم العسكري عن أقاليم الجنوب (كما كان يعرف في التنظيم الإداري الاستعماري)، وضمها إلى الشمال.

وبعد استطلاع الإدارة الفرنسية رأي الجمعية الجزائرية في ديسمبر 1949 وافقت هذه الأخيرة على المشروع الجديد الذي حدد الشروط التي تشكل الأقسام الإدارية الجديدة في الجنوب، وكخطوة أولى طبق هذا القانون على المناطق الشمالية من الصحراء أما باقي الأجزاء فقد تم تنظيمها في شكل مناطق صحراوية²، ولم تتوقف الآراء والاقتراحات الداعية إلى إعادة تنظيم الجنوب الجزائري إداريا عند هذا الحد، بل رأى العديد من النواب في البرلمان الفرنسي والمختصين في شؤون الصحراء ضرورة إيجاد تنظيم يسمح بتجسيد الخطط الفرنسية.

وعليه أودعت الحكومة في سنة 1951 مشروع قانون يرمي إلى إلغاء أراضي الجنوب

وربطها بالجزائر وفقا للرأي الصادر عن الجمعية الجزائرية، غير أن لجنة الداخلية في الجمعية الوطنية الفرنسية التي أبدت المشروع في 1951/09/20 لم تلبث أن تراجعت عن تأييدها له في 1952/06/04 3 بحجة أن هذا القانون سيضاعف من المساحة الشاسعة حاليا للقطاعات الإدارية الثلاثة في الشمال إذا ما تم ضم الجنوب الجزائري إليها بالإضافة إلى الأعباء المالية التي يفرضها هذا القانون على القطاعات الإدارية الحالية⁴.

وبتاريخ 1953/02/20 عادت الجمعية الجزائرية لمعالجة الموضوع لتتمسك بموقفها المعارض لاقتطاع القسم الخلفي الصحراوي من الجزائر لربطه مباشرة بفرنسا وذلك وفق مقترح «بيار جولي» في سنة 1952 الذي دعى إلى إنشاء «الصحراء الإفريقية الفرنسية»⁵.

ولعل ما يفسر تزامم هذه الآراء والاقتراحات هو إدراك فرنسا لأهمية الثروات الطبيعية التي يخترنها باطن الصحراء الجزائرية، وذلك دلت إليه الاستكشافات الأولى في مطلع الخمسينات بعدما منحت الرخص الأولى للتنقيب عن المحروقات في الصحراء خلال عامي 1952 و1953.6

وفي النصف الأول من سنة 1956 استخرج البترول من حاسي مسعود حيث دلت الدراسات الأولى أن فرنسا تمكنت من ضمان حاجياتها الطاقوية لمدة ثلاثين (30) سنة، أنها تتطلع إلى نقل (أربعة وعشرين 24)) مليون طن كمرحلة أولى، ليرتفع العدد فيما بعد إلى خمسة وأربعين (45) مليون طن، وذلك تعويضا لما أنفقته فرنسا من أجل استخراج البترول⁷.

وهذا ما أكدته الجنرال ديغول في مذكراته حيث قال: «... يجب أن تظل فرنسا متمتعة حاليا بالأموال الضخمة التي وضفتها لاستكشاف نفط الصحراء، واستثماره، ونقله، وأن تضمن بالنسبة إلى المستقبل أفضلية خاصة فيما يتعلق بالتنقيب عن مصادر بترولية حديثة ويجب أن تستمر كما كان مقررا سلسلة التجارب الذرية....» هذا القول يبني بوضوح ما مدى رغبة الإستراتيجية الفرنسية في فصل الصحراء عن الجزائر لاستغلال واستثمار ثرواتها⁸.

وفي ديسمبر 1956 قدم إلى البرلمان الفرنسي مشروع قانون يقضي بإحداث «منظمة مشتركة للمناطق الصحراوية ونصت المادة الأولى منه أن هذه المنظمة غايتها استثمار المناطق الصحراوية من طرف الجمهورية الفرنسية وتحقيق تنميتها الاقتصادية، ورفع مستواها الاجتماعي وتشترك فيها (المنظمة) الجزائر، موريتانيا، مالي والنيجر وتشاد⁹

وتم إنشاء هذه المنظمة بموجب قانون 10 جانفي 1957، وقد أصبحت هذه تابعة لوزير خاص منذ 17 أوت، وبذلك أصبح شمال الجزائر تابعا لوزير مقيم في مدينة الجزائر، بينما تتبع الصحراء لوزير يقيم بباريس، وقد صدر مرسوم في يوم 05 نوفمبر 1957 يحدد هذا الوضع¹⁰.

إن هذا الاهتمام الفرنسي بالجنوب الجزائري يدل دلالة قاطعة على الأهمية التي توليها الإدارة الفرنسية بباريس للصحراء، باعتبارها بعدا إستراتيجيا هاما.

ديغول وقضية فصل الصحراء عن الجزائر:

في أول خطاب له سنة 1958 أمام الجمعية الفرنسية قال رئيس مجلس الوزراء الفرنسي «مشال دوبري» ما يلي: «...وإذا كانت ثمة حاجة لإقناع الذين لا يقتنعون إلا بالأرقام و الوقائع، ولا يصدقون إلا إذا رأوا بأعينهم، فعليهم بصحراء الجزائر ليذهبوا بأنفسهم ويروا ما فيها، كم من قوى تقصد البترول والغاز فستؤم من الآن فصاعدا هذه الصحراء لتصارع رمالها المحرقة، فلنقبل إشراك هذه القوى في عمل كبير وواسع المدى في مقدوره أن ينتج عهدا جديدا أمام فرنسا وأوروبا...»¹¹.

هذه الثروة الواعدة هي التي جعلت الحكومة الفرنسية تصدر قانونا خاصا بالبترول في الصحراء في سنة 1958، حيث نص على تقديم تسهيلات كبيرة، وامتيازات ضخمة للشركات الغربية الراغبة في المساهمة في البحث والتنقيب عن المحروقات واستغلالها. ولعل منح مثل هذه الحوافز هو من بين المحاولات الرامية إلى كسب تضامن المعسكر الغربي (ولا سيما أوروبا التي تعاني من التبعية في مجال الطاقة) مع الحكومة الفرنسية فيما يخص تجزئة الأراضي الجزائرية.

هذا المسعى جعل «ديغول» ينظر بنظرة ثاقبة إلى قضية فصل الصحراء عن الجزائر وربطها بفرنسا قبل أن تفلت منه، وذلك بروابط وثيقة تضمن ما عجزت عنه المساعي العسكرية، ومثل ذلك في تحسين الاستثمار الصناعي والزراعي من خلال المراهنة على مشروع قسنطينة واعتمادا على ثروات الصحراء.

وفي زيارته الثانية إلى الجزائر في ديسمبر 1958 توجه إلى الصحراء وتوقف بتوقرت وصرح بما يلي:

« يجب أن تكون الصحراء هي الأرض العظيمة للمستقبل بين عالمين، عالم البحر الأبيض المتوسط وعالم إفريقيا السوداء عالم الأطلنطي وعالم النيل والبحر الأحمر وفرنسا في هذا العالم الضخم اهتمام مباشر..... ليفهم الذين انضموا إلى الحرب الأهلية أن صفحة القتال قد طويت، وتبدأ الآن صفحة التقدم والحضارة.... »12.

من خلال هذا التصريح تتضح لنا رؤية «ديغول» للحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية لكل من فرنسا والجزائر، إذ يضع نفسه منقذا لفرنسا من الإفلاس السياسي والاقتصادي.

وذلك ما دفع «ديغول» إلى إصدار تصريحه في 16 سبتمبر 1959، الذي أقر فيه لأول مرة بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، حيث وعد بإجراء استفتاء حول مستقبل الجزائريين، وأن هذا الاستفتاء لن يجري قبل أربع سنوات من تحقيق التهدئة، كما أنه خير في هذا الاستفتاء الجزائريين بين واحد من أمور ثلاثة: إما الانفصال واختيار نوع الحكومة، أو تشكيل حكومة فيدرالية، أو الإدماج، وإذا ما اختار الجزائريون الانفصال عن فرنسا، فقد هدد «ديغول» في تصريحه بتقسيم الجزائر ترابيا (الاحتفاظ بالصحراء).13

على الرغم من أهمية تصريح 16 سبتمبر 1959 فيما يخص الاعتراف بحق تقرير المصير، إلا أن لغة التهديد التي تضمنها أفقدته الميزة والفعالية.

ومن أجل تنفيذ خطة فصل الصحراء عن الجزائر أوفد الجنرال «ديغول» إلى ميزاب وزير الدفاع «أوليفي قيشار» لمساومة «الشيخ بيوض»14، فاجتمع الوزير بالشيخ، ومعهما رئيس الملحقة العسكرية «العقيد كلان كلاش»، و«ناصر علي» شيخ بلدية غرداية وبعد التفاوض طلب الوزير من الشيخ بإلحاح أن يوافق على فصل الصحراء وعلى تأسيس دولة حرة في قلب الصحراء قاعدتها ميزاب، وقال له: «أعلن الموافقة وهذه أربع مليارات لتجهيز الدولة، وها هي السماعة بيدي أخبر «ديغول» بهذا في نفس الوقت ...»، فأجابه الشيخ بيوض: «بما أن الصحراء تضم خليطا من السكان في ميزاب والشعابنة، والمخاليف وغيرهم، فالجواب على طلبكم يكون عن طريق استفتاء حر فالقضية قضية الجميع...»15، فكانت إجابة الشيخ إجهاضا لكل محاولة تسعى للنيل من الترابية الجزائرية.

وفي صائفة 1960 تكاثفت الاتصالات بين الإدارة الاستعمارية وبين بعض المدنيين من النواب في سرية تامة انتهت هذه بعقد اجتماع ضم كل من «حمزة بوبكر»16 رئيس المجلس العمالي

لورقلة و«الشيخ بيوض» في الأغواط ، وحاول إقناعه بفكرة فصل الصحراء، غير أن محاولاته باءت بالفشل، حيث قال «الشيخ بيوض»: «إننا جزائريون ومصيرنا هو مصير الجزائر، لا نبغي بذلك بديلا مهما كان الثمن»¹⁷.

وعندما أدركت فرنسا موقف سكان ميزاب الراض لفصل الصحراء عن الجزائر، غيرت وجهتها نحو التوارق في محاولة منها لإغرائهم فقام «ميشال دوبري» في سنة 1960 بجلب جماعة من توارق تشاد، النيجر ومالي و جمعهم «بالحاج أخاموك» في نزل «تينهينان» وفي هذا اللقاء الذي دام سبعة أيام عرض «ميشال دوبري» على «الحاج أخاموك» فكرة تنصيبه سلطانا على هؤلاء التوارق في دولة إسلامية تشمل توارق إفريقيا موضحا له بالقول: « وبهذا يبقى الجزائريون هناك وأنتم هنا»، غير أن الباي رفض المشروع بقوله: «أنا جزائري ينالني ما ينال باقي الجزائريين....»¹⁸ ، وبذلك خيب «الحاج أخاموك» ظنون فرنسا، ولم تفلح مع وطنيته الإغراءات التي قدمتها فرنسا له.

ومن المناورات التي قام بها «ديغول» من أجل إقناع الرأي العام الداخلي والخارجي، احتفاظ فرنسا بالصحراء الجزائرية هو من أجل جعل حد لأطماع البلدان المغاربية والإفريقية المحادية للصحراء الجزائرية، فالمغرب يرى أن حدوده تمتد من منطقة «فقيق» إلى المحيط الأطلسي، وأن منطقة بشار، تندوف ورقان ليست أراضي جزائرية، أما تونس فمطلبها هو اقتطاع جزء من العرق الشرقي الكبير، والاستفادة من البترول الواقع في باطن الحدود الصحراوية الجزائرية.

ومنذ سنة 1959 بدأت ليبيا تتطلع إلى توسيع مساحتها على حساب الصحراء الجزائرية بتوغلها نحو سلسلة طاسيلي ناجر¹⁹، أما المالي فإن زعيمها « مديري كايثا» كان صريحا في خطاب ألقاه بـ كيدال في 21 أكتوبر 1959 حيث قال:«الصحراء ليست أرض فرنسية، وإنما هي ملك للأفارقة سواء كانوا بيض أو سود....»²⁰ .

ولعل هذه الرغبة التوسعية لدى البلدان المجاورة للجزائر تدخل في إطار مناورة فرنسية تسعى من ورائها إلى تحقيق هدفين فالأول هو إشارة الطمع والرغبة في استفادة البلدان المجاورة من ثروات الصحراء الجزائرية حتى تضمن السياسة الفرنسية مساهمة هذه البلدان في معاداة الثورة الجزائرية والتي سوف تعتبر ذلك طعنة في الظهر(فرق تسد) أما الهدف الثاني الذي تسعى إليه هذه المناورة فهو يمثل في محاولة «ديغول» إيجاد مبرر لاحتفاظ فرنسا

بالصحراء الجزائرية، بحجة أن ذلك سيثير صراعات حدودية في المستعمرات الفرنسية الإفريقية، ولذلك فالسياسة الفرنسية تعمل على تهدئة وتسوية مشاكل مستعمراتها.

إن هذا الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية يدل بوضوح مدى أهميتها عند الفرنسيين، باعتبارها عمقا إستراتيجيا هاما، فهي همزة وصل بين شمال إفريقيا وجنوبها، وبالتالي يسمح ذلك لفرنسا أن تبقى على اتصال بالبلدان الإفريقية بعد حصولها على استقلالها، كما أن الصحراء الجزائرية في الإستراتيجية الفرنسية تعد ميدانا هاما لإجراء التجارب النووية التي أصبحت رمزا للقوة في إطار الحرب الباردة بين الشرق والغرب، أما من حيث الأهمية الاقتصادية فإن الصحراء الجزائرية يزخر باطنها بثروات ضخمة كالنفط، الحديد، الفحم والنحاس.

إفشال الثورة التحريرية لخطّة فصل الصحراء.

عسكريا:

لقد ظل سكان الجنوب الجزائري على اتصال دائم بإخوانهم في مناطق الشمال للإطلاع على ما يجري في الجزائر، وذلك من خلال نشاطهم في الحركة الوطنية منذ صدور مرسوم 05 مارس 1921 الخاص بالتجنيد الإجباري للشبان الجزائريين في المناطق الجنوبية، حيث لقي هذا القرار معارضة شديدة من قبل أهل الجنوب.

كما شهدت مناطق الجنوب الجزائري نشاطا مكثفا للحركة الوطنية الجزائرية خلال الثلاثينات، إذ تذكر تقارير إدارة الاحتلال أن الجنوب الجزائري شهد منذ 1938 نشاطا سياسيا مكثفا من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسست مكاتب لها (الشعبة) في كل من بسكرة، الأغواط وورقلة، كما قامت بتنظيم اجتماعات ومحاضرات بهدف التوعية و الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية²¹.

وأثناء الحرب العالمية الثانية عاش بعض شباب الصحراء الجزائرية كجنود في صفوف الجيش الفرنسي إلى جانب إخوانهم في الشمال، فأدركوا سويا مدى استغلال الاستعمار لهم، فزادهم ذلك إيمانا بالروح الوطنية الجزائرية.

وعند اندلاع الثورة التحريرية في نوفمبر 1954، كانت الصحراء الجزائرية على موعد مع الحدث، حيث احتضنتها ودافعت عنها حسب الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة.

لقد بدأت الثورة في الجنوب من غرداية في أواخر 1955، وتمثل نشاطها أساسا في جمع الأسلحة ونقلها إلى بسكرة عن طريق تقرت، وفي هذا الشأن ذكر «خبيزي محمد» (ضابط في جيش التحرير الوطني): «عينت خلال سنتي 1955 و1956 من طرف قيادة جيش التحرير في الولاية السادسة 22.... للاتصال بأعيان ميزاب للمشاركة في الثورة.....» 23.

ومن غرداية زحفت الثورة إلى الهقار عبر المنيعية ومتليلي بقيادة «محمد جغابة» الذي قال: «في الحقيقة لا أستطيع تحديد تاريخ مدقق لبداية الثورة التحريرية في أقصى الجنوب، لكنني أذكر أنه في أواخر 1956 كلفني قائد المنطقة «سي الحواس» بمهمة استكشاف الجنوب بهدف توسيع رقعة الكفاح...» 24

وابتداء من سنة 1957 وسعت جبهة التحرير الوطني نشاطها السياسي والعسكري إلى أقصى الجنوب، فأنشأت خلايا بقيادة «محمد جغابة» و «محمد شروف» اللذين استعانا «بالحاج موسى آخاموك» الذي جند رؤساء القبائل بالتوارق. 25

لقد كثفت الثورة من نشاطها العسكري وفي الصحراء الجزائرية خلال هذه السنة وذلك لمواجهة المساعي الفرنسية لفصل الجنوب عن الجزائر، ونذكر منها تهديد جيش التحرير للمركز العسكري «بتاغيت» في ربيع 1957 كما اشتبكت مجموعة كتائب جيش التحرير الوطني مع الجيش الفرنسي بالقرب من مشرية، عين الصفراء في سبتمبر 1957. 26

وفي أكتوبر 1957 وقع تمرد قام به ستون (60) عنصرا جزائريا من الفرقة العسكرية الصحراوية (المهاري) المتمركزة «بتيميمون» حيث قام هؤلاء بالقضاء على ثلاثة عشر (13) جنديا فرنسيا ثم التحقوا بجيش التحرير الوطني. 27

كما قامت مجموعة من جيش التحرير الوطني بنصب كمين في 15 نوفمبر 1957 لقافلة فرنسية للتنقيب على البترول وهي في طريق عودتها إلى تميميون، فتم القضاء على كل أفرادها، وشكل ذلك قلقا كبيرا لدى الحكومة الفرنسية التي رأت فيه تهديدا لمصالحها ومنشأتها البترولية. 28

وعن كثافة النشاط العسكري للثورة، في هذه الفترة يقول «محمد جغابة»: «شرعنا في أعمال فدائية كثيرة بفضل التنظيم العسكري الذي شكلناه في متليلي، وقد جرت هناك معركة معروفة

و مشهورة في تلك الجهة هي معركة «فران»، وهكذا وما إن جاءت نهاية 1957 حتى كان التنظيم قد توسع ليشمل المنيع، عين صالح تمرست ويضم كل ولايات أقصى الجنوب...»²⁹.

لقد أدت هذه الانتصارات المحققة من طرف جيش التحرير الوطني في الصحراء الجزائرية إلى رفع معنوياته، حيث تمكن من تصعيد العمل العسكري في الصحراء حتى أصبحت تشمل المراكز العسكرية الفرنسية في الهفار على الرغم من بعدها. وذلك باعتراف التقارير الأمنية للإدارة الاستعمارية في سنة 1959، والتي ذكرت بأن جبهة التحرير الوطني استطاعت الوصول إلى منطقة الهفار، وتمكنت من تعبئة السكان، وأن جيش التحرير شن هجومات على مرافق حيوية للقوات الفرنسية.³⁰

وعلى محور «ليبوز - تيميمون» استغلت الثورة تضاريس هذه المناطق لتشكل خطرا دائما على القوات الفرنسية، وحسب تقارير الجيش الفرنسي أن الثورة وجدت مساندة قوية من طرف سكان المنطقة الذين قدموا لها الدعم المادي والمعنوي، ومما زادها قوة هي سهول الاتصال مع «الأغواط، القليعة، الأطلس الصحراوي والمغرب...»³¹

ونظرا لأهمية جبهة الصحراء بالنسبة للوحدة الترابية قامت الولاية الخامسة بإرسال مجموعة من المجاهدين نحو المال في سنة 1960 لتنظيم جبهة للعمليات على الحدود الجزائرية المالية بقيادة كل من «عبد العزيز بوتفليقة» كمسؤول و«عبد الله بلهوشات» كنائب، و«محمد شريف مساعدي» كمحافظ سياسي و«أحمد دراية» كعضو مكلف بالاستعلامات، وكان مركز القيادة بـ «قاو» ثم كلف «عبد العزيز بوتفليقة» بالتنسيق بين هذه الجبهة وهيئة أركان الجيش³²

فكان لتلك التعزيزات أثر كبير على فعاليات العمليات العسكرية للثورة في الجنوب الجزائري، حيث ذكرت الإحصائيات أنه ما بين 1959 و 1962 خاضت الولاية السادسة 207 معارك، وجابهت 372 إشتباكا، ونصبت 163 كمبنا، وقامت بـ 175 هجوما، و175 عملية تخريب وتلغيم، و258 عملية فدائية، وصمدت لـ 262 عملية تمهيط³³.

سياسيا:

لم تقتصر جهود الثورة الجزائرية لإفشال المناورات الفرنسية الرامية لفصل الصحراء على المواجهات العسكرية فقط بل رافق ذلك نشاطا سياسيا مكثفا على المستويين الداخلي

والخارجي، لفضح مقاصد هذه المناورات الاستعمارية.

على المستوى الداخلي :

لقد أوفدت جبهة التحرير الوطني عناصر قيادية قصد إذكاء النضال الثوري عبر ربوع صحراء الجزائر، وعن هذه المهمة قال «محمد شريف مساعدي»: لقد كانت فرنسا تدعي أن هناك أراضي ومناطق لم تستطع يد جيش التحرير الوطني أن تصلها...وكنّا بالطبع نرفض كل الرفض هذه الأفكار، وسيطرت على أذهاننا فكرة إثبات وجودنا في كل مكان من التراب الجزائري....وانطلقنا في العمل وفقا للمحاور التالية:

المحور الأول: العمل السياسي الذي تمثل في تكثيف الاتصالات بين المنطقة وجيش التحرير الوطني.

المحور الثاني: تكوين شبكة اتصالات لتأمين سرعة الاتصال بين العاصمة والولايات الجنوبية...34 »

ما يتضح مما سبق أن قيادة جبهة التحرير الوطني سعت إلى التعبئة والتجنيد، وهنا برز دور المحافظ السياسي كوسيلة فعالة في ربط الشعب بالثورة وتوعيته قصد خدمة أهدافها.

ولذلك أثمرت تلك المجهودات في الصحراء الجزائرية، فكان الرفض الشعبي القاطع لمشروع فصل الصحراء كلما دعت فرنسا إليه، فعندما زار وفد فرنسي «غرداية» سنة 1958 و1959، لإقناع السكان بفكرة الانفصال، إستقبل أهل المدينة الوفد بمظاهرات عارمة رافعين شعارات ينادون من خلالها: «الصحراء جزائرية- لا يسمح الجزائريون في صحرائهم- الصحراء للجزائريين وحلم الاستعمار بالفصل باطل».35

ومظاهرات تفرّت سنة 1961 ومظاهرات ورقلة في يوم 1962/10/28، التي أرغمت فيها الجماهير وزير فرنسا المكلف بالصحراء على إلغاء الاجتماع الذي كان مقررا ببعض أعيان المناطق الجنوبية.36

لقد ظلت الثورة ومن ورائها الشعب الجزائري متمسكة بالحقوق الشرعية والجغرافية، وذلك ما أكدته الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية على أن مبدأ وحدة التراب الوطني (خط أحمر) لا يمكن تجاوزه، وهو ما تجلّى من خلال سلسلة المحادثات التي جمعت بين الوفد

الفرنسي والوفد الجزائري، والتي توقفت في عدة مناسبات بسبب قضية الصحراء الجزائرية. فمباحثات «لوسارن» في يوم 20 فبراير 1961 بين «جورج بومبيدو» على رأس الوفد الفرنسي و«أحمد بومنجل» على رأس الوفد الجزائري توقفت بسبب الرغبة الفرنسية في توسيع النقاش حول قضية الصحراء الجزائرية ليشمل الدول المجاورة باعتبار الصحراء (بحرا داخليا) بين الجزائر والبلدان المجاورة.³⁷

كما كان لقضية احتفاظ فرنسا بالصحراء الجزائرية أثر في توقف محادثات إيفيان الأولى التي انطلقت في 20 مايو 1961، و عندما سئل ممثل الوفد الفرنسي «لوي جوكس» عن سبب توقفها قال: « بأن لجزائريين متمسكين بآرائهم، ولذا يجب مهلة للتفكير...»³⁸، غير أن هذا التوقف كان سببه قضية الصحراء حيث مازال الطرف الفرنسي متمسكا بإشراك الدول المحيطة بالصحراء الجزائرية.

لكن جبهة التحرير عارضت هذا المسعى الفرنسي، مستخدمة الدعم الشعبي لتقوية موقفها من جهة، ولأجل الضغط على سياسة فرنسا من جهة أخرى، فدعت الجبهة الشعب الجزائري إلى تنظيم يوم وطني في 5 جويلية 1961 ضد تقسيم الصحراء، فلقبت هذه الدعوة نجاحا واسعا، وانتظمت مظاهرة حاشدة تحت شعار «الصحراء جزائرية».³⁹

لقد عززت هذه المظاهرات موقع جبهة التحرير الوطني للرد على المحاولات التي يقوم بها «ديغول» من أجل الوصول إلى تقسيم الجزائر، كما أنها أبرزت وحدة الشعب الجزائري ليقف أمام المحاولات التي تستهدف الوحدة الترابية ووحدته الوطنية.

وفي 20 جويلية 1961 بلوگران ((Lugrin أعلن عن استئناف المحادثات بين الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة الجزائرية وكان الموضوع الأول بالطبع مشكلة الصحراء التي استغرق بحثها ثلاث جلسات فقبل الوفد الجزائري أن يربط هذه المشكلة بموضوع التعاون الاقتصادي رغبة منه في الوصول إلى حل، ومن خلال الجلسات تبين للوفد الجزائري أن فرنسا لازالت تعتبر الصحراء الجزائرية منطقة خارجة عن الجزائر، فادى ذلك إلى توقيف المفاوضات رسميا.⁴⁰

وفي أوائل شهر جانفي 1962 عقدت الحكومة المؤقتة اجتماعات في تونس خلصت إلى استعداد الجزائر للتعاون الحر مع فرنسا لصالح البلدين والشعبين بشرط أن تتخلى فرنسا عن

نزعتها الاستعمارية فاستؤنفت من جديد المفاوضات بايفيان من 17 إلى 18 مارس، وانتهت باعتراف الحكومة الفرنسية بالسيادة الجزائرية على الصحراء.

خارجيا:

لعبت الحكومة المؤقتة الجزائرية دورا كبيرا في كشف المناورات الفرنسية للاحتفاظ بالصحراء الجزائرية، فلجأت إلى إثارة رغبة تونس في الاستفادة من ثروات الجزائر على الرغم مما قد يترتب على ذلك من انعكاسات خطيرة على منطقة الشمال الإفريقي، فمن خلال مذكرات لجنة التنسيق والتنفيذ انه في جانفي 1958 اعتبرت جبهة التحرير الوطني المعاهدة التي جرى التفاوض على إبرامها بين الحكومة الفرنسية والحكومة التونسية او مع شركة فرنسية، فإنها تمكن فرنسا من الحصول على ثروات الجزائر، وسيعتبر ذلك إشارة عداء ضد الشعب الجزائري.⁴¹

وفي إطار نضالها من اجل الوحدة الترابية انتهزت الحكومة المؤقتة فرصة انعقاد المؤتمر العربي للبترول بالقاهرة في 23 افريل 1959 لتحذير الشركات البترولية الأجنبية بخصوص الاستثمار في الصحراء الجزائرية، مؤكدة حق الشعب الجزائري في أرضه وحقه في رفض الاعتراف بآية عقود توزعها فرنسا على المستثمرين في الجزائر.⁴²

وفي المؤتمر العالمي الخامس للبترول الذي انعقد بنيويورك في جوان 1959 حذر الوفد الجزائري من ان النشاط الشرعي لجيش التحرير الوطني قد تكون له نتائج خطيرة على ممتلكات الشركات الأجنبية وعلى أرواح التقنيين الذين توظفهم هذه الشركات.⁴³

وخلال اجتماع لوزراء العرب ببغداد في 31 جانفي 1960 تقرر مضاعفة الدعم المادي والمعنوي للثورة الجزائرية، ونددوا بمحاولة التقسيم، وأكدوا وحدة الجزائر وسيادتها على كامل أراضيها.⁴⁴

لقد كان للحرب الدبلوماسية التي خاضتها الحكومة المؤقتة ضد استهداف فرنسا لوحدة التراب الجزائري اثر كبير في تنسيق مواقف الدول المؤيدة لعدالة القضية الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة.

فقبيل حلول موعد افتتاح أعمال الجمعية العامة طلبت خمسة وعشرين (25) دولة

أفريقية وأسيوية يوم 20 جويلية 1960 إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمالها، وتمت المصادقة على مشروع معدل أقر بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره على أساس احترام وحدة التراب الجزائري 45، وفي الدورة السادسة عشر (16) أثارت الدول الأفروآسيوية المشكلة من جديد، وشرعت اللجنة السياسية في مناقشتها يوم 14 ديسمبر 1961، وصادقت على اللائحة التي طالبت باستئناف المفاوضات من أجل تطبيق حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره في نطاق احترام وحدة وسلامة الوطن الجزائري 46.

الخاتمة

لقد أدى استمرار الكفاح المسلح والتفاف الشعب الجزائري حول الثورة التحريرية، وما لحق بالجانب الفرنسي من خسائر مادية وشرية، وتسليم المجتمع الدولي بضرورة إيجاد حل سلمي للقضية الجزائرية عن طريق المفاوضات إلى تراجع الحكومة الفرنسية عن فكرة تقسيم الجنوب الجزائري، والاعتراف بالسيادة الجزائرية عليه.

كانت قضية الصحراء الجزائرية محل صراع بين الثورة الجزائري والحكومات الفرنسية، فهي قضية سيادة ووحدة ترابية ومسألة مبدأ بالنسبة للجزائر، وهي قضية مصير للاقتصاد الفرنسي لاسيما بعد اكتشاف البترول الذي يعد قاعدة الصناعة الأوربية عامة والصناعة الفرنسية بصفة خاصة، لذلك كان الصادم عنيفا بين الموقف الجزائري وبين المصالح الاستعمارية إلى أن انتهى بالنصر للثورة التحريرية.

الهوامش

- 1- جاء في المادة خمسين (50) من القانون الخاص سنة 1947 يلغى النظام الخاص بأراضي الجنوب وتعتبر هذه الأراضي ولايات تحدد بقانون بعد استطلاع رأي الجمعية الجزائرية.
- 2- المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر، ص ص 40-41.

3-A.N.O.M., Boite 11 cab 109/110, Projet de lois portant création d'un département du Sahara.

4-A.N.O.M., Ibid

- 5- بجاوي (محمد)، الثورة الجزائرية و القانون 1960-1961، دار الرائد للكتاب ، الجزائر، 2004، ص 315.
- 6- بوشارب (عبد السلام)، الهقار أمجاد وأنجاد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1995 ص 140.

7-LAURE (René) , De Salan...à Boumediene, Edition ODIL ,Paris , 1979, pp64-65.

8- بشار (قويدر)، إستراتيجية فرنسا في فصل الصحراء الجزائرية من خلال مذكرات الجنرال ديغول، الملتقى الوطني

- الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر، ص 139.
- 9- محمد بجاوي، المرجع السابق، ص 316.
- 10- عسال (نورالدين)، الثورة الجزائرية والمسألة البترولية (1952-1971)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس، السنة الجامعية 2011-2012، ص 201.
- 11- بوشارب (عبد السلام)، المرجع السابق، ص 141.
- 12- المرجع نفسه، ص 1142.
- 13- بوعزيز (يحيى)، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر 1996، ص 282-285.
- 14- هو إبراهيم عمر بن بابا بيوض ولد بالقرارة بوادي ميزاب سنة 1899 حفظ القرآن الكريم وعمره إثني عشر سنة اخذ الفقه وعلوم اللغة العربية عن شيخه عبد الله بن برلهيم. في سنة 1931 شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. انتخب بالأغلبية الساحقة في 20 أفريل 1948 ممثلا لوادي ميزاب في المجلس الجزائري. كان قطبا للنشاط الثوري بميزاب. عين عضوا في اللجنة التنفيذية المؤقتة الجزائرية في مارس 1962.
- 15- أبو العلا (محمد سليمان)، صفحات من الكفاح الخاص بالشيخ بيوض والاستعمار الفرنسي في الجزائر، نشر وتوزيع جمعية التراث، غرداية 2012، ص 207-208.
- 16- شخصية دينية وعلمية موالية للسياسة الفرنسية حول مشروع فصل الصحراء عن الجزائر. كلف بالحصول على تأييد الشخصيات المحلية حتى ولو كان ذلك بالقوة.
- 17- أبو العلا (محمد سليمان)، المرجع السابق، ص 208.
- 18- بوشارب (عبد السلام)، المرجع السابق، ص 143.
- 19- سلسلة جبلية تقع بولاية البزي في الجنوب الشرقي للجزائر، وهي هضبة حصوية نقدر مساحتها ب 1200 كم².
- 20- S.H.D.Boite 1H3251, Etude sur l'évolution de la situation au Sahara 1959.
- 21-A.N.O.M, Boite 10CAB/176, Situation politique et économique des territoires du Sud 1938.
- 22- عين علي ملاح (سي شريف) على رأس الولاية السادسة في مؤتمر الصومام إلى غاية استشهاده في مارس 1957، ثم خلفه أحمد بن عبد الرزاق (سي الحواس) في أفريل 1958 إلى أن استشهد في مارس 1959، ثم عين بو قاسمي (سي الطيب الجغلالي) الذي قتل في جويلية 1959، وحل محله محمد شعباني قائد المنطقة الثالثة في ناحية بسكرة.
- 23- أبو العلا (محمد سليمان)، المرجع السابق، ص 124.
- 24- بوشارب (عبد السلام)، المرجع السابق، ص 130.
- 25- بن حمودة (بوعلام)، الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر 1954 معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة والنشر، 2012، ص 280.
- 26-KADDACHE(Mahfoud), ET L'ALGERIE SE LIBERA 1954-1962, EDIF2000, Alger 2003, p110.
- 27-LAURE(René), op .cit,p66.
- 28-Ibid, p68.

- 29- بوشارب (عبد السلام)، المرجع السابق، ص133.
- 30- S.H.D.Boite 1H3251, Effort de L'A.L.N.A sur la RN1 en 1959.
- 31Ibid.
- 32- بن حمودة (بوعلام)، المرجع السابق، ص280.
- 33- المرجع نفسه، ص465.
- 34- أبو العلا(محمد سليمان)، المرجع السابق، ص 206-207.
- 35- الغري (الغالي)، السياسة الفرنسية لفصل الصحراء وردود الفعل الدولية، الملتقى الوطني الأول بن حول فصل الصحراء عن الجزائر، ص271.
- 36- بن حمودة (بوعلام)، المرجع السابق، ص554.
- 37- الجنيدى (خليفة)، وآخرون، حوار حول الثورة، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر1986، ص426.
- 38- المرجع نفسه، ص428 .
- 39- الغري (الغالي)، المرجع السابق، ص267.
- 40- بوعزيز (يحيى)، المرجع السابق، ص 339-340.
- 41- بن عمر (الحاج موسى)، بتول الصحراء بين حسابات الثروة ورهانات الثورة في الجزائر، عن وزارة الثقافة، الجزائر2008، ص228.
- 42- المرجع نفسه، ص230.
- 43- الغري (الغالي)، المرجع السابق، ص267.
- 44- بوشارب (عبد السلام)، المرجع السابق، ص144.
- 45- بوعزيز (يحيى)، المرجع السابق، ص316.
- 46- المرجع نفسه، ص318.

مسألة المياه في السياسة الفرنسية في الجزائر**1830 – 1954****هامل عبد المنعم - طالب دكتوراه - سيدي بلعباس**

كانت السياسة الزراعية الرأسمالية الاستعمارية قائمة بالدرجة الأولى على تحويل هيكلها من هيكل زراعي موجه لتلبية الحاجات الغذائية المحلية إلى هيكل زراعي موجه للخارج لتموين السوق الرأسمالية الدولية، ولهذا فإنه لم يأت القرن العشرين إلا وكانت الزراعة الجزائرية تتحول فجأة من زراعة متخصصة في الحبوب إلى زراعة متخصصة في كروم النبيذ رغم أن هذا المحصول لا يتمتع بارتفاع الطلب عليه في الداخل نظرا لعامل تحريم الديانة الإسلامية تناوله، ولكن هذا التوجه الجديد للزراعة الجزائرية كان مقصودا، وكان الغرض منه ربط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي لجعل الأول يدور في فلك الثاني.

وانطلاقا من هذه السياسة العامة كان الاستثمار في مجالات البناء التحتي (infrastructure)، وكان يحدث ذلك في المناطق التي استقر فيها الملاك الأوروبيين المستقدمين خصيصا لتطبيق سياسة فرنسة الأرض، وتم فيها بناء السدود، وشق الترع، وتجفيف الأراضي، وبناء الطرق، وحفر الآبار الجوفية لتوفير المياه.

ومن هذا المنطلق، فإن الإشكالية التي تناولها هذا المقال يمكن صياغتها على النحو التالي:

ما هو أثر السياسة المائية الفرنسية على حصة الجزائريين المسلمين من المياه المستغلة؟

1 - النظام المائي في الجزائر: لقد بينت الدراسات المناخية والهيدروغرافية للجزائر بأن المناخ السائد في الصحراء وهي تشكل أغلب مساحة البلاد هو مناخ صحراوي جاف، وأن الجزائر الشمالية يسودها مناخ شبه جاف، وخاصة في الجهات الغربية. كما بينت أن مياه الأمطار التي تتلقاها الجزائر كل عام والمقدرة بعدة مليارات من الأمتار المكعبة، لا تتوزع بشكل منتظم على جهات البلاد المختلفة بالإضافة إلى تذبذبها من سنة إلى آخر 1

وهو ما انعكس سلبا على نظام جريان الأودية الجزائرية التي يرتفع منسوب مياهها خلال فترة قصيرة من السنة، أي خلال فصل الشتاء وقد يمتد ذلك بالنسبة لبعض الأودية إلى فصل الربيع كما أنه عادة ما يأخذ شكل فيضانات، بينما ينخفض منسوبها خلال باقي السنة وبالتالي

فإن تطويع هذه المياه يتطلب إنشاء سدود على مجاري هذه الأودية لتنظيم جريانها خلال موسمي الأمطار والجفاف، ولتوفير مياه الرّي للزراعة 2.

وأغلب التساقط يتوزع على المناطق الجبلية، حيث أن أهم خزانين للمياه هما سلاسل جبال القبائل في الوسط والشرق وجبال تلمسان في الغرب وهذين الخزائين هما الذين يتوفران على أهم قدرة مائية في الجزائر، مقارنة مع باقي جهاتها الأخرى شبه الجافة والجافة، وهذا التوزيع الطبيعي للمياه هو الذي حتم إقامة السدود في المناطق الجبلية، ماعدا مناطق حوض الشلف، حوض لغريب ووادي الفضة 3.

2 - الرّي وتوسيع المساحات الزراعية: منذ 1854 بدأ المعمرون يطالبون بأشغال الرّي، هكذا أشارت جريدة الأخبار إلى: «الإيجابيات الضخمة التي تتوفر للزراعة من خلال الأمطار الفصلية واستخدامها في الزراعة خلال الجفاف» 4 بحيث تتكفل البلديات (الدواوير) بأشغال المنفعة العامة خاصة ما يتعلق بالطرق الريفية، قنوات الصرف، الجسور العادية السدود، قنوات السقي والآبار الارتوازية المستعملة في سقي الأراضي الزراعية 5.

هذا راجع إلى أن تطور الاقتصاد الزراعي للكولون في الجزائر يتوقف بصورة حاسمة على حسن استغلال مياه الأمطار، المصدر الأساسي والهام للمياه في الجزائر، كما أن سقوط الأمطار غير منتظم ومثل هذه العوامل جعلت سلطات الاحتلال مسألة الاستيلاء على المصادر المائية والتحكم فيها جزءا من مخططها الهادف إلى تحويل الجزائر إلى مستعمرة فرنسية 6.

وقد انطلق مشروع المياه الاستعماري من ضرورة وجود أسقية فلاحية (Hydraulique) تمثل في الاعتماد على عمليتين أساسيتين هما:

الأولى: الاستحواذ مباشرة على الأراضي الفلاحية للجزائريين 7.

الثانية: إنجاز سدود لسقي الأراضي الجافة تتوفر على شروط طبيعية ملائمة لذلك وتمثلت المنشآت المائية التي اعتمدها الاستعمار في الشمال الجزائري على إقامة سدود خزّانة بالقرب من المحيطات الفلاحية للمعمرين، أما في الجنوب فتركزت في آبار كبيرة في الواحات لتكثيف إنتاج التمور للتصدير 8.

أ - السدود المائية الخزّانة: بعد عام 1860 وإلى غاية عام 1879 جرى إنشاء السدود لحبس

أو تحويل المياه في كل أنحاء الجزائر 9

فالمعطيات الجغرافية والتي تتمثل في وجود مجموعة من الأودية الهامة تصب في السهول الساحلية مثل: متيجة وعنابة وخاصة السهول الوهرانية وتتوزع هذه الأودية من الغرب نحو الشرق كمايلي: واد قيس، واد تافنة، واد ملاح، واد مقطع، واد هبرة، واد الشلف، واد فران، واد الحراش، واد حميز، واد يسر، واد الصومام، واد سباعو، واد بوسالم، واد قريون واد الرمال الكبير، واد الصفصاف، واد سيبوس، واد مجردة، إلى جانب رغبة الرأسمالية الفرنسية في جعل المناطق التلية لإنتاج المنتوجات الصناعية والمواد الأولية التي كانوا يستوردونها من الخارج مثل: القطن، الحرير، التبغ... الخ 10

وأهم السدود والقنوات التي تم بناؤها في إقليم التلّهي:

في عمالة الجزائر: سدود وقنوات الحميز والشلف - واد الفضة وواد سلي، واد بوسعادة وبورمي، واد الروينة، واد سيباو- واد ينزي (قرب الأغواط)، جبل عمور، واد الخميس واد ساحل، وحواجز واد الشلف، واد الكبير، واد الجمعة.

في عمالة وهران: سدود رأس مولا، الحناية، واد الأغلاق، واد ماغون، قنوات سهل الشلف، تجفيف بحيرة المقطع ومسرغين، وحواجز قريتي تيزي (قرب معسكر) والصحاورية (قرب غليزان).
في عمالة قسنطينة: سدود زرديزة، الرمل، قنوات الساحل وكريسه، وتحويل بحيرة عبيرة إلى خزان مائي وصرف مياه سيبوس، وتجفيف بحيرة فزارة، وبحيرة القرة وفزقية، وتطهير أراضي بلاندين وسهل عنابة، وبناء حواجز بوادي الصومام 11

وخلال الفترة الممتدة بين سنوات 1849 و1894 تم إنجاز سبعة سدود بحجم تجميع للمياه يصل إلى 65 مليون م³ وبغلاف مالي تجاوز 11 مليون فرنك ساهمت فيه الحكومة الاستعمارية بحوالي 7150000 فرنك، والباقي تكفلت به الشركات والبنوك الرأسمالية 12

السدود: أثناء بنائها للسدود، فكرت إدارة الاحتلال في دعم الزراعة بمنتجات ذات مردود أكبر من شأنها أن تغذي بعض الصناعات، إلا أنه على الرغم من السياسة الفرنسية المائية في

الجزائر، فإن التجارب الزراعية المربحة والمؤمل تحقيقها لم تُثمر بسبب الظروف المناخية وعدم ملائمة التربة لبعض المحاصيل مثل: القطن وقصب السكر، باستثناء الحمضيات التي كان إنتاجها يحضى بمنافسة الحمضيات القادمة من المناطق المعتدلة بدول حوض البحر الأبيض المتوسط¹³. وقد كان استعمال الماء للسقي فيه تحيز، فالمستفيدون الوحيدون هم المستوطنون، فقانون 1851 ينص على الملكية العامة لكل المياه الموجودة بواسطة الضخ وهي عملية ممنوعة على الجزائريين، ولكن لما يضخ المعمر الماء على حساب دوار بكامله لا يعاقب عكس الجزائري الذي يقوم بنفس العملية فإنه يعاقب¹⁴.

كما أن القرار الصادر عن الولاية العامة بتاريخ 22 ديسمبر 1899 أصبح استخدام المياه في الجزائر مرهونا بموافقة الدولة، كما أن القرار الصادر عن محكمة الجزائر بتاريخ 25 جانفي 1906 نص على ضم جميع منابع المياه إلى قطاع الدولة¹⁵، كما أن سلطات الاحتلال أصدرت تشريعات خاصة لاستغلال المياه في 30 أكتوبر 1935 متمثلة في قانون يحدد كيفية الاستغلال، حيث يباع الماء إلى كل مالك أرض وفق النظام الليبرالي¹⁶.

3 - تطور نظام الري: لقد شهدت الفترة بين الحربين العالميتين تطور نظام الري في الجزائر واستفادت بعد 1919 من خدمات ري تشبه تلك التي شهدتها الهند ومصر¹⁷، وقد توقع برنامج 1920 إنشاء 20 سدا، وباشرت الحكومة العامة في الجزائر سريعا في انجاز اثنتي عشرة مشروعا من 50 موقعا تم اختيارها، وأخيرا تم بناء تسعة سدود خزانة بين 1926 إلى 1945¹⁸، والجدول الموالي يوضح خصائص السدود المنجزة خلال تلك الفترة¹⁹:

اسم السّد	اسم الواد	ارتفاع السّد (متر)	السعة (مليون م ³)	سنة الخدمة الفعلية	المساحة المروية (هكتار)
واد الفضة	الفضة	100	228	1932	18440
بوقزول	الشلف	13.5	55.8	1934	-
بخدة	مينا	45	56	1936	12000
غريب	الشلف	65	280	1939	30000
فم الغيس	القيس	23	3.4	1939	5000
القصب	القصب	32	12.4	1940	1000
زرديزة	صفصاف	37	14.4	1945	5000
بني بهدل	تافنة	55	63	1946	12500
بوحنيفية	حمام	54	73	1948	29500
الشرفة	مكرة	27.5	14.4	1935	5600
الحميز	قيس	45	21.5	1935	18470
المجموع			822.4		164510

يمكننا أن نلاحظ من الجدول أن:

كل السدود تعتبر من الجيل الثاني باستثناء سدي الحميز والشرفة الذين يعتبران من سدود الجيل الأول لكن تم زيادة في ارتفاعهما، حيث انتهت الأشغال فيها سنة 1935، مع السدود ذات سعة ضعيفة فيما عدا سدي غريب 208 مليون م³ وواد الفضة 228 مليون م³، كما أن نظام الضخ من هذه السدود يعتبر ضعيفا في جميعها تقريبا باستثناء سدي غريب 140 مليون م³ وبوحنيفية وسد واد الفضة 75 مليون م³، فهذه السدود الثلاثة تسقي محيطا زراعيا مساحته 78 ألف هكتار 20

وقد خصصت الإدارة الاستعمارية غلafa ماليا قدر بـ 105 مليون فرنك، وعهد بالأشغال لعدة شركات فرنسية وعند نهاية الحرب العالمية الثانية قدرت تكاليف إنجاز السدود بأكثر من 2 مليار فرنك فرنسي، كما أن مدة إنجاز أغلب السدود تراوحت بين 3 و17 سنة حسب

حجم السد، فمثلا استغرق بناء سد زرديزة 15 سنة من 1930 إلى 1945، وقد واصلت إدارة الاحتلال بعد 1945 إنشاء السدود، حيث بدأت في إنجاز سدود جديدة هي فم الغرسة وتاجموتوسارنو، وزيادة على ذلك قامت بإعداد دراسات لإنجاز سدود أخرى 22.

وأغلب السدود التي أنشئت في القرنين 19 م و 20 م يقع جلها في الغرب والوسط الجزائري، في حين أن الشرق الجزائري وإلى غاية 1926 السنة التي انطلقت فيها المشاريع الكبرى لبناء السدود، عرفت إنشاء ثلاثة سدود هي: فم الغيس (خنشلة) في سنة 1939 وبعده سد القصب (المسيلة) عام 1940، وسد زرديزة في نواحي منطقة (سكيكدة) في عام 1945 23.

وهذه السدود الثلاثة كانت تُستغل في ري محيط زراعي تبلغ مساحته حوالي 23500 هكتار 24، موزعة بين سهول عنابة - لأنها أخصب الأراضي في المنطقة - وسفوح جبال بجاية وسهول سطيف، وسهول سكيكدة (فيليب فيل)، وعدد السدود في الشرق الجزائري المخصصة للري الزراعي أقل من الجهة الغربية للجزائر، هذا لأن هناك سدين وهما سد ايراغان قرب جيجل وسد إيغيل قرب بجاية مخصصان لتوليد الطاقة الكهربائية 25.

وبعد إنشائها السدود في شمال الجزائر قصد تخزين مياه الفيضانات لسقي الأراضي الزراعية خلال موسم الجفاف، فإن إدارة الاحتلال فكرت في مد نظامها المائي إلى الجنوب الجزائري وذلك بحفر آبار ارتوازية وخلق واحات جديدة 26 و خلال الفترة الممتدة ما بين 1856 و 1878 تم القيام بحفر 155 بئر ارتوازية في دائرة باتنة 27.

وقد زاد اهتمام المعمرين والرأسماليين الفرنسيين بالتنقيب عن المياه الجوفية في المناطق الجافة، وكانت الشركة الفلاحية والصناعية (société agricole et industrielle du sud Algérien)، هي إحدى الشركات التي اهتمت خاصة بخلق واحات في المنطقة المحصورة بين بسكرة وتوقرت، وغرس مساحة واسعة من أشجار النخيل، وشجعت زراعة النخيل الكولون أمثال ترائي Treille نائب قسنطينة والمعمّر سرادان Sarradin على شراء بساتين النخيل في منطقة بسكرة، وواد ريغ 28.

وفي غضون سنوات قليلة بين 1882 و 1887 تمكنت الشركة الفلاحية والصناعية التابعة لدائرة باتنة من إنشاء ثلاث واحات هي: أرغيغ، سيدي يحي وعباطة، وحفر آبار ارتوازية واستصلاح 400 هكتار من الأراضي الزراعية وغرس 500 نخلة 29.

ويجب أن نوضح أن الإدارة الاستعمارية في إطار بناء السدود الكبيرة الحجم واصلت انجاز مشروع الماء الكبير وذلك بإنجاز آبار جوفية كبرى بلغ منسوبها حوالي 1500 ل/ثا أهمها:

آبار وادي ريغ بحوالي 5350 ل/ثا، وآبار البيان بحوالي 5000 ل/ثا، وآبار جبال قسنطينة بمنسوب 1760 ل/ثا منها 900 ل/ثا في الحامة، و400 ل/ثا في الفورشي بأم البواقي و250 ل/ثا في بومرزوق وعين السخونة في الشط الشرقي بمنسوب 500 ل/ثا، وآبار القرارة بمنسوب 238 ل/ثا، وآبار زلفانة 117 ل/ثا، وآبار عين دلالة بمسكيانة بمنسوب يتراوح بين 80 و 250 ل/ثا وآبار مرجة سيدي عابد بمنسوب 200 ل/ثا 30.

ومع نهاية 1893 تم تنفيذ 427 عملية تنقيب عن المياه في الصحراء الجزائرية، حيث تم اكتشاف 519 طبقة مائية جوفية صاعدة (nappes d'eau ascendant) و529 طبقة مائية متدفقة (jaillissantes) بمنسوب يقدر بـ 32649 لتر في الدقيقة بإقليم قسنطينة و20374 لتر في الدقيقة بإقليم الجزائر و90 لتر - فقط - في الدقيقة بإقليم وهران 31.

وقد نتج عن سياسة فرنسا المائية في الجزائر عدة مشكلات منها: إتلاف الأراضي الزراعية بدلا من تحسينها خاصة الأراضي الرطبة التي لم تعد تتحمل أكثر، فأثر ذلك على الإنتاج وحول الفلاحين الجزائريين المستفيدين من بعض السدود إلى كادحين، كما أن الازدهار الذي تدعيه الإدارة الاستعمارية حول تطوير الزراعة في الجزائر هو مجرد ازدهار وتقدم للزراعة التجارية الاستعمارية لاغير، والدليل على ذلك تطور زراعة الكروم والزيتون والحمضيات....، وتخريب القطاع الزراعي الجزائري التقليدي الذي يعتمد على إنتاج الحبوب خاصة القمح والشعير 32.

بالإضافة إلى الأخطاء التقنية التي أدت إلى انهيار بعض السدود فإنها لم تكن ذات فائدة كبيرة، فقد تميزت السدود الحاصرة للمياه بقلّة استخدامها والسبب في ذلك بسيط: لأن المعمرين لم يفكروا إذا كان للزراعة الاستعمارية القدرة على استخدام هذا الحجم من المياه المحصورة مما أوقع الإدارة في إشكال مع المرتفقين (أي أصحاب حق الاستعمال)، الذين لا يستخدمون المياه ولا يدفعون الرسوم، التي أصبحت مرتفعة على المساحات التي حولها الملح إلى غير منتجة، أو لأنه لم يتوفر لديهم مبلغ 500 إلى 1500 فرنك الضروري لكل هكتار من المساحات المستصلحة من أجل القيام بأعمال التسوية والزرع والاستغلال 33.

ورغم الأموال الضخمة التي صرفت على بناء السدود إلا أنها لم تعط النتائج المرجوة منها،

فالبعض منها تصدع والبعض الآخر تعرض للردم نتيجة كثرة الأوحال، الأمر الذي قلل من قدرات استيعابها للمياه، ومنها على سبيل المثال لا الحصر تحول طاقة سد واد الفضة من 225 مليون م³ سنة 1900 إلى 40 مليون م³ سنة 1948 بمعدل يصل إلى حوالي 04 مليون م³ من الأوحال سنويا 34.

كما أن السكان المسلمين حاولوا إنشاء بعض السدود الترابية لتوفير مياه السقي لمزروعاتهم، خاصة الأشجار المثمرة وبعض الخضراوات، حيث قام الأهالي مثلا في محيط خنقة سيدي ناجي، وطيبوي أحمد، والولجة قرب خنشلة ببناء خزانات ترابية تصل سعتها 1000 م³ 35

هذا إلى جانب قيام إدارة الاحتلال في سهل عنابة بتنظيف مساحة 15000 هكتار لاستغلالها في الري، ومنذ 1950 تحسنت نظم إمداد المياه في كل من بونا (عنابة)، سطيف وقالمة وتبسة ومراكز تواجد المستوطنين 36، وإن كانت هذه الأشغال تبدو في ظاهرها ذات طابع زراعي بحت، فإنها في حقيقتها تهدف إلى تثبيت العنصر الأوروبي 37.

وقد مكن نظام الري عن طريق السدود التي أنجزت في الشرق الجزائري من زيادة توسيع الأراضي الزراعية والتركيز على الزراعات التجارية، وفي مقدمتها الكروم التي زادت مساحتها من 15460 هكتار عام 1910 إلى 25 ألف هكتار سنة 1939 38 والتبغ الذي ارتفعت مساحته من 6064 هكتار سنة 1919 إلى 11409 هكتار سنة 1939 39.

بالإضافة للتوسيع في إنتاج الخضر والفواكه، وكمثال على التطور الذي أحدثته أنظمة الري في منطقة عنابة نجد أن مساحة زراعة الطماطم انتقل من 200 هكتار سنة 1924 إلى 1200 هكتار عام 1954 ثم 1600 هكتار عام 1955، كما أن كمية إنتاج الطماطم تضاعفت عدة مرات من 678 قنطار سنة 1922 إلى 55330 قنطار سنة 1950، كما سجلت زراعة القطن ارتفاعا في المساحة بلغ 7800 هكتارا 40.

إلى جانب أن وادي الصفصاف الذي شيدت الإدارة الاستعمارية عليه مشروع سد زرديزة يمنح وسطا سهليا متجانسا، سهل المنفذ والاستخدام يمكن اعتباره أهم منفذ يسمح بربط مرتفعات قسنطينة بسهل سكيكدة، ويتمتع هذا الوسط الطبيعي بوجود نطاق مناخي شبه رطب ينعكس على النشاطات الاقتصادية للسكان، بحيث تتوضع أراضي مراكز وادي الصفصاف على أراضي ذات قيمة زراعية عالية، وإمكانات زراعية واسعة، تظهر بها زراعات الحبوب وأشجار الزيتون خاصة بمنطقة الحروش، والزراعات المسقية المتنوعة (خضر وفواكه وكروم)

والأشجار المثمرة والبقول الجافة والزراعات الصناعية 41 .

الخاتمة:

نستخلص أن التخطيط الزراعي الاستعماري الذي أعطى الأولوية في برنامجه للنظام المائي كان ينبع من منطلقات السياسية العامة الاستيطانية، وعلى هذا الأساس لم يراع قط طموحات الفلاحين الجزائريين، وذلك على الرغم من ارتفاع تكاليف ومستلزمات إنجاز السدود وبناء القنوات والتي استفادت منها أعداد قليلة من المزارعين الأوروبيين والمحترفين للزراعات التجارية كالكروم والحوامض والتبغ خصوصا.

الهوامش:

1Gendarme René, L'économie de l'Algérie sous- développement et politique de croissance, librairie Armand colin, Paris, 1959, p 84.

2Documents Algériens, série économique, «la situation économique de Algérie en 1954 », n° 3, Imprimerie officiel, Alger, 1955, P 100.

3حركات محمد، شبكة الكهرباء والغاز في الجزائر ما بين 1964 1962-، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005، ص ص 57 - 58 .

4عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر، تر: مجموعة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 107.

5Estoublon Robert et Lefébure Adolphe, Code de L'Algérie annoté 1830 -1895, Alger, 1896, p330.

6-عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر(1830-1962)، ج1، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2008، ص 170 .

7Henni Ahmed, la colonisation agraire et le sous développement en Algérie, société national d'édition et de diffusion, Alger, 1982, p189.

8احميدة عميراوي، السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830 - 1954)، دار القصة، الجزائر ، 2007، ص 97 .

9عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر، المرجع السابق، ص 107 .

10احميدة عميراوي، المرجع السابق، ص 98 .

11Paul -Leroy Beaulieu , l'Algérie et la Tunisie, librairie Guillaumin , Paris, 1887, pp142-143.

12احميدة عميراوي، المرجع السابق، ص 99 .

13عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول الملكية، ج1، ص 176 .

14Henni Ahmed, Op .Cit, p189.

15عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول الملكية، ج1، ص 174.

16Documents Algériens, série économique , L'hydraulique et la colonisation en Algérie , N°

2 - 01/11/ 1945.

17 عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول الملكية، ج1، ص174.

18 Jean Jacque Perennes, l'eau et les hommes au Maghreb, Edition Karthala, Paris, 1993, pp132-133.

19 تم إعداد الجدول انطلاقا من معطيات في:

René Arrus, l'eau en Alger l'eau en Algérie: de l'impérialisme au développement 1830-1962 , OPU, Alger-PUG, Grenoble, Paris, 1985, p123. Et Jean Jacque Perennes, op.cit, p133.

20 Jean Jacque Perennes, Op. Cit, pp133 – 134.

21 René Arrus, Op. Cit, p209 .

22 Jean Jacque Perennes, Op. Cit , p 135 .

23 Documents Algériens, série économique, l'équipement hydraulique de Algérie, N° 56 - 15/01/1949.

24 Henry Mourer et André Berthier, Constantine et son Département, Imprimerie Attali, Alger, 1953, p36 .

25 حسن بهلول، القطاع التقليدي والتناقضات الهيكلية في الزراعة بالجزائر، (تجديد ونظام دمج في الثورة الزراعية)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص 49 .

26 بن داهة عدة، المرجع السابق، ج1، ص182.

27 Paul – Leroy Beaulieu, op. Cit, p127.

28 بن داهة عدة، المرجع السابق، ج1، ص 183 – 184 .

29 Paul – Leroy Beaulieu, op. Cit, p132.

30 احميدة عميراي، المرجع السابق، ص 65 – 66 .

31 Paul – Leroy Beaulieu, op. Cit, p133.

32 عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول الملكية، ج1، ص 176 – 177.

33 عبد اللطيف بن أشهو، تكون التخلف في الجزائر، المرجع السابق، ص108.

34 عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول الملكية، ج1، ص 177.

35 Johan Hendrik Meuleman, le constantinois entre les deux Guerres Mondiales, (L'évolution économique et sociale de la population rural), OPU, Alger, 2009, p151.

36 Mourer Henry et Berthier André, Op. Cit, p37 .

37 عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول الملكية، ج1، ص178.

38 توفيق صالح، المجتمع والعمران في مدينة سكيكدة خلال الحقبة الكولونيالية 1838 1962-، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص179.

39 Johan Hendrik Meuleman, Op. Cit , p51.

40 محمد بن إبراهيم جندلي، عنابة في سياق التاريخ وعمق الجغرافيا، مطبعة المعارف، عنابة، 2007، ص431.

41 توفيق صالح، المجتمع والعمران في مدينة سكيكدة، المرجع السابق، ص 179 – 180 .

العنف عند الأطفال والمراهقين في ضوء عامل وسائل الإعلام ووسائل التواصل المعاصرة ودور المجتمع في مواجهته.

د. حلوش مصطفى. - جامعة سيدي بلعباس

مقدمة:

تؤدي وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة وظائف وأدوار عديدة، ومؤثرة في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، فالبرامج والأفلام التي تعرضها وسائل الإعلام السمعية البصرية منها خاصة وعلى رأسها التلفاز لها تأثير في السلوك النفسي والاجتماعي لفئة الأطفال والمراهقين، لما تتميز به من قوة التأثير البصري والسمعي، يجعلها قادرة على توجيه أفكار الأفراد والمجتمع الوجهة التي قد يتعارض مع ثقافة المجتمع ومبادئه، وتبث في المجتمع ثقافة الصدام بدلا من ثقافة التسامح، فالثقافة الالكترونية التي تروج لها بعض البرامج الأجنبية خاصة والتي تتضمن في طياتها أفكارا ومشاهد تغذي قيم العنف، تفلت من الرقابة، فتتدفق المعلومات والقيم بدون انتقاء بما يعزز الرغبة في تبني سلوك مضاد للمجتمع. فكيف يمكن لوسائل الإعلام ووسائل التواصل المعاصرة إثارة العنف أو زيادة حدته عند ارتكابه لدى الأطفال والمراهقين، وكيف يمكن للأسرة والمجتمع الوقاية من الآثار السلبية لما يعرض في وسائل الإعلام ووسائل التواصل الالكترونية، أو الحد منها؟

1- واقع العنف في وسائل الإعلام ووسائل التواصل الالكترونية:

إن العنف عند الأطفال والمراهقين يتخذ أشكالا مختلفة لعل أخطرها الاعتداء الفيزيقي، إن كل الأفراد في هذه المرحلة العمرية من حياتهم قد مارسوا بشكل ما سلوكا عدوانيا مع وجود فروق فردية بينهم. ويعتبر العنف السمة السلوكية الأكثر بروزا في تاريخ البشرية وزادة حدتها وانتشارها، وأساليب ممارستها في علمنا اليوم من خلال تطور وسائل الإعلام وانتشارها الهائل... واهتمام هذه الوسائل الكبيرة بتغطية أخبار الحروب والصراعات (سوؤدد فؤاد الآلوسي، 2012)

مما لا جدال فيه أن للعنف مزار كثير، وخطيرة على الفرد والمجتمع، إن العنف كما يرى «توركوم» Turkum هو «أحد المشكلات الأكثر أهمية التي تهدد الصحة الجسمية والعقلية للفرد». (صاحب أسعد ويس الشمري، 2012: 220) ومما يزيد من خطورة هذه المشكلة ظهورها في سلوك الأطفال والمراهقين ضد أقرانهم، أو ضد مجتمعهم أو الممتلكات العامة والخاصة، والانتشار الواسع لها حيث أن حتى الكثير المؤسسات التربوية لم تعد في منأى عن

ظاهرة العنف. وأن العنف ظاهرة تعاني منها كل مجتمعات العالم بدون استثناء وإن كان هناك تفاوت بينها في حدتها، ونطاق انتشارها، والشريحة الاجتماعية أو العمرية التي تظهر فيها، والعوامل الأكثر فاعلية في نشوئها وتطورها. لكن ما يشير إليه الكثير من الباحثين المهتمين بدراسة ظاهرة العنف خاصة عند الأطفال والشباب أن سيطرت وسائل الإعلام ووسائل التواصل الالكترونية على حياة الأفراد و الأسر والمجتمع ككل أضحت من العوامل الرئيسية التي لا يمكن إغفالها في فهم وتسير هذه الظاهرة الخطيرة.

مما لا شك فيه أن مشاهدة البرامج التلفزيونية، والإنترنت، وممارسة بعض الألعاب الالكترونية يحقق فوائد كثيرة للأطفال والمراهقين، وفي مقدمة ذلك اتساع الحصيلة اللغوية والمعرفية، والاطلاع على الثقافات الأخرى، وزيادة الوعي بما يجري في محيطه القريب والبعيد. لكن ما هو مثبت علميا كذلك من خلال العديد من الدراسات، أن العديد من البرامج المشاهدة من طرف الأطفال والمراهقين لها آثار سلبية على تكوين الشخصية بما قد يؤدي إلى انحراف السلوك الصادرة منها كظهور السلوك العنيف، وهذا السلوك يظهر حتى في أكثر الأوساط الاجتماعية المعروفة بصرامة نظامها كالأسرة والمدرسة. «أن استعمال الحسوب الآلي نشاط فردي، قد يشكل هذا الجهاز خطرا يتمثل في عزل الطفل، وترجيح تنمية سلوكات مضادة للمجتمع». (Rachel Cohen 1987)

إن المضامين الإعلامية من أفلام، ومسلسلات، ونشرات إخبارية، وأفلام وثائقية، وأفلام الرسوم المتحركة مشبعة بالعنف، وتعرض الطفل والمراهق لهذه المضامين بشكل متكرر، ولمدة طويلة يترك تأثير سلبيا وخطيرا في نفوسهم وقد يترجم عمليا في شكل الإضرار بالذات أو الآخرين أو الممتلكات. كثيرا من برامج الأطفال التي ننظر إليها على أنها مجرد رسوم متحركة أو أفلام خيالية، أو حتى الترفيهية منها كالأفلام الكوميديّة تتضمن مشاهد عنف كثيرة من شتم وسخرية وضرب... الخ. و« لقد تبين أن الأطفال يسلكون سلوكات عنيفة بعد مشاهدة مثل هذه البرامج التي تتضمن كثيرا من العنف» (عبد الرحمان العيسوي، 2000: 26). وعن أثر البرامج العنيفة في المشاهدين، كشفت دراسة تتبعية لمدة 17 عاما شملت 700 مراهق إلى أن هناك علاقة بين كم البرامج التلفزيونية العنيفة التي يشاهدها المراهقين، والسلوك العنيف الذي يسلكه هؤلاء حينما يصبحون يافعين. كما أظهرت الدراسة أن المراهقين الذين يشاهدون برامج تلفزيونية عنيفة لمدة تزيد على ساعة يوميا خلال فترة المراهقة المبكرة، يصبحون عنيفين في سنوات

نوههم التالية، وأن مشاهدة المراهق للبرامج العنيفة لفترة تتراوح من ساعة إلى ثلاث ساعات يوميا ترفع معدل السلوك العدواني لديه (فهد بن علي عبد العزيز الطيار، 2005: 49).

وعن أثر الإنترنت في بروز ظاهرة العنف خاصة في المدارس يؤكد هذا الأثر جريمة الطالب الألماني الذي قام بقتل 17 من معلميه وزملائه في مدرسة بمدينة «إيرفورت» الألمانية، ومن خلال تفحص سيرة حياة هذا الطالب، اتضح أنه معجب بلعبة على الإنترنت تمثل عملية قتل الإرهابيين، كلما زاد عدد القتلى الذين تتناثر دماؤهم بلون أحمر يغطي الشاشة، أثبت اللاعب مهارته الفائقة كما اتضح أن هذا الطالب كان يعشق أفلام «سيلفستر ستالون» التي يبيد فيها أعداءه (فهد بن علي عبد العزيز الطيار، 2005: 50).

2- البعد النفسي لدور وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة في إنتاج العنف لدى الأطفال والمراهقين:

من الناحية السيكلوجية وحسب النظرية الغريزية، التي يعد «سيجومند فرويد» من روادها، العنف تعبير عن نزعات عدوانية أساسها غريزة المقاتلة التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، وهذا السلوك العنيف من وجهة نظر «ادوارد نورثون لورنس» مرتبط بعاملين:

- كمية الطاقة المتراكمة.

- وجود قوة المثير المفجر للعدوانية في المحيط الخارجي.

وإذا تراكمت الطاقة العدوانية لمدة طويلة أدت إلى إثارة وتفجير السلوك العنيف في غياب المثير.

أما أنصار نظرية الإحباط - العدوانية أمثال «دولار»، و«ميلر»، و«هربرت مورر» فقد ربطوا العنف بالإحباط، فالسلوك العدواني في صوره المتعددة ينبع من مثير واقعي داخلي وهو الإحباط، والعنف من أشهر الاستجابات التي تثار في موقف إحباطي.

لكن السؤال المطروح هنا كيف أن وسائل الإعلام ووسائل التواصل الالكترونية بتلك المضامين العنيفة تثير نفسيا النزعات العدوانية والسلوك العنيف لدى من يشاهدها من الأطفال والمراهقين؟ الإجابة على هذا السؤال هو كالآتي:

أ- العُنف له قوة جذب كبيرة للمشاهدين، خاصة أن المشاهد يتعاطف عادة مع من يبدي في تصرفاته قوة.

ب - التعرض للمشاهد العنيفة في شاشات التلفزيون خاصة تحفّز مشاعر قد تقود إلى استخدام العنف، فمثل هذه المحتويات الإعلامية تشحنه بطاقة نفسية سلبية، وأفكار عدوانية.

ج- المشاهد العنيفة على شاشات التلفزيون و السينما، وألعاب الفيديو قد تبدو حقيقية للأطفال الصغار، فالأطفال قد لا يميزون في أحيان كثيرة بين ما هو واقع وما هو خيال، وبالتالي قد تكون هذه المشاهد صادمة لهم.

د- التعرض المبالغ فيه لصور العنف في وسائل الإعلام تضعف حساسية الأطفال والمراهقين للعنف، وبالتالي يبدو لهم سلوكا مألوفا ويمكن ممارسته.

هـ- الأطفال والمراهقين الذين تتسم شخصيتهم بالعدوانية، بزيادة تعرضهم لمشاهد العنف في وسائل الإعلام يزيد ميلهم للعنف، ويبدو لهم سلوكا ترفيهيا .

2- البعد الاجتماعي لدور وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة في إنتاج العُنف لدى الأطفال والمراهقين:

يري العديد من الباحثين و النفسانيين و علماء الاجتماع أن الكثير من السلوكات يتم تعلمها عن طريق الملاحظة و التقليد، فزعيم نظرية التعلم الاجتماعي «بندروا» انتهى من خلال دراسات تجريبية «أن ملاحظة النموذج أو القدوة الاجتماعي Modèles sociale

تأثر في مدى واسع من نشاطات الإنسان ومهاراته الاجتماعية، ومخاوفه وعدوانه.» (محمد قاسم عبد الله، 2009: 504) وبالتالي فإن أكثر الطرق التي تساهم ظهور السلوك العنيف هي التقليد أو التعلم الاجتماعي.

إن هذه النظرية تقوم على أساس أنه يمكن تعلم العنف من خلال مشاهدة العنف فيما تصوره وسائل الإعلام ، فيما لا يؤكد أصحاب هذه النظرية أن مشاهدي برامج العنف سوف يقومون بأداء أعمال العنف التي تعلموها بشكل آلي. فسلوكات العنف التي يتعلمها يتلقاها المشاهد من وسائل الإعلام لا تمارس عمليا ما لم يكن هناك موقف يثير هذا السلوك العدواني. لكن ما هو الذي يجعل هذه الوسائل الإعلامية والتواصلية مصدرا اجتماعيا لإثارة ونشر العنف

في المجتمع والذي تمثل فئة الأطفال و المراهقين أكثر ضحاياها.

أ- وسائل الإعلام والتواصل السمعية البصرية (التلفزيون، الانترنت) صارت في العصر الحديث وسطا من الأوساط التنشئة الاجتماعية شديدة التأثير في نفسية وعقول الناشئة، وأداة تساهم في تكوين وتحديد الشخصية.

ب- وسائل الإعلام بما تقدمه من برامج وأخبار تحمل الكثير من القيم والأفكار السلبية كقيم العنف، والطفل والمراهق معروف بسهولة استثارته وقابليته لمحاكاة ما يشاهده، خاصة وأن العديد من الأبحاث تبين أن هذه الفئة من الأفراد تقضي وقتا أطول أمام الشاشات مما تقضيه في الدراسة. ولقد دلت بعض الإحصاءات أن «الشباب والمراهقين من أعمار 16 عاما في أمريكا يقضون عددا من الساعات يشاهدون التلفاز أكثر من تلك الساعات التي يقضونها في المدرسة. وببلوغهم هذا السن يكون إجمالي حالات القتل التي شاهدوها بلغت (13000) قتيلًا في التلفاز» (عبد الرحمان العيسوي، 2000، 26)

ج- الإعلام يصور الممارس للعنف كبطل قوي وجلاب يتغلب على الأشرار، مما يؤدي إلى تضارب القيم لدى الأطفال المتعلقة بالعدالة والمساواة والحق. فيقتنع أن العنف مقبول اجتماعيا، ووسيلة فعالة لتحقيق مطالبه، وهذا ما يمهّد لممارسته إذا تعرض لموقف مثير أو مستفز لما يعتقد.

دور الأسرة والمجتمع في مواجهة عنف الأطفال والمراهقين الوارد من وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة.

العنف من أكثر المشاكل السلوكية التي انتشرا في أوساط الأطفال والمراهقين، وهي ظاهرة معقدة تتفاعل في نشوئها عدة عوامل: اجتماعية، ونفسية وتربوية، واقتصادية، وثقافية، ويصعب أحيانا تحديد عامل بذاته يمكن الاعتماد عليه في التفسير و التنبؤ والتحكم، لكن مما أصبح من المسلم به لدى الكثير والباحثين في ظاهرة العنف من علماء النفس وعلماء الاجتماع، والتربويين، أنه لا يمكن تجاهل دور وسائل الإعلام والتواصل السمعية البصرية في دراسة هذه الظاهر السلوكية.

فالعنف سلوك فردي واجتماعي في الوقت ذاته يعبر عن حالة سوء التوافق الشخصي

والاجتماعي، يهدد حياة الفرد والمجتمع، وبالتالي المجتمع بكل مؤسساته الاجتماعية والتربوية والثقافية معني بالوقاية منه. وهناك تدابير يجب أن تؤخذ من طرف مؤسسات المجتمع للحد من منه، أو التقليل من آثاره السلبية الخطيرة، ومن هذه التدابير و الإجراءات:

أ- الأطفال والمراهقين كثيرا ما يشاهدون برامج ومشاهد ليست في الأصل موجهة لهم بل للبالغين، وهي خصبة بالعنف وغيرها من السلوكات غير الاجتماعية والأخلاقية لذا يجب على القائمين على هذه البرامج الحذر، فالأطفال غير مهئين لاستقبال مثل هذه المضامين.

ب- تدخل الأبوين في انتقاء البرامج الإعلامية والترفيهية التي تعرضها وسائل الإعلام والتواصل، ويفضل مرافقتهم أثناء مشاهدتها، وتبيين ما هو مفيد، وما غير مقبول فيها.

ج- وسائل الإعلام كمؤسسة ثقافية وإعلامية يجب أن تقف في الصف الأول في القضاء على العنف عند الناشئة، من خلال نشر الوعي الاجتماعي بمخاطر العنف على حياة الأفراد الذين يمارسونه أو يتعرضون له وحياة المجتمع ككل.

د- للقائمين على الطفل ضرورة الاهتمام بمتابعة أطفالهم عند لعب ألعاب الفيديو والكومبيوتر وجعلها من النوع الذي يقوي إمكانياتهم المعرفية بدلا من تنمية روح العدوان والعنف لديهم.

الخاتمة:

الإعلام يسهم إسهاما كبيرا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تكوين شخصية الطفل والمراهق. لذا وجب الاهتمام بما نقدمه لهما من برامج، في كافة المجالات: الفكرية النفسية الاجتماعية والثقافية. وعليه فعلى وسائل الإعلام أن تراعي خصوصية جمهورها و خاصة الأطفال والمراهقين، وأن تراعي متطلبات المجتمع ومصلحه، وعلى الأولياء أن يراعوا ما يناسب أبناءهم مما يعرض في هذه الوسائل، فتصبح وسائل للتثقيف والتنشئة الاجتماعية، وليس وسائل لإثارة النزعات العدوانية.

المراجع:

- 1- عبد الرحمان العيسوي (2000) اضطرابات الطفولة والمراهقة وعلاجها، دار الراتب الجامعية، لبنان
- 2- فهد بن علي عبد العزيز الطيار (2005) العوامل الاجتماعية المؤدية للعنف لدى طلاب المرحلة الثانوية)

- دراسة ميدانية لمدارس شرق الرياض)، رسالة دكتوراه ، جامعة نايف للعلوم الأمنية، السعودية.
- 4- محمد قاسم عبد الله (2009) الشخصية -استراتيجياتها، نظرياتها، وتطبيقاتها الإكلينيكية والتربوية، الشخصية والعلاج النفسي- دار المكتبي، سورية.
- 5- سؤدد فؤاد الألوسي (2012) العنف ووسائل الإعلام، دار أسامة، الأردن.
- 6- صاحب أسعد ويس الشمري(2012) أسباب العنف لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية من وجهة نظر المعلمين و المعلمات، مجلة الدراسات تربوية، العدد 18،
- 7- Rachel Cohen)1987 (les jeunes enfants la découverte de l'écrit et l'ordinateur, Presses universitaire de France.

الحدث وأزمة الوعي العربي بين الغياب والحضور

أ. بن طرات جلول – سيدي بلعباس

لقد ارتبط مفهوم الحدث في الخطاب العربي المعاصر بنهضة العقل والتأسيس لمشروع تواصل يفتح على ثقافة الآخر، ومن ثم تظهر تجليات هذا المشروع من خلال تلك المنظومة الحضارية التي تعلن عن ولادة العقل العربي وتعيد الطريق لتجاوز كل الأزمات التي أجهضت ذلك الموروث القيمي الذي بمقتضاه يتحدد مشروع حوار الحضارات والثقافات والأديان، وتظهر بوادر تحرر الفكر العربي من تلك الإيديولوجيات العمياء التي أنتجت بعض العصبية التي غابت وأقصت ذلك الخطاب النهضوي الذي اختزله المفكر العربي «مالك بن نبي» عندما تناول مشكلات العالم الإسلامي وكل مظاهر الصراع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والإيديولوجي، وأعاد بعث جدلية المغلوب والغالب من خلال مفهوم القابلية للاستعمار، هذه القابلية حددت تبعية الإسلام للغرب لتظهر صور الاستلاب والاغتراب التي يعيشها الوعي العربي حينها أصبح مفهوم النهضة مرتبطا بتلك الوثبة الحيوية التي تتعايش في مجالها الثقافة الإسلامية مع الثقافة الغربية كحجر أساس لمفهوم الشراكة على مستوى القيم وكل المؤسسات المسؤولة عن صناعة الوعي، وبذلك فإن غياب الوعي العربي في صياغة رؤية جديدة للحضارة ومواجهة تحديات العولمة قد فسح المجال لطبيعة هذا الجمود والسكون الذي استوعبته وضعية العالم الإسلامي، فالأفكار والقيم والثقافات التي نستوردها تشخص حقيقة هذا الغياب الذي يعكس الواقع الإسلامي ويمثل دعوة صريحة للبحث عن البديل لتجاوز هذه الأزمة التي حملت في ظاهرها وباطنها ثورات التغيير التي تنادي بها بعض الدول العربية حاليا.

إن قراءة لأزمة الوعي العربي يحمل في أبعاده السوسيولوجية والفلسفية تلك الخلفية الإيديولوجية التي حولت الأمة العربية من موقع المجدد إلى موقع المستهلك ليصبح التخلف والانحطاط والضعف مرادفا لوجودها في معادلة التنمية والبناء، وبذلك فإن التجديد وكل مشروع نهضوي قد يختزل مقومات الحدث وكيفية التواصل مع الآخر، ومن ثم تظهر ملامح حضور الوعي العربي الذي يبدأ بالقطيعة مع كل ما هو سلبى وينتهي بولادة جديدة للعقل العربي أين تتجسد خصوصيات هذه الولادة كجزء لا يتجزأ من تلك الكتابات التي حددت مفهوم النهضة العربية وتحولها إلى الحدث « وذلك باعتناق الفكر الغربي الحديث بمقولاته

الأساسية وهي العقلانية والتقدم ومسؤولية الإنسان عن نفسه على المستوى النظري والعلمانية والنظام الماركسي والدولة المركزية على المستوى العملي كما يعتقد عبد الله العروي»¹ فطبيعة هذا الاعتقاد يؤسس للقطيعة مع التراث بحثا عن تلك المناهج العقلية الحديثة والمعاصرة لتمكين العقل العربي من النهوض، ومن ثم فالتقدم الحداثي هو التقدم الذي يختزل أصالة الوعي الإسلامي ضمن تلك القيم الأخلاقية التي تؤمن بحركة هذا الوعي بدءا بفهم مشكلات النهضة العربية باعتبارها المرجع الوحيد للمفاهيم التي يستقيم على ضوئها مفهوم الحداثة، ليظهر مشروع تصحيح مسار الوعي العربي الذي يتوق إلى تقريب الدور التاريخي إلى كل معلم ثقافي أو خطاب إيديولوجي يعزز حضور هذا الوعي دون غيابه والانفتاح على واقع الوعي الغربي الذي صاحب ميلاده عصر النهضة والثورة الصناعية التي أنتجت مفهوم الحرية والمساواة والديمقراطية والعدالة، وأسست للفكر العقلي بخلاف التجربة العربية المعاصرة التي أدلجت إخفاق تلك السياسات الإصلاحية وغيببت نجاعة العقل العربي الذي استوعب تلك الإخفاقات كمقدمة تعيد لتلك المفاهيم والخطابات صورتها القومية في المجتمع العربي الراهن.

إن إشكالية التقدم والتأخر وحالة الاستلاب التي يعيشها المثقف العربي تعود إلى تلك الهيمنة الاقتصادية والسياسة والذهنية المتأخرة التي ارتبطت بوضعية الاستهلاك لا بوضعية الإنتاج، ومن ثم تتعارض مع الذهنية المدنية التي تعني وجود جو ثقافي مدني يتواصل فيه الناس لتتجه اهتماماتهم إلى الخلق والتجديد والإنتاج، ومن هذا المنظور يظل الفكر العربي أسيرا للماضي دون مسaire الحاضر، هو بمثابة إلغاء لكل مكونات النهضة الحقيقية للوعي العربي، ورفض مطلق لقيم الحداثة والتواصل مع الآخر.

إن وضعية الحداثة في المجتمعات الغربية قد أرست نمطا خاصا تعايش مع كل تقدم تقني أو مشروع تنويري حاربت من خلاله البورجوازية الصاعدة فكر القرون الوسطى لتصبح كل ثورة دينية أو ديمقراطية أو صناعية ميدانا لتطور المجتمع وأسلوبا حضاريا يستوعب فلسفة الحضور للوعي العربي ضمن هذا النمط الذي استوعبه ديكاوت وكايط وسبينوزا ولينين وهيجل وماركس، ومن ثم فإن القابلية للتجديد والتطور سيحدد مستقبلا شروط النهضة ويتجاوز كل أزمة قد تعيق العقل العربي على استيعاب طبيعة هذه الشروط التي تمثل الأرضية التي تحرر الفكر العربي من الاغتراب بشقيه الديني والحضاري، وبذلك تكتسي منجزات العقل الغربي الحديث أهمية قصوى ستكتشف من خلالها المجتمعات العربية وضعيتها المتأخرة التي كرس

لتنامي ذلك الموروث الثقافي الذي جاء كرد فعل لتلك العصبية التي أنتجت ثقافة العصور الوسطى لاسيما الصراع بين المعرفة والسلطة والدين التي تحددت من خلاله القراءة الصحيحة للواقع العربي المعاصر.

إن فهم تلك الثورات الفكرية التي أحدثها الفكر الغربي على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يحدد وضعية التأخر الحاصل في المجتمعات العربية الذي عطل مشروع الفكر النهضوي « مقارنة مع مبدأ التقدم الذي عزز ذلك الثالوث الإصلاحي إنطلاقاً من الحركة الدينية المتمثلة في البروستانتية والحركة الإنسانية التي تأثرت بسلطة رجال الدين على التقاليد والحركة العقلية التي وضعها الإنسان في إطار الطبيعة والعالم المادي »²، هذا المبدأ يجسد حدود عصر النهضة الذي استوعب التفاعل الفكري والاعتقادي الذي اختزلته الثقافة العربية لتجمع بين القديم والجديد في حدود تأثير تراث القدامى في بلورة الوعي العربي الذي احتفظ بالأصول الفلسفية لهذا التراث لاسيما الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية التي صاغت ملامح النموذج الفكري عند المسلمين الذين اعتبروا التقدم لحظة من لحظات تطور الفكر، وهو ما أصبح يحمله مفهوم التحضر، ومن هذا المنظور فإن غياب الوعي العربي لا يخرج عن نطاق جدلية الاستجابة والتحدي في خطاب «تويني» الذي يعتبر أن المجتمعات كائنات حية لها صفات التحول الطبيعي والاضمحلال، فالمجتمع الذي يتعرض للاستعمار يستجيب له بالتحدي، « فالشعب الذي لا يتحدى العوائق والمشاكل فهو بعيد كل البعد عن التحضر »³، هذه النظرة تعكس تلك الدراسات التي اعتبرت تاريخياً أن التقدم من صنع الإسلام في القرون الوسطى وأن العقل العربي هو أساس نقل هذا التقدم إلى أوروبا، وبذلك فإن فكرة العمران عند ابن خلدون قد استوعبت حدود فهم جدلية التخلف والتحضر ومظاهر الوعي العربي وموت النزعة التجديدية التي أسست لميلاد الحضارة الغربية « في حين تظهر تجليات النهضة العربية مع بداية القرن 19م الذي حدد حركة هذا الفكر أين تعزز ذلك الإصلاح والتجديد العقائدي في بلورة مفهوم هذه النهضة »⁴.

إن انهيار الحضارة الإسلامية قد أنتج واقعا تناول طبيعة تلك العوائق التي حددت وضعية الوعي العربي بين الأزمة والنهضة، ومن هذا المنظور قد انصرف الجابري إلى اعتبار العقل أساس تقدم الوطن العربي حاضرا ومستقبلا لتحديد ملامح العقلانية باعتبارها مشروعا نهضويا قد يؤسس للقطيعة مع مظاهر التخلف وعوائق التقدم والتنمية وبذلك فإن الرؤية الإستراتيجية

لحركة الوعي العربي ينطلق من استعراض تلك الأنظمة العقلية والدينية واللغوية في الفكر العربي المعاصر ومحاولة بلورتها وتحديثها لإقامة مشروع نهضوي ينفّث على ضرورة نمذجة الثقافة الإسلامية حتى تنسجم مع أصالة الوعي الإسلامي، وفي هذا الإطار جاءت رؤية المفكر العربي زكي نجيب محمود لتعزز هذا النموذج في قوله: «إذا سمعت عن شعب أنه ارتقى درجة أو درجات في نظامه الاجتماعي والتعليمي ونظامه الاقتصادي والسياسي وفي أية نظام من نظم حياته، فاعلم أن ذلك الارتفاع إنما تحقق له بفضل عقل حر أباحت له حرّيته أن يستبدل القديم الذي أصابه عقما وجمودا جديدا يشير بالرجاء»⁵، هذه النظرة قد رسمت معالم ترقية الفكر العربي وأدوات تحرره للانفتاح على ثقافة التجديد والتحضّر التي تتبلور من خلالها تلك الثورة التقنية التي أدت إلى تسامي العقل الغربي من النقص إلى الكمال، ومن ثم فقد اكتشف العقل العربي تأخره وغيابه في صياغة مفاهيم هذه الثورة التي استأنست بلغة العلم التي غيرت موازين القوة وأسست لمفهوم التنمية الحضارية ضمن مبادئ الحضارة الراهنة حتى أصبحت القيم البراجماتية للعقل الغربي نقطة التحول في مفاهيم الحضارة الغربية التي نظرت للإنسان نظرة عملية، ومن ثم فقراءتنا لوضعية الوعي العربي ضمن هذه القيم ينطلق من أزمة الغياب والمشاركة الإبداعية في صياغة المفاهيم والمناهج وكيفية توظيفها لتحليل كل القضايا الراهنة.

إن الجمع بين الدين والفلسفة وسائر العلوم قد يدفع بالعقل العربي إلى الأخذ بمعالم التجديد والنهوض والفهم الصحيح لجذلية التواصل الإسلامي مع الغرب، «وبذلك فقد انصرف كل من «سيد قطب» و«مالك بن نبي» إلى تحديد المعنى الصحيح للتحضر أين أصبح قيام الحضارة مرهونا بالعلم والإنسان والأرض»⁶، ومن ثم فمشكلة العقل والثورة، القومية وأسسها الفلسفية ومشكلة النهضة والحداثة، الأصالة والمعاصرة وأزمة اللغة والتأويل، ومشكلة السلطة والمعرفة والدين، ومشكلة الاستشراق والعولمة الثقافية وموقع الفلسفة الخلدونية والمكيافيلية والرشدية في الخطاب العربي المعاصر، وبعض القضايا المتصلة بالتصوف الإسلامي ومشكلة الإيديولوجيا والتأصيل الفلسفي للتاريخ والتنوير والعقلانية وأبعاد مشكلة المنهج وأزمة العلوم الإنسانية قد أخذت حيزا واسعا من الثقافة العربية المعاصرة لتظهر تجليات هذه المشكلات الفكرية في تحديد عالمية هذه الثقافة التي أعلنت عن حضوره في مرحلة معينة أين أنصفت الدراسات الإستشراقية هذا الحضور عندما تمكن الغرب من فهم الفلسفة اليونانية عن طريق المسلمين لاسيما مع الفارابي وابن رشد والغزالي وابن سينا والكندي، وبذلك فحركة الوعي

الفلسفي في العصر الوسيط قد عززت هذا الحضور إلا أن الواقع الراهن قد حدد غياب الوعي العربي لتظهر أزمة التجديد ومن ثم اجتار واستهلاك ثقافة الغرب التي تحررت من أزمة العصر الوسيط ليتجسد كيانها العلمي والتكنولوجي عبر جميع مراحل التنمية التي حددت مستقبل الحضارة الغربية.

لقد استطاع المفكر الجزائري «مالك بن نبي» أن يوطر لأزمة الفكر العربي انطلاقاً من مشكلة الثقافة والعمل والمال ليعتقد أن الاستثمار في الإنسان فكرياً قد يؤسس لمشروع نهضوي يبدأ بفهم الفكرة الدينية وينتهي بتأصيل الثقافة العربية لتحديد مستقبل الحضارة الإسلامية، «وبذلك فالإنسان هو العنصر المحوري الذي يحدد قيمة الإنسان الذي يستغل قيمتي التراب والوقت من خلال فكره وماله وعمله»⁷، هذه النظرة هي حجر الأساس لبناء رؤية جديدة لحضور الوعي العربي أين تظهر الحضارة كثمرة لتطور العقل الذي استغرق في البحث والتأمل حيث استوعبت الحضارة الإسلامية هذا التطور الذي أعاد تفعيل شروط النهضة، وبذلك فإن التجربة الماليزية قد حددت نهضتها الحضارية عندما انفتحت على مشروع مالك بن نبي لتتصرف إلى أسلمة المعارف والمفاهيم وغزو الفضاء كمشارع تنموية عززت الفكر التقدمي والعقلانية التجديدية التي تجاوزت العقدة الانهزامية عند المسلمين، وبذلك فصناعة شروط النهضة والتنمية تمتد إلى امتلاك شروط التغير الاجتماعي لتتدخل المرجعية الفكرية لقراءة جدلية التخلف والتحضر التي صاغت معادلة الانفتاح على ثقافة الآخر وكيفية التواصل معه.

إن تحديث خطابنا الإسلامي وتفعيله ينطلق من قراءة تلك الإيديولوجيات المعاصرة لتأسيس ثقافة تعترف بالآخر أين يكون الاستثمار في التجربة الحضارية عند الغرب مرجعاً لتلك الحركة التواصلية التي استوعبت كل التناقضات والمفارقات التي أقام الفكر العربي فلسفته النهضوية لتجاوز كل مظاهر الانقراض والفناء التي عرفها العالم الإسلامي على المستوى الاقتصادي والثقافي، وبذلك فثقافة العولمة قد كرس لفكرة الاندماج العالمي في الثقافات الأخرى، في حين انصرفت الثقافة الإسلامية إلى بلورة هذا النموذج مع ضرورة احتواء تلك القيم والأفكار التي تتعارض مع مبادئ المشروع التنموي الإسلامي، ومن هذا المنظور فإن كل عجز أو إخفاق في استيعاب هذا النموذج وتجاوز الأزمات واستغراق المرجعيات الإسلامية الراهنة يعد إعلاناً صريحاً عن موت حركة التجديد عند المسلمين ومن ثم حتمية إقتداء المغلوب بالغالب .

إن الصورة المستقبلية للوعي الإسلامي يقتضي توجيه المسلم المعاصر نحو الحضارة وتجاوز

كل نقص ابتلته به الحضارة الغربية لاسيما سيادة مبدأ القابلية والتبعية عند المسلم للغرب ، ومن ثم فإن تبني فرض قيم الفكر الإسلامي قد يحدد عناصر الحضور عند الوعي الإسلامي لخلق حاضر جديد ينطلق من التخطيط التنموي اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا لتحديد ميلاد الإنسان الحقيقي الذي يملك ثقافة التجديد والخلق أين يكون موقع هذا الإنسان ضمن ما تفرضه ثقافة العولمة ليصبح مفهوم النهضة والحضارة في سياقها الإسلامي أكثر انفتاحا على موازين القوى في العالم ومن هذا المنظور فأزمة الغياب تمثل مشكلة قائمة بذاتها قد يكون لثقافة الاستعمار دخلا فيها، إلا أن ضرورة التحرر من هذه الثقافة يعد مطلباً حضارياً لفهم قيم الحداثة واختزال تجلياتها في معادلة النمو والتطور التي تؤسس لمستقبل الوعي الإسلامي ضمن هذه التحديات الاقتصادية والصراعات الإيديولوجية المعاصرة.

إن اهتمامات الفكر العربي المعاصر بهذه القضايا المعاصرة تعد انعكاساً مباشراً لتطور الفكر العربي من مرحلة اجترار واستهلاك تراث القدامى إلى التجديد ونهضة العقل العربي بعيداً عن تغيير الآخر الذي يمثل مرجعاً وباعثاً على نضج الخطاب الفلسفي الذي أعلن عن فعاليته في إضفاء الطابع العالمي على العقلانية العربية المعاصرة التي استوفت عناصر مسارها التاريخي انطلاقاً من التأسيس الفلسفي لفكر عربي يحمل في طبيعته الحركية ثقافة التعايش الديني والفكري مع تلك المشكلات والتحديات التي يعرفها واقع هذا الفكر مع بداية نهضة وقيام الحضارة العربية المعاصرة.

الهوامش:

- 1- شافية صديق ، إشكالية النهوض في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قرطبة، ط1، 2006، ص98.
- 2- الطيب تزني ، التراث وتحديات العصر في الوطن العربي ، درا الفكر، الجزائر ، ص 28.
- 3- عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية ، ج2، ط1، 1984، بيوت ، ص 179.
- 4- محمد عابد الجابري ، المناهج التجريبية وتطور الفكر العلمي ، بيروت ، 1982، ص 48.
- 5- زكي نجيب محمود ، قصة العقل ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط1، 1983، ص ص 72-73.
- 6- مالك بن نبي، شروط النهضة ، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984، ص10.
- 7- عبد الطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2006، ص170.

التربية الأسرية والتغير الاجتماعي أية علاقة؟

عبد الرحيم ليندة. أستاذة محاضرة - ب -

يتشكل المجتمع من مجموعة من المؤسسات الاجتماعية التي تسعى من أجل هدف واحد وهو المصلحة العامة من خلال إعداد الأفراد وتنشئتهم اجتماعيا ليكونوا أعضاء فاعلين في مجتمعهم، ونجد أن الأسرة تحتل الصدارة من حيث أسبقيتها في احتضان الطفل ومرافقتها له حتى آخر سنين عمره لهذا تبقى الأسرة أهم المؤسسات الاجتماعية وهي أقدم جماعة إنسانية لها مكانتها المميزة كونها أقوى الجماعات تأثيرا على الأفراد فهي أول نموذج اجتماعي يحتك به الكائن البشري ويشبع من خلاله حاجاته ويحقق مصالحه وفيها تتم أولى خطوات التربية التي يخضع لها، وهي تشكل معالم شخصية الفرد من خلال مختلف المواقف التربوية التي يتعرض لها والوسط الذي توفره له حيث تنقل له اتجاهاتها وقيمها وعاداتها وتقاليدها وحتى أن الاضطرابات النفسية التي قد يعاني منها أحد أفراد العائلة قد تعرض بقية أفرادها إلى التأثير بهذه الأخيرة، فهناك نوع من العدوى النفسية الناجمة عن محاكاة أفراد الأسرة لهذا احتلت الأسرة جانبا كبيرا من الاهتمام في علم النفس وعلم الاجتماع باعتبارها سببا أساسيا في الكثير من الاضطرابات النفسية والعقلية والسلوكية والانحرافات والجنوح وغيرها من المشاكل المتعلقة بالإنسان، وهي تختلف فيما بينها من حيث نوعها وشكلها وعدد أفرادها وجنس أبنائها وطبيعة العلاقات بين أفرادها ودرجة تماسكها ومستوياتها الاجتماعية والاقتصادية المختلفة.

وتعرف الأسرة في معجم علم الاجتماع أنها مؤسسة متميزة في المجتمع الإنساني وبالرغم من أن كل مؤسسة لها أسسها وأهدافها في المجتمع نجد أن الأسرة هي أكثر المؤسسات تأثيرا على الفرد، حيث تسود علاقات التعاون والتآزر والتكافل والمحبة بين الآباء والأبناء وبين الأبوين وتتميز بمجموعة من القواعد والمعايير التي تتبعها في تربية الأبناء.(1)

وتعرف أيضا في معجم المصطلحات التربوية والنفسية على أنها مجموعة من الأفراد تربط بينهم صلة الدم أو الزواج وهي تضم عادة الأب والأم والأبناء وقد تضم أفرادا آخرين من الأقارب، وأسرى هو لفظ يطلق على الصفات التي تشيع في أفراد الأسرة سواء كانت هذه الصفات موروثة أو مكتسبة من تقاليد الأسرة.(2)

وبالنظر إلى المهام الملقاة على المجتمع عامة والأسرة بصفة خاصة نجد مهمة تنشئة وتربية

الجيل الجديد وإعداده حتى يكون عضوا فعالا، وينظر إلى التربية على أنها العملية التي يتحول من خلالها الفرد من طفل عاجز معتمد على غيره اعتمادا كليا إلى فرد راشد وناضج مسؤول عن نفسه مسؤولية تامة، وهي عمل إنساني تعني بتعليم أفراد الجيل الجديد كيف يسلكون في مختلف المواقف على أساس توقعات المجتمع حيث تتعامل مع الإنسان من كافة جوانبه الجسمية والعقلية والوجدانية والاجتماعية وكذا قيمه واتجاهاته وأفكاره.

تعتبر التنشئة عملية تربوية كونها تتضمن تشكيل الفرد وبناء شخصيته فالتربية هي العملية التي تشكل الفرد وتكيفه مع الواقع من خلال بناء شخصيته بما يتفق ومتطلبات ثقافته وتحديد دوره الاجتماعي، وبهذا المعنى فالتربية ما هي إلا عملية التنشئة الاجتماعية وتشتمل على مجموعة فعاليات وعمليات ذات هدف تربوي تختلف في طبيعتها وبساطتها من حيث تعقيد المجتمع وبساطته.(3)

وقد استخدمت كلمة تربية في العديد من المعاني فهي تدل على التدريب والإرشاد والتعليم والتوجيه والتنشئة والتنمية، ونجد البعض يعتقد أن موضوع التربية مقصور على الدروس التربوية التي تدرس في المعاهد ويستعملها آخرون لتدل على التعليم المدرسي بجميع مراحلها (ابتدائي، متوسط، ثانوي وجامعي) ورأي ثالث يعتقد أن التربية تشمل جميع الآثار التي يتركها المجتمع بما في ذلك من تعليم مدرسي وأسرّة ووسائل إعلام ومنظمات وغيرها من المؤسسات التي تتكفل بالفرد من الميلاد، ويؤكد أصحاب هذا الرأي أن الأسرة في السنوات الخمس الأولى من حياة الفرد هي الأقوى والأعمق تأثيرا في سلوك الفرد ومستقبله.(4)

فالتربية في ضوء العديد من التعاريف تعتبر العملية التي يتحول من خلالها الفرد من طفل عاجز معتمد على غيره اعتمادا كليا إلى فرد راشد وناضج مسؤول عن نفسه مسؤولية تامة، وهي عمل إنساني تعني بتعليم أفراد الجيل الجديد كيف يسلكون في مختلف المواقف على أساس توقعات المجتمع حيث تتعامل مع الإنسان من كافة جوانبه الجسمية والعقلية والوجدانية والاجتماعية وكذا قيمه واتجاهاته وأفكاره.

ونجد أن تربية الأسرة تتجلى من خلال الأساليب التربوية التي تتبعها مع الأبناء والمقصود بالأسلوب التربوي هو مجموع الإجراءات والطرق والوسائل المتبعة من طرف الوالدين والمؤسسات الاجتماعية الأخرى في تنشئة الفرد وتعليمه القيم والمعايير الاجتماعية وهذا من

خلال عمليات التفاعل المستمر ، يمكن أن تكون هذه الأساليب إيجابية تخدم الطفل ومن ثم الأسرة كما يمكن أن تكون سلبية تهدم حياة الطفل ولا تحقق أهداف الأسرة.

وهناك عدد من النماذج النظرية التي تصنف الأساليب التربوية التي يتبناها الآباء في معاملتهم لأبنائهم ومن أول ما ظهر في التراث النظري نجد نموذج سيموندس (Symonds) الذي قدمه عام 1939 وهو يتكون من بعدين هما التقبل مقابل الرفض/ السيطرة مقابل الخضوع، فأحدهما يعتبر أن تقبل الابن من جانب الوالد أو الوالدة يقابله أو ضده رفض الابن من جانب الوالد أو الوالدة يكون ضد الخضوع لطلبات الابن وأوامره، وهناك أيضا نموذج شيفر (Scheafer) على النحو التالي: الاستقلال- الضبط/ الحب- العداء، وفي هذا النموذج أيضا بعض من مسميات الأساليب التربوية مثل العزل والإهمال والدكتاتورية والحماية والتدليل والحرية.

(5)

كما جاء نموذج روي (Roy) الذي يقوم على بعدين هما التقبل والحب في مقابل التجنب والرفض/ الاستقلال والحرية مقابل الضبط والقهر، وقدمت ديانا بومرند (Diana Baumrind) في الستينات نموذج لأساليب المعاملة الوالدية يتكون من: أسلوب التسلط، أسلوب التسامح وأسلوب الحزم وأضافت سنة 1971 أسلوبا رابعا هو الانسجام، كما ورد نموذج كل من محمد عماد الدين اسماعيل ونجيب اسكندر ورشدي فام وتلخصه في الأساليب التالية: التسلط - الحماية الزائدة- الإهمال- القسوة- إثارة الألم النفسي- التذبذب في المعاملة- التفرقة- السواء.

(6)

وقد اختلفت تقسيمات الأساليب وتصنيفها فالبعض قسمها إلى سبعة أساليب وهي: أسلوب الحماية الزائدة، أسلوب التفرقة، أسلوب اللين، أسلوب القسوة، أسلوب التسلط، أسلوب الإهمال وأسلوب التذبذب. وهناك من قسمها إلى عشرة أساليب: المساندة الانفعالية- الضبط الوالدي- السواء- عداة الوالدين- تذبذب الوالدين- الحماية الزائدة- تسلط الوالدين- تسامح الوالدين- الإهمال- إثارة الألم النفسي- التفرقة.

وما يمكن قوله أن في كل أسرة نجد عددا من الأساليب التي يتبعها الوالدان في تربيتهن لأبنائهم ولو اختلفت تصنيفاتها من ثلاثة إلى أكثر من عشرة فهي تصنيفات للدراسة والبحث، ولا يمكن القول أن أسرة معينة تتبع أسلوبا معيناً بصورة مطلقة لكن نقول أنها تتميز بأسلوب

معين وتميل إليه أكثر من الأساليب الأخرى، ولا يمكن الفصل بين الأساليب فصلا قاطعا حيث تتناوب الأساليب في الأسرة الواحدة ولكنها تختلف وتتفاوت من موقف لآخر، فنجد من الآباء المتشدد الحازم ونجد المتقبل ونجد الراض ونجد المتسامح ونجد من يعتمد على الأساليب التي تسمح بالاستقلالية ومنهم من يعتمد الأساليب المبنية على التبعية وغيرها، ونجد أن الأساليب قد تتداخل فيما بينها كأسلوب التسامح والمبالغة في الرعاية والأسلوب الغالب هو الأسلوب الأكثر استخداما.

وهناك العديد من العوامل التي تتدخل لتحديد الأساليب التربوية الأسرية فمنها العوامل المتعلقة بالوالدين والأبناء والأسرة كما قد نجد تأثير مختلف الظروف الثقافية والسياسية في المجتمع والتي لا يمكن فصل تأثيرها على الأسرة عموما وعلى الوالدين وأساليب تربيتهم للأبناء بصفة خاصة، كما أن التغير في المجتمع بدوره قد يتضمن متغيرات جديدة تؤثر في الأساليب التربوية وقد نجد الكثير من الآباء ممن يعتمدون على الكتب والمجلات والملصقات ووسائل الإعلام ويستقون منها المعلومات التي يعتبرونها أساسية وتساعدهم في تحديد أساليبهم التربوية المتبعة مع الأبناء، وقد تتغير الأساليب بدرجات متفاوتة من التغير الطفيف إلى التغير الجذري كما قد تنشأ أساليب تربوية معاكسة تماما لأخرى كانت سائدة في سنوات مضت.

كما وأن الأسرة تعتبر مرآة عاكسة للثقافة التي توجد فيها بما فيها من عادات وقيم واتجاهات ومختلف الأنماط السلوكية السائدة في المجتمع والواجبات والحقوق، كل هذا تنقله الأسرة من خلال أساليبها التربوية وبالتالي فإن أي تغيير في المجتمع بما يحتويه من عناصر يفرض على الأبوين التفكير في أساليب وطرق وإجراءات تناسب هذا التغيير.

يعرف التغير الاجتماعي على أنه حركة اطرادية مستمرة متتابعة، فهو الاختلافات التي تطرأ على البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية أو على أي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن والتي يمكن ملاحظتها وتقديرها، أو بمعنى آخر هو الاختلافات والتعديلات التي تحدث في نمط الحياة الاجتماعية في مجتمع معين وسرعة التغير الاجتماعي تختلف من مجتمع لآخر وقد يكون التغير ارتقائيا مقصودا بهدف تحقيق أغراض قائمة على البحث والدراسة وقد يكون عملية تراجعية أو نكوصا، ينحصر التغير الاجتماعي في أبسط صورة أن عددا كبيرا من الأشخاص يسلكون بشكل مختلف عن سلوكيات آبائهم في وقت معين مما يعني أن التغير الاجتماعي يطرأ على الأدوار الاجتماعية التي يمارسها الأفراد كما يطرأ على النظم

والضوابط الاجتماعية التي يتضمنها بناء اجتماعي معين فهو يعني التغير في طريقة عمل الأفراد وفي طريقة تربية الأسرة لأفرادها وفي ضبط الفرد لذاته.(7)

كما أن ظاهرة التغير شرط من شروط قيام المجتمعات وبقائها حيث لا يوجد مجتمع إنساني لم يخضع للتغيير، وقد يحدث ببطء فلا يتم اكتشافه بسهولة كما قد يحدث بسرعة كبيرة فنقول أنه مجتمع متغير، وإذا كان المجتمع يتخذ طابع التدرج يزيد تطورا أما إذا حدث من خلال قفزات كبيرة يكون بمثابة ثورة أو طفرة ويحدث التغير بسهولة في الظواهر التي تعتمد على المستحدثات المادية والصناعية والتكنولوجية ويكون بطيئا وصعبا في الظواهر الاجتماعية المعتمدة على إدخال عادات وتقاليد جديدة واتخاذ أساليب فكرية وقيم حديثة، وكما نقول أن التغير شرط للتقدم فهو أيضا سبب بعض المشكلات الاجتماعية التي تحدث نتيجة التعارض بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الجديدة والمجتمع العربي اجتاز مرحلة في التغير شأنه في ذلك شأن المجتمعات الأخرى وشمل تغيرات متعلقة بالأسرة وتنظيمها وتوزيع الأدوار بين أفرادها وعلاقاتهم ببعضهم وبباقي أفراد المجتمع، واتسعت دائرة الاتصال ليس في المجتمع الواحد فحسب بل حتى بين المجتمعات مما أثر على عادات وتقاليد وقيم الأفراد والأسر.(8)

وباعتبار الأسرة نسقا فرعيا من المجتمع العام فهي تتأثر بالتغيرات التي تحدث في المجتمع خاصة في هذا العصر الذي يتميز بالانفتاح على العالم والثورة التكنولوجية والمعرفية وما جاءت به من معارف جديدة في مجال التنشئة الاجتماعية والمعرفة المتنوعة في مجال العلاقات الأسرية ومختلف الأدوار ومتطلباتها الجديدة، مما أدى إلى تغيير جذري في دور الأسرة التربوي وقد شمل هذا التغير بناء الأسرة ووظائفها وفلسفتها الاجتماعية وتطلعاتها ونظرتها للحياة وأساليبها الأسرية في اتخاذ القرارات ومواجهة تحديات العصر وانعكس ذلك على دورها التربوي.(9)

وبهذا تعمل كل أسرة أن كل أسرة على نقل أفكار المجتمع إلى أفرادها وهي بذلك تساهم في تكوين أحكام الطفل وفقا لمعايير الأسرة وهو ما يسمى «الاشتراط الأسري»، وبالمقابل تقوم بتهيئة الطفل للاندماج في المجتمع باعتبار ما يحصل من تغييرات مختلفة في الأفكار العامة وبذلك يتم إعداد التغير الاجتماعي وكذا لتوقع التغير وهذا ما يجب أن تقوم به الأسرة حيث تربي أطفالها على التحليل والنقد والاستقلال حتى يتمكن من التعامل مع التيارات الثقافية، أي يجب بناء هويته الذاتية حتى يستوعب الثقافات ويتفاعل معها لا أن يذوب ويضمحل وتكون له الإرادة على الفحص والتمحيص وكذا الاختيار والانتقاء وتقويم ونقد كل جديد ومتغير.(10)

أما فيما يخص علاقة التربية بالتغير الاجتماعي يرى عبد الله الرشدان (1999) أنها علاقة متبادلة باعتبار التربية أداة رئيسية لإضافة العناصر الثقافية الجديدة من جهة وكونها وسيلة المجتمع حتى يقضي على المشكلات الاجتماعية الناتجة عن هذه العناصر الجديدة وصراعا مع العناصر الموجودة من ناحية أخرى، وهنا يبرز دور التربية الإيجابي لمواجهة هذه التغيرات بمساعدة الأفراد على حسن التكيف وعلى بناء شخصياتهم فيما يختص آمالها ووجهات النظر التي تتبناها والقيم التي يتمسك بها الأفراد، بمعنى إعادة بناء الشخصية بنمط جديد مناسب للسيطرة على التغير وما تخلقه الظروف الناشئة عن العلم والتكنولوجيا.(11)

فالتغير الاجتماعي يتطلب من التربية إعداد وتدريب الأفراد على التكيف مع التغيرات وإكسابهم المرونة في تقييم التغيرات والاستفادة منها والقدرة على مسايرة العصر، لذلك يجب أن تسعى التربية لتكسب الفرد مجموعة من القيم والاتجاهات التي يتطلبها التغير مثل التركيز على التحصيل والسعي من أجل النجاح والاعتماد على النفس والإقدام على البحث والمعرفة والقيم الإيجابية المرتبطة بالعمل والإنتاج والاستفادة من التقدم العلمي والتكنولوجي، وفي هذا الشكل من إعداد الأفراد قد تصطدم الاتجاهات والقيم والمفاهيم الجديدة مع العناصر الموجودة أصلا في المجتمع وفي هذه الحالة تسعى التربية لتوضيح هذه القيم والمفاهيم وإبراز أهميتها للفرد والمجتمع ومواجهة الاتجاهات القديمة التي لا تخدم المجتمع والتخلي عنها.

وقد جاء عن عبد العزيز بن علي الغريب (2009) بحث للغربية سنة 2003 حاول من خلاله دراسة تغير الأساليب التربوية في المجتمعات العربية للتكيف مع العولمة على اعتبار أن الأسرة هي المؤسسة الرئيسية في تربية الطفل وقد خلص إلى ضرورة تماشيها مع متطلبات العصر وذلك بتوفير أجواء ديمقراطية وإتاحة فرصة المشاركة في القرارات لأعضاء الأسرة والسماح لهم بالتعبير عن آرائهم ومشاعرهم وذلك لتنمية طاقة التفكير والإبداع لديهم للتلاؤم مع عصر العولمة الذي امتاز بنقلة معتبرة وثورة اتصالية هائلة جدا تستدعي مواكبتها بأساليب تربية أسرية سليمة.(12)

ومن الأمور المهمة والحساسة التي تتبع التغير الاجتماعي هو التغير الحاصل في الأفكار المتعلقة بالطفولة وبالأبناء ومعاملتهم، فأساليب الآباء تتأثر بما هو سائد في المجتمع من أفكار وطريقة النظر إلى الأطفال، ومن الأفكار الحديثة ما لا تتلاءم مع طبيعة الطفل ولا طبيعة المجتمع الذي يوجد فيه فنرى أطفالا غير مجتمعنا خاصة مع التغير الكبير في المفاهيم وطغيان

القيم النفعية والمادية والتنافسية، لذلك يجب أن تتصف الأساليب التربوية بالمرونة التي تسمح لها بمواكبة التطور والتغير، ولا يعني هذا ترك كل ما هو قديم وتشرب كل ما هو جديد بل النظر إلى المبادئ والأفكار الأساسية الأولى ودراستها وتقييمها لكل زمن معطياته التي تؤخذ بعين الاعتبار فلا نستبعد ما هو إيجابي وسليم بل ندعمه ونعززه مع عدم إهمال المعطيات الجديدة.

وبهذا يمكن القول أن الأساليب التربوية التي يعتمدونها الآباء مع أبنائهم ما هي إلا نتاج تفاعلهم كأفراد مع ما يحيط بهم وكل العوامل أو بعضها يمكن أن تتداخل وتتفاعل فيما أن تؤثر هذه العوامل بالإيجاب فتكون مهمة تربية الأبناء سهلة وناجحة، وإما أن تؤدي إلى نقص في أداء الوالدين التربوي ويصبح التعامل مع الطفل مهمة صعبة أو غير مريحة أحيانا.

وبالحديث عن وظيفة التربية في الأسرة الجزائرية على وجه الخصوص يلاحظ أن وظيفتي الأب والأم مرتبطتين بنوع الأسرة فنجد أن الأدوار الأبوية والأمومية يمكن أن يقوم بها عدة أشخاص داخل المجتمع، ففي الأسر التي يعيش فيها الزوجين مع عائلة الزوج يمكن أن تتكفل الجدة برعاية الطفل الأول وتربيته مع باقي أفراد الأسرة فتجد الأم الفرصة لتربية الطفل الأوسط وتنشغل به، أما الطفل الأخير فيكون من نصيب الأخت التي تتحمل جزءا كبيرا من العناية به ورعايته.

وعن الأسرة الجزائرية والتغير فقد تركت التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاشها ويعيشها المجتمع الجزائري آثارا واضحة على الأسرة من حيث بنائها وسياستها وأدوارها وعلاقاتها ونظامها عموما، وأن هذه التغيرات قد جاءت نتيجة التزاوج الثقافي بين عادات وتقاليد وقيم المجتمع من جهة ومختلف الظروف التي مرت بها الجزائر من جهة أخرى، وأن التغير السائد في المجتمع قد أثر على الجو التربوي الأسري حيث أصبح يسود الجو الديمقراطي في الأسرة مقارنة بالتربية التي كانت تتسم بالجو الديكتاتوري وكان المسؤول عن الأسرة هو الذي ينفرد باتخاذ القرارات. (13)

وما يمكن قوله أن الأسرة الجزائرية هي مثل باقي الأسر في العالم حيث عرفت الكثير من التغيرات والتحولات فهي لم تسلم من العولمة والغزو الفكري الذي يتجلى في أساليبها التربوية ومط عيشها وتفكيرها والقرارات التي تتخذها في ضوء تلاشي هويتها ومعالمها وتماسكها

وأصبحت تتميز بالتذبذب بين ما هو أصيل وكل ما هو مستحدث.

وبهذا يمكن القول أن التغيرات الحاصلة للأسرة الجزائرية قد تسببت لها بصراعات نفسية وثقافية عنيفة كادت أن تدمرها، حيث مرت الأسرة بمرحلة انتقالية من النمط التقليدي الخاضع لقواعد وعلاقات ثقافية واجتماعية إلى نمط أسري جديد يريد الحداثة والعصرنة فكرا وسلوكا، هذه النقلة الأسرية لم تمر بسلام فقد أصابت الأسرة في كيانها الاجتماعي والثقافي وزلزلت بنيتها الداخلية مخلقة بذلك صراعات بين أفراد الأسرة الواحدة فهناك من يريد التمسك بالأصالة وهناك من يريد التجديد معتقدا أن النمط السابق قديم وغير نافع ولا يلبي متطلبات العصر الحالي. (14)

وفي عمل ميداني للباحثة شمل 206 أسرة في المجتمع الجزائري ورد جزء حول علاقة الأساليب التربوية الأسري وعنصر التغير الاجتماعي وجد أن إجابات كل من الأب والأم كانت تدل على اتفاق كل منها على عامل التغير في المجتمع كمحدد لأساليبيهما التربوية، وهذا على اعتبار أن الأسرة شأنها شأن باقي المؤسسات الاجتماعية تتأثر بالمحيط الاجتماعي السائد كما أن بعض الأساليب التربوية تحتاج لملاءمتها مع مستجدات المجتمع حتى لا تصبح غير مجدية أو ضارة في بعض الأحيان، وفي الأسرة الجزائرية ينشغل الوالدين بهذه المشكلة فهل يبقيان على الأساليب القديمة أم يستحدثان أساليب تتلاءم مع التغيرات الجديدة في مجال الطفولة والأبناء وكيفية رعايتهم وتربيتهم.

غير أن إجابات الآباء توضح أن رأيهم في تدخل عامل التغير الاجتماعي لم يحقق نسبا مرتفعة مثل العوامل الأخرى المتعلقة بالطفل أو الظروف الأسرية العامة وهذا ما يجعل الأسرة الجزائرية تقع في نوع من التناقض فلا هي تقليدية من حيث أساليبها ولا هي حديثة ويبقى السؤال عن الأساليب التربوية الملائمة لطبيعة مجتمعنا يطرح نفسه في كل مناسبة، والنتائج المتحصل عليها تدعونا إلى ملاحظة وجود نوع من المقاومة للتغيير عند الآباء وهذه المقاومة ترجع إلى الأصالة الباقية في الأسرة الجزائرية والمستنبطة من ديننا الحنيف وعاداتنا وتقاليدينا. (15)

هذا لأن الآباء في مجتمعنا يحسون بالتناقض بين ما جاء به التغيير من موجة هائلة للأفكار والقيم الجديدة المصبوغة في مجملها بالتححر والديموقراطية وحقوق الأبناء التي هي في زيادة مستمرة على حساب حقوق الوالدين والتي قد تخالف في بعض الأحيان موروثنا الإسلامي

الذي يسعى كل فرد للحفاظ عليه حتى يحقق الراحة النفسية وينام مطمئن البال راضي النفس، ذلك أن ما هو جديد حول تنمية الديمقراطية في الأسرة وتشجيع حرية التعبير قد نلاحظ أنه أصبح سلوكات عدوانية ضد الآباء وصوت مرتفع في البيت يحطم قدسية الأب والأم ويكسر الصورة الجميلة للوالدين ويحط من مكانتهما، وهذا ما قد يبرر مقاومة الآباء لهذه الموجة الجديدة وحتى بعض الآباء الذين يقبلونها تحت راية التقدم والتحرر هم يرفضونها ويقاومونها لاشعوريا.

الهوامش:

- (1) R.Boudon, F.Bouricaud)19(94, dictionnaire critique de la sociologie, édition PUF, quatrième édition.
- (2) حسن شحاتة وزينب النجار(2003)، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، الدار المصرية اللبنانية(القاهرة)، الطبعة الأولى.
- (3) شبل بدران وفاروق محفوظ(1998)، أسس التربية، دار المعرفة الجامعية(الإسكندرية).
- (4) فوزية الحاج علي البدري(2009)، التربية بين الأصالة والمعاصرة، مفاهيمها - أهدافها-فلسفتها، دار الثقافة للنشر والتوزيع(عمان)، الطبعة الأولى.
- (5) زكريا الشربيني ويسرية صادق(2003)، تنشئة الطفل وسبل الوالدين في معاملة ومواجهة مشكلاته، دار الفكر العربي(القاهرة).
- (6) مريم صالح حسن (2003)، التنشئة الاجتماعية والقيم السائدة لدى النوبيين، رسالة دكتوراه في علم النفس غير منشورة، جامعة عين شمس(القاهرة).
- (7) حسين عبد الحميد احمد رشوان (2006)، الشخصية، دراسة في علم الاجتماع النفسي، مركز الإسكندرية للكتاب(الإسكندرية).
- (8) كوثر حسين كوجك ولولو جيد داود (1995)، المرجع في التربية الأسرية، عالم الكتب(القاهرة)، الطبعة الثانية.
- (9) سميرة احمد السيد (2004)، الأسس الاجتماعية للتربية، دار الفكر العربي(القاهرة).
- (10) كافية رمضان (1994)، الأسرة والطفل-مجموعة أبحاث-، دار الثقافة والإعلام (الإمارات)، الطبعة الأولى.
- (11) عبد الله الرشدان (1999)، علم اجتماع التربية، دار الشروق للنشر والتوزيع(عمان)، الطبعة الأولى.
- (12) عبد العزيز بن علي الغريب (2009)، أثر الخادما على التنشئة الاجتماعية للطفل، مجلة التعاون (مجلس التعاون لدول الخليج العربي)، العدد 67، ص ص71-17.
- (13) محسن عفون (2002)، تغيير بناء العائلة الجزائرية، مجلة العلوم الإنسانية(جامعة منتوري- قسنطينة)، العدد17، ص ص 127-131.
- (14) محمد سعيدي(1998)، العائلة عاداتها وتقاليدها بين الماضي والحاضر، إنسانيات المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجية والعلوم الاجتماعية(وهران)، العدد 41.
- (15) عبد الرحيم ليندة(2012)، أساليب التربية والعوامل المحددة لها في الأسرة الجزائرية، أطروحة دكتوراه في علم النفس الأسري غير منشورة، جامعة وهران).

الكتابة الجنائزية بأضرحة ومقابر سيدي بلعباس

- مقارنة سوسيو تاريخية -

د. بووشمة الهادي - جامعة سيدي بلعباس

تقديم:

هذه الدراسة في حقيقتها ميدانية ولكن تحليل المعطيات المتضمنة فيها سيتم وفقا للمقاربة السوسيو تاريخية، فالكتابة الجنائزية على الأضرحة وشواهد القبور تبدو موضوعا أركيولوجي وتاريخي بامتياز، باعتبار أن الشاهد هو وثيقة أثرية وتاريخية مهمة للإنسانية، ولكن هذا الموضوع يمكن أن يكون حقلا من حقول السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا باعتباره ظاهرة انسانية وموضوع ثقافي أيضا، يتضمن فعله وممارساته العديد من الرهانات والأسباب الدافعة إليه.

فالكتابة الشاهدية هي أهم الممارسات، التي تعكس جزءا مهما من تاريخ وتراث الانسانية وتصوراتها حول الموت والحياة الأخرى، وهي تتموضع على مساحة الشاهد، الذي يشكل ركنا أساسيا ضمن المنظومة البنائية في القبر، فلا يمكن أن نتصور قبرا بدون شاهد، فهو معلم دال على حدود ومعالم القبر، وضمنه تُدَوَّنُ هوية وتواريخ ميلاد ووفاة صاحبه (بطاقة تعريفية)، إضافة إلى الدعاء (طلب الرحمة) أو آية قرآنية أو حديث يتضمن في العادة لمعنى الموعظة للأحياء، ما يحيل في مضمونه إلى نوع من الخطاب بين الانسان الميت كمحدث صوري والحي الزائر، الذي يُجيب عن أجوبة المتوفي بطلب الرحمة له.

إذن، الكتابة الشاهدية كانت ولا تزال ظاهرة ملازمة لفعل البناء الخاص بالقبر أو الضريح، وإن مرَّ الانسان قبل اكتشافه لها بالإشارة والعلامات والرموز الحسية، التي كان يُستدل بها في تعيين قبور أمواته والتدليل عليها، ولكن إكتشاف الكتابة كان عنصر مهم في انتقال هذه التقاليد من الحسي الملموس إلى الفعل التجريدي المرتبط بالكتابة، هذه الأخيرة رغم أنها مُحَيِّدة من ضمن الطقوس الجنائزية، إلا أنها تبقى اليوم المظهر الأكثر بروزا وتميزا في فضاء القبر وشواهد.

إذا كان هذا يخص القبر، فإن المتضمن في شواهد الضريح يختلف في العادة في مضمونه ومحتوياته وفي خطابه، فالضريح في العادة يضم جسد الولي الصالح المتوضع وسطيا في فضاء المقبرة، كما أنه يحمل في المخيال الشعبي المؤمن به قيمة ورمزية، تستمد جزءا من معناها من شكل وهندسة الضريح المختلف عن القبور العادية، يضيف عليه ذلك نوعا من القداسة المؤثرة

والرامة لعظمة وأهمية وقيمة صاحبه عن بقية ساكني القبور الأخرى المجاورة، التي تحتوي عادة لرفاة أناس من العامة.

فالأولياء رغم موتهم البيولوجي، فهم يمثلون في المخيال الشعبي فضاء للعتاء وملهمين للآتباع والزوار، ومقصدا في جني رأسمال رمزي- بركاتي، مثلما أصبحوا مع الزمن فضاء للاستقرار والمجاورة في السكن والدفن، فهم رمزا من رموز المكان، ودالا عليه، ولذلك كان ولا يزال الضريح عنصرا من عناصر الذاكرة الجماعية للمريدين والآتباع والزوار.

بالنسبة لميدان الدراسة، سيخص بعض مقابر وأضرحة مدينة سيدي بلعباس، التي تعرف حضورا لعدد أضرحة الأولياء والمرابطين والملحقة في العادة بمقابر عمومية تسمى نسبة لها، من أهمها مقبرتين تقعان بالنسيج الحضري لهذه المدينة، وهما ملحقتين بضريح سيدي بلعباس البوزيدي، ومقام مولاي عبد القادر، تقع الأولى غرب المدينة، بينما تقع المقبرة الثانية بشرقها.

بداية، المميز لفضاءات الأضرحة والمقابر بهذين المقبرتين، هو الحضور الكثيف للكتابة الشاهدية من على شواهد القبور، بينما تغيب بشكل تام بالمقابل من على الأضرحة، هذه الملاحظة الأولية دفعتنا إلى تساؤل إشكالي في هذا البحث لأجل محاولة فهم وتفسير هذه المفارقة بين الحضور والغياب، فمع استثناء لحضور بعض الرموز (علام- غطاء الضريح وهو عباره عن قطعة قماش خضراء مزخرفة بخطوط حريرية وعليها آيات قرآنية)، فإننا لا نجد أثرا لكتابة شاهدية تقدم بطاقة تعريفية بصاحب الضريح وهويته وتواريخ ميلاده ووفاته، في المقابل يحضر ذلك بشكل من الكثافة من على قبور العامة.

إذن، ذلك دفعنا إلى التساؤل إشكاليا حول هذا الغياب أو التغيب لعنصر الكتابة من على مقامات وأضرحة ذات قيمة رمزية وقدسية وإنسانية، وفي المقابل يحضر هذا العنصر بكثافة على شواهد قبور العامة؟، إذن، كيف يمكننا التفسير سوسيولوجيا لهذا الغياب في مقابل هذا الحضور وما هي رهانات ودوافع المجتمع المحلي إلى الكتابة الشاهدية من على قبور أمواته؟.

I- حيز الدراسة الميدانية بسيدي بلعباس:

قبل تحديد المجال الفيزيقي لهذه الدراسة، وجب الإشارة أولا وبعجالة لمورفولوجيا توزيع المقابر والمجموعات السكانية بسيدي بلعباس، حيث الملاحظ في مجال هذه المدينة أن توزيعا لعدد المقابر تبعا لتوزيع سكاني يتخذ البعد والتركيب القبلي «اتحاد قبلي لمجموعة من

القبائل أطلق عليها اسم قبائل بني عامر وتنحدر من قبيلة زغبة الهلالية العربية»⁽¹⁾ تتوزع على مساحة هذه المدينة وفضاءها الحضري، ففي شمالها نجد مقبرة وضريح سيدي محمد بن علي ومقام ومقبرة سيدي معمر، بينما المجموعات السكانية التي تقطن هذا المجال من المدينة فمعظمها ينتمي إلى قبائل عين تريد وتسالة، بالمقابل نجد في جنوبها الغربي مقبرة بني عامر أو العمارة أو «سيدي المختار»⁽²⁾ وهو جد آخر للعمارنة، يستقر في مجالها بنوا عامر وأولاد إبراهيم، أما من ناحية الشرق فإننا نجد مقبرة ومقام مولاي عبد القادر، بينما التركيبة السكانية الغالبة بهذا المجال فإنها تضم كلا من قبيلتي الحساسنة وأولاد سليمان، بالنسبة لغرب المدينة فإننا نجد مقبرة وضريح سيدي بلعباس البوزيدي ومعه قبائل أولاد سيدي خالد المرابضة بالمكان، يمكن أن نضيف إلى ذلك مقبرة المسحيين الكائنة بالقرب من وسط المدينة.

بالنسبة للدراسة الأمبريقية هذه فإنها ستخصّ مقبرتين ملحقتين بكل من ضريح سيدي بلعباس ومقام مولاي عبد القادر، وهما عينة لبقية المقابر والأضرحة الأخرى، والبداية مع مقبرة مولاي عبد القادر، التي تنسب لمقام القطب الصالح (استحضر رمزي لمولاي عبد القادر الجيلاني)، تضم فضائين متجاورين للدفن الأول قديم تم استيفاء مجاله من الدفن، وآخر جديد لا زال قابلا لمزيد من الإقبار. ومن خلال زيارتنا لها وقفنا على بعض معالمها ومميزاتها، نذكر من ذلك بعدها النسبي من وسط مدينة سيدي بلعباس، وبصورها المحيط بها، توجد في مكان مرتفع يطل على مدينة سيدي بلعباس من الناحية الشرقية، مساحتها تقديرا تفوق الخمسة هكتارات، تسير إداريا وتشرف عليها بلدية سيدي بلعباس، تاريخ إنشاء جزئها القديم كان في الفترة الاستعمارية، أما الجديد فكان مع بداية الثمانينات من القرن الماضي.

أما بالنسبة لمقبرة سيدي بلعباس البوزيدي، فهي تنسب لضريح هذا الولي الصالح (سيدي بلعباس البوزيدي السبتي)، من معالمها ومميزاتها أنها قريبة من النسيج الحضري للمدينة، وصورها المحيط بها، توجد في مكان مرتفع يطل على المدينة سيدي بلعباس من الناحية الغربية، مساحتها تقديريا تساوي مساحة مقبرة مولاي عبد القادر أو تفوق قليلا، مسيرة من طرف بلدية سيدي بلعباس، تاريخ إنشاءها التقريبي يعود إلى الأربعينات من القرن الماضي، ولكن هذا لا يلغي فرضية أن بداية الدفن بقرب هذا الضريح كان خلال نهاية القرن 18م، خصوصا أن تاريخ وفاة هذا الولي كانت مع سنة 1780م، وكان مدفنه بالمكان نفسه، إضافة إلى مجاورة بعض القبائل له.



صورة (4،3): مقبرة وضريح سيدي بلعباس البوزيدي

صورة (2،1): مقبرة ومقام مولاي عبد القادر

II- تأصيل لغوي واصطلاحي للمفاهيم الإجرائية:

بداية الشاهد كلمة مشتقة من المشاهدة والمعانية، والشواهد تختلف بين الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة والمنقوشة على الرخام أو الخشب أو الجص، لكنها كلها كلمة أو كلمات جسدت فعلا متوخى أو أثرا ما في حياة الناس، أي ما تتركه تلك الكلمة بغض النظر عن الشكل الذي دونت به⁽³⁾، ومن ثمة كان الاشتقاق اللغوي لكلمة شاهد متعدد تبعا لتعدد التفسيرات اللغوية المتعلقة بالكلمة، ومنها الشاهدة: خبر قاطع، وقد شَهِدَ كَعَلِمَ وَكَرَّمْ، وشهده كسمعه شهودا حضره، فهو شاهد والجمع شهود وغيره، وبالعموم تبقى أقرب المعاني والتفسيرات المقصودة من الشاهد هي: «ما يحمله من كتابات متنوعة، والتي تعتبر بمثابة الخبر والدليل،

الذي يشير إلى المدفون في القبر، الذي يعلوه هذا الشاهد، بمعنى أنه دليل على صاحب القبر»⁽⁴⁾.

بالنسبة للاصطلاحات التي أطلقت على شواهد القبور الاسلامية فهي تختلف من قطر إلى آخر تبعا لاختلاف اللهجات خصوصا، ففي بلاد المغرب مثلا يطلق على الشاهد مصطلح الروسية، الجنازية، المقبرية، التأريخ، كما يعرف شاهد القبر المستطيل الشكل في الجزائر بالشاهد أو الروسية وذلك لأنه يوضع عند رأس القبر⁽⁵⁾.

بالنسبة للكتابة الشاهدية (Inscriptions funéraires) فهي تعني الكتابات المنقوشة على شواهد القبور لتخليد ذكرى وفاة أحد الأشخاص، ويطلق عليها أيضا اسم الكتابات المقبرية، نسبة إلى القبر الذي يضم عادة رفاة المتوفي⁽⁶⁾، عادة ما يكون شاهد القبر من لوح من الحجر أو الخزف أو أي مادة، يستعمل على القبور من أجل التعريف بصاحب القبر وحفظ اسمه ومنع اختلاطه بغيره من القبور⁽⁷⁾.

في مقابل ذلك يتداخل من الناحية اللغوية المعنى بين القبر والضريح، فالقبر « هو مدفن الإنسان والجمع قبور، يقبره يدفنه، وأقبره وجعله قبرا» بمعنى دفن ووارى، وأحيانا يستعمل اللحد بمعنى القبر رغم أن هناك اختلافا بينهما، فاللحد هو الشق الذي يحدث في جانب القبر قصد الزيادة في حماية الميت داخل قبره، فهو ليس إلا جزءا من القبر⁽⁸⁾، أما الضريح، فقد وردت مادة «ضرح» في لسان العرب المحيط لابن منظور كما يلي: « الضريح: الشق في وسط القبر، واللحد في الجانب [...] والضريح والضرحة ما كان وسطه يعني القبر، وقيل الضريح القبر كله، وقيل القبر بلا لحد، والضرح: حفرك الضريح للميت، وضرح الضريح للميت يضرحه ضرحا: حفر له ضريحا، قال الأزهري سمي الضريح ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا»⁽⁹⁾. نفس المعنى هذا قدمه لنا الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري في مؤلفه «صحيح البخاري»⁽¹⁰⁾.

لكن هذا المعنى اللغوي ما لبث أن بقي معبرا عن المعنى نفسه خصوصا مع تطورات الضريح خلال العهد الإسلامي، إذ أصبح له تعبيرات وتداولات اسمية أخرى ترتبط بهندسته البنائية وشكله أكثر من معناه اللغوي، فنجد مثلا أن الضريح أصبح مرادفا وينادي باصطلاح «القبة»، وهي من الظواهر الملفتة للنظر في العمارة الاسلامية، وهذا العنصر موروث عن الساسانيين والبيزنطيين، ثم ظهرت لتغطي الغرف المربعة والمستديرة للأضرحة، وأطلق على الجزء من الكل وأصبح يسمى بها الضريح كله»⁽¹¹⁾.

مصطلح يرادف الضريح أيضا في النسق الاستعمالي وهو «المقام» أو «المزار»، أو «تربة»، أو «مرقد»، أو «شاهدة»⁽¹²⁾ وكلها أشكال للبناء محيطة بقبر الصالح، الذي ينم بين جدرانها، ثم أصبح في زمن لاحق ملازم لاصطلاح «المرباط»، الذي أصبح أكثر انتشارا بين عامة الشعب، نفس هذا الاصطلاح أستعمله الباحثون الكولونياليون، ومرد هذا الخلط -إضافة إلى الظروف التاريخية السابقة- إلى غلبة تداول تسميته «المرباط» بدل الضريح في العرف الشعبي العام، لاعتبارات دينية (جهاد) أساسا.

III- تأصيل سوسيو أركيولوجي للدفن بسيدي بلعباس:

المعطيات التاريخية البسيطة التي حصلنا عليها ضمن بعض الكتابات، التي بحثت في تاريخ المنطقة أكدت على أن الإنسان الأول الذي عمر منطقة سيدي بلعباس منذ عصور ما قبل التاريخ هو الإنسان النيوليتي⁽¹³⁾، وأكدت أيضا أن البربر هم السكان الأوائل للمنطقة، إذ أول ما أسسوها قرية أسطيسيليس برأس جبال تسالة في حدود 132 ق.م، ثم بعدها مناطق تلاغ، تندامين، تيرة، تلوين، تنزرة، تغاليمات، تفاعسيت وغيرها⁽¹⁴⁾، وقد وصف ذلك ليون الإفريقي (حسن الوزان) في رحلته بالمنطقة بقوله: « تسالة مدينة عريقة في القدم، بناها الأفارقة في سهل كبير يمتد على مسافة عشرين ميلا»⁽¹⁵⁾، إلا أنه برغم هذه الآثار التي تؤكد تعمير هؤلاء للمنطقة، فإن معالم الإقبال خلال هذه الفترة غير واضحة المعالم، خصوصا أن الثقافة الأمازيغية كانت ثقافة شفوية أكثر منها مكتوبة، ولم تترك أثرا أو وصفا لعمليات الاقبار، التي كانت تتم في تلك الحقبة من الزمن.

الأمر لا يختلف مع الوجود الروماني بالمنطقة بعد غزوه لها وصراعه الدامي مع بربر تسالة⁽¹⁶⁾ وكذا بقية المناطق المجاورة لها، وكان الدليل في ذلك مَوْسَسٌ في طرحه على بعض المخلفات المادية والنقوش وكذا النقود البرونزية، التي عثر عليها بالمنطقة بين سنتي 69 و192م، إلا أن الباحثة الجزائرية خديجة منصوري ترجّح فرضية أن احتلال الرومان لمنطقة سيدي بلعباس كان في مطلع القرن الثالث الميلادي، وتسد في ذلك على وثائق أرشيفية كولونيلية تحت الترقيم التالي: (17) (C.I.L VIII 22602-22604, 22611)، رغم كل هذا إلا أن هذه الحقبة بدورها لم تُخلف آثارا للدفن أو طقوسا لتقاليد وعادات الإقبال.

تواصلت الهجرات السكانية للمنطقة في عصور ما بعد الميلاد حيث حل المسلمون والعرب بالمنطقة ومعها وصل الإسلام وبدأت عملية أسلمة المنطقة وتعريبها (تغيير الصبغة الاثنوفيلولوجية للمنطقة)، وأول القبائل العربية التي سكنت المنطقة هي قبائل بني عامر من

بني هلال، إذ وصلت في رحلتها من الشرق إلى هذه الجهة في حدود القرن 12م، وتواصلت هجراتها إلى حدود القرن 14م، لكن الملاحظ أيضا في ما يخص معالم الإقبار أنها غير واضحة في هذه الفترة، ولم تذكرها رحلات المؤرخين والرحالة، ولكن بالعموم فإن طقوس العرب ومعتقداتها سواء قبل الأسلمة أو بعدها كانت واضحة في عادات بنوا هلال، إذ عرفت أنواعا من القبور، خصوصا منها التي كانت تحفها الأحجار على جنبات القبر، ومحددة بشواهد حجرية، لكن الشواهد المكتوبة لم تثبتها الدراسات التاريخية أو الأركيولوجية، وبعض الدارسين أمثال ليفي بروقنصال أكد «انعدام الكتابات الشاهدية قبل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، غير أنه رأى أنه بالنسبة للدول الزيانية، المرينية والسعدية، رأياً مخالفاً تماماً لما سبق، حيث يشير إلى اهتمام سلاطينها باتخاذهم شواهد لقبورهم لتأثرهم بالمشرق والأندلس، ويعلل ظاهرة قلة الشواهد عند سكان بلدان المغرب الإسلامي إلى تواضعهم وتمسكهم بالشرع، لأنها بالنسبة إليهم خروج عن الدين، وهذا ما يفسر ندرة النقوش الكتابية عند الموحيدين فيما عدا الدينية منها والأدعية»⁽¹⁸⁾.

بعد هذه الفترة، عرفت المنطقة الوجود العثماني إلا أنه رغم ما خلفه بدوره من آثار مادية بدار الكمندار بجبال تسالة الشرقية ومربط الفرسان بتينة⁽¹⁹⁾، غير أنه بدوره لم يترك آثار جنائزية واضحة نستدل بها على نوع الكتابة والشواهد والقبور والدفن خلال هذه الفترة، خصوصا أن هذه الأخيرة (الفترة) أهملت من طرف الباحثين الأركيولوجيين سواء الفرنسيين خلال الحقبة الاستعمارية أو حتى الجزائريين في الفترة الحديثة.

إذن، الفسيفساء السكانية والتنوع القبلي، الذي عرفته المنطقة خصوصا مع استقرار بعض القبائل العربية الأخرى خلف الشقاق والحروب الدامية على مجالات الرعي والزراعة والماء، ولكن حنكة الصلحاء ومنهم سيدي بلعباس، الذي استقر بالمنطقة بعد بلوغه سن 25 سنة، في رحلة صوفية ربانية، لدعوة وتوحيد قبائل المكرة ونشر مبادئ الاسلام وأصوله بينها، وبفضل ذلك استطاع أن يحل نزاعاتها ويخلق التآلف بينها لزمّن امتد إلى حين وفاته وهذا حسب شهادة⁽²⁰⁾ Adoue Léon، وبعد توالي الهجرات للمنطقة خصوصا خلال سنة 1788م عندما أرسل باي وهران قبيلة الحساسنة إلى مناطق استقرار بني عامر⁽²¹⁾، دبّت بينهم الخصومات والحروب الدامية من جديد ولم تنتهي إلا مع مجيء الاستعمار واحتلاله المنطقة. أخذت المدينة اسمها من الولي الصالح سيدي بلعباس البوزيدي السبتي، الذي استقر وتوفي بها في حدود سنة 1780م، حيث حصل شبه إجماع بين القبائل (أولاد إبراهيم والعمارنة بالخصوص)

على نسبة المدينة للولي سيدي بلعباس بعد بروز كراماته⁽²²⁾، يوجد ضريحه بغربها وهو ملحق بمقبرة بدأ الدفن فيها على ما يبدو من آثار منذ وفاته.

كان الدفن يخصص ويقتصر على القبائل المرابضة بقرب الضريح، والتي تبنت خدمة سيدي بلعباس في حياته، ونقصد بهم بني عامر وأولاد إبراهيم وأولاد سيدي خالد، ثم أوجدت قبائل بني عامر لنفسها مقبرة بجنوب المدينة تختص بها وحدها. في المقابل كانت قبائل الحساسنة وأولاد سليمان تدفن موتاهما بمقبرة مولاي عبد القادر، أما قبائل الحجز، تسالة وعين تريد فكانوا يدفنون موتاهم بجوار ضريح سيدي محمد بن علي، لكن يبقى أن ما ميز هذه الطقوس الجنائزية هو غياب الكتابة من على القبور الملحقة بأضرحة هؤلاء الصلحاء، وما تبقى من الشواهد، فهو عبارة عن أحجار تلف حدود القبر وتبين اتجاهه، يمكن إرجاع هذا الغياب لعوامل عديدة منها المعرفية والعقائدية بالخصوص.

خلال الغزو الفرنسي أخذت المنطقة معالم المدينة الكولونيالية، إذ بادر الماريشال بيجو سنة 1842م لاختيار الجزء الجنوبي من وادي المكرة لإنشاء أول تجمع عسكري لمراقبة تحركات الأمير عبد القادر وجنوده، وفي سنة 1847م، صدر قرار ملكي لنابليون الثالث بتحويل المركز العسكري إلى مدينة ومقرا للناحية، كُلف لأجل ذلك النقيب برودون (PRUDHON) مسؤول الهندسة العسكرية سنة 1848 لأجل الشروع في رسم معالم المدينة الجديدة، على أنقاض منازل العمارنة، التي هدمها الاستعمار، ومنحها كتعويض عنها 40 هكتار جنوب المدينة على مسافة 3 كلم، حيث أقامت دوار العمارنة ومقبرتها المسماة بمقبرة سيدي عمران نسبة إلى جد القبيلة⁽²³⁾، وفي سنة 1873م أسس هؤلاء الأهالي حيا سكنيا خاصا بهم يجاور الحي الأوروبي بوسط المدينة، عرف بحي القرابة أو قرية الزوج بتعبير المعمرين، وارتبط مجال هذا الحي بالولي الصالح سيدي معمر، الذي بنى له الأهالي ضريحا وألحقوه بمقبرتهم الخاصة، إلا أن قبورها خلت من شواهد مكتوبة نتيجة للعوامل السالفة الذكر، إضافة عامل الاستعمار، وحساسية كشف الأهالي في إظهار هوية مقبورهم.

ما يمكن التأكيد عليه هو أن معالم الإقبار بالمنطقة قديما تتلخص في بعض المقابر المنسية، التي تضم ما يسمى بالكركور أو الحفر، التي حفرها الماء مع الزمن، كما أنه مع توسع المجال الحضري للمدينة من 1857م وإلى اليوم، يكتشف من حين إلى آخر عن قبور وهياكل عضمية بشرية، يعاد دفنها دون التمكن من تحديد أعمارها ولا زمنها الأصلي، كما أن رجوعنا لوثائق وأرشيف الحالة المدنية وللمقابر المعنية بدراستنا لم يقدم لنا الجديد والمهم عن تاريخ الدفن

وآثاره المتبقية بالمنطقة، ولكن على مستوى المقابر فإن المدوّن كتابيا على الشواهد يشير إلى تواريخ 1948م، 1951م وغيرها، بينما تغيب هذه المعطيات في قبور أخرى استوت مع الأرض ولم تعد معالمها واضحة إلا من بعض الأحجار، التي تحد جنباتها، كما تتوفر مقابر أخرى على قبور ينعدم فيها ذلك خصوصا بمقبرة سيدي معمر، التي توقف فيها الدفن منذ سنة 1962م. وبالنسبة للأضرحة، فقد انتشرت الكثير من الحويطات والمقامات منذ القرن 17م إلى العهد الاستعماري الذي أسهم معمره في بناء العديد منها بمزارعهم، ولقد برز مقام مولاي عبد القادر الجيلاني للوجود بشرق المدينة وألحق منذ القرن 18م بمقبرة عمومية قبلية في بداية نشوئه بحسب بعض المبحوثين، وضريح سيدي بلعباس، الذي بنته القبائل في شكل قبة على الرتبة: مكان وقوف الحمامة، بحسب الروايات حيث أصبح مزارا لقبائل بني عامر وألحق في نفس الوقت بالمقبرة بداية من سنة 1780م (أي بعد وفاته مباشرة)، أما مقبرتي سيدي محمد بن علي وسيدي معمر فحسب ساكنة المنطقة هما الأقدم وليس لهما تاريخ محدد، ولكن تاريخهما بحسب الروايات كان قبل المقبرتين السالفتي الذكر، ما يحيل بأن الدفن بدأ بهما، وأن هذين الضريحين ربما سبقا وجودهما إنشاء ضريح سيدي بلعباس ومقام مولاي عبد القادر.

ومنه، فإنه بالإضافة إلى خضوع عمليات الدفن والإقبار بالمنطقة لشروط تاريخية، فإن التأثيرات العقائدية والعرفية، وسلطة التقاليد التي كانت سائدة، أثرت بدورها في ذلك، وعدم حضور الكتابة وغيابها عن ما بقي من القبور المنسية يؤشر إلى جملة عوامل (بيئية - طبيعية - إنسانية - معرفية - دينية - استعمارية) أسهمت في غياب كلي أو اندثار للكتابة من على شواهدا الحجرية، أو حتى الإشارات الرمزية التي كانت تحدد هوية القبر وصاحبه، ومنه يمكن القول بأن المجتمع المحلي بسيدي بلعباس بنى قبور موتاه ووضع الإشارات والعلامات بناء على قيمه وتصورات ومحموله الثقافي الخاص به، غير أن ذلك تغير بداية من القرن 20م بالخصوص، حيث بدأت الشواهد المكتوبة توضع على القبور، وفي ذلك - بحسب صناع الشواهد - نوع من المحاكاة والتقليد الذي أقبل عليه الأهالي وسكان المنطقة، سواء من خلال محاكاة الضريح أو حتى بتقليدهم المعمرين في البناء والإقبار والكتابة على قبور موتاهم.

IV- البناء والكتابة بمقابر وأضرحة سيدي بلعباس:

ما يمكن قوله بشكل أولي - خصوصا ما تعلق ببناء أضرحة الأولياء بالجزائر وبلدان المغرب - هو أنه باستثناء الأولياء الأقطاب، الذين خصوا بأضرحة ذات هندسة عمرانية وجمالية كسيدي

بومدين الغوث وسيدي الهواري، وسيدي عبد الرحمان، فإن بقية الأولياء الشعبيين ومنهم سيدي بلعباس ومولاي عبد القادر تفتقد أضرحتهم ومقاماتهم لذلك، وليس بها سوى أضرحة بسيطة تعلوها قبب، تأخذ شكل مقامات مبنية على أربعة جدران، يتوسطها عادة الضريح وتكون متوجة بقبب سماوية تغطي سطحه.

بالرجوع إلى الدراسات الكولونيالية التي اهتمت بهذا الجانب نجد عمل المفكر الكولونيالي م. كوفي M.CAUVET في عمله المنشور بالعدد «64» من المجلة الأفريقية، الذي وضع فيه تصنيفا لأشكال بناء الأضرحة بدول المغرب، قسمه إلى تسعة نماذج مختلفة، ولكن بدون أن يشير إلى مسألة الكتابة عليها نذكر منها: أضرحة تعلوها قبة نصف دائرية (كروية)، أضرحة على شكل قربي أو كوخ بسقفين مائلين، أضرحة ذات قباب مغطاة بأسقف من القرميد أو الآجر، أضرحة ذات شكل مقبب أو مخروطي، أضرحة ذات طبل مركزي ضيق، أضرحة ذات قباب كثرية الشكل تعلوها شرافة، أضرحة ذات قاعدة مصطبة مخرمة مفرغة، أضرحة ذات مصطبة جنازية، أضرحة هرمية أو مخروطية بدون مصطبة⁽²⁴⁾.

ومن هذه النماذج المذكورة نجد بسيدي بلعباس مقام مولاي عبد القادر وسيدي معمر، اللذين يأخذا شكل بناء مربع تعلوه قبة نصف دائرية (كروية)، وملحق بغرفة للزوار. أما ضريح سيدي بلعباس فهو على شكل مستطيل ذات قباب مغطاة بأسقف من القرميد، وملحق بغرفة للزوار والطهي، وفي قراءة لرمزية الضريح وبنائه وهندسته يقول عبد الرحمان موساوي «إذا كان الضريح فارغا أو مملوءا، موضعا مبنيا أو فضاء عاريا أو مجردا، فهو على كل حال يعتبر مقاما أي أنه قائما واقفا، لا يسقط أبدا، فأهمية الضريح لا تكمن في الجانب الشكلي المرئي الذي لا يكون حضوره إلا لتحديد الموقع، فالضريح سواء كان ذا معلم شاهد أو بدونه فإنه يضل متضمنا لمعنيين فهو موضع (اسم علم)، وفي الوقت نفسه صفة للعلو والسمو»⁽²⁵⁾، ومنه فإن الضريح ولو بدون كتابة فإنه يظل شاهدا على المكان، كما أن بنائه إشارة رمزية ومادية كافية لتبيين معالم وقيمة ورمزية وهوية صاحبه، رغم اقرار عدد آخر من المبحوثين أن الكتابة التعريفية بالولي ضرورية للسواح الدينيين خصوصا، إلا أنه لا البلدية المشرفة على المقبرة ولا حتى المشرفين على الضريحين يستطيعا صنع هذه اللوحة التعريفية بالضريحين وحجتهم في ذلك شعبية الوليين والجهل التاريخي بهويتهما الكاملة وبتواريخ ميلادهما ووفاتهما.

بالنسبة للمخيلة الشعبية المحلية، مجاورتها للضريح مبنية على عنصرين، الأول تصوراتها

ومثلاثتها لفضاء الضريح بناء على اعتبار أن مقامه/ضريحه/قبرته مصدر لكرامة وقدسيتها الولي الميـت- الحي، فالبركة فعل يختص بالأولياء وتمتد إلى قبورهم، حيث يصبح قبره وضريحه ومقامه مقرا لوقوع الكرامات والخوارق، وقد أقر العلماء حسب ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير وعز الحقيـر «أن الكرامة لا تنقطع بالموت»⁽²⁶⁾، أما العنصر الثاني فهو يتعلق بالقرب الجغرافي من مجال السكن، وبالتالي تسهيل تواصل الحي مع الميـت من خلال طقس الزيارة.

فيما يخص قبور العامة، فهناك اختلاف كبير بين زمن الخمسينات والستينات واليوم، حيث كانت تبني القبور سابقا على شكل بناء يتكون من مستويين: سفلي يضم الجثمان وفوقي يحمل الشاهدين المزخرفين، والمكتوبين بخطوط راقية. ويعتبر المبحوثون أن في ذلك محاكاة لقبور النصارى، الذين كانوا يتواجدون بمجال مدينة سيدي بلعباس، أما اليوم فإن العديد من القبور تأخذ شكلا متشابهها فقد يكون البناء بسيطا وقد يوضع له شاهدين مكتوب عليهما بشكل بسيط هوية صاحب القبر، تاريخ وفاته ودعاء له وقد تتخلل هذه الكتابة أخطاء كثيرة. والشواهد بدورها من أشكال ومواد متعددة. وقد يحاط القبر بسيـاج من حديد، ويبنى بقربه كرسي للزائر، وقد تغرس بقربه شجرة. هذه المظاهر موجودة كلها حول الكثير من قبور مدينة سيدي بلعباس، ونموذج بعض الصور، التي سنعرضها في متن هذا العمل تعكس بعضا من ذلك.

٧- الكتابة الشاهدية في علاقتها بالذاكرة والتواصل:

بعد مساءلة المخيال الشعبي المحلي كانت إجابته بسيطة ومعبرة، بالنسبة له كلا من ضريح سيدي بلعباس ومقام سيدي عبد القادر ولو بدون الكتابة عليهما فإن العام والخاص يعرفهما، اعتبارا من أن البناء (مقامهما) إشارة رمزية كبيرة دالة على الحضور الأبدي للصالحين في الوعي والمخيال والذاكرة الجماعية للمحيطين بها، أكثر من ذلك اعتبر بعضهم أن ضريح سيدي بلعباس ومقام مولاي عبد القادر، هما العلامة (البناء) الدالة على المكان باعتبارهما صانعين لمجال الاستقرار السكاني بسهل المكرة (سيدي بلعباس) في حدود القرن 18م أولا، ثم أصبحت محجا لدفن أحياء المنطقة لموتاهم بالقرب من أضرحتهم في زمن لاحق لذلك.

ومنه كانت مقابر المنطقة ملحقة دائما بأضرحة الأولياء والمرابطين مع تسمية المقبرة بأسمائها، إذ بعد دفن الولي في ضريحه مكان محدد سلفا من طرفه، يصبح هذا الضريح علامة على المكان، والمكان علامة على الضريح⁽²⁷⁾ كما أورده أبو القاسم سعد الله، في حين يرى عبد الرحمان موساوي أن الولي من خلال اختيار المكان يكون قد صاغ أسسا جديدة للتعامل معه،

وهو ما يدفع الناس إلى التقرب منه سواء في حياته أو بعد موته، على اعتبار أن الرباط الروحي يستمر ولا ينقطع بعد موت الولي وتحوله إلى ضريح⁽²⁸⁾.

إذن، الضريح ببنائه يصنع الاستثناء المقدس الحاضر في المقبرة- ما لم تشترك معه في المجال أضرحة صلحاء آخرين (صراع المجال بين الأولياء)-، وبالتالي لا يمكن أن يحى حضوره من الذاكرة الجماعية، خصوصا توفر من يصهر على التذكير بكراماته والاستثمار في رأسماله الرمزي (البركة)، في المقابل تطرح الكتابة على شواهد القبور العادية بحدّة اعتبارا من أن عدم الإشارة إليها في القريب العاجل (بعد الصدقة، بعد الربيعين بعد الدفن)، سيعرضها للتلف بين مجال القبور الأخرى، فالدفن مستمر كل يوم- الاشتراك مستمر في المجال وبدون انقطاع-، لذلك فالكتابة هي الخيط الواصل بين الحي (الزائر- المترحم) والميت، كما أنها أداة ضمان وحماية للقبر وهوية صاحبه من التلف بين بقية قبور والأموات الآخرين.

إذن، هذه إجابات قدمها معظم المبحوثين من الزوار، وتعبّر في دلالاتها بشكل كبير عن تصوراتهم وممارساتهم وممارساتهم اتجاه أضرحة أوليائهم وقبور أمواتهم العاديين، غير أنه من الممكن أن يُفسر غياب الكتابة من على أضرحة ومقامات هؤلاء الصلحاء من زاوية أخرى مؤداها تأثير عاملي المعرفة والطبيعة، ففي زمن إنشاء هذه الأضرحة (القرن 18م) كانت أغلب الفئات الشعبية تعاني الأمية والفاقة المعيشية، وربما ذاك ما ساهم في غياب الكتابة، كما أن لتأثير العوامل الطبيعية دوره في ذلك، فحتى ولو وجدت الكتابة مع لحظة إنشاء هذه الأضرحة فمن الممكن أن تختفي في ظل هذه العوامل خصوصا مع مرحلة الاستعمار، حيث أهملت ولم تتلقى الترميم والاهتمام من البلدية الكولونيالية.

من ناحية أخرى، الحضور الكثيف للكتابة الشاهدية من على القبور العادية يعكس الإلتفاف الذي يمارسه المجتمع المحلي على الأرثوذكسية الإسلامية المحرمة لبناء القبر وتجسيصه، حيث الكتابة عنده تمثل الخيط الرابط لذاكرته بذكرى أموته، ولكن برغم ذلك فإن جزء من هذا المجتمع تأثر بالخطاب الديني الأرثوذكسي، ما انعكس في بفضاء المقبرتين، حيث لاحظنا أن عدد من المقابر رغم حداثتها فإنها بنيت بشكل بسيط (تسوية مع الأرض) وبدون شواهد مكتوبة، ما عدا الأحجار التي تحدد اتجاه وحجم القبر وحدوده.

بالنسبة لعنصر التواصل بين الميت والحي، يظهر بجلاء خصوصا عند تأملنا شكل الضريح

أو حتى المقبرة (بوابة العالم الآخر) بمجال سيدي بلعباس، حيث يمكن للمتبعين فيها أن يقرأ خطاباً موجه من مجالي الضريح والقبر، ويفرض على الزائر تلقيه والتجاوب معه، والبداية بالقبر كبناء يضم جسد المتوفى وفي حدوده نجد شاهدين بارزين، الأول منهما يكون موضعه في العادة في أعلى القبر، أما الثاني فيكون في أسفله وعلى كل منهما خطاب مكتوب مختلف، الأول عبارة عن بطاقة تعريفية تتضمن الاسم والنسب وسنة الميلاد ثم سنة الوفاة، وعلى الثاني في بعض الأحيان آية قرآنية مثل « كل نفس ذائقة الموت »⁽²⁹⁾، مع تسجيلنا لاختفاء الآيات عن كثير من شواهد القبور نتيجة للنجاسة، التي يمكن أن تلحق القبور وشواهدا، خصوصا أن فضاء المقبرتين مفتوح على العامة، وليس هناك أبواب حديدة تغلق خارج فترات الدفن والزيارة، ما سهل دخول الكلاب الضالة، التي نجست العديد من الشواهد خصوصا.

وبالعموم عادة ما تلحق هذه الآيات إن وجدت بدعاء على صيغ قد تختلف من قبر إلى آخر ومن زمن إلى زمن وباختلاف أيضا تبعا لتعدد حرفي صناعة الشواهد، ويبقى أن أهم دعاء مسيطر ويحضر بكثافة في مورفولوجية المقبرة ومن على شواهد قبورها هو دعاء «يا واقفا على قبرنا أدع لنا بالرحمة والمغفرة».



صورة (5): الشاهد الأول يتضمن هوية وتاريخ ميلاد ووفاة صاحب القبر صورة (6): الشاهد الثاني يتضمن الدعاء (خطاب) إذن، الخطاب المدن في الشاهد الأول يكشف في العادة هوية الميت، وفي رمزية ذلك فإنه لا فرق بين بطاقة تعريف يحملها الإنسان في جيبه وأخرى منحوتة على الحجر، فالوظيفة واحدة هي الكشف عن الهوية، أما الخطاب الثاني فيعبر عن رغبة ما، «يا واقفا على قبرنا أدع لنا بالرحمة والمغفرة» هذه صيغة متضمنة لفعل أمر، وهناك متلقي بالمقابل لها هو الزائر، وهو خطاب من الميت يقول له أنت مأمور بتلبية رغبتنا بالدعاء لنا، فالمرسل هنا هو الإنسان

المقبور (الشاهدان)، والمرسل إليه هو الزائر، فشروط التواصل إذن متوفرة، وما دامت الصيغة أمرية فإنه من المفروض على المتلقي أن يخضع لسلطة الأمر، وأن يدخل معه في عملية تواصل، ومن ثمة تصبح الزيارة تواسلا بين ذاتين، والقول بأن فلان يزور فلان يعني أنه يؤسس علاقة ما (ترحم، تذكر، حنين...) ⁽³⁰⁾، وتصبح من خلالها الكتابة كخيوط رابط وإشارة رمزية أساسية محددة للمجال المزار وهويته للزائر ذاته.

إن الشاهدين يكملان بعضهما البعض، إذ أن الشاهد الأول يلقي خطابا يمكن تلخيصه في كلمتين: «أنا فلان»، كما يمكن تلخيص خطاب الشاهد الثاني في كلمتين أيضا: «أريد كذا»، إذا جمعنا بينهما فإن الجملة تصبح: «أنا فلان وأريد كذا» ⁽³¹⁾، ذلك ما يمكن استنتاجه من كل الكتابات المنحوتة على القبور الموجودة بمجال مقابر سيدي بلعباس.

إذن، ما يمكن استنتاجه من هذا الخطاب هو أنه يحدد لنا مرسلا، والمرسل لا بد أن يكون موجودا. فقاطن القبر موجود بشكل من الأشكال في ذهن الزائر، أي متلقي الخطاب، إنه إنسان صورة لكنه يتمتع بإحساس ما- على الأقل حاسة السمع- لأنه عندما يأمر الزائر بالترحم عليه فإن المتلقي يفترض أن الأمر يسمع تلبية ندائه «يا واقفا على قبرنا أدع لنا بالرحمة والمغفرة»، ومنه نلاحظ أننا أصبحنا أمام حوار، حيث يصبح المرسل متلقيا ويتحول المتلقي إلى مرسل، «يرحمك الله » حوار موجه إلى مخاطب، والمخاطب لا يمكن إلا أن يكون كائنا يتمتع بشكل من أشكال الوجود وإلا أصبح المرسل مختلا عقليا، فلكي يكون هناك تواصل لا بد من مرسل ومتلقي اللهم إلا إذا كان الإنسان سكرانا أو أحمق كما يقول جاكبسون ⁽³²⁾، فالمخاطب هنا هو قاطن القبر، إنسان ما بعد الموت، الذي يتمتع ذاته بصفة الوجود ويفرض على الآخر (الإنسان الحي) الاعتراف بهذا الحق وذلك بفرض التواصل من خلال بنية القبر، هذا الأخير الذي يصبح دالا حقيقيا لدلول صوري.

في المقابل لهذا التواصل بين الإنسان الحي الزائر لقبر ميتة، التي تكون فيها العلاقة مؤسسة على فعل الترحم والتذكر، فإن الزائر يستفيد أيضا، إذ كثيرا ما يلجأ هذا الإنسان الزائر إلى قبر قريبه بمقبرة سيدي بلعباس أو مولاي عبد القادر مثلا ليعرج على ضريح وليه هذا ويزوره، وحين هذا تصبح الزيارة تواصل فعلي بين راغب وملب للرغبة («الضريح- الولي صورة مصغرة للعالم السماوي والنظام السماوي، إنه وريث الله في الأرض» ⁽³³⁾، أو بتعبير أكثر دقة بين طالب وكائن تُفترض فيه إمكانية تلبية الطلب وتتوفر فيه شروط التواصل لأنه يسمع نداء المستغيث

به، فالإنسان هنا يخلق محاوره، وهو محاور متخيل، محاور صورة، محاور وهم، لكنه ضروري والضرورة تجعل التواصل «ممكنا»، ما دام أن هذا المحاور الموجود تحت التراب، يصغي باهتمام ويسمع شكواي زواره⁽³⁴⁾.

هذا النوع من التواصل بين الإنسان والضريح، يمكن اعتباره رد فعل لقلق الأنا أي كمصدر للطمأنينة، يمتص جزء من التوتر النفسي والقلق، إذ أن القلق معطى أساسي في نفسية الإنسان، وطمأننة الأنا من الخوف، المرض، الموت ومن كل ما لا يسيطر عليه الإنسان - من العالم الخارجي الذي يبدو مليئا بالتهديدات- لا يتحقق إلا بإشاعة نوعا من الاطمئنان إلى القدر والمصير⁽³⁵⁾.

تاريخيا يستمد هذا التواصل وجوده من خلال ما أسسه المتصوفة لاجتذاب المؤمنين، حيث أن الأولياء في نظرهم لهم كرامات تظهر حتى بعد موتهم، منها حياة الولي في قبره، يعطون (الأولياء) من سألهم، ويحاربون قطاع الطرق، ويجيبون عن سؤال السائل⁽³⁶⁾.

- خلاصة:

من خلال المباحث التي تضمنها متن هذا البحث، يظهر جليا أن إشكالية غياب الكتابة من على الأضرحة لا تمثل للمخيل المحلي بسيدي بلعباس مشكلا، فهذه الأضرحة هي الدليل على المكان، إنها من حيث الثقل الرمزي المكان كله، فسيدي بلعباس مثلا يمثل لهؤلاء الولي المؤسس لفضاء السكن والاستقرار بالمنطقة، وهو الحامي لهذه المدينة، فرغم أهمية الكتابة للتعريف بهذه الأضرحة كشواهد روحانية وصوفية وتاريخية للسائح الديني، إلا أن اجمال اجابات المبحوثين اتجهت إلى اعتبار أن الضريح ولو بدون كتاب يبقى معلوما بشموخ بنائه وثقله الرمزي وحضوره في الذاكرة وفي الهوية المحلية بالمنطقة، وبالتالي لا يمكن أن ينتفي حضوره من الوجود، خصوصا مع توفر من يصهر على إشاعة كراماته ويستثمر في بركته ويعمل باستمرار على تحيينها.

على العكس تماما اتجه المجتمع المبحوث في تمثله للكتابة الشاهدية باعتباره لها كأداة مهمة للتواصل وآلية لتعيين قبور أمواته وهوية أصحابها، ومن ثمة مَثَل ذلك عنده الخيط الرابط للأحياء بذكرى الأموات، وبالتالي أجمعت معظم الاجابات على ضرورة الكتابة الشاهدية، فرغم تسنن أهل المنطقة، إلا أن ترك ذكرى الأموات قائمة وإجادة آلية للتواصل معهم ترك هذا المجتمع يمارس هذا الفعل في إلتفاف على الخطاب الديني الفقهي المتشدد في ذلك، ومما

يمكن استنتاجه أن معظم الساكنة اتجهت إلى فعل الكتابة من على شواهد قبورها وذلك لأجل تعيين وتحديد هوية أمواتها، خوفا من التلف في ظل دفن يومي، جاء نتيجة لكثافة سكانية تحيط اليوم بهذين المقبرتين.

إذن، وكنتيجة- خلاصة لهذا البحث اتجه معظم المبحوثين إلى التأكيد عن العلاقة الوثيقة بين الكتابة الشاهدية والذاكرة الجماعية ومن ثمة التواصل، وأكدوا على أن أحد أهم رهانات المجتمع المحلي من الكتابة على شواهد قبور أمواته هو عنصر الذاكرة والتواصل، وفي سبيل استدامة واستمرار ذكرى أمواته وتركها قائمة، فإنه لابد من الكتابة ولو على حساب الموانع الدينية كما سلف الذكر، ورغم تسنن أهل المنطقة وحضور هذا الخطاب وفي ممارسات بعض أفرادها.

في الأخير يبقى الضريح دليل عن المكان وهوية المنطقة، مثلما يبقى الوسيط الحسي بين الإله والمواطن البسيط، الذي وجد في الضريح تعويضا عن تجريد الله وابتعاده، كما أن ارتباطه بالمقبرة فعل عاكس لجزء مهم من تمثلات أفراد هذا المجتمع في ارتباطهم بأرواح الأولياء سواء في حياتهم أو حتى بعد مماتهم، وفي المقابل تبقى الكتابة الشاهدية ميكانيزم رابط للأحياء بالأموات، ومن شأن عدم حضورها أن يؤدي إلى قطع خيط الذاكرة حسب المخيال الشعبي المحلي، وعلى العكس يتأصل الضريح إلى اليوم في الذاكرة الجماعية لهذه المدينة والمجالات القريبة منها ولو بدون كتابة تؤشر لزمانه وهويته وتاريخه.

- الببليوغرافية المعتمدة:

- (1)- حلوش عبد القادر، « قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة»، ورقة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول حول «تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954»، والمنعقد بتاريخ 12 و13 نوفمبر 2001م، تحت إشراف مجاود محمد، نشر مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (ب ت ن)، ص 50.
- (2)- نفس المرجع، ص 62.
- (3)- بوخلفة عزي، شواهد الاحسان على مآثر المحروسة تلمسان، منشورات تلمسان عاصمة الثقافة الاسلامية، تلمسان، ط1، 2011، ص 09.
- (4)- علاء الدين عبد العال عبد الحميد، شواهد القبور الأيوبية والمملوكية في مصر، نشر مكتبة الأسكندرية وطبع بمطبعة الشركة المتحدة للطباعة والنشر، الأسكندرية، ط1، 2013، ص 15-16.
- (5)- نفس المرجع، ص 17.
- (6)- الحاج موسى عوني: فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز- الدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2010، ص 115.

- (7)- حقي محمد، «عمارة الموت في المغرب والأندلس: بناء القبور»، من مجلة المناهل، عدد حول: «العمارة في المغرب قديماً»، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية، مطبعة دار المناهل، الرباط، السنة -27 عدد 73/74، فبراير 2005، ص 393.
- (8)- نفس المرجع، ص 388.
- (9)- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ط4، (بتط)، ص526.
- (10)- الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، المجلد الأول، ج2، دار صادر، (بتط)، ص115.
- (11)- عزوق عبد الكريم، «الأضرحة ببجاية: دراسة نموذجية»، من مجلة دراسات تراثية، العدد 01، 2007، يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (معهد الآثار- جامعة الجزائر)، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والاعلام، الجزائر، 2007، ص ص (133-152)، ص 136.
- (12)- المالكي قبيلة فارس، تاريخ العمارة عبر العصور، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007، 186.
- (13)- TABET Ainad Radoiane, "SIDI BEL-ABBES : des mythes fondateurs de la colonisation à la libération", *Revue INSANIYAT*, n=03, éd CRASC, ORAN, 1997, pp 8-9.
- (14)- مكحلي محمد، «الولي الصالح سيدي بلعباس البوزيدي وعلاقته بتأسيس المدينة»، ورقة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول حول «تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، والمنعقد بتاريخ 12 و13 نوفمبر 2001م، تحت اشراف مجاود محمد، نشر مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (ب ت ن)، ص 65.
- (15)- الوزاني الفاسي الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي، وصف أفريقيا، ج2، ت. حجي محمد، والأخضر محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص25.
- (16)- شنياتي محمد البشر، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط مورتانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص144.
- (17)- منصوري خديجة، «سيدي بلعباس إبان الاحتلال الروماني»، ورقة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول حول «تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، والمنعقد بتاريخ 12 و13 نوفمبر 2001م، تحت اشراف مجاود محمد، نشر مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (ب ت ن)، ص 16.
- (18)- بن قربة صالح، أهمية الكتابات الأثرية الشاهدية في تاريخ المغرب الإسلامي وحضارته، جامعة الجزائر، (بتط)، ص10.
- (19)- لحسن رابع، «منطقة سيدي بلعباس إبان الاحتلال الروماني والوجود العثماني: من خلال بعض المواقع الأثرية»، ورقة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول حول «تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، والمنعقد بتاريخ 12 و13 نوفمبر 2001م، تحت اشراف مجاود محمد، نشر مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (ب ت ن)، ص 35.
- (20)- مكحلي محمد، سيدي بلعباس البوزيدي: ولي وولاية، دراسة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجية، اشراف مجاود محمد، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1999-2000، ص32-31.
- (21)- مكحلي محمد، «الولي الصالح سيدي بلعباس البوزيدي وعلاقته بتأسيس المدينة»، نفس المرجع السابق، ص 65.
- (22)- مكحلي محمد، سيدي بلعباس البوزيدي: ولي وولاية، نفس المرجع السابق، ص32-31.

- (23)- حلوش عبد القادر، « قبائل سيدي بلعباس ودورها في المقاومة»، نفس المرجع السابق، ص 56.
- (24)- M.CAUVET, « Les Marabouts, petits monuments, funéraires et votifs du nord de l'Afrique », *Revue Africain*, Vol 64, JOURDAN, LIBRAIRE-ÉDITEUR, Alger, année 1923, pp293-294.
- (25)- MOUSAOUI Abderahman, logique du sacré et monde d'organisation de l'espace dans le sud-ouest Algérien, Thèse de doctorat nouveau régime sous la direction du professeur Bernard, école des hautes études en sciences sociales, Paris, 1996, p152
- (26)- بن حتيرة صوفية السحيري، الجسد والمجتمع: دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2008، ص318.
- (27)- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي في القرن العاشر إلى القرن 14، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص261-262.
- (28)- MOUSAOUI Abderahman, Op-cit, pp53-96-97.
- (29)- سورة آل عمران، الآية 185.
- (30)- يشوتي محمد، «تواصل الواقع والمنتخيل من خلال علاقة الدنيوي بالأخروي»، بحث غير منشور، كلية الآداب، جامعة وجدة. 2011، ص 03.
- (31)- نفس المرجع، ص 03-04.
- (32)- نفس المرجع، ص 03-04.
- (33)- بن حتيرة صوفية السحيري، نفس المرجع السابق، ص319.
- (34)- يشوتي محمد، «تواصل الواقع والمنتخيل من خلال علاقة الدنيوي بالأخروي»، نفس المرجع السابق، ص 03-04.
- (35)- بن حتيرة صوفية السحيري، نفس المرجع، ص317.
- (36)- صبحي أحمد منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000، ص350.

واقع العلوم الإنسانية أمام التقدم التكنولوجي

د. مغربي زين العابدين - جامعة سيدي بلعباس

مقدمة:

لكلِّ عصر سمات تحدّد ملامحه، ومحمولات تميّزه، وعصر الألفيّة الثالثة يوصف أنّه عصر الثورة التكنولوجية المتنامية التي عرفت سلسلة من النقلات النوعية أثرت بطريقة أو أخرى على سائر التخصصات العلمية، منها، الإلكترونيّة في تغيّر ملحوظٍ لأشكال الكمبيوتر (من الكمبيوتر الضخم إلى الكمبيوتر الميني ثم الكمبيوتر الميكرو)، ومنها، البحوث البيولوجية ببرؤغ مصطلح «البيوتقنيّة» المُسخرة في استخدام الأحياء الأموات، وزرع الأعضاء، ومنها أيضاً، غزو الفضاء واحتلاله. ولم يتوقف السيل التقنيّ على علوم المادة الجامدة و الحيّة، بل خدش أيضاً في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فأضحت الدراسات الإنسانية -مفهومها الواسع- تحت سطوة التقنيّة من خلال ما يعرف بـ «العقل التكنولوجي».

المهم، أصبحت التقانة ظاهرة كونية شبيهة بالغانيّة¹ التي تجوّب موائد جميع تخصصات العلم؛ فافتتنّ الإنسان بدقتها وتقنياتها، فسلبته عن نفسه وذاته، حتّى أحكمت قبضتها عليه من رأسه إلى أخمص قدميه، ولم يجد سبيلاً، إلّا أن اقتبس النموذج التقنيّ وطبقه على سائر العلوم بما في ذلك علوم الإنسان. واعتبار التقانة أمودج العلم، راجع إلى فكرة الاستعلاء والتمكين والامتلاك التي رفعَ لواءها «رونيه ديكارت» R.Descartes من خلال كتابه «Discours de la methode»، حيث صرّح في قسمه السادس بضرورة أن نجعل أنفسنا سادة الطبيعة ومالكيها².

وإذا كانت تطوّرات «النظام العلم-التقني» L'Ordre technoscientifique قد ازدادت وتيرتها في الآونة الأخيرة مُقتفيةً ما فرضته الفيزياء الكلاسيكية من تطبيق للحتمية الميكانيكية الشاملة على العلوم، وإلى اعتبار المنهج التجريبي والتريضي قوام العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على سواء، وما تدعو إليه أيضاً بعض الحركات والجمعيات الجهوية والدولية³ في جعل «العلم-التقني» الدين الجديد للإنسان المعاصر. فإنّ هذا التصرّو فرضَ أمودجاً تقنياً جعل من «العقل الأداتي» المهيمن الأساسي على الإنسان، وقد أفرزَ هذا التسييدُ الأداتي «تميّعاً» أفرغ الإنسان من قيمه ومعانيه، فأنتجَ راهناً اجتماعياً وإنسانياً مُسوداً خَلَفَ إشكاليات فلسفية مسّت الجانب الأنطولوجي للكائن، وصعوبات ميتودولوجية شكّلت عائقاً ابستيمياً أمام تطور العلوم الإنسانية، وافتقاراً للأنموذج المنطقي الدقيق لتلك العلوم.

ونظراً لخصوصية المسألة وهشاشة فتيلها، ارتأينا تسليط الضوء على راهن العلوم الإنسانية في ظل الثورة العلمية والتكنولوجيا الكاسحة، ورهاناتها المعقدة لانقاد ما يمكن انقاده أمام مقاصد «العلموية/Scientisme» الرامية إلى تشييء كل ظاهرة بما في ذلك الظاهرة الإنسانية. لهذا، نطرح أسئلة راهنية تُحدّد حاضر ومستقبل البحوث العلمية في العلوم الإنسانية أمام النموذج التقني:

فكيف هو واقع العلوم الإنسانية أمام التقدم التكنولوجي؟ و أيُّ اعتبارٍ يمكن أن نردّه لعلوم الإنسان في وقت أصبح فيه هذا الصنف من العلوم مُهدّداً بالتراجع؟ وهل يمكن أنسنه التكنولوجيا؟ وأية استراتيجية علمية يمكن تبنيها لاستئناف فاعلية العلوم الإنسانية؟

1. تحديدات أولية:

يظهر أنّ المصطلح «العلوم الإنسانية» مُركب من شقين؛ «علم» و«إنسان». فأما، لفظ «العلم» فيحدّد بأنه: «مجموعة من المعارف والبحوث تتمتع بدرجة كافية من الوحدة، والعمومية، وهي قابلة لدفع الناس المهتمين بها إلى نتائج متسقة، التي لا تنتج عن الاتفاقات الاعتبارية ولا عن الأذواق والمصالح الفردية والمشاركة بينهم، بل عن العلاقات الموضوعية التي نكتشفها تدريجياً، والتي نوّكدها بمنهج التحقق المحددة»⁴. أي أن الموضوع المدروس يصيرُ معرفة علمية، إلا إذا اتّسم موضوعه باليقين وبنائه بالتنظيم. وأمّا لفظ «إنسان»، فاللغويون يرونَ جمع «الإنسان» هو «أناسي»، والإيناس: خلاف الإيحاش، وكذلك التأنيس. والأنس والأنس والأنس كلمات تُفيدُ كلّها الطمأنينة⁵، فلإنسان يأنسُ بأخيه ويسكنُ إليه، فتذهب عنه الوحشة. فهو كائن اجتماعي تميلُ فطرته إلى العيش في زمرة إنسانية.

وإذا ما عدنا إلى التأليف بين اللفظين، فالعلوم الإنسانية بمفهومها الاصطلاحي، هي العلوم التي تدرسُ الواقع الإنساني؛ سواء تعلق الأمر بالإنسان منفرداً أو مرتبطاً بغيره. وتأتي دراسة أحوال الإنسان وسلوكاته كموضوع بحث لفهم وتحديد ثوابته، أي الوقوف على فاعليات الإنسان المتباينة الجوانب، لضبط طبيعتها وحصر آلياتها مُستخلصة مقاصدها ودلالاتها المختلفة، هذا يعني أنّ العلوم التي تدرسُ الإنسان تحاولُ النفاذ إلى الأفكار والمشاعر والمعاني والمقاصد التي تقف وراء الظواهر والتعبيرات المختلفة وإدراكها إدراكاً كيفيًّا، محافظين على خصوصية الظاهرة الإنسانية.

لهذا، تنوّعت فروع العلوم الإنسانيّة لتعدّد أبعاد الإنسان، فاختلّفت معانيها حسب التخصصات المدرجة ضمنها؛ فكلّ علم له مفاهيمه وغاياته في جعل العلوم الإنسانيّة تأخذ مسلكاً ماهوياً وتطبيقياً. ولما كانت العلوم الإنسانيّة تدنو أكثر فأكثر نحو «العقل التكنولوجي»، أصبحت بتعبير «لاند» العلم الذي يُشدّد «على السمات الممكن رصدها خارجياً، لطريقة تصرف البشر وسلوكهم، فردياً أو جماعياً»⁷.

2. تداعيات «العقل التكنولوجي» على العلوم الإنسانيّة:

تَعَقّد المعارف البشريّة مع المُستحدثات العلميّة الرّاهنة ودُنُوها نحو التّصغير والرقمنة والدّقة المتناهية، كما هو الحال في عالم الاتّصالات والتّجارب البيوتقنيّة، أدّى في نظر بعض المهتمين إلى تقويض علميّة الدراسات الإنسانيّة وإنكار انضوائها تحت لفظ العلم، لغياب قواعد ثابتة راسخة ولعدم استقرار نتائجها بما في ذلك موضوعها. فخلف هذا الطرح إشكاليات ابستمولوجيّة تمركزت بالأساس حول⁸:

- التداخل الموجود بين الذات والموضوع؛

- ونوعيّة الظاهرة الإنسانيّة المُفارقة للظاهرة الطبيعيّة.

ولكن، كلّ ما قيلَ في شأن التقويض وتغييب الطابع العلميّ على الدراسات الإنسانيّة، فالحقيقة تؤكّد مدى انصهارها في العلميّة وامتيازها في بعض المجالات بمناهج تجريبية؛ أينَ الملاحظة والتّجريب والتّرييض والتّكميم أحد مبادئها الأساسيّة، مُستلهمّة المناهج المُطبّقة في العلوم الصّوريّة والتّجريبية نموذجاً لبحثٍ ودراسة الظواهر الاجتماعيّة والإنسانيّة⁹. فأصبحت الدراسات الإنسانيّة كغيرها من التخصصات يُنظر إليها أنّها علوم بحُضور الأدوات الإمبريقيّة والقياسيّة، وبسعيها أيضاً إلى المُزاوجة بين «الإنسان» و«العلم»، وبتوحيد المنهج بين العلوم الطبيعيّة والعلوم الإنسانيّة، وفي هذا الصدد يؤكّد «كارل بوبر» على الواحديّة المنهجية في إمكانية دراسة الظواهر الإنسانيّة دراسة علميّة قابلة للاختبار والتّكذيب، فالعلوم الإنسانيّة تماماً مثل العلوم الطبيعيّة يمكنها أن تستخدم منهج المحاولة والخطأ الذي هو أساس لكلّ علم¹⁰. فمثلاً، في علم النفس التجريبي، قد استفاد من أعمال الاتجاه «السلوكي» الذي يمثله «إيفان بافلوف» و«جون واطسن» و«سكينز»، ووسيلة هذا الاتجاه هي: «البحث العلمي والموضوعي والتجارب العلمية المنضبطة والكاشفة عن كيفية تعلم جوانب السلوك من

البيئة»¹¹. فالأدوات الإمبريقية والمعملية هما في ذلك التقنية اقتحمت العلوم الإنسانية فرصت سلوكات الإنسان من الخارج كما ترصد سلوكات الحيوانات، وأضحت المعاني الإنسانية النفسية موضوعاً للضبط والقياس والترئيب ومجالاً للتعريف الدقيق، كما لو كنا في العلوم الطبيعية.

بيد أنه، لا يمكن إخضاعها كلية إلى التقنين والنمذجة الإمبريقية، كما هو الحال في العلوم الأخرى، كما لا يمكن أيضاً إصباغها بطابع تقني محض، بل أن الاحتفاظ بالقيم الإنسانية والأخلاقية والمعتقدات الدينية والإيديولوجية والتي كانت توصف بأنها عوائق ابستيمولوجية، هي في الحقيقة أدوات يمكن استثمارها في تسيير التكنولوجيا وضبط هيمنتها على الأبعاد الإنسانية. ومن جهة أخرى، إن التسليم بوجود فعل «تأثير العقل التكنولوجي» على منهج وموضوع العلوم الإنسانية، يوجب التساؤل عن مصير المقاصد المعنوية الإنسانية لعلوم الإنسان، لاسيما أمام تصريح «إرنست رينان»، في قوله: «إن تنظيم الإنسانية بشكل علمي هو القصد النهائي للعلم المعاصر، إنه إدعاؤه الجريء والمشروع... إن العلم وحده قادر أن يمنح الإنسان حقائق حيوية دونها لن تكون الحياة مقبولة، ولا المجتمع ممكناً»¹². يبدو، من تعبير «رينان» أن العلم كفيل لإمداد الإنسان بكل ما يجهله وما يريده، بما في ذلك خباياه الذاتية وقيمه السلوكية وعلاقاته الاجتماعية، طالما أن العلم استطاع في وقت قصير -على سبيل الذكر لا الحصر- من تطوير الأبحاث في علم البيولوجيا، بظهور فروع جديدة: كالإخصاب الصناعي وطفل الأنابيب والهندسة الوراثية¹³. فالثورة الجينية استطاعت أن تخفف من العبء الاجتماعي والنفسي للفرد والأسرة بتشخيصها للعيوب والأمراض الوراثية وإنقاذ العائلات بل والمجتمعات من أطفال مغوليين بتوضيح طريقة نمو الخلايا وتصحيح خطأها الوظيفي¹⁴، بل أكثر من ذلك، سعت إلى هندسة المستقبل الجيني للإنسان والتحكم في مصيره، معتقدة «أن الإنجاب المخبري هو في جوهره إنساني، إذا ما قورن بالحمل بالاتصال العادي بين الجنسين»¹⁵، طالما أن العملية المخبرية -في رأي بعض الباحثين- تتم بإرادة الجنسين وباختيارهما. لكن الدعوة إلى التحسين الخلقي والتخفيف عن آلام الإنسان التي قد تتسبب فيها إفرازات جينية غير معدلة وغير مضبوطة، ألا تفتح المجال للعبث في الخريطة الجينية للفرد وخلق صفات حسب أهواء البيولوجيين؟

نعم، هزت الثورة التكنولوجية وعلى رأسها الهندسة البيولوجية العالم والعامي سواء بسواء، على ما خلفته من مشاكل قانونية وإنسانية وأخلاقية واجتماعية نُعائنها يومياً في المجتمعات الغربية خاصة، وقد تسببت في مُعضلة إنسانية أربكت مقاصد العلوم الإنسانية والاجتماعية،

فزادت من مشكلات الإحباط والتوتر للأفراد، واغتراب الإنسان، وفقدان القدرة على إدراك الفرد لذاته، بل وتدنيس القيم الأخلاقية والإنسانية إذا ما تحدثنا -على سبيل التمثيل- عن طريقة الإخصاب الصناعي والتي جُعِلت للتغلب على إصابة أحد الزوجين بالعقم أو ضعف يمنع حدوث الحمل، والعملية «تتم بواسطة جمع السائل المنوي من الزوج أو من متطوع بوسائل طبية ثم تلقح به الأنثى»¹⁶. ومن خلال دلالتها، نرى أنها تحمل معها إشكاليات أخلاقية واجتماعية ودينية تفرع عنها مدافعون عن العملية تحت ذريعة أحقية الزوجين في الإنجاب، ومعتضون على الطريقة في حد ذاتها واصفين إياها بالمُخترقة للفطرة الآدمية والطبيعة الإنسانية. والنتيجة من هذا الجدل، شيوع بنوك للحيوانات المنوية والتجارة فيها، واختلاط أنساب العائلات والمجتمعات، ومشاكل أخرى لم نسمع عنها بعد.

ولنا أن تتصور حجم المشاكل والإخفاقات المترتبة عن طرائق «البيوتقنية»، منها طريقة أطفال الأنابيب وكراء الرحم؛ فلا الأم البديلة التي استأجرت رحمها لإكمال استنبات الجنين في رحمها يمكن أن تسلم الطفل للأم العاقر، ولا هذه الأخيرة يمكن لها أن تستغني عن طفلها للأم البديلة، هذا فضلاً عن جهلنا من هي الأم الحقيقية لذلك الطفل، وكيف تتعامل النصوص القانونية مع مثل هذه الوضعيات الحرجة؟ وقد حدثت وقائع كثيرة من هذا النوع في الغرب عموماً، والولايات المتحدة الأمريكية بالأخص، أين «استغنى الأبوان في بعض الحالات عن تسلم طفلهما من الأم البديلة بعد ولادته، وذلك بإصابته بتشوه أو مرض وراثي خطير، أو لأن الأبوين قد انفصلا أو طلقا قبل ولادته»¹⁷. هكذا، نعاين لحظياً وفي كل مرة تفاقم المشكلات الأخلاقية، والاجتماعية، والقانونية، والدينية من جراء التطبيقات اللاواعية واللامسؤولة لتقنيات البيولوجيا، حتى استعصى على العلوم الإنسانية والاجتماعية فك ألغاز حضارة غلبت عليها الأبعاد المادية وزاغت فيها أبصار ثلة من حاملي لواء الثورة التكنولوجية.

نخلص من هذا كله، أن تراجع قيمة العلوم الإنسانية يعود بالدرجة الأولى إلى انزلاقات العقلانية المُحدثة والتكنولوجيا المُفترطة، هذه العقلانية التقنية التي أثرت التحديث المادي على التجديد الروحي نراها قد انتهكت القيم الإنسانية، وجعلت التكنولوجيا تضيي على الأشياء صفة الأدوات وتُحيلها إلى وسائل نفعية تنتهي صلاحيتها بعد أداء وظيفتها. ومن جملة ما يمكن ذكره، التأثير الكبير للعقل التكنولوجي على العلوم البيولوجية -كنموذج-، أين تفاقمت المشاكل الإنسانية بمختلف أشكالها مثلما رأينا في الهندسة الوراثية. بالإضافة إلى رغبة

علماء العلم-التقني إلى إقحامه في ظاهرة الإنسانية، فأفرغت هذه الأخيرة من دلالاتها الآدمية وعوّضت بأبعاد مادية.

وأمام هذا الوضع المؤلم والمظلم الذي ينتظر الإنسان، كيف لنا أن نراهن على العلوم الاجتماعية والإنسانية لتخفيف وطأة التكنولوجيا على الأبعاد الإنسانية؟ وفي الوقت ذاته، كيف لنا أن نستأنف فاعلية العلوم الإنسانية؟

3. استئناف الفاعلية للعلوم الإنسانية:

إنّ سيطرة العلم-التقني على العلوم كلّها، وسيادة أ نموذجها التقني ترك العلماء في جميع التخصصات يطبقونه تحقيقاً لليقين والدقة، فأثّر سلباً على العلوم الإنسانية على مستوى الموضوع والمنهج. لكن، الاحتكاك التاريخي الذي حدّث بين العلوم، أهّل العلوم الإنسانية إلى الاستفادة من النموذج الذي طرحته العلوم المادية، كما أنّ الإفراط المتزايد من استعمال التقنية أو العقل التكنولوجي في العلوم البيولوجية وعلى رأسها الوراثية، خلّف مشاكل إنسانية جعلت الباحثين يُعيدون النظر في دور العلوم الإنسانية ويستأنفون فاعليتها لتخليص البشرية من أسر التكنولوجيا، وصدّ التقدم العلمي الجارف لكل القيم الإنسانية والاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية. هذه المخاطر جعلت علماء العلوم الإنسانية يستحدثون مناهج وطرائق ونماذج تمنع الإنسان من الانصهار في العقل الآداتي، ومن خلالها أيضاً نستأنف عمل العلوم الإنسانية. وقد بين «ليفي ستراوس» أنّ البنيوية منهج في إدراك الظواهر الإنسانية خارج الوعي الذي لدينا عنها، مع اختيار بعض الأنظمة الواقعية الخالية من المنظمات العلمية، وهذا على الأقل ظاهر كميادين مفضلة للدراسة¹⁸.

فإقحام الدراسات الإنسانية أمر لا بد منه، لإعادة الاعتبار إلى العلوم الإنسانية ودارسيها. وكتصوّر أولي يمكن الاستئناس به ونحن نتحدث عن استئناف فاعلية العلوم الإنسانية، نرى ضرورة اتّباع الإستراتيجية التالية:

■ محاصرة البحوث العلمية ذات الطابع التقني خاصة، وتضييق مساحة العمل فيها، تجاوزاً لكلّ انزياحات إنسانية، برفع مكانة الدراسات الإنسانية والاجتماعية على المستوى الجامعي والأكاديمي، حتّى نعطي لتلك الدراسات المشروعية في التدخل لضبط مبادئ ونتائج البحوث العلمية. ولنا هنا أمثلة نستشهد بها، فمثلاً: استحداث فرع «البيو-أخلاقية»

لمجابهة تحديات البيولوجية المتمثلة في «البيو-تقنية»، جاء كرد فعل مواز لما عرفته البشرية من انتهاكات أخلاقية، وأيضاً استحداث «علم النفس البيئي» سنة 1950، الذي يُعرّف الطالب كيفية التعامل مع البيئة واحترام الرأسمال الطبيعي الأسبق إلى الوجود من الإنسان، وما تتركه تلك التخصصات الجديدة من آثار التفاعل الاجتماعي، كما يعتمد علماء النفس البيئي عند صياغة قوانينهم ونظرياتهم على نتائج البحوث الأنثروبولوجية وعلم النفس الاجتماعي، إنه منهج متعدد الأنساق 20.

■ توجيه العناية الكافية لتعريّة العلم-التقني من مقاصده الإيديولوجية والسياسية، ومطامعه المادية. فالعلم في سياق العقلانية التقنية كما يقول «سالم يافوت»: «تحاينه حسابات السياسة، أي إرادة القوة بالمعنى النيتشوي [=نسبة إلى نيتشه]، ينبغي إخراجها إلى واضحة النهار. وهو أمر يتطلب نقد الوضعانية والتيارات المعجبة بالعلم والنزعة التقنية» 21.

■ إعطاء قيمة عمليّة لعلوم التربية، لأنّ غياب الحياء أو البراءة أو الصفاء العلمي، على حدّ تعبير «هابرماس» 22، مرده إلى انسلاخ الإنسان عن إنسانيته. وعلوم التربية بطرائقها وغاياتها تعمل بدءاً من المدرسة إلى الجامعة وبعدها البحث العلمي إلى تكوين إنسان بكامل إنسانيته؛ يميّز ما له وما عليه، يعرف أين تنتهي حريته وأين تبدأ حرية الآخرين، يحترم أيّ شيء في هذا الوجود سواء كان حيّاً أو مادة. فالتعامل على أساس احترام الآخر، مبدأ أخلاقيّ أشار إليه «كانط» في مبادئه الأخلاقية»، حين قال: «افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك بوصفها دائماً وفي نفس الوقت غاية في ذاتها، ولا تعاملها أبداً كما لو كانت وسيلة» 23. إنّ هذا التأهيل التربويّ يضمن السير الحسن للبحوث العلمية وفق المعايير الإنسانية والاجتماعية، فيؤنسن التكنولوجيا ويصبغ عليها أبعاداً إنسانية.

وكتخريج عامٍ نقول، بفضل إسهامات المشتغلين في الحقول الإنسانية والاجتماعية عقب الثورة التكنولوجية -بصورة أخص-، وبفضل التأثير الفعال للعلوم التجريبية على علوم الإنسان لاسيما من حيث المنهج، استطاع الدارسون جني ثمار هذه المجهودات باستحداث مناهج وفروع جديدة للعلوم الإنسانية والاجتماعية تواكب آخر التطورات العلمية، مُتفحّصةً نتائجها، باحثة في الاستثمار الحسن للتكنولوجيا، مُخفّفة وطأتها على الإنسان والبيئة على حدّ سواء.

فلم تعد تلك العلوم تُلقن في المدارس والكلّيات ذات الطابع العلمي-التقني، بل كان لابد أن تنتشر في كلّ دُور التّعليم بما في ذلك الكليات الطبيّة والتقنيّة والبيئيّة، حتّى تصاحب الباحثين في التأسيس لنظرياتهم ونتائجهم. فالقيمة الإنسانيّة تتموضع في مختلف فُرُوع العلوم محافظة على كينونة الإنسان كذات مخلوقة تمنع العبث فيه، وهذا ما قصدناه من أنسنة التكنولوجيا التي تستوجب أنسنة الإنسان أولاً، ومقولة «أبقراط» حين قال: «لن أعطي أي دواء مميت لأي شخص يطلب مني ذلك، ولن أقترح استخدامه، وكذلك لن أعطي أي امرأة إجهاضاً علاجياً»، تعتبر المقولة دليلاً على أولويّة الاعتبارات الإنسانيّة في البحوث العلميّة الطبيّة والتقنيّة. فمستقبل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لا زال طويلاً بالنظر إلى راهن التكنولوجيا، هذا ما يجعلنا نعدّ لـ «إتيقا العلوم كمشروع للحدّاة» *Ethique des sciences comme projet de la modernité* وهذا المشروع الأخلاقي للعلوم أسّسه بالضرورة تكمن في إعادة الاعتبار إلى العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة واستئناف فاعليتها.

الهوامش:

- 1 وهي المرأة الحسنة التي تُطلب ولا تُطلب، وجاء تشبيه التقانة بالغانية لما حققته هذه الأخيرة من انبهار وإعجاب من طرف جميع تخصصات العلم.
- 2 ديكرت، روني، مقال في منهج، ترجمة: محمود محمد الخضير، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1985، ص 268.
- 3 أهم هذه الحركات: الحركة الدوليّة للهواة العلميّة والتقنيّة والتي تعرف بـ «MILSET»، وهي حركة شبابيّة غير حكوميّة تعمل على محو الأميّة العلميّة في أوساط الشباب بتنظيم برامج في العلوم والتكنولوجيا. تأسست سنة 1987 بـ «كندا»، وانخرطت في عضويتها لحدّ الآن 46 دولة، شعارها: «إنّ الثقافة العلميّة والتكنولوجيا هي المفتاح لفهم العالم والتأثير فيه...، وعلى هذه المعرفة أن تنمي وتثري منظورنا الإنساني. وكل تأخير فردي أو جماعي، في تحمل هذا الواجب لا يمكن إلّا أن يؤدي سوى إلى نتائج سلبية في ما يخصّ مستقبلنا».
- 4 André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Édit., PUF, Collection: Quadridge, Paris, 2006, p.173.
- 5 ابن منظور، لسان العرب، مج 1، دار المعارف، مصر، ط 3، ص 148، 149.
- 6 عوض، عادل، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، منشأة المعارف، مصر، 2000، ص 410، 411.
- 7 لالاند، أنريه، موسوعة لالاند الفلسفيّة، مجلد 2، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط 2، 2001، ص 1254.
- 8 طريف الخولي، معنى، مشكلة العلوم الإنسانيّة تقنيها وإمكانية حلها، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990، ص 93.
- 9 الزواوي، بغورة، المنهج البنيوي والعلوم الإنسانيّة، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، دراسة تاريخية نقدية، كتاب جماعي، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، د(ت)، ص 190.

- 10 طريف الخولي، معنى، فلسفة كارل بوبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1989، ص471.
- 11 إبراهيم، عبد الستار، الإنسان وعلم النفس، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985، ص50.
- 12Ernest, Renan & Annie Petit, L'avenir de la science, édition, Flammarion, Paris, 1995, p.37.
- 13 البقصي، ناهدة، الهندسة الوراثية والأخلاق، ص10.
- 14 محمد الحفر، سعيد، البيولوجيا ومصير الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984، ص39.
- 15 المرجع نفسه، ص ص36، 37.
- 16 البقصي، ناهدة، الهندسة الوراثية والأخلاق، ص11.
- 17 المرجع نفسه، ص14.
- 18 كلود، ليفي ستراوس، حوار معه ضمن كتاب حوارات في الفكر المعاصر، ترجمة: محمد سبيلا، شركة البيادر للنشر التوزيع، الرباط، 1991، ص13.
- 19 إبراهيم، عبد الستار، الإنسان وعلم النفس، ص188.
- 20 المرجع نفسه، ص189.
- 21 يفوت، سالم، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999، ص91.
- 22 نقلاً: المرجع نفسه، ص91.
- 23 كانط، إيمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، تر: عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط2، 1980، ص73.

الخلفية التاريخية لظهور الإرشاد و التوجيه

أ. موسي محمد -جامعة سيدي بلعباس

تمهيد:

يستخدم الإرشاد والتوجيه في مجالات مختلفة أهمها المجال المدرسي الذي يعتبر ميدانا مهما في فضاء العلوم التربوية قديما وحديثا وتنامت هذه الأهمية بازدياد المشكلات التربوية نتيجة لتطورات الحياة اليومية، كما يلعب الإرشاد والتوجيه دورا مهما في نجاح العملية التربوية داخل المؤسسات التعليمية وذلك بمساعدة التلاميذ على اختيار التخصصات التي تتناسب وتتماشى مع قدراتهم واستعداداتهم وميولاتهم وكذا مساعدتهم على تخطي مشاكلهم داخل وخارج المدرسة بهدف تحقيق تكيف مدرسي يجنبهم بعض الأزمات كالتأخر والتسرب المدرسي، أو بمعنى آخر هو بمثابة الخدمة النفسية التي توجه إلى الفرد والجماعات الذين مازالوا قائمين في المجال السوي، ولم يتحولوا بعد إلى المجال غير السوي.

و هكذا يبقى الإرشاد النفسي أحد الخدمات النفسية التي تقدم للأفراد والجماعات بهدف تجاوز الصعوبات التي تعترض الفرد أو الجماعة، وتعوق توافقهم وإنتاجيتهم، مرتكزا بذلك على جملة من الأسس والمبادئ التي يقوم عليها من مراعاة لمبدأ حق الفرد في تقرير مصيره بنفسه وذلك بترك الفرصة للتلميذ في اختيار التخصص الذي يرغب فيه دون إكراه أو أمر أو نهي مع الأخذ بعين الاعتبار الاستعدادات وقدرات التلميذ.

1-- التطور التاريخي للإرشاد والتوجيه:

تعتبر العملية الإرشادية والتوجيهية قديمة قدم العلاقات الإنسانية، غير أن هذه العملية لم تمارس في إطار علمي نظري، وإنما كانت عبارة عن أفكار فلسفية فقط. وكعلم ارتبط الإرشاد والتوجيه مع انفصال علم النفس عن الفلسفة وإنشاء أول مخبر لعلم بألمانيا 1879 ومنذ ذلك الوقت أخذ الإرشاد والتوجيه تعاريف ومفاهيم مختلفة من توجيه مهني إلى توجيه عام فعلاج نفسي متخصص. نشأ الإرشاد النفسي في أحضان حركة التوجيه المهني والتربية المهنية، وعلى الأصح فقد نشأ من التقاء هذه الحركة مع تيارات وحركات أخرى منحصرة في العلاج النفسي والخدمة النفسية.

و قد كان للتطورات الاقتصادية التي شهدتها أوروبا والولايات المتحدة وما ترتب على ذلك

من ردود أفعال اجتماعية وإنسانية فضلا في ظهور أولى بوادر هذا المجال، خاصة على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي والتربوي، بحيث اتخذت معا فيما أطلق عليه روكول Rockwell الكاليدوسكوب Kaleidoscope والذي نسميه اليوم الإرشاد النفسي Counseling

وكان الجو معبأ بضرورة ظهور الخدمات التي تواجه الآثار التي تركتها الثورة الصناعية الثانية على الصعيدين الإنساني والاجتماعي، وتهيئ الجو أيضا للاقتناع بضرورة دراسة المشكلات الاجتماعية دراسة علمية شأنها في ذلك شأن المشكلات الفيزيائية.

وقد ساعد التوجه الخاص بإخضاع المشكلات الإنسانية والاجتماعية للدراسة العلمية على تدعيم خدمات الإرشاد النفسي، وكان «لايتر وبيتر» Lighter Witmer قد افتتح العيادة النفسية الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1896، وأنشأ تخصص علم النفس الإكلينيكي، وباتت الأذهان متقبلة للخدمة النفسية ومقتنعة بها، حتى أن «كليفورد بيرس» Clifford Beers أثار ضجة كبرى عندما نشر مذكراته التي تمثل خبرته مع الممرض النفسي في كتابه «العقل الذي وجد نفسه» عام 1908 وقد وصف في الكتاب كيفية المعاملة السيئة والخسنة والعلاج غير الكفء الذي يلقيه المرضى في مستشفيات الأمراض النفسية، وقد كان الكتاب بمثابة الشرارة الأولى لتطور حركة الصحة النفسية، والتي أثارت العديد من الدراسات حول الأشخاص الذين لديهم مشكلات سلوكية، وكانت هذه بداية إرشاد الصحة النفسية Mental Health Counseling.

وقد أظهرت نتائج الدراسات التي أجريت على الأطفال من ذوى المشكلات ضرورة توفير خدمات الإرشاد النفسي لكل الأطفال في المدارس، وقد تطور إرشاد الصحة النفسية وأصبح جزءا أساسيا من المجرى الأساسي لمهنة الإرشاد النفسي، ولقد كان تأثير الحرب العالمية الأولى «1914-1918»، وكذلك الحرب العالمية الثانية «1939-1945» وما حدث بينهما من أزمات اقتصادية وتدخل حكومي تأثير هائل في تطور الخدمات النفسية وعلى رأسها الإرشاد النفسي، خاصة في مجال إعداد الأدوات وكيفية استخدامها، فقد كان على الجيوش المحاربة أن تواجه الآلاف من الشباب الذي طلب أداء الخدمة العسكرية، وبرز الصالح منهم وغير الصالح لأداء الخدمة، ثم توزيعهم على الأعمال والمهام المختلفة.

وبذلك فإنه في ظل المجهود الحربي وتعبئة طاقات الدول المحاربة لكسب الحرب طورت

أدوات ما كان من الممكن إعدادها في هذا الوقت القصير وتقنينها على تلك الأعداد الضخمة لولا ظروف الحرب العالمية، وبذلك تم إعداد مقياس «ألفا» (Alpha) ومقياس «بيتا» (Beta) للذكاء في الجيش الأمريكي، وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى تكاثر العديد المتنوع من هذه الأدوات، حتى أن المرشدين النفسيين لم يكونوا هم المنشئون الأساسيين لهذه الأدوات، بل إنهم كانوا من مستخدميها فقط.

وقد كان تكميم ذكاء الشخص وميله واستعداداته وتحصيله ومختلف جوانب شخصيته وقياس هذه الجوانب قياسا أقرب إلى الدقة الكمية أساس طيب لصدق أحكام المرشدين النفسيين على مفحوصيهم، ولذلك فليس من المستغرب أن التوجيه المهني والإرشاد النفسي أصبحتا ملتصقتين من البداية بحركة القياس النفسي.

وأصبح القياس النفسي موجودا بشكل كلي وأساس في تصنيف العاملين في مجال الصناعة، وفي المجال التربوي، وفي مكاتب الإرشاد النفسي، وأصبحت معرفة هذه المقاييس وإتقان استخدامها والاستفادة منها جزءا أساسيا من تعليم وتدريب المرشدين النفسيين.

ولقد صيغت نظرية توجيهية في الإرشاد النفسي كان من أوائل الداعين لها «وليامسون 1939» (Williamson) وكما كان للحرب العالمية الأولى فضل في تطوير بعض الأدوات وكذلك في الحرب العالمية الثانية طور الجيش الأمريكي في هذه المرة «اختبار التصنيف العام للجيش A.G.C.T».

ومما لاشك فيه أن «كارل روجرز» Carl Rogers يعتبر أحد المعالم البارزة في مسيرة الإرشاد النفسي، وقد أثر روجرز بأفكاره ونظامه وممارسته في الإرشاد تأثيرا لا ينكر. وفكرة روجرز الأساسية والتي أتى بها إلى المجال وأكدها ووجدت أنصار كثيرين لها هي أن الأفراد لديهم القدرة على اكتشاف ذاتهم، وعلى وضع قراراتهم بدون أحكام سلطوية من المرشد، ومن تأثيرات روجرز أنه أدخل التسجيلات الصوتية والمرئية إلى جلسات الإرشاد، الأمر الذي لم يكن معروفا من قبل، وقد نشر روجرز أفكاره الأساسية في كتابيه «الإرشاد والعلاج النفسي: مفاهيم أحدث في الممارسة 1942»، والعلاج المتمركز حول العميل عام 1951.

ولم يكن روجرز يرى ضرورة لتشخيص مشكلات العملاء، أو أن يزودهم المرشد بمعلومات أو توجيهات معينة، فقد أكد على أهمية العلاقة بين المرشد والعميل، وفي مفهومه يكون العميل

أكثر أهمية من المرشد، وبهذا أصبح نظام روجرز يعرف « بالإرشاد النفسي غير المباشر أو غير الموجه Nondirective Counseling.

ومما لاشك فيه أن هذا المدخل قد أثر على مسيرة الإرشاد النفسي كعملية وكمهنة تأثيراً عميقاً نجد آثاره إلى اليوم، وقد تخطت أفكار روجرز ميدان الإرشاد النفسي « الخاص » إلى مجال « العلاقات الإنسانية » في مجال التعلم، ومجال الأسرة، والعلاقات بين الزوجين، وكذلك في مجال العمل بين أصحاب العمل والعمال فيما يعرف الآن بعلاج العلاقات Relation Therapy .

وقد كانت الخمسينات والستينات من هذا القرن مسرح للجدال بين البرامج الإرشادية المعتمدة على نظرية روجرز المتمركزة حول العميل Client Centered في مقابل البرامج الإرشادية المعتمدة على نظرية العوامل والسمات Trait Factored. ومع مرور الوقت و معرفة أهميته و دوره البارز في الميدان أصبحت الحاجة إليه ملحة و ضرورية خاصة إذا ما علمنا أن أهميته تكمن في تقديم العون لمن يحتاج المساعدة على فهم نفسه وتكيفه مع بيئته، وكيفية حل المشكلات واتخاذ القرار، وهو عملية واعية مستمرة ببناءة ومخططة . وتكمن أهمية ذلك في أنه ضرورة من ضرورات الحياة العصرية، وواحد من متربات الحياة الإنسانية المتجددة على مر العصور، والإرشاد يساعد الفرد على أن يسلك بفاعلية وعقلانية، ويصبح أكثر استقلالاً، وأن يكون مسؤولاً عن نفسه ، وعلى إحداث تغيير إيجابي في سلوكه عن طريق فهمه لذاته ، وتحقيق الذات بالتحكم في العواطف السلبية المخيبة للذات مثل: القلق والشعور بالذنب، كذلك مساعدته في تغيير عاداته وسلوكه غير الفعّال، ومساعدته على اكتساب مهارات التواصل الشخصي الفعّال مع الآخرين وتعلّم استعمالها. أيضاً يساعد الإرشاد النفسي الفرد على تحقيق الصحة النفسية، والمقصود هنا بالصحة النفسية بطريقة أخرى أن يكون الفرد متوافقاً ومنسجماً نفسياً، ويشعر بالسعادة مع نفسه ومع الآخرين بحيث يكون قادراً على استغلال قدراته إلى أقصى حد ممكن، وقادراً على التعامل مع مطالب الحياة ومشكلاتها بسلوك فعّال سويّ. واستمر الاهتمام بالإرشاد النفسي بشكل واضح ، وذلك من خلال ازدياد عدد المرشدين ، وازدياد فرص تأهيلهم ، حيث مكنهم ذلك من شغل المراكز الهامة في حقل الإرشاد ، كما ازداد عدد الدوريات والكتب والدراسات في هذا المجال وما تقدمه من خدمات ، وهكذا استمر الحال بهذا العلم بالتقدم والتطور .

و لقد مر الإرشاد والتوجيه في نشأته بمراحل وتطورات مختلفة وهي كالآتي:

2- مراحل الإرشاد و التوجيه:

2أ- مرحلة التركيز على التوجيه المهني:

في هذه المرحلة كان يهدف إلى مساعدة الفرد على اختيار المهنة التي تتناسب وقدراته واستعداداته وميوله ودوافعه وخططه المستقبلية، أي آماله وتطلعاته من أجل إسعاده وتوفير له حياة ريفية والرفع من مرد ودية الإنتاج.

كما أن التوجيه لم يظهر بصور منظمة إلا مع صدور كتاب: «المرشد في اختيار المهنة» في فرنسا خلال القرن التاسع عشر الذي احتوى على بحوث في تحليل العمل و الاستعدادات اللازمة للعمال (عبد الرحمن العيسوي، 2005: 22).

وكان المرشد في هذه الفترة مسيرا للعملية الإرشادية يهتم بالفرد في ميدان العمل وحل المشاكل وتنظيم الخدمات المهنية وتدريب الشباب على التخصصات المهنية.

ويعتبر العالم بارسونز parsons الأب الروحي للتوجيه المهني والذي أشرف على إنشاء أول مكتب مهني بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1908، وصاحب كتاب « اختيار المهنة » سنة 1909 (رسمية علي خليل، 1968: 161).

إن ظهور التوجيه المهني أملتة عوامل متعددة كالتقدم التكنولوجي وظهور تخصصات مهنية معقدة وعدم استقرار العمال في المصانع مع السرعة في التغير. (طه عبد العظيم حسين، 2004: 46).

إن أهم ما يميز هذه المرحلة أنها كانت تهتم بمشاكل العمل والتنظيم الخدمات المهنية وتدريب الشباب على الوظائف المختلفة ووقايتهم من الحوادث والمخاطر، إذ نجد في هذا الصدد إسهامات ج م. لاهي JM.lahague، وس. باكور WS.bakou، وبوناركل bonarkl الذين بينوا توزيع الحوادث بين العمال المعرضين للأخطار المتشابهة والتي لا تقع لعامل الصدفة إطلاقا بل للاستعدادات العمال المهنية التي يمارسها ويظهر هذا من خلال الملصق وكذا الكفاءات التي تجنبهم الأوضاع الخطيرة. (Maurice Reuchlin ,1978)

2ب- مرحلة التركيز على التوجيه التربوي:

إن هذه المرحلة هي امتداد للتوجيه المهني، وكانت تهدف إلى مساعدة الطلبة على اختيار

تخصصات في التعليم تتماشى واستعداداتهم وقدراتهم، وكذا مساعدة الطلبة للتغلب على مشكلاتهم داخل وخارج المؤسسة.

إن ظهور التوجيه التربوي جاء من الفراغ الحاصل بين المعارف التي يتلقاها التلميذ في المؤسسة وما هو واقعي، أي المجال المهني، ليصبح التوجيه أكثر شمولية ويتخلى عن المفهوم المهني متجاوزا إياه إلى مفهوم تربوي يمس جميع جوانب التلميذ ، ويعتبر كيلى ترومان K.truman أول من أعطى مفهوم التوجيه التربوي على انه مساعدة الفرد على اختيار التخصص الذي يتماشى واستعداداته وكذا مساعدته على حل مشاكله في خطوة أولى صحيحة قبل أن تأتي الخطوة الثانية لاختيار المهني الصحيح. (طه عبد العظيم حسين، 2004 : 44).

لقد ركزت هذه المرحلة على تناول الفروقات الفردية للأطفال وميولاهم وخبراتهم وقدراتهم واستعداداتهم .

2- مرحلة التركيز على حركة القياس:

لقد لعبت حركة القياس دورا كبيرا في تطوير الإرشاد والتوجيه، وهذا من خلال دراسة الفروق الفردية بين الأفراد عن طريق الاختبارات والمقاييس النفسية ، إن توظيف القياس النفسي في الإرشاد تمثل في جمع المعلومات والحقائق المتعلقة بالفرد من حياته وظروف نموه ومدى تكيفه وتحصيله الدراسي أو نجاحه في مهنة ما.

كما أن النتائج المحصل عليها من القياس لا تفيد المرشد فحسب بل حتى العميل لمعرفة استعداداته وميولاته من أجل اختيار الوجهة السليمة. (عبد الرحمن العيسوي، 2005: 25) .

2-ث- مرحلة التركيز على التوافق والصحة النفسية:

تميزت هذه المرحلة بدراسة الجوانب المرضية في سلوك الفرد وهذا بعد تدهور الخدمات الصحية بمؤسسات الأمراض العقلية، وفي هذا الصدد كتب كليفورد بيرز Clifford beerz لما كان نزيلا بمستشفيات الأمراض العقلية عام 1908 « العقل الذي اهتدى إلى نفسه » كما قام بإنشاء جمعيات خيرية للصحة القومية.

كما دخلت في هذه المرحلة الخدمات الإرشادية إلى المدرسة وذلك من أجل إعداد التلميذ لتحقيق التوافق في الأسرة و المدرسة و المجتمع، كما كان للجمعيات أيضا دور في تحقيق الصحة

النفسية والتوافق في الوظائف والمهن من خلال إشرافها على الخدمات الإدارية والتعليمية داخل المؤسسات التعليمية (رسمية علي خليل، 1968: 155).

2-ج- مرحلة الإرشاد النفسي:

لقد حدث تطور في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، و الذي صاحب مدارس علم النفس و أصبح يدرس المشكلات الشخصية للفرد. إن هذه الدراسات كانت مدعمة بجهود كارل روجرز من خلال وضعه لكتاب « الإرشاد والعلاج النفسي » عام 1942 وكذا من خلال نظريته: الإرشاد المتمركز حول الشخص والتي سوف نتناولها لاحقا.

و في المؤتمر الذي عقدته لجنة مختصة في سوسوتا قبيل انعقاد المؤتمر السنوي للرابطة الأمريكية عام 1951 أستخدم علم النفس والمرشد النفسي كما أنشأ قسم للإرشاد النفسي في الجمعية الأمريكية و آخر في الجمعية البريطانية وسبق هذا صدور مجلة الإرشاد النفسي عام 1945. (طه عبد العظيم حسين، 2004:46)

إن أغلب ما يميز هذه المرحلة الاهتمام بكل الأفراد سواء الأسوياء أو غيرهم وجميع الفئات العمرية بحيث أصبح الإرشاد النفسي أمراهما في العملية التوجيهية كما يعتبر من أهم أساليب الإرشاد والتوجيه لفهم الفرد. و منه يمكن القول بأن الإرشاد والتوجيه تأثر بعدة تيارات مختلفة و مر بحقب وتسميات مختلفة بعدما أصبح علما قائما بذاته له أعلامه متخصصين مؤهلين، و بالرغم من تداخل هاذين المصطلحين مصطلح سواء من حيث المعنى أو العمليات التي يؤديها كل منهما، إذ كليهما يحمل من حيث المعنى الحرفي الاطلاع والتوعية ومساعدة الفرد على تخطي مشاكله التي تواجهه، كما أن كلاهما مكمل للآخر، إلا أن هناك فروق علمية دقيقة تفرق بين الإرشاد والتوجيه ويمكن تلخيص هذه الفروق في العناصر التالية:

3- الفرق بين الإرشاد والتوجيه:

- الإرشاد النفسي ما هو إلا علاقة بين المرشد والمسترشد قصد مساعدة هذا الأخير على حل مشاكله وتخطي الصعوبات التي تواجهه في مدرسة أو معمل بينما التوجيه هو عملية تتم بين الموجه ومجموعة من الأفراد تختلف باختلاف الأماكن الموجودة بها كموجه ومجموعة من التلاميذ في مدرسة ما أو موجه ومجموعة من العمال في مصنع ما (رسمية علي خليل، 1968:04).

- يعتبر الإرشاد النفسي عملية تلي عملية التوجيه بمعنى أن التوجيه يقوم على إعطاء

المعلومات والتوعية والتعريف بالمكان الجديد للفرد وكذا نظمه وقوانينه بينما الإرشاد يكون كوسيلة وقائية علاجية تتطلب التشخيص والتدريب والكفاءة ومن هنا يصبح التوجيه عملية سابقة للإرشاد والتوجيه.(رسمية علي خليل، 1968:04).

- يتضمن التوجيه النفسي الأسس والنظريات العامة والبرامج وإعداد المسؤولين عن عملية الإرشاد بينما يمثل الإرشاد النفسي الجزئي العملي والتطبيقي لميدان التوجيه (جودت عزت عبد الهادي، سعيد حسني العزة، 1999:15).

- إن الإرشاد النفسي يتطلب مرشدين متخصصين ومدرّبين وكفاءات ومهارات عالية تمكنه من القيام بالعملية الإرشادية على أتم وجه على عكس التوجيه الذي يستطيع أن يقوم به المدرس سواء لمفرده أو مع أولياء وعمل المؤسسة التربوية إذا كان التوجيه مدرسياً أو مدير مصنع أو مسيراً للموارد البشرية إذا كان التوجيه مهني (رسمية علي خليل، 1968:04).

- التوجيه النفسي يكون أكثر في المدرسة والأسرة والمهنة يركز على تقديم المعلومات والخدمات بهدف تحقيق التوافق المهني بينما الإرشاد وسائل متعددة كالملاحظة والمقابلة والاختبارات النفسية ميدانية تكون في غرفة الإرشاد في المدرسة والعيادات النفسية ومراكز الإرشاد

(كاملة الفرخ شعبان، عبد الجابرتيم، 1999:13).

وفي نفس السياق لأبأس أن نشير إلى العلاقة أو الفرق بين خدمات الإرشاد النفسي، وخدمات التوجيه المهني والتربوي.

4- الفرق بين الارشاد النفسي و المهني و التربوي:

وتنصب خدمات التوجيه المهني والتربوي على مساعدة الفرد على دراسة المشكلة التي تواجهه سواء كانت تربوية، كاختيار نوع الدراسة المناسبة، أو التغلب على صعوبة في تحصيل مادة دراسية، أو مشكلة تتعلق بالأداء في الامتحانات أو مشكلة مهنية كاختيار العمل المناسب أو المهنة المناسبة، والمساعدة هنا تتمثل في مساعدة الفرد على تحليل عناصر المشكلة وتوفير المعلومات التي تتصل بها المعلومات الخاصة بوضع المهنة أو العمل في المجتمع، كما توفر خدمة التوجيه التربوي المعلومات الخاصة بقدرات الفرد واستعداداته وميوله، وتنظيم هذه

المعلومات كلها معا والخروج من ذلك بحلول أو توجهات .

وعلى الفرد أن يختار منها الحل الذي يراه مناسباً لظروفه، أي أن اهتمام التوجيه التربوي والمهني ينصب على المشكلة وليس على الفرد، والمشكلة هنا في التوجيه التربوي والمهني ليس لها صبغة انفعالية حادة.

وما ينقص الفرد هنا هو قلة المعلومات والمعرفة والنضج بالدرجة الأولى، بعكس ما هو قائم في خدمات الإرشاد النفسي الذي تنصب جهوده على الفرد وليس على المشكلة، باعتبار أن الفرد في حاجة إلى تغيير في اتجاهاته وقيمه ومشاعره وأساليب تفكيره.

فالمشكلة في الإرشاد النفسي تتمثل في الفرد ذاته، أما في التوجيه التربوي والمهني فالمشكلة خارج الفرد وتتمثل فيما يواجهه من المواقف وعليه أن يختار ما يناسبه من بدائل متاحة، ومع التطورات الاقتصادية والاجتماعية في بداية القرن العشرين وتعدد الآلة الصناعية، تعددت المهن وكثرت ولم يعد من السهل اختيار المهنة فضلاً عن النجاح فيها.

وقد أوجب ذلك ضرورة ظهور الخدمة الإرشادية في مجال اختيار المهنة وزادت أهمية هذه الخدمة، وأصبحت كما عبر عن ذلك «نورس» Norris ضرورة للحفاظ على المجتمع نفسه».

قائمة المراجع المعتمدة:

- 1- جودت عزت عبد الهادي، سعيد حسني العزة (1999)، مبادئ التوجيه والإرشاد النفسي، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، الأردن.
- 2- طه عبد العظيم حسين (2004)، الإرشاد النفسي: النظرية، التطبيق، التكنولوجيا، دار الفكر، الطبعة الأولى.
- 3- كاملة الفرخ شعبان، عبد الجابر تيم (1999)، مبادئ التوجيه والإرشاد النفسي، دار الصفاء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان.
- 4- عبد الرحمن العيسوي (2005)، فن القياس النفسي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.
- 5- رسمية علي خليل (1968)، الإرشاد النفسي، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة.
- 6- Maurice Reuchlin (1978), l'orientation scolaire et professionnelle, presses universitaires de France.

دلالات صدق وثبات غير اللفظية - اختبار كاتل للذكاء نموذجا

حبال ياسين - جامعة سيدي بلعباس

1- مشكلة الدراسة:

يعتمد الباحث في علم النفس وعلوم التربية على جملة من الأدوات القياسية للوصول إلى الحقيقة العلمية ومن بين أهم هذه الوسائل الاختبارات النفسية، التي تعتبر من المهارات الاساسية لنجاح أي مختص نفسي في أي مجال من مجالات علم النفس بصفة عامة والقائم على العملية الإرشادية والتوجيهية بصفة خاصة وهذا بالنظر للمكانة الخاصة التي تحتلها والمصادقية في النتائج المحصلة عليها.

كما أن توظيف الاختبارات النفسية في العملية التربوية أصبح شئ إلزامي وضروري لمعرفة خصائص وميول وقدرات التلاميذ، من أجل مساعدتهم في فهم إمكانياتهم، وتوجيههم نحو المسار الدراسي والمهني الملائم لهذه الاستعدادات، إلا أن إقبال الموجه المدرسي على هذه الاختبارات خلق له صعوبات وعراقيل، كنقص الكفاءات والمهارات، أو عدم توفر المؤسسات على أهم الاختبارات النفسية، أو عوامل ثقافية للاختبارات بحيث لا تتلاءم وثقافة مجتمعنا (بوطاف 1995).

وتعتبر هذه الأخيرة من أهم المشكلات التي تواجه الاختبارات النفسية فلا تخلو من التأثيرات الثقافية التي وجدت فيها، ومن بين أهم الدراسات التي أشارت إلى تأثير عامل الثقافة دراسة حامد عبد السلام زهران (2003)، والتي كانت تهدف للكشف عن مدى وجود مقاييس واختبارات محلية، حيث قام الباحث بطرح سؤال متمثل في: هل معظم الاختبارات والمقاييس أعدت وقتنت محليا؟ وكانت الإجابة بنعم 25، أحيانا 25، لا 50

قام الباحث بالتعليق على هذه النتائج بأنها تشير إلى عدم الاهتمام بإعداد وتوفير الاختبارات والمقاييس وتقنيها بالوطن العربي، حتى وإن وجدت هي مقتصرة على الجامعات ومراكز البحوث الأمر الذي يدعو إلى إعداد وتعريب وتقنين عدد متنوع ومتكامل من الاختبارات والمقاييس العلمية بشتى أنواعها.

هذا ما أثار الباحث للبحث في هذا الموضوع نظرا للحاجة الملحة لتقنين اختبار حتى يصبح

يتماشى والمجتمع الجزائري العربي.

من أبرز الاختبارات نجد اختبارات الذكاء التي تقيس القدرة العقلية على الفهم والتعلم والتدريب على مهنة أو مهارة معينة. (بشير معمريّة، 2003)، ولعل أهمها اختبار كاتل للذكاء، إذ يعتبر هذا الاختبار من بين اختبارات الذكاء التي يستطيع أن يلجأ إليها المختص النفسي المدرسي والمسمى بمستشار التوجيه المدرسي. والذي التي تم تنصيبه في العمل الإرشادي والتوجيهي لمستشار التوجيه وهذا حسب المنشور الوزاري رقم 92/1241/631 المؤرخ في 1992/03/14، رفقة اختبار التحويلات وkrx3TF80، إلا أن هذه الاختبارات تم تطبيقها بدون دراسة أو تقنين أو تكيف بحيث جئ بها مباشرة من البيئة التي أعدت فيها وتم استعمالها في مؤسستنا التربوية.

انطلاقاً مما سبق جاءت الفكرة البحث في هذا الموضوع المعنون بدلالات صدق وثبات الاختبارات غير اللفظية، اختبار كاتل نموذجاً لدى تلاميذ السنة الأولى ثانوي.

منطلقين من التساؤل التالي :

- ✓ هل يوجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام ؟
- ✓ هل يوجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام في الرياضيات؟
- ✓ هل يوجد فروق ذات دلالة إحصائية في الذكاء تعود إلى متغير الجنس؟

2- الفرضيات:

استناداً إلى التراث النظري والدراسات السابقة قمنا بوضع الفرضيات التالية كحلول مؤقتة للإشكالية..

- ✓ يوجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام
- ✓ يوجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام في الرياضيات.
- ✓ هل يوجد فروق ذات دلالة إحصائية في الذكاء تعود إلى متغير الجنس.

3. تحليل مفاهيم الدراسة نظريا

1.3 الذكاء

يعتبر مصطلح الذكاء من أقدم المفاهيم نشأة، وذلك لارتباطه بالعديد من التخصصات كالبيولوجيا والفلسفة وعلوم التربية وعلم النفس، حيث أُخضع للتجربة والقياس، وكونه اكتسب قدرا كبيرا من اهتمام المختصين تعددت تعاريفه نعرض بعضها فيما سيأتي:

- يعرفه فريمان (fremen) « قدرة عضوية يركز على أساس العضوي، وتكيف الفرد أو توافقه مع البيئة، والقدرة على التعليم أي عن طريق اكتساب الخبرات والمهارات والمعارف نتيجة المحاكاة والتقليد». (عباس، 14: 2002)

- ويعرفه بينه ALFRED BINET «الذكاء هو القدرة على الفهم والابتكار والتوجه الهادف للسلوك والنقد الذاتي». (عشوي، 1994، ص 212).

- ذهب كروز (cruze) في تعريف الذكاء على أنه: «هو القدرة على التوافق للملائم للمواقف الجديدة المختلفة مع وجود الفوارق بين الفرد وفرد في قدرته». (عطوف، 1987).

من خلال مجمل التعاريف السابقة نصل إلى القول أن الذكاء هو مدى قدرة الفرد على التكيف مع المواقف وإيجاد الحلول.

2.3 تعريف الاختبارات النفسية:

تعتبر الاختبارات النفسية من الوسائل القياسية الأكثر استعمالا وشيوعا في البحوث النفسية والتربوية وتحمل كلمة اختبار أكثر من معنى ومدلول جعل من القائمين على ميدان القياس النفسي يختلفون في إعطاء تعريف موحد للاختبار النفسي وسوف نحاول من خلال التعاريف التي نوردتها المقاربة بين أهمها:

إذ يقول في هذا الصدد كوربناخ ((Cronbach 1984) أنه لا يوجد هناك تعريف مقنع للاختبار، وكلمة اختبار عادة ما توحى في الذهن أنه عبارة عن سلسلة من الأسئلة المقنعة التي تعرض على شخص معين ويطلب منه الإجابة عنها كتابيا أو شفويا « كما يعرف أيضا على أنه «طريقه منظم لمقارنة سلوك شخصين أو أكثر» (معمرية 2007 : 90).

تعريف أنا ستازي (ANASTASI) الاختبار النفسي «بأنه مقياس موضوعي مقنن لعينة من

السلوك وكلمة سلوك هنا قد تعكس سمة من سمات الشخصية كالانبساطية والانطوائية أو قد تعكس مجموعة من الأدوات الحركية على أعمال أو أجهزة معينة كالكتابة على الآلة الراقنة لقياس مهارة الأصابع مثلاً» (بوطاف، 1995).

ويعرف جون أنيت (J.ANNETT) «بأنه مهارة أو مجموعة من المهارات التي تقدم إلى الفرد في شكل مقنن والتي تنتج درجة أو درجات رقمية حول شيء تطلبه من المفحوص لكي يحاول أدائه» (مقدم ، 2003: 22).

ويعرف الاختبار النفسي أيضا على أنه «إجراء منظم لقياس عينة من السلوك أو هو إجراء منظم لملاحظة ووصف سمة أو أكثر من سمات الفرد بالاستعانة بمقياس أو نظام تصنيف معين» (النبهان، 2004: 421)

◀ الدراسة الميدانية

1- منهج الدراسة:

بغرض إنجاز الدراسة وتحقيق أهدافها، اعتمد الباحث على المنهج الوصفي لظاهرة باعتباره المنهج الأصلح لمثل هذه الدراسات.

2- أدوات الدراسة:

اعتمد الباحث من أجل تحقيق هدف الدراسة والمتمثل في قياس الذكاء عند تلاميذ السنة الأولى ثانوي، على اختبار كاتل المستوى الثالث الصورة أ. من إعداد (فؤاد أبو حطب وآخرون)

1.2- وصف الاختبار:

الاختبار أعده ريموند كاتل وآخرون سنة 1957، وهو من الاختبارات المتحررة من عامل الثقافة، وله ثلاثة مستويات المقياس الأول يطبق على الأطفال الذين أعمارهم تتراوح من 4 سنوات إلى 8 سنوات والراشدين المتخلفين ذهنيا، والمقياس الثاني للأعمار من 8 سنوات إلى 13 سنة والراشدين العادين، والمقياس الثالث من سن 13 إلى 19 سنة والراشدين المتفوقين.

2.2- تعليمية الاختبار

تهيئة الجو المناسب للاختبار مع إعطاء ما يلزم من توجيهات بشأن مكونات الاختبار، والزمن المحدد لكل فرع وكيفية التعامل مع الورقة.

3.2- طريقة التصحيح:

- الجواب الصحيح يعطى علامة نقطة.
- الجواب الخاطئ لا يعطى علامة.
- الإجابة المتعددة لنفس العلامة لا تعطى علامة.

3- الخصائص السيكمترية للأداة:

1.3- الصدق والثبات للمقياس:

نُقل المقياس الثاني إلى اللغة العربية من طرف احمد عبد العزيز سلامة، وعبد السلام عبد الغفار وكما أشار مرجع فؤاد أبو حطب إلى أنه لا تتوفر فيه بيانات التقنين، أما فيما يخص المقياس الثالث فقام بنقله إلى اللغة العربية فؤاد أبو حطب وآخرون، وقام بتقنيته مجموعة من الطلاب في الماجستير والدكتوراه .

كما استخدمت كذلك آمال صادق المستوى الثاني والثالث في دراستين عاملتين للقدرة على الموسيقى وجدت تشبع المقياس بالعامل العام في مجموعتين من عينتين مصريتين أحدهما من الأطفال ومجموعة من المراهقين والراشدين، وقياس هذه الاختبارات للعامل العام هو الغرض الأساسي التي تقوم عليه اختبارات كاتل متأثرا في ذلك بنظرية أستاذ سييرمان. (أبو حطب، 1999)

4- حساب الخصائص السيكمترية في الدراسة الحالية:

1.4- الصدق

تم الاعتماد على حساب الصدق التكويني الفرضي (الصدق التمييزي)، والذي يقصد به قدرة الاختبار على التمييز بين الأفراد الذين يملكون الصفة أو السمة والأفراد الذين لا يملكون الصفة أو السمة.

تم حساب صدق التمييزي الاختبار وذلك بتطبيق اختبار «ت» (T) للفروق بين 27% من الأفراد الذين يملكون أعلى درجة أو 27% من الأفراد الذين يملكون أدنى درجة وهذا بعد ترتيب درجات الأفراد تصاعديا من أدنى درجة إلى أعلى درجة.

وفيما يلي الجدول رقم (01) يوضح تميز الاختبار بين الفئتين

الفئتين	ن	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة «ت»	مستوى الدلالة
27 % من الأفراد الذين تحصلوا على درجة مرتفعة	06	20	3.96	3.20	دالة عند مستوى دلالة معنوية 0.01
27% من الأفراد الذين تحصلوا على درجات منخفضة	06	15.06	4.58		

الجدول رقم (01) :يوضح الصدق التمييزي للاختبار كاتل للذكاء الصورة.أ.

يظهر من خلال الجدول أن الاختبار قادر على التمييز بين الأفراد، حيث كان المتوسط الحسابي للأفراد الذين تحصلوا على درجة مرتفعة 20، وانحرافهم المعياري 3.96، في حين كان المتوسط الحسابي 15.06، وانحرافهم المعياري 4.58 للأفراد الذين تحصلوا درجات منخفضة، وبلغت قيمة (ت) 3.20 وهي قيمة دالة إحصائية عند مستوى 0.01، وذلك لصالح الأفراد الذين تحصلوا على درجات مرتفعة

2.4- الثبات:

في خطوة ثانية قام الباحث بحساب ثبات المقياس وذلك بطريقة ألفا كرونباخ والتجزئة النصفية

الرقم	المقياس	ألفا كرونباخ	التجزئة النصفية	تصحيح الطول بسبرمان براون	تصحيح الطول بجتمان
01	كاتل للذكاء المستوى الثالث صورة أ.	0.67	0.62	0.77	0.77

جدول رقم (02): يوضح ثبات المقياس وذلك بطريقة ألفا كرونباخ والتجزئة النصفية

يتبين من خلال الجدول أن أبعاد المقياس تتمتع بمعاملات ثبات قوية تمتد من 0.62 إلى 0.77، وهذا ما يشير إلى توفر المقياس على درجة عالية من الثبات.

5- الإطار المكاني والزمني للدراسة:

1.5- الإطار المكاني للدراسة (نطاق الدراسة):

أجريت الدراسة بسيدي بلعباس.

2.5- الإطار الزمني للدراسة:

استغرقت الدراسة الأساسية حوالي شهر (خلال سنة 2014، 2015)

6- عينة الدراسة وطريقة اختيارها ومواصفاتها:

يتمثل المجتمع الذي اتخذته الباحثة مجالا بشريا لبحثه في عينة من تلاميذ ثانوية عزة عبد القادر بسيدي بلعباس، ولقد تم اختيار عينة البحث بطريقة مقصودة.

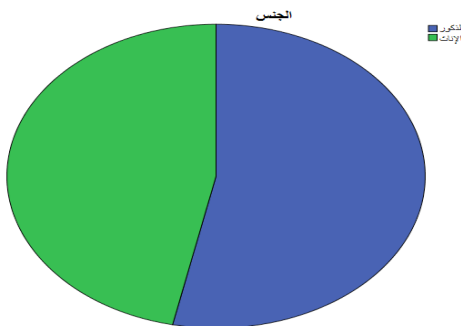
يبلغ عدد أفراد عينة الدراسة (60) تلميذ وتلميذة، ينتمون إلى الأقسام العلمية.

والجدول التالي يوضح تكرارات أفراد العينة حسب متغيرات الدراسة.

الجنس	العدد	النسبة المئوية
ذكور	32	53.3%
إناث	28	46.7%

الجدول رقم (03) يوضح تكرارات أفراد العينة

الرسم البياني يوضح توزيع أفراد العينة



7- عرض نتائج الدراسة

بعد عملية تطبيق أدوات البحث على عينة الدراسة الأساسية وجمع المعطيات، قام الباحث باستخدام المؤشرات الإحصائية المناسبة للدراسة، بهدف اختبار فرضيات البحث أو نفيها وتحصل على النتائج التالية والتي تم فيها معالجة البيانات الإحصائية.

1.7- عرض الفرضية الأولى :

لا يوجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام

لتأكيد أو نفي هذه الفرضية استعمل الباحث معامل الارتباط بين درجات التلاميذ على اختبار كاتل للذكاء المستوى الثالث ومتوسط السداسي الأول مع السداسي الثاني في التحصيل الدراسي العام .

الارتباط	ن	معامل الارتباط ر	مستوى الدلالة
درجات الاستبيان	60	0.98	0.01
المعدلات الفصلية للسداسي الثاني للقسم			

الجدول رقم (04): معامل الارتباط بين درجات التلاميذ على اختبار كاتل للذكاء المستوى الثالث ومتوسط السداسي الأول مع السداسي الثاني في التحصيل الدراسي العام

يلاحظ من خلال الجدول ان قيمة ر كانت 0.98 وهي دالة عندي مستوى دلالة 0.

2.7- عرض نتائج الفرضية الثانية:

لا يوجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام في الرياضيات.

لتأكيد أو نفي هذه الفرضية استعمل الباحث معامل الارتباط بين درجات التلاميذ على اختبار كاتل للذكاء المستوى الثالث ومتوسط السداسي الأول مع السداسي الثاني في التحصيل الدراسي في مادة رياضيات .

الارتباط	ن	معامل الارتباط ر	مستوى الدلالة
اختبار كاتل المستوى الثالث.أ.	60	0.58	0.01
المعدل في الرياضيات			

الجدول رقم (05): معامل الارتباط بين درجات التلاميذ على اختبار كاتل للذكاء المستوى الثالث ومتوسط السداسي الأول مع السداسي الثاني في التحصيل في مادة الرياضيات .

يتجلى لنا من خلال الجدول أن قيمة ر كانت 0.58 وهي دالة عندي مستوى دلالة 0.01

3.7- عرض نتائج الفرضية الثالثة:

لا يوجد فروق ذات دلالة إحصائية في الذكاء تعود إلى متغير الجنس.

للتأكد من صحة هذا الفرض قام الباحث بالمقارنة بين متوسطات درجات التلاميذ (ن=32)، ومتوسطات درجات التلميذات (ن=29) في درجاتهم على اختبار كاتل للذكاء المستوى الثالث باستخدام اختبار (ت) للفروق والجدول الآتي يوضح ذلك بنوع من التفصيل

الاختبار	الجنس	ن	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة ت	مستوى الدلالة
اختبار كاتل للذكاء المستوى الثالث	الذكور	32	16.15	3.55	0.02	غير دالة
	الإناث	29	16.13	3.34		

الجدول رقم (06) يوضح نتائج اختبار ت للدلالة الفرق بين متغير الجنس.

يتضح من خلال الجدول رقم (06) المتعلق بنتائج اختبار (ت) لدلالة الفرق في اختلاف الذكاء يعود إلى متغير الجنس، حيث كان المتوسط الحسابي للتلاميذ ذكورا (ن=32) يقدر بـ16.15 درجة، بينما التلميذات إناثا (ن=29) يقدر بـ 16.13 درجة، وقد بلغت قيمة ت

المحتسبة 0.02 وهي غير دالة إحصائياً.

8- مناقشة النتائج:

توصلت نتائج الدراسة المبينة في الجدول رقم (4) والجدول رقم (5) أن هناك علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الذكاء والتحصيل الدراسي، سواء كان تحصيل دراسي عام أو تحصيل في مادة الرياضيات.

إضافة إلى ذلك يعتبر الذكاء من العوامل للتنبؤ بالتحصيل الدراسي وهذا ما بينته كذلك دراسة محمد عبد الغفار (1982)، وعليه يمكن اعتبار اختبار كاتل للذكاء على أنه أداة قياس صالحة لمعرفة درجة الذكاء عند التلميذ.

كما أشارت نتائج الدراسة كذلك إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في الذكاء تعود إلى متغير الجنس، وهذا ما بينه الجدول رقم (06)، إلا أن هذه النتائج تختلف مع الكثير من الدراسات التي وجدت فروق في الذكاء تعود إلى متغير الجنس وهذا يعود إلى بنية المخ. (النيال، دويدار، 2008).

خلاصة:

من خلال هذه الدراسة المعنونة بـ: «قياس الذكاء بواسطة اختبار كاتل المستوى الثالث الصورة أ.» ثبت وتبين أن الذكاء هو كغيره من القدرات العقلية يمكن قياسه، والوسيلة أو الأداة الأنسب إلى ذلك هو اختبار كاتل المستوى الثالث، كما أن هناك علاقة قوية بين الذكاء والتحصيل الدراسي العام أو التحصيل في مادة الرياضيات، ولا يوجد فروق في الذكاء تعود إلى متغير الجنس.

قائمة المراجع:

1. بشير معمري (2007)، القياس النفسي وتصميم أدواته، منشورات الحبر، الطبعة الثانية، باتنة.
2. حبال ياسين (2010)، واقع الاختبارات النفسية في العمل الإرشادي والتوجيهي بالمؤسسات التربوية، وهران.
3. رشاد منصوري صالح (1995)، النشأة الاجتماعية، والتأخر المدرسي دراسة في علم النفس الاجتماعي والتربية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية بدون طبعة،
4. سنوسي الشيباني عمر محمد (1990)، التعلم وقضايا المجتمع العربي المعاصر، طبعات جامعة قاريونس، بدون

طبعة.

5. السيد خير الله (1974)، بحوث نفسية وتربوية، دار النهضة العربية، بيروت، بدون طبعة.
6. عطوف محمود ياسين (1987)، اختبارات الذكاء والقدرات العقلية بين التطرف والاعتدال، الطبعة الأولى، دار المسيرة للنشر والتوزيع.
7. فؤاد أبو حطب، سيد أحمد عثمان، آمال صادق (1999)، التقويم النفسي، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
8. فيصل عباس (2002)، الذكاء والقياس النفسي في الطريقة العيادية، الطبعة الأولى، دار المنهل اللبناني.
9. مایسة أحمد النیال، عبد الفتاح دويدار (2011)، علم النفس المعملی-الذكاء- القدرات العقلية، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية.
10. مصطفى عشوي (1994)، مدخل الى علم النفس المعاصر، الطبعة الأولى، ديوان الوطني للمطبوعات الجامعية.
11. مقدم عبد الحفيظ (2003)، الإحصاء والقياس النفسي والتربوي مع نماذج من المقاييس والاختبارات، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر.
12. المنجد في اللغة والإعلام (1986)، طبعة جديدة ومنقحة، دار الشروق بيروت الطبعة السابعة والثلاثون.
13. موسى النبهان (2004)، أساسيات القياس في العلوم السلوكية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عمان، الأردن

العنف الاسري وعلاقته بالتفاعل الاجتماعي عند المراهق.

جدوي زهية - جامعة سعيدة

مقدمة:

مما لا شك فيه أن الأسرة مازالت الركيزة والدعامة الأساسية التي يبنى عليها أي مجتمع رغم كل الإختلالات التي طرأت على أدوارها ، فهي بمثابة المعلم الأول للطفل الذي ومنذ لحظة الأولى يجد نفسه وسط أسرة يأخذ منها معايير وقيمه ، وأساليب تواصله مع الآخرين وأهمّات التفكير والسلوك .

وأساليب الأسرة في التنشئة متنوعة مابين الإهمال والعقاب والتسامح والعنف ...ولا يخفى علينا أن آثار العنف الممارس في الأسرة لا تبقى حبيسة المنزل وإمّا تمتد لتطال المجتمع باعتبار العلاقة الوطيدة التي تجمعها بالأسرة، فهو يعتبرها أمضى سلاح يعتمد في بناء شخصية أفرادها وتنشئتهم السليمة هذا طبعا يعتمد على مدى تماسك هذه الأسرة وانسجامها وتفانيها في خدمته ، فالأسرة إذا وفرت لأبنائها جوا نفسيا آمنا ستخلق فيهم مشاعر الثقة والحب في احتضان المجتمع ، أما إذا حدث العكس وعم هذه الأسرة العنف والقسوة فإنها ستساهم في سلبية أفرادها نحوه من خلال سلوكياتهم التي قد تتميز بالعدوانية و الانسحابية والخوف والقلق ، وقد تؤدي بهم إلى الانحراف وبالتالي تزيد من عبء هذا المجتمع .

فهذه الدراسة تحاول الإجابة عن بعض التساؤلات من بينها كيف يمكن للعنف الأسري أن يؤثر على مفهوم الذات ؟ وما آثار ذلك على علاقات المراهق الاجتماعية؟ وهل يتقمص هذا المراهق السلوكيات العدوانية من الأسرة ؟ وكيف تؤثر هذه الأخيرة على تفاعله؟ وكيف من شأن العنف أن يحد من العلاقات الاجتماعية ؟ وهل له دور في عزلة المراهق عن أقرانه؟ والحد من حاجته للانتماء الأسري خصوصا والاجتماعي على وجه العموم ؟ كل هذه التساؤلات الفرعية كانت بمثابة مؤشرات للإجابة عن تساؤل رئيسي وهو ماعلاقة العنف الأسري بعملية التفاعل الاجتماعي عند المراهق ؟.

أسس البحث:

التفاعل يعني القدرة على خلق علاقات اجتماعية إيجابية متبادلة مع عدة أفراد تتسم

بالتجاذب قوامها الحب والتعاون والاتصال ،هذا الاتصال الذي صار غائبا في أسرنا الجزائرية وحل محله عنف وقسوة لا نستطيع القول أنهما جديان على المجتمع والأسرة الجزائرية ، وإنما نقبل بتفسير عدي الهواري الذي يرى أن دوامة العنف التي عرفت الجزائر وتعرفها مردها الرابطة الاجتماعية التي تربط الفرد الجزائري بالدولة كقيمة ورمز ، وأن شروط الانتماء إلى هذه الدولة تقوم على التقسيم الاجتماعي للعمل والمواطنة، وأن هناك خلل في هذه الرابطة ، ويذهب إلى أبعد من ذلك حيث يرى أن الانتماء من الضروريات في تحديد سلوكيات الأفراد ، وفق الجماعة المنتمى إليها ، وما فقده الجزائري هو حقيقة انتمائه للأمة الاسلامية برموزها الروحية والأخلاقية . (حنيفة صالح بن شريف ، 2008 : 41)

فكيف لهذا الفرد الذي هو أب أن يحس بانتمائه لأسرته وأن يسعى جاهدا للحفاظ عليها إذا كان فاقدا لرموز الانتماء العليا والسامية ؟ وكيف يستطيع أن يمنح ويثبت هذا الشعور في أطفاله ؟ ولعل هذا ما يوضح حالة الأوضاع والعلاقات الزوجية التي أصبحت تتسم بالتفكك والانحلالية أكثر واتخاذ العنف كأقرب الحلول وأسرع الوسائل للاتصال.

حيث يقول مصطفى حجازي بأن العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين حيث يحس الفرد بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي ، وحيث تترسخ القناعة لديه بالفشل في إقناعهم بكيانه وقيمه (طه عبد العظيم حسين ، 2008 : 17)

فيجد هذا المراهق نفسه في دوامة من العنف تنطبع آثارها على شخصيته لا شعوريا ، فتجعل منه إنسانا عدوانيا ، وهذا ما يعرف بالتماهي بالمعتدي حسب بتلهاييم ، فهو عبارة عن آلية دفاعية يستعملها الفرد عند تعرضه لخطر من شخص أقوى منه (جان لابلانش ، ج ب بونتاليس ، 1985 : 199) وهذه هي حالة المراهق في مواجهته لعنف أسرته وجبروت المعتدي عليه خصوصا إذا كان أحد أفراد الأسرة .

وفي هذا الصدد يرى كورت لوين أن كل فرد هو بمثابة عضوية خاضعة لقوى ، وأن هذه القوى يمكن أن تكون خارجية كضغوط المحيط أو داخلية راجعة لتاريخ الفرد ، هذه القوى تعمل على خلق ضغوط فيحاول الفرد التخفيف من هذه الضغوط بتبني سلوكات معينة منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي ، فإذا كانت هذه القوى إيجابية بمعنى أنها مرتبطة بحاجات الإنجاز وتحقيق الذات وبلوغ الأهداف ، فإن سلوك الفرد سيتميز بالاقتراب والتجاذب ، أما إذا

كانت هذه القوى سلبية بمعنى أنها قد تؤدي إلى الانحراف عن الأهداف أو تهدد وضعية الفرد فإنها ستؤدي بالفرد إلى التجنب أو النفور .

(Jean Claud Abric, 1999 :10)

فرضيات البحث:

لقد اعتمدنا على الفرضيات التالية :

الفرضية الأساسية : يؤثر العنف الأسري سلبا على عملية التفاعل الاجتماعي عند المراهق

الفرضيات الفرعية:

1- يؤثر العنف الأسري سلبا على مفهوم الذات للمراهق فيقل تقديره لذاته ويشعر بالعجز والدونية ، ولا يتمكن من إقامة علاقات اجتماعية عميقة مع الآخر .

2- يتقمص المراهق السلوكيات العدوانية من النماذج الأبوية المقدمة من الأسرة وعدوانيته هذه تنفره من الآخر فتضطرب علاقته به.

3- يشعر المراهق المنحدر من أسرة تتبنى أسلوب العنف بالعزلة والانسحابية نتيجة المواقف المحبطة التي يعيشها في هذه الأسرة والتي تؤثر سلبا على علاقاته بالآخر .

4- يؤثر العنف الأسري سلبا على حاجة الانتماء عند المراهق سواء الانتماء الأسري ، فيشعر بعدم الرغبة في البقاء في أسرته ومحاولة الهروب منها أو الاجتماعي بالحد من جماعات الأقران .

التعريف الاجرائية للمفاهيم :

التفاعل الاجتماعي: هو القدرة على خلق علاقات اجتماعية مشبعة مع الآخرين قوامها الحب والتعاون والتفاهم والمشاركة الاجتماعية.

مفهوم الذات :هو التكوين المعرفي المدرك والأحكام التي يحملها الفرد عن ذاته والتي تحدد علاقاته الاجتماعية بالآخرين .

المراهق : هو فرد يمر بمجموعة من التغيرات المختلفة (فيزيولوجية ، نفسية ، اجتماعية) حسب ثقافة المجتمع بهدف اكتمال نضجه ، تعرض لعنف أسري في هذا البحث ويتراوح عمره من 13 الى 17 سنة .

الأسرة: هي مجموعة من الأفراد تربط بين اثنين منهم علاقات الزواج والإنجاب ، تقوم بوظائف يخولها لها المجتمع وتعكس سلامة تفاعلات أفرادها داخليا صحة تفاعلاتهم خارجيا .

العنف : هو لغة استعمال القوة مع الآخر بهدف اخضاعه كما هو مقياس من خلال استمارة تضم 5 أبعاد وهي : بعد الاساءة المعنوية ، بعد الاساءة البدنية ، بعد اللامبالاة بالمراهق ، بعد عدم الشعور بالأمن النفسي ، بعد التدخل في خصوصية المراهق .

العنف الأسري: هو إساءة شديدة قوية موجهة إلى الزوجة أو الأبناء من طرف رب الأسرة وتتراوح هذه الإساءة ما بين الأذى الجسدي والنفسي والجنسي والاقتصادي.

العزلة الاجتماعية: هي ابتعاد الفرد عن الآخرين وامتناعه عن عقد علاقات اجتماعية معهم تنم عن نقص نمو اجتماعي.

الانتماء الاجتماعي :تبنى تعريف حامد عبد السلام زهران الذي يعرف الانتماء على أنه حاجة ودافع وشعور وسلوك مؤداه علاقة تقبل وانتساب وارتباط وتمثل ، وتوحد وتعاون ومسؤولية والتزام وتقدير وتفضيل وود وصداقة وحب مع الجماعة وولاء للمجتمع .

(حامد عبد السلام زهران ، 2003 : 403)

التقليد: هو المحاكاة الشعورية لصفات الآخر كأن يقلد الطفل سلوكات أبيه العدوانية .

التماهي: هو التقمص اللاشعوري لصفات الآخر كأن يتقمص الطفل سلوكات أبيه العدوانية

التماهي بالمعتدي : هو تماهي الضحية بالمعتدي من خلال تبني سلوكاته العدوانية قصد إزاحة الخطر عن الذات .

طريقة إجراء الدراسة:

بهدف التأكد من صحة الفرضيات السابقة من عدمها كان لزاما علينا القيام بدراسة استطلاعية لمؤسسة تربوية من أجل ملاحظة تفاعل المراهقين الاجتماعي مع الأقران واختيار حالات معنفة أسريا ، كما أن تدخلنا كان أيضا على مستوى الأسرة لمعرفة مدى تفاعل هؤلاء الأفراد المعنفين ايجابيا مع ذويهم ، وقد حاولنا صياغة استمارة لمساعدتنا على اختيار الحالات المتمثلة في مراهقين معنفين أسريا وهذا نظرا لحساسية الموضوع وعدم التصريح العلني للتلاميذ

بأنهم ضحايا عنف أسري إما لخوفهم من الوالد المعتدي أو خوف التشهير بهم .

عينة الدراسة :

لقد تم اختيار أفراد عينة البحث بطريقة مقصودة عن طريق الاستمارة التي تحتوي على 61 سؤالاً ، وبما أن هدف هذا البحث هو دراسة تأثير العنف الأسري على المراهق فقد تم اختيارنا لأفراد مراهقين ويعانون عنفاً أسرياً ، ولقد اخترنا العينة انطلاقاً من إشكالية البحث فهي عبارة عن حالات مراهقة متمدرسة ، تعاني عنفاً أسرياً منذ طفولتها المبكرة من كلا الجنسين ذكراً وثلاث إناث يتراوح عمرهم من 13 إلى 17 سنة ، هي كل ما استطعنا الحصول عليه نظراً لحساسية الموضوع ودرجة الخوف الكبير من الأولياء ، وقد منعنا ضيق الوقت من البحث عن حالات أخرى لاقتراب موعد الامتحانات ، لأن دراستنا شملت فترة نهاية الثلاثي الثالث ، وقد كان بالإمكان انتظار موسم دراسي جديد إلا أن المشكلة تكمن في إمكانية تغيير التلاميذ ومن بينهم الحالات للأقسام في الموسم الجديد وبالتالي تكون بداية تكون علاقات جديدة ليست وطيدة بقدر ما تكون في نهاية الموسم الدراسي .

وقد تم اختيارنا لمراهقين معنفين أسرياً متمدرسين لسهولة إيجاد حالات معنفة في المدرسة ، وهي مؤسسة تربوية عوض البحث عنها في الشارع ، كذلك لسهولة دراسة التفاعل الاجتماعي فيها باعتبار أن الحالة يجتمع فيها بزملائه ويعقد معهم علاقات عوض البحث عن أصدقاء وأقران من الشارع ، وهذا من شأنه أن يسبب صعوبات جمة تحول دون إتمام هذا البحث والتي ربما تكون هذه العلاقات مصطنعة بحضورنا من خلال اصطناع سلوكيات الحب والتقرب من الحالة أو العكس أي اظهار العدوانية الشديدة لها باعتبارها مركز اهتمام من طرفنا .

كذلك المدرسة تسهل علينا الحصول على معلومات من الأساتذة والمساعدات التربويين والتي تتسم بالمصداقية العلمية مقارنة بالمعلومات التي يمكن أن نحصل عليها من الشارع .

كذلك لإعطاء الشرعية لحضورنا كمختصة نفسية للمدرسة ومن ثم إعطاء الشرعية لزيارة أسرة الحالة عوض الكلام مع الحالة في الشارع والذي قد يسبب له بعض الإحراج مع أقرانه وأيضا من الممكن أن يقابل طلبنا لزيارة المنزل بالرفض لإعتبار الباحثة مجهولة .

أدوات البحث :

لقد استخدمنا في الدراسة الاستطلاعية الاستمارة من أجل تحديد الحالات المعنية بالعنف

الأسري ، تضم هذه الاستمارة 61 سؤالاً تغطي 5 أبعاد محددة لأنواع العنف الأسري وهذا طبعا بعد الاطلاع على الدراسات والمراجع في هذا الموضوع وهي كالتالي :

-بعد الإساءة المعنوية 12 سؤالاً

-بعد الإساءة البدنية 12 سؤالاً

-بعد اللامبالاة بالمراهق 13 سؤالاً

-بعد عدم الشعور بالأمن النفسي 14 سؤالاً

-بعد التدخل في خصوصية الآخر 10 أسئلة

وقد تم تطبيق الاستمارة في مرحلة أولى على 60 تلميذا بإشرافنا أين قمنا بشرح بعض الأسئلة غير المفهومة والتوضيح لهم أن المعلومات سرية للغاية وتستخدم بهدف البحث العلمي فقط ، على أن يتم تطبيقها في مرحلة لاحقة على تلاميذ آخرين ، لكن تفاجأنا بعد الفرز باحتواء حوالي 20 استمارة على أكبر عدد من الاجابات الدالة على الإساءة ، قمنا بحساب النسبة المئوية للإجابات الدالة على الإساءة ، وكخطوة ثانية قمنا بإجراء مقابلات أولية مع 20 حالة تعاني عنفا أسريا متفاوت الشدة ، اتسمت المقابلات بالتجاوب والرغبة في الكلام عن المشاكل الأسرية ، ولكن سرعان ما تراجعت كل الحالات عندما علمت أن تدخلنا سيكون على مستوى الأسرة بسبب الخوف الشديد من الوالدين ، وبعد تدخل المساعدة التربوية تم إقناع 5 حالات وهي ممثلة حسب نظرنا بإجراء مقابلات معنا والسماح لنا بزيارة المنزل في غياب الوالد ، وبما أن هدف هذا البحث يكمن في اكتشاف انعكاسات العنف الأسري على علاقات المراهق الاجتماعية خصوصا في المدرسة مع الزملاء وأهمية التفاعلات الداخلية الأسرية ، فهو ذو بعد نفسي اجتماعي اعتمدنا من خلاله على المنهج الاكينيكي الذي يعتمد بدوره على منهج دراسة الحالة ، وقد اعتمدنا على المقابلة كأداة لجمع المعلومات خصوصا المقابلة نصف الموجهة لأنها تتيح للحالة الكلام عن مواضيع متعلقة به عوض الإجابة عن أسئلة والتي تكون محددة وتمنعه من التحدث عما يريده وتشعره بالملل من خلال سؤال وجواب، وأهم المحاور التي احتوى عليها دليل المقابلة تمثلت في :

-البيانات العامة عن الحالة وأفراد أسرته.

-طبيعة العلاقات في الأسرة وموقف الحالة منها .

-أنماط وأساليب تعامل الحالة داخل الأسرة .

-أنماط وأساليب تعامل الحالة خارج الأسرة مع الزملاء في المدرسة وأصدقاء الشارع

-مشاريع الحالة الحالية والمستقبلية .

-وجود معنى للعائلة في حياة الحالة .

بالإضافة إلى المقابلة اعتمدنا أيضا على الملاحظة سواء المباشرة أو غير المباشرة من خلال ملاحظة سلوك الحالة أثناء المقابلات بما فيه من تحركات وملامح وجهه ، انطباعاته عند كل مقابلة ، سلوكاته في الساحة وتعامله مع أصدقائه ...وملاحظة غير مباشرة من خلال الاعتماد على ملاحظات الأساتذة للحالة أثناء الدرس في القسم وطريقة تعامل الحالة مع الأساتذة وملاحظاتهم عنها أثناء الاستراحة وسط الزملاء، وملاحظة الأولياء لسلوك الحالة وأهم الخصائص التي يتميز بها وملاحظة بعض الأصدقاء .

عرض النتائج :

نتائج الحالة الاولى :

الحالة الاولى	نسبة العنف	السن	المستوى الدراسي	وضعية الاب	وضعية الام	السلوكات الملاحظة على الحالة
أحمد	93.44%	17	الثانية متوسط نتائج ضعيفة	أب عاطل عن العمل أمي عنيف جدا يضرب كل أفراد العائلة	ربة بيت مستوى التاسعة أساسي تعاني من ضرب الزوج وإهماله لأولاده ام سلبية جدا.	-الهروب المتكرر من المنزل- مستقبل غامض ومجهول- الحرق أو الموت-ومحاولة انتحار-عنيف في سلوكاته اليومية مع زملائه ويضربهم كثيرا ولا يحب التواصل معهم-مهمل عديم الرغبة في العمل ومحب للسيطرة- رغبة في قتل الوالد-كثير الحركة ولغة جسد غنية جدا.

نتائج الحالة الثانية :

الحالة الثانية	نسبة العنف	السن	المستوى الدراسي	وضعية الاب	وضعية الام	السلوكات الملحظة على الحالة
مريم	68.85%	17	الثانية متوسط	خضار مستوى ثانية متوسط عنيف يضرب الأولاد-مقصر في واجباته المادية والمعنوية- لديه زوجة أولى وأبناء	تعمل منظفة أمية هي من يؤمن مصاريف البيت- يضربها الزوج كثيرا	-قليلة الكلام ومتحفظة- تكره الوالد وكثيرة الشجار معه- حاولت الهروب عدة مرات- خجولة مبالغة في استعمالها لمساحيق التجميل-التدخين خارج المدرسة-مستقبل غامض-احساس بالنقص مقارنة بزميلاتهما

نتائج الحالة الثالثة :

الحالة الثالثة	نسبة العنف	السن	المستوى الدراسي	وضعية الاب	وضعية الام	السلوكات الملحظة على الحالة
سميرة	81.96%	13	سنة ثانية متوسط- نتائج ضعيفة	عاطل عن العمل ومعطوب مستوى 3 ابتدائي- مدمن مخدرات- عنيف جدا-ضرب الابنة بسكين- وضرب الزوجة بمفك البراغي	أمية تعمل منظفة-تتكفل بكافة مصاريف البيت-يضربها أمام الجيران وفي الشارع -طلبت الطلاق لكن شرطه التخلي عن كامل حقوقها- أم قاسية	كثيرة الصمت- خجولة- لا تحب البقاء في المنزل خوفا من والدها -تتمنى أن تكون شرطية لتنتقم لإمها-شاردة ومشتتة الذهن أغلب الأوقات- تنتابها حالات تخشب عندما ترى مشاهد عنف-تعيش في قلق وخوف مستمرين من الأب- تحب العزلة

نتائج الحالة الرابعة :

الحالة الرابعة	نسبة العنف	السن	المستوى الدراسي	وضعية الاب	وضعية الام	السلوكات الملاحظة على الحالة
محمد	55.73%	13	ثانية متوسط نتائج مدرسية جيدة جدا ومستقرة	أب عاطل عن العمل- يضرب أولاده كثيرا-وأحيانا يعذبهم بربطهم إلى عمود اسمنتي	أستاذة- تتكفل بكافة مصاريف البيت-بعد فصل زوجها من العمل- تتدخل في كل شجار لتحمي أبنائها أو تدفع بهم إلى بيت الجدة القريب	كثير التخاصم مع إخوته ويضربهم أيضا-معظم وقته يقضيه في الدراسة وحل التمارين-يحب أن يكون مهندسا وأن يتعلم الانجليزية-لديه أصدقاء كثيرون-يشاركهم اللعب -تلميذ مواظب ومنظم ولديه ثقة كبيرة في نفسه.

نتائج الحالة الخامسة :

الحالة الخامسة	نسبة العنف	السن	المستوى الدراسي	وضعية الاب	وضعية الام	السلوكات الملاحظة على الحالة
نعيمة	85.24%	15	ثانية متوسط نتائج ضعيفة	بائع سمك- مستوى سادسة أساسي-يضرب كثيرا الزوجة ويتناول الخمر أمام مرأى أولاده-يأخذ نقود زوجته ليصرفها على سموه	منظفة في الحمام- أمية-أم غائبة اغلب الأحيان ام قاسية همها لقمة العيش فقط	خجولة منعزلة تفضل البقاء لوحدها-تعيش حالة قلق وتوتر دائمين من العنف الأب-تحس أنها لا تحيا حياة طبيعية- وأنها عبء على الحياة-وعدم وجود معنى لحياتها-تتمنى الهروب من المنزل

مناقشة النتائج :

نلاحظ أن معظم الحالات تنحدر من عائلات فقيرة، وسبب الفقر هو إهمال الوالد وتخليه عن مسؤولياته، فتغير الأدوار الوالدية انعكس سلبا على حياة هذه الأسر حيث أن الأم هي

من يعمل وهي من يعيل العائلة ، وبالتالي تخليها عن أدوارها العاطفية وتقمصها إما لأدوار السلطة أو الانسحاب والانعزال فهي أم سلبية لم تستطع حماية أطفالها ولا احتوائهم، جعلت منها الظروف القاسية أما قضيبية تخلت عن فطرتها الطبيعية وهي تقديم الحنان والعطف ورعاية الأطفال وتقمصت أدوار السلطة متحدية المجتمع ومثبتة له أنها تستطيع إعالة وتربية الأبناء دون حاجة إلى هذا الزوج المتجبر.

أو أنها هي في حد ذاتها كانت عرضة للضرب والتعنيف فاتخذت الانسحاب والانعزال ميكانيزما دفاعيا لها.

ونلاحظ أن هذه الأم أبدا لم ترسم صورة جميلة إيجابية عن زوجها في نظر أطفالها ، ونشير هنا إلى نوعين من الأمهات : النوع الأول المنهارة الغائبة حيث أن حتى عدم غيابها لا يعكس نجاعة دورها في حماية أطفالها ، إهمال من الناحية النفسية انعكس سلبا على النتائج الدراسية للحالات فهذه الأم لم تتمكن من احتواء أبنائها ، وملء الفراغ العاطفي اتجاه الأب وهو ما يشكل عامل جروحية باستثناء أم الحالة الرابعة التي استطاعت احتواء أبنائها وحميتهم من الصدمات ، وهذا ما يطلق عليه الأم الواقفة المحتوية وهو النوع الثاني، فنتائج الحالة كانت جيدة وعلاقاته الغيرية خارج المنزل اتسمت بالاتصال الجيد والتفاعل الاجتماعي الإيجابي.

-كما لاحظنا عدم الرغبة في الاتصال عند الحالات سواء معنا أو مع الأصدقاء والأقران ، وهذا يعني أن الأسرة التي من المفروض أن تكون الوسط الآمن لهذا المراهق، وأن توفر له جو الاطمئنان الذي يحقق له الأمن بالدرجة الأولى ، والحنان والعطف والثقة ، ولأنها هي المنظم الأساسي للعلاقات الغيرية انطلاقا من الثقة التي توفرها لطفلها وتزرعها فيه ، وهذا ما يؤكد أريكسون من خلال نظريته حول مراحل النمو الاجتماعي للطفل ، ففي السنتين الأوليين من عمر الطفل هو بحاجة إلى هذه الثقة التي يستمد منها من علاقته بأمه التي من خلالها يحس أنه يستحق ثقة الآخرين فيما بعد (Pierre Coslin- 115: 2002).

لا تقوم بدورها(الأسرة) على أكمل وجه ، لأنها تقوم بغرس الرعب و اللااستقرار في نفس هذا المراهق منذ ولادته من خلال أساليبها العنيفة .

-أيضا بعض الحالات لديها استثمار كبير للجسم ، من خلال كثرة الحركة في القسم أو المنزل واهتزاز الأطراف السفلية والعلوية وتفريكتها ، وهنا يجب الإشارة إلى أهمية تأويل لغة الجسد

، فمن يصمت بشفتيه يثرثر بيديه.

فالجسد هو وسيلة للتعبير عن الانفعالات الشديدة والقلق وهو حامل للنوايا والمقاصد ، ويعاش كقيمة سالبة أو موجبة تعكس نظرة الفرد لوجوده وقيمه الذاتية ، وعليه فإن الفرد قد يستعمله إما للتعبير عن معاناته الناتجة عن العجز والدونية ...أو للتعبير عن حيويته وارتياحه وانسجامه مع النفس والمحيط وفي مثل هاته الحالات فإن المراهق يستعمل جسده للتعبير عن معاناته النفسية وقلقه الشديد وخوفه من المجهول .

ويشير بوريس و سيرلنيك إلى أن الإفراط في النشاط يسمح بتصريف الضغط الكبير الناجم عن الظروف المحيطة . (خالد نور الدين ، 2007 : 18) .

-سلوكات بعض الحالات اتسمت بالعدوانية في التعامل مع الآخرين قد يرجع هذا إلى التماهي بالمعتدي الذي هو الوالد ، فبعض الحالات كانت عنيفة في سلوكاتها اليومية ، ولديها حب الانتقام من الوالد ، فدور الأنا الأعلى يتحدد كلاسيكيا باضمحلال عقدة أوديب

حيث يشير بلوس إلى أن الأنا الأعلى هو وريث عقدة أوديب .

، Pierre Coslin- (105: 2002,) .

بمعنى أن الصراع لم يحل وبالتالي لا يتحدد دور الأنا الأعلى وقوته ومنه هشاشة الأنا وسيطرة الرغبات الممنوعة مع الأم من خلال (التعلق الشديد بها) والرغبة في قتل الأب المنافس لا شعوريا ، كذلك أن الضغوط والمعاناة النفسية التي تعيشها الحالات يوميا تجعلها تهرب من المنزل أو تفكر في الهرب ، ويعتبر الهرب اضطرابا سلوكيا للابتعاد عن التوتر والقلق الذي يسببه أشخاص آخرون أو مع الذات والهرب يحمل دلالات نفسية متعددة ، فقد يكون هذا المراهق يعبر من خلاله عن زوال عاطفته لهذه العائلة خاصة الأب الذي يعتبره سبب أزمته ومشكلته ، أو أن هذا المراهق يعتبر نفسه سبب المشاكل وبالتالي الشعور بالذنب ، واتخاذ الهرب كأحسن طريق للتكفير عن ذلك أو يمكن أن يكون هذا الهرب كمحاولة للفت انتباه الآخرين (الوالدين) لما يعانيه أو أنه يعبر عن احساسه بعدم رغبته في الانتماء إلى هذه الأسرة، مما يجعله يبحث عن انتماءاته خارج جوها (العائلة) كجماعة الأقران في المدرسة والتي يفشل في تكوينها بسبب عدوانيته ، أو انسحابه وانعزاله ، فهذا المراهق يحس بأهمية الآخر في حياته وعلاقاته والرغبة

في تكوين جماعة يقاسمها أفكارها ومشاعرها وأهدافها ، ومما لا جدال فيه أهمية جماعة الرفاق في هذه المرحلة التي تساعده على استبدال التقمصات العائلية بتقمصات خارجية ، إلا أن المراهق المعنف أسريا لم ينجح في تكوينها وهذا راجع إلى ضعف مفهوم الانتماء الذي يأخذ أسسه من الأسرة ، هذه الأسرة التي لم تقم بدورها كما يجب وسببت له المعاناة والألم مما ساهم في ضعف الرابط بها ومحاولة الهروب منها .

-كما لاحظنا ضعف مفهوم الذات لدى أغلب الحالات تمثل في غموض المستقبل وعدم التخطيط للحياة ، وفقر في المشاريع المستقبلية وتفكير في الموت وعدم الثقة بالنفس والشعور بالدونية ويشير كوسلان إلى أن النظرة المتدنية التي يحملها المراهقون عن أنفسهم تتمثل في إحساسهم بأن الآخرين لا يفهمونهم خاصة الراشدين، ولا يتمكنون من تحقيق ذواتهم ، وحساسية زائدة وأحيانا إحساس بالملل واللافائدة.

(Pierre Coslin - 116 : 2002 ,

ومنه يمكن القول أن نموذج كورت لوين حول تأثير القوى السلبية على الفرد يجعله يسلك سلوكات سلبية نفورية قد تحقق ل4 حالات ، وكان من الممكن أن يتحقق للحالة الرابعة لولا تدخل الأم ، وعليه فإن دور النماذج الايجابية يساعد في التغلب على العنف عند النماذج السلبية ويزيد من قوة امتصاص الصدمات

وعليه يمكننا القول أن العنف الأسري واضطراب التواصل داخل الأسرة يؤدي إلى اضطراب التواصل خارجها ، فالمرهق المعنف أسريا لم يتعلم أساليب التواصل مع الآخر سوى الأسلوب الذي تعلمه في الأسرة فيتخذ أداة للتواصل اعتقادا منه أنه الأسلوب الوحيد للتعامل مع الآخرين والتفاعل معهم.

توصيات :

من خلال النتائج المتوصل إليها والتي مفادها أن العنف الأسري يؤثر سلبا على العلاقات الاجتماعية للأبناء ، نتوجه ببعض الاقتراحات لمحاولة تجنب انعكاساته على حياة الأبناء مستقبلا.

-إذ على الأسرة أن تكون واعية بمقدار المسؤولية الموكلة إليها وأن تبذل قصارى جهدها في تربية أبنائها وتخليها عن الأساليب العنيفة في تربيتهم .

-تفعيل أسس الحوار الناجع والتواصل مع الأبناء لضمان حياة مدرسية ومستقبلية واعدة لهم .

-إرشاد الآباء وتوعيتهم لمشكلة صراع الأجيال ودعوتهم إلى التحلي بالحكمة وإعادة الوصل بين جيلهم وجيل الأبناء.

-إحداث طرق التواصل بين المدرسة والأسرة من خلال إدماج الأخصائيين النفسانيين في المدرسة لمحاولة التغلب على المشاكل التي يعاني منها التلاميذ سواء أسريا أو مدرسيا.

-إبعاد الأبناء عن مصادر العنف واحتوائهم قدر الإمكان حتى وإن وجدت هذه المصادر بالقرب منهم .

-إيلاء أهمية كبيرة للمراهق لمساعدته على تجاوز أزماته النفسية .

مساعدة المراهقين المعنفين أسريا من خلال إدماجهم في الأنشطة الاجتماعية سواء على المستوى المدرسي أو المجتمع.

المراجع :

1-حنيفة صالحي بن شريف ، الأسرة وعنف الطفل ،علاقة افتراضية أم حتمية ،مجلة انسانيات ، عدد 41 جويلية/سبتمبر ، 2008 .

2-طه عبد العظيم حسين ، سيكولوجية العنف العائلي والمدرسي ، دار الجامعة الجديدة ،القاهرة ،2008.

3-جان لابلان،ج ب بونتاليس ، معجم مصطلحات التحليل النفسي ، ترجمة مصطفى حجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، ط1 ، 1985 .

4-حامد عبد السلام زهران ، إجلال سري ،دراسات في علم النفس النمو ،عالم الكتب ،القاهرة ، ط1 ، 2003 .

5-خالد نور الدين ،صدمة الطفولة ومصيرها في سن المراهقة ،مجلة علم النفس ، اشكالية المراهق ، دار الطباعة Sarp ، الجزائر ، عدد 15/14 ، 2007 .

6-Jean Claud Abric , Psychologie de l'adolescent, Armand Colin,Paris,1999 .

7-Gustave Nicolas Fisher , les concepts fondamentaux de la psychologie social, Dunod ,3éme ed ,2005.

8-Marcelli.D et Braconnier.A, Psychologie de l'adolescent, Armand colin ,Paris , 1994 .

9-Pierre Coslin , Psychologie de l'adolescent , Armand colin , Paris ,2002.

10-René Lécuyer , le concept de soi ,puf , , Paris ,1978 .

الفاعل التربوي والتثقيف الصحي للمتمدرسين في المدرسة الجزائرية

-المطعم المدرسي أنموذجاً-

أ. دندان أسماء. أ. حجايل فاطمة الزهراء -جامعة معسكر.

مقدمة:

إن العالم اليوم يشهد الكثير من التطورات والتحولات الاجتماعية وفي كل ميادين الحياة، الأمر الذي جعل جميع المؤسسات التعليمية، ولا سيما المدارس الابتدائية تهتم بالنواحي الصحية للمتمدرسين؛ لأنهم عرضة للأمراض والحوادث أكثر من غيرهم، خاصة في المرحلة الابتدائية التي تعد ركيزة التعليم الأساسية في بناء الأجيال القادمة، لذا ينبغي على هذه المدارس أن تمارس أدوارا جديدة لم تكن معروفة سابقا. ومن هذه الأدوار نجد الاهتمام بالناحية الصحية للمتمدرسين بأشكالها المختلفة. فالمدارس الابتدائية تعد من المؤسسات التعليمية التي يقع على عاتقها مسؤوليات كبيرة في متابعة العادات الصحية للمتمدرسين، وتقديم الخدمات الوقائية والعلاجية والتثقيفية لهم؛ مما يساعدهم على النمو الصحي السليم بدنيا ونفسيا وعقليا، وينمي قدراتهم ومهاراتهم التعليمية التعلمية. ولكي تسعى المدرسة للنهوض بصحة المتمدرس والاهتمام بها، وتوجيهه نحو السلوك السليم لحياة صحية جيدة. تقوم المدرسة بتريخ مجموعة من المفاهيم والمبادئ والخدمات التي تهدف بمجملها إلى تعزيز الوضع الصحي في المجتمع المدرسي وخارجه، مع التركيز على تفعيل مشاركة المتمدرس في متابعة هذه الأنشطة والبرامج الصحية.

ومن بين هذه البرامج والأنشطة والخدمات الصحية التي تسعى المدرسة إلى تجسيدها، لتحقيق الأهداف المرجوة داخل المجتمع المدرسي وخارجه. وجود مناهج دراسية تتشرب بالمعلومات الصحية مبنية وموزعة على مختلف المستويات الدراسية، تحتوي على تقديم أدوات توعية وآليات تنفيذية وأخرى تقويمية للتأكد من إحداث التغيير المنشود في السلوك الصحي للمتمدرس. حيث يتم تطبيق هذه المناهج عن طريق وجود فاعل تربوي (معلم)، يسهل على المتمدرس اختيار السلوك المتلائم مع الصحة داخل المجتمع المدرسي وخارجه. يضاف إلى ذلك قيامها بإحياء المحاضرات العلمية عن طريق جلب المختصين (أطباء، مستشارين، باحثين، أساتذة...)، هدفها إحداث رغبة للمتمدرس في التغيير والاستمرار في السلوك الصحي الجديد، وذلك باستخدام آليات التوعية الصحية المدرسية المتعددة. كما تسعى إلى إنشاء المطاعم المدرسية باعتبارها فضاء تربوي وغذائي يساهم في تعزيز صحة المتمدرس، ورفع مستوى

الوعي الصحي والبيئي له، ورفع مستوى النظافة الشخصية والعامة في المدرسة والمجتمع ككل، وتحسين الوضع الصحي والغذائي له، الذي يمكنه من النمو جسديا وعقليا وخلقا وروحيا واجتماعيا. فالمطعم المدرسي يعتبر المكمل الطبيعي للمدرسة، لأنه يسعى إلى تحقيق نفس الأهداف التربوية والغذائية التي تسعى المدرسة إلى تحقيقها، فوظيفته لا تقتصر على الإطعام المدرسي فقط، بل تتعدى ذلك إلى تنمية الثقافة الصحية لدى المتعلمين. وهذا راجع إلى كونه فضاء واسع لاكتساب العديد من المفاهيم والأفكار والمبادئ عن طريق العديد من الفاعلين التربويين القائمين على تسييره. ومن بين هؤلاء الفاعلين التربويين نجد المعلم الذي يقوم بدور كبير في مجال التثقيف الصحي للمتعلمين من خلال تواجده الدائم والمستمر بالمطعم المدرسي بصفة خاصة والمدرسة بصفة عامة، لأنه الأكفأ والأقدر على نقل المعلومات والمعارف الصحية للمتعلمين على مستوى المدرسة بمختلف مكوناتها. بحكم أنه يعد من بين العناصر الأساسية من عناصر العملية التربوية الفاعلة في تقدم المجتمع ورفقه. وانطلاقا من الدور الفاعل الذي يضطلع به المعلم في المطعم المدرسي، وإيماننا بفعالية التأثير الذي يحدثه المعلم المؤهل في توعية المتعلمين صحيا، ونشر ثقافة صحية داخل المطعم المدرسي. جاءت هذه الدراسة الميدانية لتقديم مقارنة سوسيولوجية، تكمن أهميتها في أنها تساهم بشكل كبير في التعرف على واقع الثقافة الصحية في المدرسة الابتدائية من خلال إدراجها لفضاء المطعم المدرسي الذي تسعى عن طريقة إلى تنمية ثقافة صحية عامة في نفوس المتعلمين. كما تهدف إلى معرفة كيف يساهم الفاعل التربوي في التثقيف الصحي للمتعلمين من خلال مجرى عمله التربوي في المطعم المدرسي.

1/ مدخل منهجي.

1-1 - مشكلة الدراسة وفرضياتها:

تعتبر الصحة المدرسية بمفهومها الشامل من الناحية العقلية والجسدية والنفسية والاجتماعية، أحد أهم الوسائل التنموية التي تدعو إليها المدرسة. ومسألة مهمة وملحة تعمل على تحقيقها، كونها تخاطب شريحة هامة من المجتمع المدرسي وهم المتعلمين، من خلال جملة البرامج والأنشطة والخدمات التي تقوم بها لإرساء مفاهيم وأنماط سلوكية تؤثر في مستقبلهم الصحي، وتعمل على تعزيز صحتهم داخل المدرسة، وبالتالي تعزيز صحة المجتمع. ولكي ينشأ المتعلم على معرفة ودراية بكل ما من شأنه أن يؤمن له صحة سليمة ويحافظ

عليها، تقوم المدرسة بتوفير كل الإمكانيات لوضع البرامج والخدمات لغرس ثقافة صحية في نفوس المتعلمين. ومن بين هذه الإجراءات التي تقدمها المدرسة لتحقيق التوعية الصحية المدرسية لدى المتعلمين، إدراج المطعم المدرسي في المدرسة الابتدائية كفضاء جديد لترسيخ مبادئ ومفاهيم الثقافة الصحية. هذا الأخير هو المكمل الطبيعي للمدرسة، لأنه يؤدي نفس أهدافها التربوية بالإضافة إلى الغذائية، فهو لا يقتصر على الإطعام المدرسي فقط، بل يساهم في إحداث التغيير المنشود في السلوك الصحي للمتلمذ، كونه مجال واسع لاكتساب الكثير من المبادئ التربوية والأفكار عن طريق مختلف الفاعلين القائمين عليه. (كمفتشي التغذية، مستشاري التغذية، مسيري المطاعم المدرسية، الإداريون، المعلمين، وعمال المطبخ...). ومن أبرز وأهم الفاعلين التربويين القائمين على تسيير المطعم المدرسي في المدرسة مقارنة بالمؤسسات التربوية الأخرى، نجد المعلمون لأنهم يعدون العنصر الأساسي من عناصر العملية التربوية، فدورهم اليوم في غرس الثقافة الصحية لم يعد يقتصر على مستوى القسم فقط، بل تعدى ذلك إلى مستوى آخر وهو المطعم المدرسي. حتى أصبح هذا الأخير يمثل في المدرسة النموذج الذي يبرز فيه دور المعلم أكثر في تفعيل وتجسيد السلوك الصحي لدى المتعلمين. فالمعلمون يعتبرون أفراد مرجعيون بالنسبة للمتلمذ داخل المطعم المدرسي، عليهم إعطاء المثل والقوة ويتوجب عليهم دور مهم في مجال تعزيز الصحة المدرسية للمتلمذ، لأنهم الأكفأ والأقدر على نقل المعلومات الصحية وترسيخ العادات الصحية في نفوس المتعلمين داخله. وبالتالي فهم يسعون إلى تنمية الثقافة العامة للمتلمذ وتمكينه من تنمية قدراته وحسه الخلقي والاجتماعي ليصبح عضوا مفيدا في المجتمع. وبذلك يكون المعلم هو الذي يقف خلف هذا العطاء من خلال مختلف المهام التي يقوم بها في مجرى عمله التربوي داخله وخارجه. ومنه يمكننا أن نطرح التساؤل التالي: كيف يساهم الفاعل التربوي (المعلم) في التثقيف الصحي للمتلمذ في المدرسة الجزائرية من خلال تواجده بالمطعم المدرسي؟

وعليه تم صياغة الفرضيات التالية:

الفرضية الأولى: يساهم المعلم باعتباره فاعل تربوي في المدرسة الابتدائية في التثقيف الصحي للمتلمذ داخل المطعم المدرسي، عن طريق مختلف ممارساته البيداغوجية التي تهدف إلى غرس ثقافة صحية لدى المتعلمين.

الفرضية الثانية: دور المعلم باعتباره فاعل تربوي في المدرسة الابتدائية في التثقيف الصحي

للمتدربين داخل المطعم المدرسي لا يكفي، بل يحتاج إلى فاعلين تربويين آخرين، لتدعيم الممارسات البيداغوجية التي يقوم بها .

1-2-2 المفاهيم المستعملة في الدراسة:

اشتملت هذه الدراسة على عدد من المفاهيم التي ينبغي تعريفها تجريديا وإجرائيا وهي على النحو التالي:

1-2-1 مفهوم الفاعل التربوي: هو المنظم لجميع المكانات والأدوار التي تنسب إليه كموضوع اجتماعي، فكل فاعل يعتبر موضوع بالنسبة لتوجه الفاعلين الآخرين وبالنسبة لنفسه. وأهميته تشتق من مكانته. لكن في توجه الفاعل نحو الآخرين، فهو ليس موضوع حيث يمتلك القدرة على التصرف، وهذا هو المقصود بأن الفاعل يلعب الدور. (الهوراني، م. 2008: 175).

ونعني به في هذه الدراسة المعلم الذي يزاول مهنة التربية والتعليم في المدرسة الابتدائية. وذلك الشخص المؤهل والمكلف من طرف وزارة التربية والتعليم، لغرس القيم والعادات والمفاهيم الصحية لدى المتدربين باختلاف مستوياتهم الدراسية داخل فضاء المطعم المدرسي بصفة خاصة وفضاء المدرسة بصفة عامة.

1-2-2 مفهوم التثقيف الصحي: هو عملية ترجمة الحقائق الصحية للتلاميذ وتحويلها إلى أنماط سلوكية على مستوى الفرد والمجتمع. وذلك باستعمال الأساليب التربوية الحديثة بهدف رفع مستوى الوعي الصحي للتلاميذ. (بدح، أ. 2007: 29).

ونعني به في هذه الدراسة مجموعة البرامج والأنشطة والخدمات الصحية التي تقوم بتطبيقها المدرسة عن طريق المطعم المدرسي كفضاء تربوي غذائي والمعلم كفاعل تربوي رئيسي، لتعزيز صحة المتدربين بمفهومها الشامل داخل المجتمع المدرسي وخارجه.

1-2-3 مفهوم الدور: هو مجموعة الأنشطة أو الأنماط السلوكية التي يقوم بها من يشغل مكانة اجتماعية معينة في الواقع أو يتوقع أن يقوم به. وللدور الاجتماعي مستويان هما: الدور التوقعي الذي يشير إلى مجموعة الأنشطة والأنماط السلوكية التي يتوقع ممن يشغل مكانة اجتماعية أن يقوم بها مثلا الأنشطة المدرسية من المتوقع أن يقوم بها المعلم أو المتعلم. والدور الواقعي الذي يشير إلى مجموعة الأنشطة والأنماط السلوكية التي يقوم بها بالفعل من يشغل

مكانة اجتماعية، أي أنه السلوك الفعلي الواقعي الذي يقوم به المعلم أو المتعلم.(نواف، أ. 2008: 160).

ونعني به في هذه الدراسة الدور الذي يقوم به الفاعل التربوي (المعلم) داخل المطعم المدرسي في المدرسة الابتدائية، والمتمثل في تنمية الثقافة الصحية العامة للمتمدرس داخل هذا الفضاء وخارجه، من خلال مختلف المهام التربوية التي يقوم بها.

1-2-4 مفهوم المطعم المدرسي: هو المكمل الطبيعي للمدرسة يؤدي نفس أهدافها التربوية بالإضافة إلى الغذائية. وهذا بموجب المادة الأولى من المرسوم 70/65 المؤرخ في 1965/03/11. وهو يهتم بإعداد وجبات غذائية سليمة ومتوازنة كما ونوعا انطلاقا من مخطط غذائي معد مسبقا بتوظيف المجموعات الغذائية الخمسة وكذا الاستبدال، التكامل، والتثمين.(شعيب، ع. 2013: 10).

ونعني به في هذه الدراسة ذلك الفضاء التربوي والغذائي، الذي يسعى إلى نشر الثقافة الصحية والغذائية في نفوس المتعلمين، لتمكينهم من النمو جسميا وعقليا وخلقيا واجتماعيا، عن طريق مختلف الفاعلين التربويين القائمين على تسييره.

1-2-5 مفهوم الممارسات البيداغوجية: تعتبر الممارسة نوع من الخبرة المنظمة نسبيا، وتشير إلى تكرار حدوث الاستجابات الظاهرة نفسها أو ما يشبهها في مواقف بيئية منظمة نسبيا، ومن أمثلة ذلك ما تهيؤه المدرسة من مواقف ترتبط بالمنهج الدراسي أو أنشطة خارج المنهج الذي يتعلمه المتعلمين. (اللقاني، أ. 2003: 160).

ونعني به في هذه الدراسة تلك السلوكات والخدمات والمبادئ التي يقدمها المعلم باعتباره فاعل تربوي داخل المدرسة للمتمدرس عن طريق فضاء المطعم المدرسي، لترسيخ القيم والعادات والأعراف الصحية لدى المتعلمين.

1-3 منهج الدراسة وأدواتها:

يتمثل المنهج المتبع في إجراء هذه الدراسة في الوصف والتحليل والمقارنة بين البيانات، أي تجمع البيانات التي تستجيب لاختبار الفرضيات، ثم وصفها حسب طبيعتها وتحليلها والمقارنة بينها، وأخيرا تفسير ما تمخضت عنه من نتائج. وتتمثل البيانات هنا في المعلومات التي يقدمها

كل من معلمي التعليم الابتدائي في بعض المدارس الابتدائية لمدينة معسكر، وفي الملاحظات التي تم جمعها من خلال تواجدها شخصيا في المطاعم المدرسية الموجودة في جميع المدارس الابتدائية التي هي محل الدراسة؛ بحيث تتم المقارنة بين المعلومات والتصريحات التي يقدمها معلمي التعليم الابتدائي وبين مختلف الممارسات والسلوكيات التي يقومون بها داخل المطعم المدرسي. لمعرفة ما مدى تأثيرها على المتعلمين لاكتساب القيم والعادات الصحية.

وكانت أدوات الدراسة على النحو التالي:

أ. **المقابلة:** وهي أول أداة تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة، وهي الأداة الرئيسية فيها. بحيث اعتمدنا على نموذج واحد من المقابلة وهي المقابلة الرسمية أو كما تسمى المقابلة المقننة، الموجهة إلى معلمي التعليم الابتدائي بجميع المدارس الابتدائية بمدينة معسكر التي تم اختيارها، حيث بلغ عدد المقابلات بـ: (10) مقابلات كل مدرسة ابتدائية اخترنا منها فاعل تربوي لإجراء المقابلة حسب الظروف التي واجهتنا من طرف كل من المؤسسة والمبحوث. ولقد استخدمنا هذا النوع من المقابلة وفق خطة معينة أو دليل عمل يقودنا إلى تحقيق الغرض المطلوب. وكانت جل الأسئلة المطروحة تدور حول تصورات واتجاهات معلمي التعليم الابتدائي حول الإجراء الجديد الذي تبنته وزارة التربية الوطنية وهو المطعم المدرسي، وكيف يساهمون في التثقيف الصحي للمتعلمين من خلال تواجدهم الدائم في هذا الفضاء، باعتبارهم عنصرا أساسيا من عناصر المنظومة التربوية وعضوا فاعلا في التأثير على نفوس المتعلمين.

ب. **الملاحظة:** وهي ثاني أداة تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة، بحيث ارتكزنا على الملاحظة المنتظمة من أجل جمع بعض المعلومات والبيانات، عن طريق رصد بعض سلوكيات المتعلمين والمعلمين داخل المطعم المدرسي، الهادفة إلى ترسيخ مبادئ الثقافة الصحية. حيث تم ذلك من خلال تواجدها شخصيا في المطاعم المدرسية الموجودة في بعض المدارس الابتدائية لمدينة معسكر، للقيام برصد جميع الخطوات والمراحل التي يقوم بها الفاعل التربوي بالاشتراك مع المتعلمين داخل المطعم لغرس ثقافة صحية في نفوس المتعلمين. والغرض من الحضور في هذه المطاعم المدرسية عموما يتمثل في معرفة ما إن كانت الممارسات البيداغوجية لمعلمي التعليم الابتدائي تتوافق مع التصريحات والمعلومات التي جمعناها من خلال المقابلات التي أجريناها معهم أم لا. ولتطبيق هذه التقنية تم الاعتماد على شبكة الملاحظة التي تقودنا إلى تحقيق إنجاز الغرض المطلوب. والتي فيها قمنا بتحديد الحوادث والمشاهدات والسلوكيات التي نريد

ملاحظتها وجمع المعلومات عنها.

1-6 عينة الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على العينة العشوائية في اختيار أفرادها، لكونها أكثر الطرق شيوعا واستعمالا في البحوث النفسية والاجتماعية. وعليه فقد تم اختيار أفراد عينة دراستنا من معلمي التعليم الابتدائي فقط، والذين يعملون في (10) مدارس ابتدائية موجودة كلها في مدينة معسكر، حيث بلغ عددها عشرة (10) مبحوثين تتوزع بين كلا الجنسين. تتمثل هذه المدارس في: مدرسة جاك عبد العزيز- مدرسة الشيخ بوراس- مدرسة بن مصابيح- مدرسة عين السلطان- مدرسة نواري حمو- مدرسة عبد الله بومدين- مدرسة الحي الجامعي- مدرسة دحامنة- مدرسة مطمور محطة- مدرسة مهوور إدريس.

2/ نتائج الدراسة الميدانية.

2-1 الفاعل التربوي (المعلم) ودوره في التثقيف الصحي للمتمدرسين في المطعم المدرسي:

يعد المطعم المدرسي مؤسسة اجتماعية وتربوية أوجدها المجتمع لتحقيق أهدافه وغاياته، فهو يقوم بدور مهم في تكوين المتمدرسين من كافة النواحي وخاصة من الناحية الصحية، عن طريق توفير الرعاية الصحية السليمة للمتمدرسين وإكسابهم السلوك والمعارف الصحية السليمة. وذلك باستعمال الأساليب التربوية الحديثة، ومقومات أساسية أهمها المعلمون ذوو الخبرات والكفاءات المختلفة في المجالات الصحية والاجتماعية والنفسية الذين عدوا إعدادا سليما لممارسة أدوارهم التربوية والتثقيفية والصحية المكملة للعملية التعليمية، بهدف رفع مستوى الوعي الصحي لدى المتمدرسين داخل المجتمع المدرسي وخارجه. فالمطعم المدرسي حسب ما صرح لنا به أحد المبحوثين بقوله: «المطعم المدرسي هو الفضاء الذي يتم فيه إطفاء المتمدرسين، والمكمل الطبيعي للمدرسة لأنه يقدم وجبات غذائية مختلفة، تساعد المتمدرس على النمو الطبيعي من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية والخلو من الأمراض، تموله الدولة ويتم تسييره من طرف البلدية.» (أنثى، 48 سنة، السنة الثالثة ثانوي، 28 سنة خبرة مهنية). وللمطعم المدرسي باعتباره فضاء تربوي وغذائي عدة أدوار يقوم بها منها، «دور عائلي في خدمة العائلة الجزائرية، ويتمثل في كونه يتحول إلى بديل للعائلة في رعاية الأطفال والاهتمام والعناية بهم صحيا، لأنه يستقبل أطفالا مختلفين.» (زاتير، ص. 2003: 01)، فمنهم من تركوا أمهاتهم ومنازلهم لأول مرة كأطفال التحضيري والسنة الأولى ابتدائي. ومنهم من يقطنون

بعيدا عن المدرسة كأطفال الريف. وهناك أطفال تتخلى عنهم أمهاتهم بسبب التحاقهن بعالم الشغل؛ وهذا ما يجعل المتمدرس يفقد الكثير من السلوكات الصحية والغذائية التي تحفظ له جسمه من الأمراض والحوادث. فكل هذه الحواجز التي تواجه المتمدرس سرعان ما تزول عندما ينتسب الطفل إلى المطعم المدرسي ليجد نفسه مغمورا بالعناية الصحية والعطف داخله. «أما الدور الاجتماعي له، فيتمثل في الحرص على تقديم وجبات غذائية متوازنة، متنوعة، نظيفة، وصحية تجمع بين البروتينات والنشويات والدهون، تساعد تركيبتها على النمو الطبيعي للمتدربين ومكافحة سوء التغذية والجهل والمرض. خاصة هؤلاء المتدربين الذين يتسمون بمستوى معيشي ضعيف، والذين ينحدرون من بيئة ريفية والأيتام والمحتاجين والمرضى.» (شعيب، ع. 2013: 03)، فضلا على ذلك يمنح فرصة لتعلم المتدربين القدرة على التمسك بآداب الأكل، وملاحظة القواعد الصحية السليمة في الأكل، والعناية بنظافة الأيدي والملابس والمكان، والقدرة كذلك على التكيف والتواصل مع الآخرين داخل المجتمع المدرسي بصفة عامة. «وفيما يخص دوره الصحي، فإنه يقوم بمساعدة المتمدرس على النمو الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي، من خلال تقديم وجبات غذائية متوازنة ومتنوعة.» (زاتير، ص. 2003: 03). كما يسعى إلى رفع مستوى الثقيف الصحي للمتدربين، وتعويدهم على السلوك الصحي السليم، من خلال البرنامج الأسبوعي للتغذية داخل المدرسة، لتمتد هذه السلوكات في الأسرة والشارع وكافة الأطر الحياتية، والعمل على الوقاية من الأمراض قبل حدوثها، عن طريق إخضاع كافة الفاعلين التربويين القائمين على تسييره للمراقبة الطبية الدائمة، وأيضا إخضاع كل المواد الغذائية لمراقبة مفتش ومستشار التغذية المدرسية. «أما فيما يتعلق بدوره التربوي، فإنه يهتم بإكساب المتمدرس عادات حسنة تتمثل في تنمية روح التعاون والتعايش، ومشاركة الزملاء في أكلهم وحديثهم ونشاطهم، لبيتعد بذلك عن الأنانية وحب الذات والتفوق على النفس، ويصبح قادرا على الحياة في جماعة تجعله يندمج أكثر في مجتمعه.» (شعيب، ع. 2013: 02) وبذلك يصبح بعيدا عن كل الأمراض النفسية التي يصعب الخروج منها، وقادرا على تحسين مردوده الدراسي، من خلال تلك العلاقات الاجتماعية التي يكونها مع زملائه الآخرين في المطعم المدرسي. بالإضافة إلى ذلك يسعى إلى إكساب المتمدرس عادات احترام التجهيزات والممتلكات الموجودة داخله، وعادات آداب الأكل والنظافة والنظام والتضامن التي قد تمتد إلى خارج المدرسة، عن طريق عملية التوعية والتحسيس، من طرف الفاعلين الموجودين داخله.

وفي هذا الصدد صرح لنا أحد المبحوثين بقوله: « أن المطعم المدرسي هو المكمل الطبيعي للمدرسة الابتدائية وكافة المؤسسات التربوية الأخرى كالأسرة، المجتمع، مؤسسات الرعاية الصحية...، في تحقيق أهدافها وغاياتها التربوية، المتمثلة عموما في نشر ثقافة صحية لدى المتعلمين...» (أنثى، 39 سنة، السنة الثالثة ثانوي، 18 سنة خبرة مهنية). وهناك مباحث آخر صرح لنا بقوله: «إضافة إلى أن المطعم المدرسي هو فضاء تربوي وغذائي، يهتم بنمو المتعلم، فهو يهتم بحفظ سلامة وأمنه من الحوادث التي تقع خارج أسوار المدرسة، كحوادث المرور والسرقه، فعن طريق مكوث المتعلم داخل المطعم المدرسي فترة الفطور، وعدم ذهابه للمنزل يقلل من وقوعه في هذه الحوادث.» (أنثى، 50 سنة، معهد، 28 سنة خبرة مهنية). ومن بين الأدوار التي يقوم بها المطعم المدرسي في المدرسة أيضا، محاولة ترسيخ عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، من خلال الاحتفال بالأعياد الدينية والوطنية والعالمية، بحيث يتم ذلك حسب ما صرح لنا به أحد المبحوثين بقوله: « أن للمطعم المدرسي دور كبير في التعريف بعاداتنا وتقاليدنا الجزائرية، خاصة بالمناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف مثلا، فمن خلال المطعم يقوم الفاعلين القائمين على تسييره بإعداد مجموعة من الأطباق الغذائية التي يتم إعدادها في هذه المناسبة، كما يقوم بغرس مجموعة من الطقوس الخاصة بهذه المناسبة كإعداد الحنة وإشعال الشموع من طرف المتعلم نفسه حتى يكتسب هذه العادات، ويقوم بإحيائها مرة أخرى. كما نجده يعود على الإقبال على بعض الأكلات التي يعزف عنها في أسرته، فالأكل في جماعات يحجب إليه هذه الأطعمة، كما يقوم المعلم بالتعريف بفائدة تناول هذه الأطعمة.» (ذكر، 34 سنة، جامعي، 4 سنوات خبرة مهنية).

ومن خلال تواجدها في بعض المطاعم المدرسية، لاحظنا أن هناك تناقض بين تصريحات المبحوثين وبين ممارساتهم، حيث وجدنا جميع المتعلمين يلجئون إليه بغض النظر عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لهم، فالهدف من إنشاء مطعم مدرسي داخل المدرسة، هو مساعدة المتعلمين على النمو الطبيعي، وتعويدهم على السلوك الصحي السليم. وفيما يخص دوره في التقليل من الحوادث المتنوعة عن طريق بقائهم داخل المطعم، غير موجود إطلاقا وفي كافة المطاعم المدرسية التي قمنا بزيارتها، لأن جل المتعلمين بغض النظر عن بعدهم عن المدارس وعن ظروفهم الصعبة يخرجون مباشرة من المطعم المدرسي بعد أكلهم، لأنه ليس هناك من يهتم بحراستهم بعد الغذاء لعدم وجود مساعدين تربويين يشرفون على ذلك،

وهروب المعلمين من هذه المهمة. وحتى عملية الأكل داخله تتم بالوقوف وخارج أسواره، بحيث نجد الفضلات مرمية في كل مكان؛ مما يدل على تهاون الفاعلين في تأدية مهمتهم داخله، وعدم وعيهم بمهمتهم في نشر ثقافة صحية داخله. وهذا إن دل إنما يدل على نقص الدورات التكوينية للمعلمين، من طرف مسيري المطاعم ومفتشي ومستشاري التغذية المدرسية، التي تهدف إلى إكساب المعلم مهارات، وخدمات صحية، حول كيفية تسيير المطعم المدرسي.

وحتى يستطيع أن يقوم المطعم المدرسي بتحقيق أدواره السابقة الذكر، ينبغي على الإدارة المدرسية أن تعمل على توفير عامل مهم وهو عامل الحراسة، الذي له دور كبير في تنظيم المتدربين أثناء تناولهم لوجباتهم الغذائية داخله، حيث يقوم بهذه العملية كافة أطراف الأسرة التربوية من مدير ومسير وعمال إداريين ومهنيين ومعلمين... وفيها يقوم كل فاعل بأداء دوره تجاه المتدربين، بتعليمهم قواعد الصحة الغذائية، ومبادئ الثقافة الصحية. ومن خلال حضورنا في بعض المطاعم المدرسية، تبين لنا أن هناك مجموعة من الفاعلين يشرفون على عملية الحراسة داخل المطعم المدرسي، منهم المعلمين، المدير، المسير، العمال المهنيين والإداريين، بالإضافة إلى الحراس الذي يقع على عاتقهم دور كبير في تسييره منذ دخول المتدربين حتى خروجهم منه، بسبب هروب المعلمين من دورهم. لكن على العموم يبقى المعلم هو الفاعل الوحيد المؤهل؛ لكي يقوم بعملية الحراسة داخله، بحيث يتجلى دوره في مراقبة العمال المهنيين والمتدربين وصحة وسلامة المواد الغذائية، كما يشرف على عملية التوعية والتثقيف الصحي لدى المتدربين. ولتفعيل عملية الحراسة داخل المطعم يقوم المدير أو المسير بتحضير جدول حراسة المطعم؛ إذ يخصص ثلاثة معلمين للحراسة لكل يوم. وفي نهاية هذه العملية يقوم كل معلم بالتوقيع لتسجيل حضوره، وتدوين نوع الوجبات المقدمة. وفي حالة حدوث حادث ما داخل المطعم يلجأ إلى هؤلاء المعلمين لسحب أقوالهم؛ باعتبارهم كانوا شاهدين على كافة السلوكات والممارسات التي تتم من طرف مختلف الفاعلين والمتدربين.

ومن الأهداف التي تسعى إليها عملية الحراسة داخل المطعم المدرسي حسب ما صرح به لنا أحد المبحوثين بقوله: «إن عملية الحراسة في المطعم المدرسي، تهدف إلى إكساب المتدرب عادات الأكل، النظافة، والجلوس، حماية المتدرب من استعمال أدوات الأكل للعب بها، ومن ممارسة أعمال عدوانية، تقديم المساعدة الصحية وتوفير الظروف الملائمة للتغذية، توزيع الوجبات الغذائية، مراقبة نظافة أواني وطاولات الأكل، وأيضا مراقبة مدة صلاحية الوجبات

الغذائية المقدمة من طرف المطعم المدرسي تجنباً للتسمم، بحيث يحرص المعلمين على حفظ الوجبات الغذائية المقدمة كل يوم في الثلاجة، يكتب عليها تاريخ التقديم، وذلك من أجل تقديمها كبرهان للجهات المعنية في حالة حدوث تسمم مثلاً، إضافة إلى مراقبة سلامة العمال المهنيين ونظافتهم وخلوهم من الأمراض المعدية. «(أنثى، 50 سنة، السنة الأولى، 22 سنة خبرة مهنية).

وهناك مجموعة من الخدمات الصحية التي يقدمها الفاعل، من خلال تواجده بالمطعم المدرسي، لتدعيم صحة المتدربين، حسب ما صرح لنا به المبحوثين، وحسب ما لاحظناه من خلال تواجدها في بعض المطاعم المدرسية، قيام كل معلم بمرافقة متدريسيه يومياً إلى المطعم المدرسي أثناء فطور الصباح والغداء، ثم يحرص على أن يقوم كل متمدرس بغسل يديه وتنشيفها بالصابون والمنشفة في المغاسل، التي لا تتوفر إطلاقاً في بعض المطاعم المدرسية، بسبب نقص الإمكانيات المادية، وتهاون بعض مسيري المطاعم المدرسية وأعضاء البلدية على توفيرها، وفي بعض المطاعم المدرسية الأخرى يتم تحطيمها من طرف المتدربين، وبعد ذلك يعود على الجلسة الملائمة والصحية في أفواج جماعية، بحيث تترك له الحرية في اختيار مكانه وزميله الذي يجلس بجانبه، وهذا حتى لا يقع المتمدرس في حب الذات والتفوق على النفس، لأن مشاركة الزملاء في الأكل والكلام ومختلف النشاطات تعطي للمتمدرس القدرة على التعاون والتكيف مع الآخرين. ثم يحرص على تعليمه مبادئ ديننا الحنيف في الأكل، كالبسمة والدعاء واقفين. ويقوم بعد ذلك بتدريبه على كيفية تناول الأكل، حرصاً على الجانب التهذيبي والأخلاقي، الذي يتمثل في آداب الأكل، وكيف يمسك بالأدوات المساعدة للأكل، وكيفية اقتطاع الخبز بدل قضمه بأسنانه، والتأني في ازدياد الطعام والاقتصاد فيه، وتجنب المضغ السريع، وعدم التكلم عند الأكل...، بحيث يكلف المعلم كل يوم متمدرس واحد في كل مستوى؛ لرأس الفوج من خلال قيامه بتوزيع الأواني وتنظيمها، ثم تقسيم الأكل، ثم تجميع الأواني المعدنية على حدى، والبلاستيكية على حدى، والزجاجية على حدى، والفضلات على حدى، مع تنظيف طاولة الأكل ليسهل على العمال فيما بعد جمع وتنظيف الأواني والطاولات. حيث يكمن الهدف من ورائها تعليم المتمدرس روح التعاون والمسؤولية والعمل الجماعي، ثم يحرص على كل متمدرس عند انتهائه من تناول وجبته الغذائية المتنوعة، طيلة الأسبوع أثناء الغداء. وعلى كأس حليب مرفوق بقطعة خبز أو قطع من الحلوى أثناء فطور الصباح. أن يستذكر مبادئ

الأكل في ديننا الحنيف، كقول الحمد لله والدعاء. فاعتماد المطعم المدرسي على أطعمة صحية ومتوازنة ومتنوعة، تساعد المتعلم على النمو وتزوده بالطاقة اللازمة لنشاطه، وتقويه من الأمراض كسوء التغذية مثلا؛ مما يؤدي به حتما إلى تحسين مردوده التربوي، ثم يقوم بتنظيف يديه بالصابون والمنشفة وفمه بالفرشاة ومعجون الأسنان هذا الأخير غير موجود بتاتا وفي كافة المطاعم المدرسية، غير أن المعلمين صرحوا لنا بوجوده واستعماله، وهذا ما يدل على أن هناك تناقض بين تصريحات المعلمين وممارساتهم البيداغوجية، حيث يتم تناول الوجبات الغذائية من طرف المتعلمين مع متمدرسيهم في بعض المطاعم وليس كلها بسماع موسيقى هادئة، تساعد على الأكل وعدم الكلام وإثارة الفوضى مع الزملاء، بالإضافة إلى ذلك ترافق المتعلم أثناء الأكل نصائح وإرشادات وتوعية المعلمين صحيا؛ ليضمنوا لهم نموا متوازنا فكريا وجسديا، ويعودهم على إتباع قواعد التغذية الصحية. وبعد ذلك ينصرف كل معلم مع متمدرسيه من المطعم المدرسي. فالمعلم الذي يقوم بتناول الوجبة الغذائية مع متمدرسيه، يتمكن من متابعة ومراقبة ممارسات متمدرسيه الصحية، والعمل على تقويمها؛ مما يجعله قادرا على توجيههم وتعديل سلوكياتهم، وترويج العادات الصحية السليمة في المجتمع.

«ومن بين الخدمات الصحية التي يسعى الفاعل إلى تقديمها أيضا، لتدعيم وغرس ثقافة صحية في نفوس المتعلمين، اعتماده على بعض الأساليب التربوية الحديثة التي تساعد في تحقيق غاياته التربوية والثقافية ومنها نذكر، توزيعه لبعض الكتيبات والمجلات، وعرضه لبعض الأفلام عن طريق الأشرطة المسجلة، كما يهتم بإلصاق بعض الصور والملصقات على جدران المطعم، إضافة إلى إحيائه لبعض المحاضرات والمقتنيات العلمية سواء من طرفه أو عن طريق جلب مختصين آخرين من المدرسة أو خارجها.» (شريم، م. 2012: 15). حيث تضمن هذه الأساليب التربوية إلى تكوين اتجاهات وعادات صحية سليمة لدى المتعلمين، التي تساهم في نموهم نموا سليما متكاملا، وإمداد المتعلمين بالخبرات والمعلومات، التي تساعد على حل مشكلاتهم الصحية بأنفسهم، كما توجههم نحو التغذية الصحية السليمة. لكن حسب ما صرح لنا به أحد المبحوثين بقوله: « لكي نقوم بغرس مبادئ الثقافة الصحية لدى المتعلمين، لا نعتمد على هذه الأساليب التربوية باستثناء العمل على إلصاق بعض الصور والملصقات على جدران المطعم والمدرسة والفصل الدراسي، بسبب انعدام هذه الأساليب داخل المدرسة والمطعم، لكن نعمل جاهدين على تحقيق أهدافنا، عن طريق الاعتماد على المناهج الدراسية المختلفة،

التي أصبحت أكثر اهتماما بالجوانب الصحية المختلفة. وفي المطعم المدرسي نقوم باختبار كل ما تعلمه المت مدرس من ثقافة صحية داخل الفصل الدراسي.» (أنثى، 50 سنة، السنة الأولى ثانوي، 22 سنة خبرة مهنية). إضافة إلى ذلك يعمل المعلم على مساعدة المت مدرس في إدراك بعض المهارات الصحية، كالإسعافات الأولية في حالة حدوث حوادث، واستعمال وسائل الوقاية والعلاج، كقارورات الإطفاء، العلب الصيدلانية... وهذا حتى يتمكن من استعمالها في حياته اليومية وفي كافة المؤسسات التي يتواجد بها؛ إلا أن حسب ما صرح لنا به أحد المبحوثين بقوله: «أن هذه الوسائل غير متوفرة على مستوى المطعم المدرسي، بل هي موجودة داخل المدرسة فقط، لكن هذا لا يمنعنا من تعليمه كيفية استعمالها داخل القسم عن طريق جلبها من مكتب المدير. وهذا يرجع إلى قلة وعي المسؤولين عن المطعم بضرورة توفير هذه الوسائل.» (ذكر، 43 سنة، معهد، 20 سنة خبرة مهنية).

2-2 دور جماعات الصحة المدرسية في التثقيف الصحي للمتمدرسين في المطعم المدرسي:

تعتبر الصحة المدرسية بمفهومها الشامل من العوامل والمؤثرات والخدمات التي ارتبطت بالمتمدرسين، باعتبارها حقا شرعيا، وأداة للتغير في حياة تكوين المتمدرسين، لأنها تعنى بالنمو الاجتماعي للمتمدرسين، وبنمو المجتمع وتقدمه وتطوره. وهذا ما يؤكد على ضرورة تكوين وتشكيل جماعات، تعرف بجماعات الصحة المدرسية داخل المدرسة، «هدفها العمل على زيادة الوعي الصحي للمتمدرسين، وزرع القيم الصحية الحميدة، والسلوك الصحي السليم، كما تعمل أيضا على تقديم بعض الخدمات الطبية والصحية للمتمدرسين الذين يحتاجون إليها.» (بدران، ش.2004:36) فتعزيز صحة المت مدرس داخل المدرسة بصفة عامة والمطعم المدرسي بصفة خاصة، ليس فقط من مهمة المعلم، بل هي من مهمة كافة أفراد الأسرة التربوية. ويرجع ذلك حسب ما صرح به لنا أحد المبحوثين بقوله: «أن المتمدرسين في المرحلة الابتدائية يشكلون نسبة كبيرة من مجموع السكان، ويأتون من أسر مختلفة قد يكون بعضهم يحملون أمراضا معدية تتسبب في إصابة عدد كبير من المتمدرسين، كما أنهم يقضون وقتا كبيرا في المدرسة يدوم أكثر من ثمانية ساعات، يتعرضون فيها إلى العديد من المشكلات الصحية التي تؤثر على نموهم الجسمي، لذا يجب أن يكون للمدرسة وكافة أعضائها دور هام في توعية المتمدرسين بالأمور الصحية، ومراقبة ممارساتهم، وتوجيههم توجيهها صحيحا.» (ذكر، 50 سنة، معهد، 29 سنة خبرة مهنية).

إن مسؤولية نشر الوعي الصحي بين المتدربين، وتبصيرهم بضرورة العناية بصحتهم، وبالتغذية السليمة، وبكيفية الوقاية من الأمراض، تقع على كاهل الطاقم المدرسي بأسره والمتمثل في: مفتش التغذية المدرسية، مستشار التغذية المدرسية، مسير المطعم المدرسي، مدير المدرسة، المدرسين، طبيب وحدة الكشف والمتابعة، الأخصائي الاجتماعي والنفساني، العمال الإداريين والمهنيين...؛ لذا ينبغي على المدرسة أن تقوم بتعزيز دور هؤلاء الفاعلين، عن طريق عقد ندوات علمية مستمرة لمختلف الفاعلين القائمين على تسيير المطعم المدرسي، لتزويدهم بالمهارات الخاصة بالصحة المدرسية، إضافة إلى توعيتهم بأهمية رفع مستوى الثقافة الصحية داخله، عن طريق إعداد برامج تدريبية مناسبة لهم، لكن حسب ما صرح لنا به أحد المبحوثين بقوله: «أن تنظيم الندوات العلمية داخل المدرسة بالنسبة للمعلمين هو شبه منعدم، بينما فيما يخص مسيري المطاعم المدرسية، فهناك ملتقيات علمية تنظم مرة أو مرتين في السنة، تندرج في إطار التكوين أثناء الخدمة، هدفها الرفع من القدرات المهنية للمسيرين؛ لكي يطلعوا بالمهام المنوطة بهم في مجال التسيير، خدمة للفعل التربوي، وحاجيات المتدريس، في إطار التشريع والتنظيم المعمول به في مجال تعزيز الصحة في المطعم المدرسي.» (ذكر، 34 سنة، جامعي، 4 سنوات خبرة مهنية).

ومن أشهر جماعات الصحة المدرسية الموجودة في المدرسة، والتي تقوم بدور كبير في مجال تعزيز الصحة المدرسية، ونشر الثقافة الصحية داخل المطعم المدرسي، حسب ما صرح لنا به أحد المبحوثين بقوله: «أن هناك فاعلين يقومون بتسيير المطعم المدرسي ويساعدون المعلم في توعية المتدربين صحيا، ومنهم نذكر: مفتش التغذية المدرسية، مستشار التغذية المدرسية، ومسير المطعم المدرسي فقط، لكن حتى دور هؤلاء الفاعلين محدود جدا مقارنة مع ما نقوم به نحن المعلمون، لأنهم لا يقومون بزيارات ميدانية يومية، بل تكون زياراتهم في بداية السنة الدراسية، وفي نهايتها، وخلال الامتحانات النهائية فقط. ويتجلى دورهم في مراقبة وفحص المواد الغذائية وتجهيزات المطعم المدرسي، وتوعية العمال المهنيين والإداريين.» (ذكر، 47 سنة، السنة الثالثة ثانوي، 27 سنة خبرة مهنية). لكن من خلال تواجدهم في بعض المطاعم المدرسية، تبين لنا أن هناك مجموعة من الفاعلين الموجودين بالمدرسة يشرفون على تسييره، بالرغم من أن لا دخل لهم فيه، ومن بين هؤلاء وجدنا الحراس والعمال المهنيين الذي يشرفون على أمور النظافة والطبخ. وعند تقربنا منهم سألناهم عن سبب تواجدهم بالمطعم المدرسي، صرحوا لنا

بأن المعلمون يتهربون من مهمتهم في الحراسة اليومية للمتمدرسين أثناء الأكل؛ مما يطلب منا المدير والمسير بالحراسة نيابة عنهم. وهذا يدل على أن المعلم ما زال لم يعي بعد دوره التربوي في المطعم المدرسي، وربما يرجع هذا إلى نقص الندوات التكوينية، التي تشرح له مهمته التربوية داخله. وهذا ما يشير إلى حاجة المدرس إلى تكوين جدي وتدريب مكثف، وليس إلى إرشادات المسير والمدير.

ومن بين المهام والأنشطة التي تقوم بها جماعات الصحة المدرسية، كمفتش ومستشار التغذية، مسير المطعم المدرسي، ومدير المدرسة داخل المطعم المدرسي، حسب ما صرح لنا به المبحوثين بقولهم: «توزيع كتيبات صحية على المتمدرسين، إقامة الندوات الصحية، دعوة بعض المختصين في الصحة للإلقاء المحاضرات، إلصاق بعض الصور التي تشمل على إرشادات ونصائح صحية على جدران المطعم المدرسي، فحص الأغذية لمعرفة مدى توافر الشروط الصحية في هذه الأغذية، إعداد البرامج والخطط للتثقيف والتوعية الصحية، متابعة التزام المتمدرسين بالعادات الصحية السليمة، ملاحظة الأمراض التي قد تصيب المتمدرسين، والعمل على مقاومتها عن طريق اتخاذ بعض الاحتياطات؛ لوقاية باقي المتمدرسين من هذه الأمراض خاصة إذا كانت معدية.» ومن خلال تواجدها في بعض المطاعم المدرسية، لاحظنا أن هذه المهام التي عددها لنا المبحوثين تبقى على المستوى نظري فقط، حيث لا وجود لهؤلاء الفاعلين؛ إلا في بداية الموسم الدراسي وأثناء الامتحانات الرسمية، بينما المدير تقتصر مهمته داخل المطعم المدرسي، على ملأ بعض السجلات الإدارية فقط التي تتعلق بالتسيير المادي والمالي للمطعم المدرسي. وفيما يخص مسير المطعم المدرسي، فمهمته لا تتعدى توفير المواد الغذائية والتجهيزات الخاصة بالمطعم، وتحديد قوائم المتمدرسين المستفيدين، مع المصادقة على المخطط الغذائي والتقرير الفصلي للمطعم المدرسي.

«إن التسليم بأهمية جماعات الصحة المدرسية، ودورها في تنمية الجوانب الصحية للمتمدرسين، وتقديم الخدمات الوقائية والعلاجية والتثقيفية لهم في المطعم المدرسي، لا يكفي بل تحتاج هذه الجماعات إلى التعاون مع الجماعات الأخرى في المجتمع من أجل تحقيق الأهداف التربوية المنشودة» (الصرايرة، خ. 2012: 45)، لأن تحقيق ونشر التوعية الصحية بين المتمدرسين، هي مسؤولية مشتركة بين المدرسة والمؤسسات الأخرى، لا تأتي إلا بتضافر الجهود والتنسيق مع كل الجهات المعنية. ومن هذه المؤسسات الاجتماعية التي تؤثر في تعليم

المتدربين وصحتهم نذكر: الأسرة، المجتمع، المؤسسات الصحية، البلدية... هذه المؤسسات لها دور كبير في تقديم خدمات الرعاية الصحية والتثقيف الصحي. حيث تقوم بمجموعة من الخدمات، تساعد المدرسة بصفة عامة والمطعم المدرسي بصفة خاصة في تأدية مهامهما الصحية، ومنها نذكر: العمل على نشر الوعي الصحي في الأسر، وتنظيم التعاون معهم فيما يتعلق بالصحة السليمة، التغذية والنظافة، الوقاية من الأمراض. كما تعمل على مساعدة المتدربين لتحسين معارفهم، وخلق الأوضاع التي تمكنهم من اتخاذ قرارات صحية مبنية على الفطنة، عن طريق أنشطة متنوعة كالمحاضرات، عرض الأفلام، النشرات، والملصقات الحائطية، التي تضمن تكوين اتجاهات وعادات صحية سليمة للمتدربين. إضافة إلى ذلك تشرف على نظافة المطعم المدرسي، وسلامة المواد الغذائية المقدمة فيه، وما مدى مراعاته ومطابقته لشروط التغذية السليمة. كما تعمل على توفير بيئة صحية داخله، يشعر من خلالها المتدربين، وكافة الفاعلين بالراحة والأمن جراء سلامة الأجهزة، والعتاد وجاهزيتها للاستعمال، وتوفير الشروط الصحية داخل المطعم من حيث الإضاءة والتهوية، نظافة خزانات المياه، المغاسل، المطبخ، ورمي النفايات، وحماية المتدربين من الأضرار والمخاطر التي قد يتعرضون لها في المطعم. وفي هذا الصدد صرح لنا أحد المبحوثين بقوله: «أن التواصل بين المدرسة وهذه المؤسسات، لنشر ثقافة صحية داخل المطعم المدرسي قليل جدا، باستثناء مؤسسة وحيدة تتمثل في البلدية، باعتبارها المؤسسة الوحيدة التي تشرف على تسيير المدرسة الابتدائية بمختلف مرافقها البيداغوجية. » (أنثى، 40 سنة، جامعي، 23 سنة خبرة مهنية).

لكن ما لاحظناه خلال زيارتنا الميدانية في إحدى المطاعم المدرسية، يبدو أن هناك مؤسستين يتعامل معهما المطعم المدرسي، تتمثل المؤسسة الأولى في البلدية، حيث تتمثل المهام التي تقوم بها لمساعدة المطعم المدرسي في تأدية دوره التربوي في: العمل على جلب عمال مهنيين ذوي خبرة وكفاءة، كعمال النظافة، الطبخ، الحراسة...، كما تعمل على جلب مختصين لفحص ومراقبة المواد الغذائية، التجهيزات المادية، والخزانات المائية، إضافة إلى ذلك تقوم بتوفير العتاد والتجهيزات، مواد النظافة، توفير مياه الشرب، تهتم بجلب وسائل النقل لرمي النفايات، ونقل الأغذية إلى مدارس أخرى خاصة إذا كانت هذه المدارس لا تحتوي على مطعم مدرسي، كما تهتم بتصليح الأعطاب التي تحدث بداخله، أما المؤسسة الثانية، فتتمثل في المؤسسة الإستشفائية، والتي يتعامل معها المطعم المدرسي في بداية الموسم الدراسي، وأثناء الامتحانات الرسمية فقط،

لفحص العمال المهنيين والمتمدربين، وتكوين ملفات طبية لهم تساعد في مساهمة المهني والمتمدربين في مساهمة الدراسي.

خاتمة:

إن المجتمع المدرسي في الوقت الحاضر يواجه عدة تحديات، تؤثر هذه الأخيرة على الصحة النفسية والجسمية والعقلية للمتمدربين في المدرسة الابتدائية، الأمر الذي جعل جميع مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وخصوصا المدرسة التي تعتبر المؤسسة الاجتماعية الثانية التي يتلقى فيها الطفل مجموعة من المبادئ والسلوكيات الصحية بعد المؤسسة الاجتماعية الأولى (الأسرة)، تضع أمام مسؤولياتها ومهامها الاهتمام بصحة المتمدربين، لأنهم يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع، فضلا على أن أجسامهم حساسة وأكثر عرضة للأمراض والإصابات، وإن تواجدهم خلال فترة الدراسة في مساحة محدودة يزيد من قابليتهم للعدوى خاصة في المرحلة الابتدائية، التي يكون فيها المتمدرب في أمس الحاجة إلى ثقافة صحية تساعد على النمو. ويتم تحقيق ذلك من خلال تبني المدرسة مجموعة من البرامج والخدمات الصحية، التي تعد أداة فعالة للارتقاء بصحة المتمدربين داخل المجتمع المدرسي وخارجه. ومن بينها نجد المطعم المدرسي كفضاء تربوي وغذائي، يساهم في تحقيق أهداف وغايات المدرسة الصحية، فهو فضاء يكتسب فيه المتمدرب مبادئ الثقافة الصحية؛ ولكي يقوم المطعم المدرسي بدوره التثقيفي والتربوي، تقوم المدرسة بتهيئة كل الظروف الملائمة لإنجاح دوره، معتمدة على كل ما لديها من إمكانيات مادية وبشرية مختلفة أهمها المعلمون ذوو الخبرات والكفاءات المختلفة، الذين عدوا إعدادا سليما، لممارسة أدوارهم التربوية المكملية للعملية التعليمية. فدورهم داخل المطعم المدرسي لا يقتصر على تلقين المعلومات والإرشادات الصحية فقط، بل يتجاوزها إلى الاهتمام الواسع بنمو المتمدربين.

ولكن بالرغم من أن للمعلم دور عملي وتطبيقي في التثقيف الصحي للمتمدربين داخل المطعم المدرسي؛ إلا أن مفهوم التربية الصحية لم تثمن دورها المرجو في مختلف المطاعم المدرسية التي هي محل الدراسة. وهذا أمر طبيعي يواجه كل إجراء جديد. فمن خلال زيارتنا الميدانية التي قمنا، ومن خلال تصريحات المعلمين، يبدو بوضوح تدني وظيفة المعلم داخل المطعم المدرسي، حيث يظهر أنه يحمل صورة غير واضحة اتجاه دوره داخله، وأهميته في التثقيف الصحي للمتمدربين أو يتجاهلها. وهذا انعكاس للاختلال الموجود في نسق المدرسة

الابتدائية، لأنها لم تأخذ إلا جانبا واحدا في الحسبان، وهو توفير التغذية الصحية والسليمة للمتمدرسين، ولم تولي الأهمية إلى الجوانب الصحية الأخرى، التي تعتبر متطلبات أساسية لإنجاح دورها في عملية التثقيف الصحي للمتمدرسين، وهي في نظرنا هامة وضرورية. فمن خلال هذه الدراسة الميدانية، لاحظنا أن النتائج لم تكن مثل ما كان منتظرا، وبالتالي فهي دون المستوى المطلوب؛ أي أن التربية الصحية لم تحظى بالاهتمام والعناية الكبيرة داخل المطعم المدرسي من طرف المعلم وكافة الطاقم المدرسي، ويعود السبب في نظرنا إلى:

- الفوضى وسوء التسيير والتنظيم من طرف كافة الفاعلين القائمين على تسييره.
- عدم وجود رقابة جدية من طرف الجهات المعنية برعاية المتمدرسين.
- انعدام التعاون والتنسيق بين الأسرة، المجتمع باختلاف مؤسساته، والمدرسة فيما يتعلق بالتغذية السليمة والتوعية الصحية.
- نقص الإمكانيات البشرية المؤهلة لتحقيق توعية صحية، فمعظم المطاعم المدرسية لا تحتوي على مختص نفسي أو اجتماعي أو طبيب، أو ممرض أو عمال مهنيين ذوي خبرات في كيفية التعامل صحيا مع المتمدرسين، فلا وجود إلا لعمال مهنيين متخرجين من معاهد أو مراكز التكوين المهني. ونقص الإمكانيات المادية فجّل المطاعم المدرسية تفتقد إلى تجهيزات وعتاد تساعد في ترسيخ مبادئ الثقافة الصحية.
- نقص الدورات التكوينية والتربصية، من طرف المسؤولين، والمختصين التربويين، التي تساعد المعلمين على تأدية مهامهم داخله. ففكرة أن المعلم يساهم في ترسيخ ثقافة صحية من خلال تواجده بالمطعم المدرسي، في حقيقة الأمر ما هي إلا حبرا على ورق، لأن المعلمون لم يستطيعوا إلى حد كبير من تطبيقها، بسبب الوضع المأساوي الذي تعيشه المطاعم المدرسية في بعض المدارس الابتدائية لمدينة معسكر. لكن بالرغم من هذه الحواجز والعراقيل التي تمنع المعلم من تأدية دوره التثقيفي، إلا أننا نجد المعلم يساهم إلى حد كبير في نشر ثقافة صحية لدى المتمدرسين في المطعم المدرسي، ليصبح عضوا فعالا ومفيدا في المجتمع، من خلال عدة جهودات يقوم بها داخل الفصل الدراسي وخارجه كتكثيف الزيارات الميدانية إلى مؤسسات المعنية بأمر التربية والتعليم الصحي، إحياء المحاضرات العلمية عن طريق جلب المختصين من داخل وخارج المدرسة، الاعتماد على المناهج الدراسية المختلفة التي تهتم بتحقيق مبادئ التربية الصحية،

عرض بعض الصور والملصقات على جدران المطعم...

قائمة المراجع:

- 1- ابراهيم، مسعود محمود. (2004). مبادئ الصحة المدرسية، ط1. الرياض: دار الحرم للطباعة.
- 2- الحوراني، محمد عبد الكريم. (2008). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع: التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفة والصراع، ط1. الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- 3- اللقاني، أحمد حسين. (2003). معجم المصطلحات التربوية المعرفة في المناهج وطرق التدريس، ط3. القاهرة: عالم الكتب.
- 4- بدران، شبل. (2004). الثقافة المدرسية، ط1، الأردن: دار الفكر.
- 5- شريم، محمد بشير. (2012). الثقافة الصحية، ط1، الأردن: وزارة الثقافة.
- 6- لبيب، فردوس مصطفى. (1978). الثقافة الصحية، ط1، المملكة العربية السعودية: مطبوعات وكالة الرئاسة العامة لكلية البنات.
- 7- نواف، أحمد سمارة. (2008). مفاهيم ومصطلحات في العلوم التربوية، ط1. الأردن: دار المسيرة.
- 8- الصرايرة، خالد. (2012). « مستوى الصحة المدرسية في المدارس الابتدائية بدولة الكويت من وجهة نظر المديرات والمعلمات ». مجلة جامعة النجاح للأبحاث الإنسانية، الجامعة الأردنية، الجزء الأول (العدد 10)، ص.ص (2806، 2346).
- 9- بدح، أحمد. (2007). « واقع برامج الخدمات الصحية المقدمة في مدارس محافظة الزرقاء في الأردن من وجهة نظر مديري المدارس ». مجلة جامعة النجاح للأبحاث الإنسانية، الجامعة الأردنية، الجزء الأول (العدد 03)، ص.ص (60، 75).
- 10- زاتير، صافي. (2003). «الأدوار التربوية والاجتماعية والصحية للمطعم المدرسي» ورقة عمل مقدمة إلى الملتقى الولائي لمسيرى المؤسسات: المطاعم المدرسية (ابتدائي ط-1 ط2) والمؤسسات التربوية (إكمالي- ثانوي)، الملتقى الأول، متقن العروسي الحاج قدور- تغنيف، من 2003/05/31 إلى 2003/06/01.
- 11- شعيب، عيد. (2013). «الدور التربوي للمطعم المدرسي وأثره في عملية التحصيل الدراسي». ورقة عمل مقدمة إلى الملتقى الولائي الأول لمسيرى المطاعم المدرسية: التسيير الإداري، المادي والمالي للمطاعم المدرسية، الملتقى الأول، ثانوية عبد القادر فراوي، يوم 25 فبراير 2013.

دور الصحافة المكتوبة في مجابهة أشكال الجريمة

في المجتمع الجزائري

أ. رقيق عبد الكريم - سيدي بلعباس

شكل هامش الحرية الواسع الذي حظيت به وسائل الإعلام الجزائرية في السنوات الأخيرة في تسليط الضوء على العديد من قضايا الإجرام ، حيث صار لهذه الوسائل عموماً و المكتوبة خصوصاً حضورها كأهم عوامل تعرية للإجرام ومكافحته، و يرجع ذلك إلى تكريس سياسة الوصول إلى المعلومات و نشرها عبر وسائلها، و تعتبر في ذات الوقت عوامل أساسية تساعد في نهاية المطاف على تحقيق نمو أكثر عدالة ، فالإعلام يلعب دوراً أساسياً في مكافحة الجريمة والتصدي لهذه الظاهرة التي باتت منتشرة في مجتمعنا من خلال ما يقوم به، من وظيفة كشف المستور كون هذه الجرائم تحدث خفية، ومهمة الإعلام هي إظهار الحقيقة وإمطة اللثام عليها، من هنا ينشأ الصراع بين الإعلام والجريمة، فمتركبوا هذه الأخيرة في الغالب بارعون في ارتكابها، وعلى اضطلاع واسع بالقوانين، ومعرفة ودراية تامة بما يقومون به ، ولديهم قدرة كبيرة على التمويه وإخفاء جرائمهم .

فعلاقة الإعلام بالإجرام علاقة مزدوجة فهي علاقة كشف وعلاقة وجود . و وسائل الإعلام (المقروءة والمسموعة والمرئية) بوصفها تمثل السلطة الرابعة ، فهي تشكل السلطة الشعبية تعبر عن ضمير المجتمع وتحافظ على مصالحه الوطنية ،وبذلك تقع عليها مسؤولية كبرى في مكافحة الجريمة والتصدي لهذه الظاهرة الخطيرة، والتي لابد في سبيل تحقيق هذه الغاية أن تتحلى بالموضوعية وحس المسؤولية، لترصد وتكشف وتتابع أية مخالفات وممارسات فاسدة، بعيداً عن التشهير والتحيز ولا يخفى علينا القدرة التأثيرية للصحافة المكتوبة التي تعتمد على قوة الكلمة، بالتالي هذا يعطيها أهمية خاصة في قدرتها على التصدي للإجرام ومحاربة المجرمين ،كون الإعلام المكتوب يتوجه مباشرة لأفراد المجتمع للوصول إلى مجتمع خالي من الفساد. و هنا يأتي دور ما يسمى بالإعلام الأمني الذي يكون على صلة وثيقة برجال الشرطة .

أولاً: تعريف الجريمة :

لغة: قال العلامة ابن منظور: جرم: الجرْمُ: القطع، جَرَمَهُ يَجْرِمُهُ جَرْمًا:قطعه، وشجرة جريمة:مقطوعة.

والجُرْم: التعدي، والجُرْم: الذنب، و الجمع أَجْرَامٌ، و جرومٌ، وهو الجريمة، وقد جرم يجرم جرماً و اجترم، وأجرم، فهو مجرمٌ و جريمٌ، وفي الحديث: (أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم عليه فحُرم على الناس من أجل مسأله) رواه مسلم 1

الجُرْم: الذنب، وقوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ 2.

و الجرم بالضم أي الذنب كالجريمة و الجمع أجرام و جروم. و المجرمون بالمعنى الديني الكافرون و تجرم عليه أي ادعى عليه الجرم و إن لم يجرم، وتجرم الليل أي ذهب وتكمل. والجريم أي العظيم الجسد. وجرمناهم تجريماً أي خرجنا عنهم. ومؤدي هذا التعريف إن الجريمة تأتي من الجرم، أي من ارتكاب أو اقتراف الذنب 3.

عرفت الجريمة في موسوعة علم الجريمة على أنها مصطلح جرى التعارف على استعماله ليشير بوجه عام إلى نوع خاص من السلوك الذي ينتهك القواعد القانونية و المعايير و القيم الأخلاقية الموجودة في المجتمع. وهذه التفرقة بين القواعد القانونية و المعايير و القيم الأخلاقية هي أساس الاختلافات في مواقف العلماء عند نظرهم للجريمة و تحديدهم لها 4.

تعريف الجريمة اصطلاحاً:

يختلف تعريف الجريمة بين العلماء القانون، علماء النفس و الاجتماع علماء الشريعة، حيث إن لكل من هؤلاء رأياً في الموضوع.

من الوجهة القانونية لا ينكر الفقه صعوبة الجريمة. ولعل مراد ذلك أن المعايير التشريعية والقضائية المحيطة بهذا التعريف لا تخلو، كما يرى البعض من نسبية. فالجريمة تعكس لدينا صور الوحشية وعدم الأمانة و عدم الانضباط الاجتماعي والعذوانية، ولكننا نفتقد رغم ذلك جوانبها المجردة العامة.

وثمة تعريفات شتى للجريمة من المنظور القانوني، تتباين بحسب فكر الفقه ومذاهب الفقهاء في تناول الموضوع لعل أوجز هذه التعريفات بأنها 5:

كل نشاط خارجي لإنسان سواء تمثل في فعل أو امتناع يفرض له القانون عقاباً». و يقصد بالعقاب هنا «العقوبات، بالمعنى الذي حدده و بينه قانون العقوبات.

و يحرص بعض فقهاء القانون على أن يضيفوا إلى المعنى المستفاد من تعريف الجريمة على

هذا الوجه قيداً و هو ألا يكون الفعل أو الامتناع قد حصل استعمالاً لحق أو أداء لواجب. و هذا القيد يزيد لا لزوم له، لأن الفعل إذا كان استعمالاً لحق أو أداء لواجب لا يوصف بأنه جريمة، لانتفاء النص القانوني الذي يقضي بالعقاب بالقياس إلى واقعة الحال المعروضة.

أما من جهة الشريعة الإسلامية قال العلامة الماوردي: الجريمة هي محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير. والمحظورات في الشريعة هي إما إتيان فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به وقد وصفت المحظورات بأنها شرعية إشارة إلى أنه يجب في الجريمة أن، تحظرها الشريعة، فجاء تعريف الجريمة بأنها إتيان فعل محرم معاقب على فعله، أو ترك فعل، محرم الترك، معاقب على تركه. أو هي فعل أو ترك نصت الشريعة على تحريمه و العقاب عليه⁶.

ينظر علماء النفس إلى السلوك الإجرامي على أنه سلوك معاد للمجتمع، وهو لا شك كأى نوع آخر من أنواع السلوك الشاذ أو الغير السوي، ولذلك فإن الشخص الجرم لا يختلف عن الشخص المريض الذي يأتي أيضاً بالسلوك الشاذ المريض يحتاج إلى العلاج و الرعاية⁷.

إن الظاهرة الإجرامية وفقاً لهذا المنظور هي إشباع لغريزة إنسانية بطريقة شاذة لا ينتهجها الرجل العادي في إرضاء الغريزة نفسها، للتعبير عن الصراعات النفسية والاضطرابات في قوى الشخصية .

بينما أكد علماء الاجتماع على أن الجريمة ظاهرة اجتماعية معقدة تخضع لمفاهيم فكرية ودينية وأخلاقية وليست قانونية فقط . و يعتمد التعريف الاجتماعي للجريمة» على بعض المعايير الاجتماعية كأساس لتحديد السلوك الإجرامي، ومن ذلك تشير بعض التعريفات الاجتماعية إلى أن معيار تحديد السلوك الإجرامي هو عداء ذلك السلوك للمجتمع، بمعنى أن الجريمة هي سلوك معاد للمجتمع⁸.

تهتم التصنيفات الاجتماعية للجريمة بحياة الناس ومصالحهم، ومؤسساتهم الاجتماعية التي يقع عليها الضرر. كما تضع في بؤرة اهتمامها أيضاً دوافع المجرم في ارتكاب الجريمة، والهدف من هذه التصنيفات الاجتماعية تيسير دراسة الجريمة والسلوك الإجرامي. وتقسم الجرائم إلى سبعة أنواع⁹:

- جرائم ضد الممتلكات، كالسرقة والحريق العمدي .

- جرائم ضد الأفراد، كالقتل والضرب.
- جرائم ضد النظام العام، كجرائم أمن الدولة وإشاعة الفوضى والتخريب.
- جرائم ضد الأسرة، كالخيانة الزوجية وإهمال الأطفال.
- جرائم ضد الدين كالاعتداء على أماكن العبادة التي تعتبر مقدسات لا تمس بسوء.
- جرائم ضد الأخلاق، كالأفعال الفاضحة و الجارحة للحياء في المناطق العامة.
- جرائم ضد المصادر الحيوية للمجتمع، مثل الصيد في غير موسمه أو صيد طيور حرم صيدها، في الأوقات المحددة، أو تبيد ثروات المجتمع.

ثانيا: مفهوم الأمن:

لغة: أصل الأمن في اللغة طمأنينة النفس و زوال الخوف، و لا يكون الإنسان آمناً حتى يستقر الأمن في قلبه

و أمن البلد اطمئنان أهله فيه و أمن فلان على كذا : وثق فيه و اطمأن عليه و جعله آميناً عليه ، و الأمين : الحافظ الحارس أي من يتولى رقابة الشيء أو المحافظة عليه، و يقال أمن بكسر الميم أمانة فهو أمين، و الإيمان ضد الكفر و الإيمان بمعنى التصديق و ضده التكذيب ، و أمن إيماناً صار ذا أمن و أمن به صدقه¹⁰. ومعاني المادة كلها ترجع إلى الاطمئنان و الاستقرار والسكينة ، وكلها كفله الله سبحانه و تعالى لعباده المؤمنين الذين آمنوا به و صدقوه برسوله و بالحق لما جاءهم¹¹، و ذكر ذلك في قوله تعالى ﴿الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف﴾¹².

اصطلاحاً: هو التدابير الكفيلة بحفظ النظام السائر على سنن الله ،و ضبط العلاقة بين الناس على نحو عادل متوازن حتى لا يظلم أحدٌ أحداً ،وكي ينخرط المواطنون جميعاً في خدمة الأهداف المشتركة دون إزعاج¹³.

أ- علاقة الإعلام بالأمن :إن وظيفة الإعلام تنحصر من الناحية النظرية في تزويد الجماهير بالأخبار والحقائق الصحيحة التي تساعد على تكوين الرأي العام السليم ،و اتخاذ الفعل الملائم، بينما يؤدي الأمن من خلال الجهاز الشرطي إلى الاستقرار و الشعور بالطمأنينة و توعية

الأفراد في المجتمع، للوقاية من المخاطر المحيطة بهم لتجنبها¹⁴، فالإعلام صار محركاً لقضايا الأمن، و موجهاً لها بوسائله الخطيرة، و محدثاً لتحولات التي تصيب البنية الأمنية، ومسيراً و محولاً لاتجاهات الرأي العام¹⁵.

أما المسؤولية بين الإعلام و الأمن هي مسؤولية مشتركة و نتائج واحدة، و لذلك فإنه ما قلناه أن مسؤولية الأمن هي مسؤولية مشتركة تعني أن الإعلام عليه أن يدرك ذلك، و يتعاون مع رجال الأمن في سبيل الوصول إلى أقصى درجات الأمن في المجتمع، و لكنها على رجال الإعلام أن يدركوا أن الأمن ليس مسؤوليتهم فحسب بل مسؤولية الجميع، و أن رجال الإعلام و غيرهم مسؤولون عن الأمن و لذلك ينبغي أن يتعاون أيضاً رجال الأمن مع رجال الإعلام لتحقيق رسالة الأمن و الإعلام¹⁶. لأن الإعلام بنشره للمعارف و نقل المعلومات وتحليله للأحداث يبرر الظواهر الاجتماعية و السياسية و غيرها، موجهاً المجتمع و محذراً له و مشاركاً في تشكيل الرأي العام و في صنع القرار¹⁷، إذ يجب أن تكون الرسالة الإعلامية شاملة تقوم على التثقيف والتوعية و تربية النفس و تهذيبها، فإننا لابد أن نستخلص أن الإعلام جهاز هام جداً بل هو أهم الأجهزة جميعاً في دعم الأمن و نشر ألويته داخل كل مجتمع على حدة في العالم كله¹⁸، إذ يعتبر الإعلام أداة فعالة من أدوات الأمن لخلق حلقة من التواصل و الترابط مع الجماهير، لذلك يعد وظيفة مهمة من وظائف الجهاز الأمني بما يحققه من خلق وعي جماهيري بأنشطته و أدائه لرسالاته الأمنية، و تبصيره بالمخاطر و كيفية الوقاية منها¹⁹.

ب - مفهوم الإعلام الأمني : الإعلام الأمني من المصطلحات الحديثة التي ذاعت وانتشرت وتبوت مكانتها بين مختلف أساليب الإعلام النوعي، وهو كل ما تقوم به الجهات ذات العلاقة من أنشطة إعلامية ودعوية وتوعية بهدف المحافظة على أمن الفرد والجماعة، وأمن الوطن ومكتسباته في ظل المقاصد والمصالح المعتمدة.

و هذا يدعونا إلى إلقاء الضوء على أهم المفاهيم التي تناولت المصطلح أملاً في و ضع تعريف له ما يميزه عن الفروع الإعلامية الأخرى. حيث يرى البعض أن « الإعلام الأمني يتضمن معلومات مهمة و كاملة تغطي الأحداث و الحقائق و القوانين المتعلقة بأمن المجتمع و استقراره، و التي يعتبر إخفاؤها أو التقليل من أهميتها نوعاً من التعتيم الإعلامي، كما أن المبالغة في تقديمها أو إضفاء أهمية أكبر عليها نوع من الدعاية لخدمة أهداف معينة »²⁰. و يرى آخرون أنه النشر الصادق للحقائق و الثوابت الأمنية و الآراء والاتجاهات المتصلة بها، و

الرامية إلى بث مشاعر الطمأنينة و السكينة في نفوس الجمهور، من خلال تبصيرهم بالمعارف و العلوم الأمنية ، و كسب مساندتهم في مواجهة صنوف الجريمة و كشف مظاهر الانحراف²¹.

ج — الأمن الإعلامي: قد تكون كلمة الأمن تعني هنا الحصانة المسبقة للحفاظ على شخصية الحالة الإعلامية و خصوصيتها، و وجود رادع غير قمعي و اعتبار الإعلام بكل وسائله إحدى ركائز الأمن القومي ، لكونه مؤثراً في صناعة القرار السياسي و في صناعة الرأي العام²².

و يمكن تعريف الأمن الإعلامي بأنه العملية التي تراعي الأبعاد الأمنية في كل مخرجات الإعلام التثقيفية منها و الترفيهية²³، و يلعب الأمن دوراً أساسياً على الصعيد الإعلامي، بحيث يقوم بتوجيه الرأي العام أو اطلاعه على الأخبار و التقارير و البيانات إلى جانب مفاهيم الثقافات المختلفة²⁴. و جدير بالذكر أن المواطن العادي خاصة في البلدان النامية نجده حريصاً على تبني وجهة نظر وسائل إعلامية ، متبنياً ما تقدمه له من معلومات آخذاً بتوجيهاتها و أساليبها بشكل عفوي باعتبارها المصدر الصحيح للإعلام الرسمي²⁵.

يقوم تحقيق الأمن الإعلامي على أسس أبرزها: إيجاد قدر من الصناعات الإعلامية و تقديم خطاب إعلامي غني و متطور ومقنع و تنوع في إنتاج المواد الإعلامية و تبادلها²⁶.

*وظائف الإعلام الأمني:

دعم الجانب البنائي الذي يساهم في ترقية اهتمام الناس و ميولهم و تطلعاتهم ، و الذي ينبع من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، ويحافظ على التراث الوطني و الروح العربية الأصيلة ، كما يهدف للحماية من تأثير الدعايات و الأفكار المضادة .

أيضا الجانب الوقائي الذي يتولى الدفاع عن كل ما يمس البناء الاجتماعي لهذا المجتمع، و عقيدته التي أسس عليها هذا البناء ، بأنظمته و قوانينه و مؤسساته و ضوابطه ، خاصة و أن المجتمع مفتوح أمام سيل من الوسائل الاتصالية المتعددة .

و من وظائفه كذلك إمداد أجهزة الإعلام المحلية والدولية كافة بالأخبار والمعلومات الضرورية بدقة و سرعة تتناسب مع سرعة وتتابع الأحداث ، كما يعمل على تسهيل مهام رجال الإعلام في أداء أعمالهم في شتى المواقع والظروف ، لتوطيد الصلات مع وسائل الإعلام المحلية و الدولية كافة ، كما يقوم كذلك برصد الظواهر الإجرامية و الأنشطة الإرهابية و تحليل مدلولاتها

و استخلاص النتائج بأسلوب الحس الأمني ، و الإسهام في تطوير الإستراتيجية الأمنية ، و دعم اتخاذ القرار²⁷.

يعتمد الإعلام الأمني على قياس اتجاهات الرأي العام اتجاه شتى القضايا المطروحة، سواء على مستوى الجمهور العام أم على نطاق شريحة معينة من المواطنين باستخدام الوسائل العلمية في هذا المجال حتى يتسنى التفاعل معه بموضوعية ، إضافة إلى إعداد الحملات الصحفية و الإعلامية التي تهدف إلى مواجهة الظواهر الإجرامية و الفكر المتطرف في المجتمع .

* معوقات الإعلام الأمني: بالرغم من أهمية الإعلام الأمني في تحقيق الأمن والاستقرار والعمل على إصلاح المجتمع وتحقيق التنمية والرفاهية في جميع المجالات، إلا أن هذا الدور يتضاءل بسبب بعض المعوقات التي تتراوح ما بين معوقات بشرية، ومعوقات فنية، كما يتضح فيما يلي:

المعوقات البشرية: إن نقص المتخصصين في الإعلام الأمني المؤهلين أصحاب الخبرة والدراية يحد من قدرة الإعلام الأمني على القيام بدوره في مكافحة الجريمة والوقاية من آثارها السلبية²⁸. فضلا على انخفاض الوعي بين أفراد المجتمع بضرورة الاستماع والإنصات عند الاستماع لرسائل الإعلام الأمني، أدى لعدم تفعيل الاستراتيجية الأمنية لمحاربة الجريمة بالشكل الحقيقي.

المعوقات الفنية: عدم الاهتمام بتزويد أجهزة الإعلام الأمني بالتقنيات الحديثة التي تساعد على إيصال الرسالة الإعلامية بطرق حديثة، و وسائل متنوعة ومشوقة²⁹. وقلة التدريب المناسب من قبل أجهزة الإعلام بمديريات الأمن عبر الوطن على الإلقاء الصحيح للرسائل الإعلامية أو إعداد مكوناتها بطريقة صحيحة. وضعف قدرة البعض منهم على مواكبة التطور التقني الحديث.

كما هناك أنواع أخرى من معوقات الإعلام الأمني³⁰:

- صعوبة الحصول على بيانات ومعلومات دقيقة وحديثة متنوعة، بسبب إحاطة هذه المعلومات والبيانات بالسرية وعدم السماح بدخول مندوبي وسائل الإعلام إلى مكاتب الأجهزة الأمنية.

- عدم وجود خريطة أمنية بالموضوعات التي تشكل الاهتمامات الأمنية الراهنة والمستقبلية

على المستوى المحلي والإقليمي.

- تركيز الاهتمام الإعلامي الأمني في قضايا أمنية محددة كالجريمة والمخدرات ومشاكل المرور.

- خوف القيادات والمسؤولين بالأجهزة الأمنية العربية من الإدلاء بتصريحات دون الحصول على موافقة مسبقة.

- عدم تعاون الأفراد والمواطنين مع الأجهزة والأمنية يؤدي إلى إيجاد فجوة بين الطرفين تنعكس ولاشك على أمن الوطن واستقراره.

ثالثاً : الإعلام الأمني والتحديات المعاصرة:

إن تحصين المجتمعات العربية والجزائر على وجه الخصوص بالمبادئ والقيم، ليست ترفاً فكرياً بل شرط وجود، وجوهر بقاء وأساس مكافحة الجرائم وركائز تحصين المجتمعات.

من هنا كان لابد أن يدرك القائمون على الإعلام الأمني التحديات والأبعاد المتعددة، التي بدأت تتسلل إلى داخل الدولة الجزائرية فتخترقها، ساعية إلى خلخلة أمنها الداخلي، وبلبله الأفكار، وإشاعة روح الانهزامية والفرقة واللامبالاة.

إن للإعلام الأمني أثر كبير وإيجابي في تدعيم الاستقرار والأمن في أوساط المجتمع، ومحاربة الجريمة والتوعية بمضارها وآثارها الخطيرة، والتبصير بعواملها وأسبابها وطرق وسبل مكافحتها والقضاء عليها.

للإعلام الأمني دور كبير في تسليط الضوء على القضايا الاجتماعية و طرحها للدراسة و البحث والتنبيه إليها و إلى ضرورة استئصالها و إيجاد الحلول اللازمة لها، لدى كان عليه مجابهة هذه التحديات التي دعمت من نسبة الجريمة في المجتمع الجزائري كالإرهاب الأعمى ، وتفشي الانحراف والفساد بمختلف أشكاله ، وتنامي تعاطي المخدرات .

***دور الإعلام الأمني في الوقاية ومواجهة الجريمة:**

يحمل الإعلام الأمني بين ضمن أهدافه رسالة ترسيخ الوعي الأمني، من خلال تدعيم سبل و أواصر الصلات بين الأجهزة الأمنية و الجمهور و إعلامه بحقائق و ثوابت العمل الأمني³¹، و

تبصير الجمهور و بدوره الأساسي و بأساليب وقاياته من الجرائم و تشجيعه على مساندة أجهزة العدالة تحقيقاً لأمن المجتمع.

و من هنا فإن وسائل الإعلام في الدول المتقدمة، تعتبر همزة الوصل بين الحكومة و الجماهير، حيث تعتمد هذه الحكومات في تحقيق أهدافها على وسائل الإعلام التي تساند أجهزة الشرطة في القيام بواجبها³²، بما تملكه من إمكانيات هائلة و تأثير فعال في نفوس المواطنين.

و إذا كانت الوقاية من الجريمة تعتبر أولى اهتمامات و غايات العمل الإعلامي الأمني، فإن الأمر يتطلب معرفة مدى تأثير ما تثبته وسائل الإعلام و أساليب تناولها للجريمة في المساهمة نحو تكوين السلوك الإجرامي، و ذلك بهدف تقديم هذه الأساليب و ترشيدها.

و من هذا المنطلق استمد الإعلام الأمني أهميته الكبرى في مجال التوعية الأمنية، و مكافحة الجريمة خاصة في هذا العصر، الذي بات فيه العالم باختلافه و ترامي أركانه، قرية كونية صغيرة تتلاقى فيها و بسرعة كافة البيانات و المعلومات لتؤثر في بعضها، و تخلق نسيجاً جديداً لحياة ذات الخصائص و سمات متجانسة و متلازمة مع البيئة التي تحيط بها، و يظهر فيما بينها العديد من عناصر الاشتراك في مجال التطبيق.

و لكون جانب الوقاية من الجريمة من أولى اهتمامات و غايات العمل الإعلامي الأمني، فإن الأمر يتطلب معرفة مدى تأثير ما تثبته وسائل الإعلام و أساليب تناولها للجريمة في المساهمة نحو تكوين السلوك الإجرامي.

و تؤكد عديد من الدراسات الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في تشكيل شخصيات الأفراد ، من خلال ما تثبته من برامج مختلفة، تؤثر على سلوكياتهم و قد تدفع البعض من الأفراد لارتكاب الجريمة. و هذا باتفاق كثير من الباحثين الاجتماعيين و النفسانيين، على أن عرض الأفلام التي تحاكي الجريمة و المجرمين من خلال وسائل الإعلام سبب من أسباب السلوك الإجرامي³³. و رغم اختلاف وجهات النظر حول موضوع تناول الصحافة لظاهرة الجريمة بين مؤيد و معارض لنشر أنباء في الصحف، إلا أن المتفق عليه بشكل كبير هو الدور الذي يلعبه الإعلام الأمني كإعلام متخصص يُقدم النافع لأفراد المجتمع، و يحفزهم على إتباع السلوك السوي، من خلال الحرص على عرض المعلومات الصحيحة الموثوقة، و إتاحة الفهم الصحيح.

وبذلك يستطيع الإعلام الأمني، أن يساهم في علاج الانحرافات السلوكية كما يستطيع الإعلام الأمني أن يقوم بدور فاعل في إضعاف الرأي المؤيد للجريمة و تدعيم الرأي الواعي بأضرارها .

* الإعلام الأمني في دائرة الصراع للحد من الجريمة واحتوائها:

تعددت الآراء وتباينت حول الأسلوب الأمثل لنشر أخبار الجرائم في الصحافة، وحول تأثير العنف المقدم في السينما والتلفزيون على السلوك الإجرامي. ولكن الأمر المتفق عليه هو الدور الذي يلعبه الإعلام الأمني كإعلام متخصص للحد من الجريمة و احتوائها.

و تساعد أجهزة الإعلام على اندماج الفرد في وسطه الثقافي و الاجتماعي و الاقتصادي، و تجري عملية التنشئة الاجتماعية تحت ضغط حشد من الوسائل الإعلامية ذات العلاقات المتداخلة فيما بينها.

فالإعلام الأمني يلعب دوراً مهماً و حيوياً في مكافحة الجريمة ،و لعل ما تسلكه الأجهزة الإعلامية من وسائل متعددة، سواء مكتوبة مثل الصحف و المجلات ،أو المسموعة كالمذيع و المحاضرات و الندوات و غيرها، وحتى المرئية كالتلفزيون و السينما و المسرح...كل منها يساهم إسهاماً فعالاً في تحقيق الغايات الأمنية بكافة أبعادها³⁴.

*أساليب الإعلام الأمني في الوقاية من الجريمة:

هناك عدة أساليب يجب أن تنتهجها أجهزة الإعلام الأمني للوقاية من الجريمة، لعل من أهمها:

فرض مستوى من الرقابة على وسائل الإعلام و النشر، لكي لا تنساق وراء الأفكار المتطرفة، أو يندس أصحاب الفكر المتطرف في وسائل الإعلام، و يستخدمونها في بث أفكار دينية و سياسية منحرفة لتحقيق أهدافهم، وإتباع منهج الوسط القائم على الاعتدال.

إحكام الرقابة على شبكة الإنترنت، باعتبارها من الوسائل المتطورة التي يعتمد عليها أصحاب الفكر المتطرف في بث سمومهم.

الاستخدام الفعال لكل أدوات النشر و الإعلام و الاتصال كأداة رئيسية ،و شرط ضروري لنجاح إستراتيجية المواجهة في جميع أبعادها و جوانبها الدينية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و التربوية و التعليمية والإعلامية و الفكرية و التشريعية و القضائية و الأمنية

وغيرها...35.

تشجيع إنشاء مؤسسات لقياس الرأي العام، والمساهمة الإعلامية في توجيه الرأي العام في الوقاية من الجريمة. و التعاون بين وسائل الإعلام و الجهات الأمنية لعمل مظلة إعلامية وقائية لردع الجريمة و الوقاية منها.

البحث في إيجاد تكامل مع مؤسسات المجتمع الأخرى كالأسرة و المدرسة و المؤسسة الدينية و الترفيهية، و تقديم برامج إعلامية متخصصة لتوعية الجمهور بأخطار الفكر المتطرف.

* إستراتيجيات الوقاية من الجريمة في وسائل الإعلام الجماهيري:

تعد الإستراتيجية من المصطلحات الشائعة التي يتداولها الأفراد ، و لتعريف شامل نجدها تتفق على مضمون و جوهر الإستراتيجية القائم على حسن استخدام القوى المتاحة مادياً و معنوياً، وفق خطة محكمة لمواجهة مشكلة أو موقف واقعي لتحقيق أهداف و غايات محددة 36، أما الإستراتيجية الأمنية تلك الخطط الشاملة في مجال الإعلام الأمني، بغرض تحقيق عدد من الأهداف الأمنية المحددة التي تساهم في دعم رسالة الشرطة في خدمة المجتمع ، و الجدير بالذكر أن الإعلام الأمني يستهدف الإقناع بالسلوك الأمني من خلال تبني إستراتيجية التنوير، التي تعتمد عليها المجتمعات في مواجهة العمليات و الظواهر الإجرامية و مع وقوع الجرائم و هذا يتطلب خطتين هما :

إستراتيجية التغيير: و تتمثل في تغيير السلوك السلبي إلى سلوك إيجابي

إستراتيجية المشاركة : من خلال حث الجمهور على التعاون مع الأجهزة الأمنية و مساعدة الشرطة في التصدي للجريمة و كشف مرتكبيها .

إذا يمكن إجمال إستراتيجية الإعلام الأمني في القضايا الأمنية في النقاط التالية 37:

1 — التركيز على برامج سياسة تبني الشخصية السوية في المجتمع ، بما يحقق تماسك الجبهة الداخلية و التفافها حول القيادة السياسية للمحافظة على مكتسباتها، و تلك ضرورة تتطلبها المواجهة الجادة للتحديات الأمنية.

2 . — وضع تصور متكامل لعلاج القضايا الأمنية بوسائل الإعلام المختلفة على أسس علمية موضوعية متكاملة، بحيث تؤدي هذه الأسس إلى التفاف المجتمع حول الوسائل الإعلامية حين

تعرض المجتمع إلى أي حدث أمني داخلي أو خارجي.

3 — يجب أن تتماشى وسائل الإعلام مع طبيعة الظواهر و القيم الاجتماعية السائدة بشكل مرّن، يمكن معه مساهمة التطورات العصرية و التحديث على أسس مضبوطة و مدروسة تبعاً للخطة الإنمائية العامة في المجتمع.

4 — قيام وسائل الإعلام بتوجيه الرأي العام توجيهاً سليماً نحو استئصال جذور الجريمة و مكافحتها، وتخليص المجتمع من شوائب الانحراف الاجتماعي و ذلك بوضع البرامج المناسبة و عدم تضخيم صورة المجرمين على أنهم أبطال و البعد عن برامج العنف و الاستهتار و الجريمة.

5 — استثمار كل السبل و الوسائل المتاحة و خاصة أجهزة الإعلام المسموعة و المرئية و المكتوبة في نشر الوعي الأمني بين المواطنين، و تعزيز إحساسهم بضرورة المشاركة الفعلية في حفظ الأمن و التصدي للخارجين عليه.

رابعاً: مهام الإعلام الأمني المقروء في مكافحة الجريمة في المجتمع الجزائري:

و نعني هنا الصحافة التي تعتبر من أقدم وسائل الاتصال الجماهيري تأثيراً في أفراد المجتمع ، ولا يزال لها التأثير البالغ في نفوس الجماهير، فهي أداة الشعبية الناجحة لتوجيهها و التأثير في انطباعاتها ، و من السهل على الصحافة أن تحصل على تأييد الجماهير لبرامج و إجراءات الشرطة و تدفعها لتقديم المعاونة لجهاز الأمن ، «كما تشترك الصحافة اشتراكاً فعلياً في مناقشة الصعاب و المشاكل التي تتعرض لها الشرطة خلال نشاطها اليومي، إلا أن الصحف تتفاوت في مدى الحماس الذي تبديه في هذا الشأن»³⁸ .

و يمثل الإعلام المقروء مجالا خصباً يمكن استثماره لنشر الوعي الأمني و معالجة القضايا الاجتماعية و الأمنية³⁹.

إن لنشر الجرائم في الصحف له جوانب ايجابية حيث يساعد النشر على الحد من انتشار الجرائم و ذلك من خلال النشر الواعي و المؤثر لسلبيات الجريمة و آثارها المدمرة على المجتمع ، و التوعية الشاملة بجهود و نشاط أجهزة الأمن⁴⁰. وفي هذا الصدد كي يتضح لنا دور الاعلام المكتوب في الحد من خطورة الجريمة في المجتمع الجزائري تناولنا تحليل مضمون لمختلف الانواع الصحفية لجريدة النهار الجزائرية الخاصة .

*دراسة تحليلية لموضوع الجريمة في جريدة «النهار الجديد» الجزائرية :

للإشارة جريدة النهار الجديد يومية مستقلة تصدر عن شركة الأثير للصحافة في حيدرة بالجزائر العاصمة ، صدرت سنة 2006 ، غير تابعة لحزب سياسي يديرها السيد أنيس رحمانى سبق له العمل بجريدة الخبر الجزائرية وجريدة الشروق اليومي كصحفي ، تحتل المرتبة الثالثة من حيث السحب بمعدل 400 ألف سحب يومي ، تهتم هذه الصحيفة بنقل المواضيع الأمنية والجريمة أيضا. وقمنا بتحليل مضمون لأعداد شهر رمضان لسنة 2014 بتايخ 29 جوان لغاية 28 جويلية .واختيارنا لهذا الشهر لم يكن بمحض الصدفة أو اعتباطيا ، ولكن من أجل التوضيح بالرغم من أن المجتمع الجزائري عربي ومسلم ، وعوض ما يمتاز هذا الشهر الفضيل بحسن مكارم الأخلاق لدى الأفراد إلا أنه عادة ما تسجل أحداث لا يصدقها عاقل ، فأردنا تسليط الضوء على طريقة المعالجة لمختلف أشكال الجريمة في جريدة النهار ، وبالتالي لا يسعنا أن نعرض كل طريقة تحليل مضمون لأعداد شهر رمضان وسنكتفي فقط بنتائج الدراسة : حيث أن الجريدة نشرت مختلف أنواع الجرائم ، في هذه الأنواع الصحفية معتمدة على الخبر بنسبة 77.76 % والصور بنسبة 12.45 %، أما التقرير فقد حصد المرتبة الثالثة بنسبة 9.81% فيما كان هناك اختفاء بالنسبة للأنواع الصحفية الأخرى من تعليقات ريبورتاجات وتحقيقات ومقابلات ومقالات صحفية وأعمدة وحتى الكاريكاتير. جل المواضيع التي تحدثت عن الجريدة كانت في قلب الصفحات ، وذلك لمحاولة إظهار بعض أحداث الجرائم التي تراها أكثر تأثير على المجتمع الجزائري ، هذا فيما شهدنا عرضها المبالغ في الفترة الأخيرة من شهر رمضان لأشكال الجريمة وكانت متنوعة، معتمدة في ذلك على العناوين الرئيسية أكثر من العناوين الفرعية أو التمهيدية ، وذلك لإعطاء المواضيع أهمية كبيرة ، مستخدمة في ذلك بعض الألوان، وهذا لشد انتباه القاري حول موضوع معين ، أو جريمة تكون موجهة إلى الرأي العام ، وقد استعملت الجريدة في أنواعها الصحفية أساليب متنوعة للتأثير في القارئ من ضمنها أسلوب التخويف والإقناع والتنبيه بدون أن ننسى أسلوب التكرار والتضخيم ، وهذا التكرار في عرض أخبار الجرائم في كل أسبوع أو أعداد لمحاولة ترسيخ أخطار هذه الجرائم في أذهان القراء ، ولكن اعتمدت على التكرار في عرض أخبار الجرائم في بعض الأعداد وهذا راجع لنقص المعلومات عن الجرائم ، ولهذا تجلب أخبار مر عليها وقت من الزمن وتعيد تكرارها على أنها حدثت في ذلك اليوم أو في فترة ليست بالبعيدة ، وتقوم باعتمادها على الإقناع من أجل الإرشاد ، وهذا من خلال تقديم نتائج الجرائم وتقديم تحذيرات في نفس الوقت لكل من تسول لهم أنفسهم انتهاج السلوك الإجرامي ، هذا ما يوضح

أنها تساهم في شكل مباشر في مجابهة الجريمة من خلال عرضها لنتائج الجرائم، فضلا على إبراز مجهودات مصالح الأمن، بالتالي نلمس العلاقة الوطيدة التي تربطها بمصالح الأمن من أجل الحفاظ على مصالح وممتلكات أفراد المجتمع الجزائري واقتلاع ومحاربة شتى أشكال الجريمة.

وهكذا يتضح أن جريدة النهار باتت تقوم بدور الإعلام الأمني بشكل غير مباشر ومستتر، بالرغم من أنها صحيفة خاصة تهتم أيضا بمجالات أخرى سياسية واقتصادية ورياضية وثقافية...، ومع ذلك أعطت حيزا كبيرا لأخبار الجريمة للمساهمة في ردع بعض من فئات المجتمع الجزائري والتي تشعل نار أحداث مختلفة عمت ربوع الوطن وخاصة في الشهر الكريم.

* اقتراحات وتوصيات :

- دراسة واقع الاعلام الأمني والعمل على تطويره من أجل مواجهة التحديات الأمنية الراهنة
- الاهتمام بنشر الثقافة الأمنية من خلال وسائل الإعلام وتقنياتها المختلفة .

-تنسيق العمل بين الأجهزة الأمنية والإعلامية .

- توظيف ثقافة الصورة في خدمة أهداف الإعلام الأمني وزيادة فعاليته .

- وضع عمل مشترك بين الأجهزة الامنية والإعلامية حول تحليل مضمون الأعمال الإعلامية سواء كانت مرئية أو مسموعة أو مكتوبة الموجهة للمجتمع الجزائري

-عدم المبالغة والتضخيم والكذب عند معالجة قضايا الجريمة والانحراف في وسائل الإعلام ، بل يجب الإلتزام بالضوابط المهنية .

-حث وسائل الاعلام على ترسيخ مفاهيم الشرطة ، وتعزيز شعور المواطن بالمسؤولية وثقتهم بالأجهزة الأمنية .

- نظرا للتطور الهائل في دراسة علم الاتصال وظهور دراسات متخصصة في إعلام متخصص فمن الأهمية أن تدرس مواد خاصة بالإعلام الأمني في الجامعات ومعاهد الإعلام في الجزائر.

- الإهتمام بإنتاج برامج إعلامية أمنية توعوية مطبوعة مسموعة ومرئية، وذلك بالتعاون بين المؤسسات الأمنية والمؤسسات الإعلامية.

الهوامش:

- 1- عمر محي الدين حوري، الجريمة أسبابها مكافحتها، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003، ص 67.
- 2- القرآن الكريم، سورة الأعراف 07/ الآية 40.
- 3- عبد الرحمان عيسوي، مبحث الجريمة«دراسة في تفسير الجريمة و الوقاية منها »، دار النهضة العربية، بيروت ، 1992، دط، ص 13
- 4- محمود أبو زيد، المعجم في علم الإجرام والاجتماع القانوني و العقاب، دار غريب، القاهرة، دط، ص 187.
- 5- أنظر - طارق إبراهيم الدسوقي عطية، عولة الجريمة، الشراكة العالمية في الممارسات الإجرامية، دور الجامعة الجديدة، مصر، دط، 2010، ص ص 60-62
- 6 - أنظر- عمر محي الدين حوري، الجريمة أسبابها مكافحتها، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003. ص ص، -76 77
- 7 - منال محمد عباس، الانحراف والجريمة في عالم متغير ، دار المعرفة الجامعية ،القاهرة، مصر، دط، 2011، ص32
- 8 - منال محمد عباس، المرجع نفسه ، ص 33
- 9- أنظر، سامية محمد الساعاتي، الجريمة والمجتمع بحوث في علم الاجتماع الجنائي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1983، ص ص23-25
- 10 - علي بن فايز الجحني، الإعلام الأمني و الوقاية من الجريمة، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ط1، 2000، ص 66.
- 11 - عبد الرؤوف، مركز الدراسات و البحوث، الإعلام الأمني: المشكلات و الحلول، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية الرياض، السعودية، 2002، ص34 .
- 12 - القرآن الكريم، سورة قريش ، الآية 04
- 13- علي بن فايز الجحني، الإعلام الأمني و الوقاية من الجريمة، المرجع السابق ،ص68.
- 14 - جاسم خليل ميرزا ، الإعلام الأمني بين النظرية و التطبيق، مركز الكتاب للنشر، ط 1، 2006، ص 15
- 15 - علي بن فايز الجحني، الإعلام الأمني و الوقاية من الجريمة، المرجع السابق، ص 108
- 16 - بسام عبد الرحمن المشاقبة ، الإعلام الأمني بين الواقع و الطموح ، دار أسامة ،عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2012 ، ص 312 .
- 17 - بركة بن زامل الحوشان ، الإعلام الأمني و الأمن الإعلامي ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض،السعودية ، ط 1، 2004، ص 31 .
- 18 - محمد عبده يماني ،علاقة الإعلام بالمسائل الأمنية في المجتمع العربي ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض،السعودية ، ط 1 ، 1408 ، ص 72
- 19- جاسم خليل ميرزا، المرجع السابق ، ص 15
- 20- جاسم خليل ميرزا، المرجع نفسه ، ص 16
- 21 - بركة بن زامل الحوشان ،المرجع السابق ، ص 19.
- 22-رفيق نصر الله،الأمن الإعلامي العربي إشكالية الدورة و الهوية،رياض الريس للكتب، لبنان، ط1، 2007، ص15.
- 23- بركة بن زامل الحوشان، المرجع السابق ، ص 123
- 24- عصمت عدلي، محمد علي سعد الله، المدخل إلى التشريعات الإعلامية و الإعلام الأمني، دار المعرفة الجامعية،

- الإسكندرية، ط 1، 2008، ص 257.
- 25- عصمت عدلي، سوسيولوجيا التشريعات الإعلامية و الإعلام الأمني، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية مصر، 2003، دط، ص 239.
- 26 - أديب خضور، الإعلام الأمني، سلسلة المكتبة الإعلامية، دمشق، سوريا، ط 2، 2009، ص 35.
- 27- أنظر - جاسم خليل ميرزا، المرجع السابق، ص ص 21-22 .
- 28- عبد الله بن سعود السراي، المرجع السابق، ص 70.
- 29 - أنظر- عبد الله بن سعود السراي، المرجع نفسه، ص 71.
- 30 - أنظر- جاسم خليل ميرزا، المرجع السابق، ص ص 34-35.
- 31 - إبراهيم ناجي، الإعلام الأمني: المشكلات والحلول، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 2002، ص 107.
- 32- جاسم خليل ميرزا، المرجع السابق، ص 59.
- 33- أنظر- عبد الله بن سعود السراي، المرجع السابق، ص ص 76-77.
- 34 - إبراهيم ناجي، المرجع السابق، ص ص 123-124.
- 35 - أنظر- عبد الله بن سعود السراي، المرجع السابق، ص ص 64-65.
- 36- جاسم خليل ميرزا، المرجع السابق، ص ص 27-28.
- 37- عصمت عدلي، سوسيولوجيا التشريعات الإعلامية و الإعلام الأمني، المرجع السابق، ص 245.
- 38- عصمت عدلي، محمد علي سعد الله، مدخل إلى التشريعات الإعلامية و الإعلام الأمني، المرجع السابق، ص 287..
- 39 - عبد الرحمن بن محمد عسيري، المرجع السابق، ص 15.
- 40 - عصمت عدلي، محمد علي سعد الله، مدخل إلى التشريعات الإعلامية و الإعلام الأمني، المرجع السابق، ص 289.

الإسلاميات التطبيقية كمفهوم نظري وإطار منهجي "رهانات جديدة للعلوم الاجتماعية".

د/ لحسن رضوان. جامعة مستغانم

ملخص :

الإسلاميات التطبيقية -تتميز بتماسك موضوعاتي ومنهجي رصين، حيث استطاعت تقديم إجابة مبنية على مكتسبات علوم الإنسان والمجتمع ومناهجها وجهازها المفهومي من أجل كتابة تأريخ جديد للفكر الإسلامي وبشكل علمي يتسم بالموضوعية والحيادية والتجرد عن الانفعالات والمواقف الأيديولوجية المسبقة هذا من جهة وتهوية الأرشيف الإسلامي من جهة أخرى وذلك بمحاولة تقديم إجابة على سؤالين كبيرين : «كيف نفهم الإسلام اليوم؟»، أو كيف نفكر فيه عميقاً؟ وعن دور الدين في مجتمع اليوم للنقاش انطلاقاً من تفكيك الانغلاقات اللاهوتية والسياجات الدوغمائية، ولدى كان لا بد من الحفر الأركيولوجي في مجمل العقائد الإسلامية المعتبرة ذات رسوخ وقداسية، للكشف عن تاريخيتها، وعن بشريتها، ولذلك جاء هذا المقال ليبين ضرورة ورهانات انفصال الإسلاميات التطبيقية تدريجياً عن الإسلاميات الكلاسيكية - الإستشراق - التي تستمر في الارتكاز ، وإلى حد كبير ، على المسلمات المعرفية (أبستمي) للقرون الوسطى .

1- الإسلاميات التطبيقية كاختبار للمنهج :

استدعاء مفهوم جديد لما يسمى «الإسلاميات التطبيقية» هو استدعاء منهجي لتقاطع التراث السوسيولوجي مع الفكر الإسلامي حيث يقول أركون « إن الروابط ما بين العلم والتطبيق أو على الأقل « التصور نكونه عن هذه الروابط - كانت قد عدلت بشكل عميق وجذري من النموذج الذي قدمه ديكرت في كتابه «مقال في المنهج» وحتى النموذج الذي أعطاه «كارل ماكس» ينبغي علينا إذا أن نبتدئ بتحديد موضع «الأنثروبولوجيا التطبيقية» في مكان ما بين هذين النموذجين المتضادين.(1) ويضيف أركون لينبه إلى هذه الفقرة من كتاب «روحي باستيد»: الأنثروبولوجيا التطبيقية بأنه الأرضية الاستيمولوجية كمقاربة الإسلاميات التطبيقية ، حيث يتخلص أركون من تسميات كثيرة يراها مفخخة أيديولوجيا وموجهة وعلى رأسها الاستشراق ويعطي بدائل لتسميات أخرى مثل «الإسلاميات» أو «الإسلامولوجيا» وبذلك هو يدعو إلى ثورة من نمط معرفي ديكرتي يتجاوز المعرفة الموصلة إلى السيطرة «الاستعمار»

وهو النمط الذي حكم الإسلاميات الكلاسيكية والتي انتعشت ولقيت رواجاً من حيث العقل ورد الفعل في الفترة الاستعمارية وذلك كان لازماً للتغيير لمفاهيم التي تتضمن تصورات فمطية تعيق الوصول إلى المعرفة الموضوعية وتحجب الحقيقة ويمكن أن نقدم مثالين تم التطرق إليها سابقاً كان مسيطران على الإسلاميات الكلاسيكية وهما «التاريخانية» و«الفيلولوجيا» .

كما نرى أن الفكر الإسلامي بكل أطيافه يجب أن ينخرط في دائرة المعرفة المتجددة حتى يستطيع أن يسترد حيويته في المجتمعات الإسلامية وغاية الإسلاميات التطبيقية على الانخراط في الفكر المعاصر وإحاقها بمجمل الإنجازات التي حققتها الأنثروبولوجيا الدينية.

2- الإسلاميات التطبيقية كرهان مستجد للتأويلية :

فالإسلاميات التطبيقية هي محاولة جادة للاستدراك وإخضاع المنظومة الفكرية الإسلامية إلى نوع من التأويلية المعاصرة والمقاربات المتقاطعة والمتنوعة .

ابتعاد المنظومة الفكرية الإسلامية عن المنظومات الفكرية المعاصرة عبر طروحاتها المنهجية أكسبتها النجاة من هذه المقاربات التي خضعت لها كل من اليهودية والمسيحية ولهذا فإن أركون يدعو إلى استمرار والعمل على قيام الإسلاميات التطبيقية والتي هي ممارسة علمية متعددة الاختصاصات ، وهذا ناتج عن اهتماماتها المعاصرة ، فهي تريد أن تكون متضامنة مع نحاحات الفكر المعاصر ومخاطره (2) ، كما تعمل الإسلاميات التطبيقية على بلوغ «اللامفكر فيه» في الفكر الإسلامي وتذليل المعوقات من الهيمنة الشيولوجية المتعالية. (3)

إن الإسلاميات التطبيقية جاءت كثورة على الإسلاميات الكلاسيكية لتواطئها بشكل غير واع مع ما هو سائد في كبريات النصوص الإسلامية الكلاسيكية وقد أجملها أركون في النقاط التالية.

- إهمال الممارس أو التعبير الشفهي للإسلام عند شعوب لم تعرف الكتابة كالأفارقة والبربر وعموم الجماهير الشعبية .

- إهمال ما هو معاش دون أن تتم كتابته حتى في المجال الذي يعرف الكتابة.

- إهمال ما هو معاش غير مكتوب ولكنه محكي.

- إهمال الكتابة المتعلقة بالإسلام من جنس ما هو غير مرغوب فيه من قبل إسلام الأغلبية

« هكذا تستمر الكثرة الساحقة من علماء الإسلاميات بالاهتمام فقط ، وفي هذه السنين الأخيرة بإسلام الأغلبية المدعو «أرثوذكسي سني » الذي هو في الحقيقة ليس إلا تنظيرا دوغمائيا ، جاء فيما بعد لسلسلة من الأعمال المنجزة تاريخيا ، إن الإسلام السني مرتبط بشدة بالأيديولوجيا الرمزية للسلطات التي كانت قد فرضت نفسها بدءا من عام 562 (بدءا بالعهد الأموي) (4).

- إهمال الأنظمة السيمائية غير اللغوية التي تشكل الحقل الديني أو المرتبطة به ، ميثولوجيات الشعائر ، تنظيم المدن ، فن العمارة، الديكور، فالمشكلة الضخمة للتفاعل المتبادل (أو التحكم المتبادل) ما بين الإسلام كظاهرة دينية وبين كل المستويات الأخرى للوجود الإنساني (اقتصاد ، سياسة ،علاقات اجتماعية) لم تدرس حتى الآن إلا بطريقة استثنائية وسريعة (5) ، كل هذه الإهمالات هو ما يوجب ويسوغ مشروع إسلاميات تطبيقية لتسد هذا النقص ، كما أن الإسلاميات الكلاسيكية كانت تعاني جمود المنهج وتواطأ الثيولوجيا الإسلامية المهيمنة في المجال الإسلامي نفسه .

لقد آن الأوان لكي نتجاوز النزعة الأخلاقية أو الوعظية السائدة في الجهة العربية الإسلامية وذلك ينبغي تجاوز الخطابات الإيديولوجية الطنانة والسهلة التي لا تكلف أصحابها شيئا يذكر ، ينبغي تجاوز ذلك لكي ينخرط في نقد ابستمولوجي عميق لكل من النظامين الفكريين التاليين ، النظام العربي - الإسلامي الكلاسيكي من جهة والنظام الغربي من جهة أخرى « (6) وبالتالي فإن العملية التي تشكل برنامج الإسلاميات التطبيقية تنحصر في إغارة قراءة نقدية للتراث الإسلامي الكلي ويقصد أركون بالموقف النقدي هو تبني كل وسائل التفحص والدراسة العلمية التي طبقها الغرب على ذاته وما يزال يطبقها من أجل تجاوز أزمارته الخاصة ، ولكن مع تبنيها ينبغي تعديلها بعض الشيء لكي لا تبدو مقحمة بشكل تعسفي على التراث الإسلامي ولكي تتلاءم مع حالة الإسلام وتصبح قابلة للانطباق عليه وهذا يفرض على الفكر الإسلامي الحالي وبالتالي العربي - الالتزام بالضرورة التالية : التمييز بين إكراهات النضال الإيديولوجي السياسي من جهة وبين ضرورة تمثل وهضم المكتسبات العلمية للغرب من جهة أخرى ولكن نلاحظ في الحالة الراهنة للأشياء وضمن موازين القوى السائدة أن تمييزا كهذا يبدو صعب المنال ، هذا إن لم يكن مستحيلا ، فالضرورة الإيديولوجية تتغلب هنا على الضرورة الإستمولوجية (أو المعرفية) لهذا السبب أقول «ربما كانت المراجعة النقدية المطلوبة للتراث الإسلامي سوف تظل ولفترة

طويلة حكرا على بعض الباحثين والأفراد المعزولين من مسلمين أو غير مسلمين، أقصد بهؤلاء الأفراد أولئك الباحثين الذين يقبلون بأن يعتنقوا بشكل كل المبادئ المنهجية العلمية وفكرة البحث المتضامن عن المعنى واستخلاصها من خلال كل التجارب الثقافية للإنسان وليس من خلال تجربة واحدة فقط بمعنى أنه ينبغي أن نقارب بين تجربة الإسلام وتجربة الأديان الأخرى من مسيحية فيهودية . (7)

3- الإسلاميات التطبيقية كأداة للفحص :

إن الإسلاميات التطبيقية تتميز بطابعها العملي أو التطبيقي وليس النظري أو التجريبي في دراسة موضوعها.

بمعنى أن الإسلام هذا يعاني عالم الإسلاميات ينطلق هنا من المسائل الجافة التي يطرحها المسلمون على أنفسهم أو التي يعانون منها في حياتهم اليومية بالطبع فإن فهم الحاضر يتطلب منا فهم الماضي أي فهم المضمون الموضوعي للنصوص الإسلامية الكبرى وأولها القرآن ولم تعد المنهجية الحيادية «أي الباردة الخارجية الوصفية» التي يتبعها المستشرق الكلاسيكي بقيادة على الإحاطة بالوضع ، ينبغي عليه الانخراط أكثر في عملية المعرفة، إذا ما أراد البحث العلمي أن يقوم به هو الانتقال من الدراسة الوضعية والانتقال إلى الدراسة التفكيكية النقدية من أجل استخلاص الأحكام العامة .

إن العلوم الإنسانية الحديثة قد قلبت جذريا شروط ممارسة الفكر العلمي في الغرب ذاته ، هذا في حين أن الفكر الإسلامي ، أي العربي أو التركي أو الفارسي أو الباكستاني وعموم الفكر المكتوب باللغات الإسلامية الأخرى يعاني من تأخر كبير. على عكس الإسلاميات الكلاسيكية فإن الإسلاميات التطبيقية تدرس الإسلام ضمن منظور أنثروبولوجي واسع فهي تعتبر أن الإسلام ليس إلا إحدى تجليات الظاهرة الدينية أو ظاهرة التقديس ظاهرة أنثروبولوجية بمعنى أنه لا يخلو منها أي مجتمع بشري بدائيا كان أم متحضرا عتيقا كان أم حديثا، إن وجهة النظر هذه تعتبر حديثة جدا بالنسبة للفكر الغربي المتقدم وضمن هذا المنظور فإن الإسلاميات التطبيقية تختلف جذريا عن الإسلاميات الكلاسيكية فنحن نعلم أن هذه الإسلاميات الكلاسيكية «أي الاستشراق» هو تقديم معلومات دقيقة ووضعية (أي خارجية باردة) عن الإسلام إلى الجمهور الغربي الذي لا يعرف عنه شيئا.

«هدف الإسلاميات التطبيقية الدخول في مواجهة صراعية مع تراث طويل من التقليد التبجيلي والجدالي الذي ميز موقف الإسلام من الأديان الأخرى بمعنى أنه يريد أن يتميز عن الموقف الإسلامي الشائع من بقية الأديان ويريد أن يحل محل هذا الموقف الهجومي الموروث عن العصور الوسطى موقفاً آخر هو الموقف المقارن ، ويرى أركون أن هذا يتطلب منا الإنخراط في أكبر عملية تحرير داخلية للفكر الإسلامي ، وذلك إنطلاقاً من المبدأ الأبستمولوجي الذي نص عليه «غاستون باشلار» عندما قال : لا يمكن للفكر العلمي أن يتقدم في مجال ما إلا بعد تدمير المعارف الخاطئة المسيطرة في هذا المجال، فنحن تربينا داخل مجال ديني معين فإننا نعتقد أن كل ما تلقيناه صحيح وإن كل ما عداه خطأ وضلال وبالتالي ينبغي أن نبتدئ بالتححرر من أنفسنا (8) .

علم الإسلاميات التطبيقية يعتبر نفسه فعالية علمية متضامنة مع كل الفكر المعاصر ولذا فهو يدرس مثال الإسلام كما يدرس غيره مثل اليهودية أو المسيحيةضمن منظور الإسهام في إغناء الأنثروبولوجيا الدينية رأي دراسة الأديان من خلال المقارنة بينهما واكتشاف نقاط التشابه الكائنة بينهما ، وهذا هو المنظور الواسع الذي يتجاوز حالة الإسلام الخاصة كما قلنا لكي يصل إلى حالة التدين بصفته بعداً أنثروبولوجياً من أبعاد الإنسان في كل مكان وزمان أي دراسة الظاهرة الدينية أو ظاهرة التقديس من خلال كل الأديان وليس من خلال دين واحد فقط ، فالتقديس ظاهرة أنثروبولوجية لا يخلو منها أي مجتمع بشري(9).

إذا الإسلاميات التطبيقية تدرس الإسلام كظاهرة دينية معقدة من خلال علاقتها بالعوامل التالية : النفسية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية ولذلك فهي تستخدم منهجيات العلوم التالية :

- 1- التحليلي النفسي
- 2- علم النفس الاجتماعي
- 3- علم التاريخ
- 4- علم الاجتماع
- 5- الأنثروبولوجيا
- 6- اللسانيات

إذن فمشروع « الإسلاميات التطبيقية » يستلزم الانخراط في إستراتيجية شاملة تمس الماضي

والحاضر من أجل فتح كل الملفات المحرمة نتيجة استمرار عقليات دوغمائية مغلقة بهدف تحريرها لذا التجأت هذه «الإسلاميات التطبيقية» إلى إستراتيجية للإجابة عن كل التساؤلات المطروحة حصرتها في أربعة هي : نقد الخطاب والتاريخ النقدي للفكر العربي الإسلامي والبحث الأنثروبولوجي ، ثم إعادة الاعتبار للموقف الفلسفي(10).

4- عوائق في طريق الإسلاميات التطبيقية »

هناك مجموعة من العوائق والمتطلبات التي تحول دون تحقيق الإسلاميات التطبيقية منها:

4-1 - عائق السياج الدوغمائي المخلق : يعتبر هذا المصطلح بالنسبة إلى أركون إذ أنه يعني أن المؤمنين بعقيدة ما يعتقدون بأنها تمثل حقيقة مطلقة لأنهم مسجونون داخلها ولم يعرفوا غيرها ، ولكنهم إذا ما خرجوا من سورها أو قفصها ولو قليلا فإنهم سيدركون عندئذ أنها نسبية وليست مطلقة لأن الآخرين أيضا يعتقدون مثلهم بأن عقيدتهم مطلقة ، مثلا الأصولي المسيحي أو اليهودي يعتقد اعتقادا جازما لا مجال للشك فيه بأن دينه هو وحده الدين الصحيح وكل الأديان الأخرى في ضلال (11) وقل الأمر ذاته عن الأصولي بالطبع.

ولكن يكفي أن تخرج من السياج الدوغمائي لكل هؤلاء وتنظر إليه من الخارج لكي تكشف نسبته على الرغم من عظمتها واتساعه وانتشاره والتراث الإسلامي عظيم وكبير بدون شك ، ولكن هناك تراثات دينية غيره ، وبالتالي فهذا المصطلح يدفعنا إلى التواضع والتسامح والقبول بالآخر بعد نصب نفهم ديننا بطريقة أكثر تعقلا ومرونة وأقل إطلاقية (12) وهذا ما جعل المس بالبنية التقديسية غير معقول حتى عند الفئة العاملة لأنها هي الأخرى تخضع لنفس القوى الانفصالية ونفس التصورات الدينية ونفس أنظمة العقائد الإيمانية والأعراف الاجتماعية والقيم الأخلاقية والقانونية (13).

4-2 عائق الإيديولوجيا :

إلى جانب العائق الأول هناك عائق ثاني يتمثل في رفض النخبة الحاكمة (الدولة) أي زعزعة لسلطتها فهي إذا تتلاعب بالمقدس وبالرموز الدينية المتهادية وتعمل على تحويلها إلى شعارات إيديولوجية للاستهلاك فقط في المقابل لا تسمح لأي محاولة جادة لمس هذا "التابو"، فالأحرى تعريته لأن خلخلته خلعا لمشروعيتها .

وأمام هذين العائقين الكبيرين لا يبقى أمام المثقف النقدي الذي ينخرط في مشروع

”الإسلاميات التطبيقية ” من منفذ سوى ”الانخراط في التحليلات الجذرية - على الرغم من عزلته الحالية - وأن يفتح على العقل الحديث باعتباره عقل مستقل يخلف بكل سيادة وهيبة أفعال المعرفة ، وهذا الفعل يرفض الاشتغال داخل نطاق المعرفة الجاهزة أو المحددة سلفا إنه يرفض الاشتغال داخل الأقفاص والسجون (14).

4-3 العائق ممارسة القطيعة الإستيمولوجية :

أما العائق الثالث فيتجلى في ممارسة القطيعة الإستيمولوجية: لم يرق أركون بنقد العقل العربي كالجبري بل قام بكل وعي بنقد العقل الإسلامي لأن المشكلة الأساسية في هذا العصر بالنسبة للعرب والمسلمين ككل هي نقد العقل الديني أو كيفية التحرر من لاهوت القرون الوسطى ولا شيء آخر ؟ المشكلة الأساسية هي كيفية الانتقال من مرحلة العقل الديني إلى مرحلة العقل العلمي أو العلماني أو الفلسفي من دون التضحية بوجهة الدين أو مثله الأخلاقية العليا وروحانيته ، العرب والمسلمين عموما لم يتجاوزوا بعد المرحلة اللاهوتية القروسطية من مراحل التطور إذا ما استعرنا مصطلحات ”أوغست كونت“ في نظريته عن المراحل الثلاث من التطور البشري : المرحلة اللاهوتية الغيبية ، فالمرحلة الميتافيزيقية التأملية فالمرحلة الوضعية العملية ، لهذا السبب نقول بأن الأولوية ينبغي أن تكون لنقد العقل اللاهوتي في الإسلام لأن المسلمين لم يتجاوزوا بعد المرحلة اللاهوتية أو الغيبية من التطور التاريخي (15).

أما الأوروبيون فقد تجاوزوها فعلا وقطعوا معها منذ حوالي القرنين ، أنظر القطيعة الإستيمولوجية الكبرى ومن ثم القطيعة السياسية الناتجة عنها، أقصد بالقطيعة الإستيمولوجية هنا القطيعة المعرفية العميقة مع اللاهوت المسيحي على يد فلاسفة الأنوار ومن تلاهم في القرن التاسع عشر وبالقطيعة السياسية ترجمة هذه القطيعة الإستيمولوجية على أرض الواقع من خلال الثورة الفرنسية الكبرى ولهذا السبب لا نقول أيضا بأنه لا يوجد شيء اسمه عقل غربي أو فارسي أو تركي أو حتى فرنسي أو إنجليزي أو أمريكي فالعقل البشري واحد في نهاية المطاف ولكنه يمر بمراحل مختلفة من التطور والنضج ففي الغرب خرج من مرحلة العصور الوسطى وانتقل إلى المرحلة العلمية الوضعية الفلسفية المستنيرة هذا في حين أنه عندما لم يخرج بعد ولا يزال يتخبط ويتأرجح (16).

ولقد عرف المجتمع العربي الإسلامي منذ القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر ميلادي نوعين من القطيعات : قطيعة من الماضي السكولائي (أي قطيعة حصلت داخل الإسلام ذاته بعد

انهيار الحضارة العربية الإسلامية الكلاسيكية في بغداد على يد المغول 1257م وأخرى حصلت بين أوروبا وعالم الإسلام بعد الإقلاع الحضاري والنهضوي لأوروبا بدءا من القرن السادس عشر (17) وللقطبة الأولى تظاهرات عدة:

”فهناك القطبة السياسية المتمثلة في سقوط الخلافة في القرن الثالث عشر ميلادي“

وهناك القطبة الاجتماعية المتولدة نتيجة تبدل الجو الاجتماعي في المدن جراء انفصال الإسلام الشعبي عن الإسلام السني ما دفع الجماعات الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وتونس وفاس إلى تكوين جبهة واحدة موحدة جبهة ”أردوكسية“ لمواجهة أعداء الإسلام (18).

أما القطبة الثانية فقد حصلت بالقياس إلى فترة انبثاق الحداثة وتوسعها في أوروبا المسيحية أولا ثم أوروبا العلمانية ثانيا (19) وتعد الثورة الفرنسية في نظر أركون القطبة الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ المعاصر لأنها أخلت نظام الاقتراع العام محل الوظيفة النبوية بصفتها الذروة العليا للمشروعية ، فقد تمكنت من القطع مع نظام معين لإنتاج المعنى المدعوم من طرف حراس الأرثوذكسية إلى فرض نظام آخر يقوم على فصل الدين عن السياسة واعتبار مسألة الدين شأنا شخصيا لا غير ، ولأن كانت الثورة الفرنسية قد فرضت مبادئها على بركة دم ، إلا أنها لم تكن تتمكن من تحديد شروط صلاحية ومشروعية هذه القطبة بمعنى أنها لم تحسم في نظام الحكم ومسألة الدولة (20)

والمتمثل في هذين النوعين من القطائع يكتشف بالملمس حجم القطبة ”الابستمية الكبرى بين ”ابستيمي“ (نظام الفكر) الفكر العربي الإسلامي الكلاسيكي المتعلق كله داخل الفضاء العقلي الوسيط وبين الحداثة الفكرية التي لم نهضمها ولم تستوعبها بعد برامج التعليم العربية والإسلامية حتى الآن(21).

قائمة المراجع :

- 1- محمد أركون: تاريخية أركون الفكر العربي والإسلامي ص 54 ت : هاشم صالح، ط3 مركز الإنماء القومي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1998.
- 2- المرجع السابق : ص 58
- 3- المرجع نفسه: ص 101.
- 4- المرجع السابق: ص 52 - 53.
- 5- المرجع نفسه: ص 52 - 53.

- 6- محمد أركون: نحو نقد العقل الإسلامي ، منشورات ميزون نيف لاروز، باريس ، 1984 ، ص 43.
- 7- محمد أركون : المصدر السابق ، ص 45
- 8- المرجع السابق: ص 65
- 9- المرجع نفسه: ص 83
- 10 - محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ، ص 20.
- 11- محمد أركون : الهوامل والشوامل حول الإسلام المعاصر ، ترجمة وتقديم هاشم صالح ، دار الطليعة ، بيروت ، 2010. ص 32.
- 12 محمد أركون : المرجع نفسه ، ص 36.
- 13 - محمد أركون : الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ، ص 23.
- 14- محمد أركون : الإسلام أصالة وممارسة ص 100.
- 15 - محمد أركون : الهوامل والشوامل ، ص 10.
- 16- محمد أركون : الهوامل والشوامل ، ص 11.
- 17- محمد أركون : قضايا في نقد العقل الديني : كيف نفهم الإسلام اليوم ، ترجمة وتعليق هاشم صالح ، ص 270.
- 18- عبد المجيد خليف: قراءة النص عند محمد أركون ، منتدى المعارف ، 2010 ، ص 108.
- 19- محمد أركون : قضايا في نقد العقل الديني ، ص 43.
- 20- محمد أركون : القرآن من تفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ، ترجمة هاشم صالح ، بيروت ، دار الطليعة ، 2001 ، ص 85.
- 21 - محمد أركون : قضايا في نقد العقل الديني ، كيف نفهم الإسلام اليوم ، ص 44.

- 20- **TOUALBI N, Le sacré ambigu, ENAL, Alger 1984,**
- 21- **TOUALBI N, Religion Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984.**
- 22- **TOUALBI N, Religion Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984 P34**
- 23- **LAPLANCHE J et PONTALIS J-B, Vocabulaire de la psychanalyse,
PUF, Paris, 2004. P474**
- 24- **FROMM E in Religion, Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984, P41**

Notes et Références :

- 1- TOUALBI N, Religion Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984 P23
- 2- BENSOIST L, Signes symboles et mythes, que sais-je, France, 1991 P44
- 3- TOUALBI N, Religion Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984 P19
- 4- KAHLOULA M, La fonction du groupe dans l'élaboration psychique du vécu de la circoncision, Thèse de Doctorat d'Etat en psychologie clinique Oran 2004.
- 5- FREUD S, Totem et tabou P52
- 6- BASTID in Le sacré ambigu P39
- 7- TOUALBI N, Religion Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984 P35
- 8- DURKHEIM E, les formes élémentaires de la vie religieuse (le système totémique en Australie), les presses universitaires de France, paris
- 9- HAMILTON E, La mythologie, TF, marabout, paris, 1978.P 63
- 10- BELMONTE G, La notion du rite de passage in Rite de passage d'aujourd'hui, sous la direction de CENTLIVRE P, HAINARD.
- 11- PARTIGUNAVE J.Y, Rite et ritualité (essai sur l'altération sémantique de la ritualité), l'Harmattan 2001.
- 12- DUBY G, Le chevalier la femme et le prêtre, pluriel, paris
- 13- PARTIGUNAVE J.Y, Rite et ritualité P60
- 14- PAUMELLE H, Chamanisme et psychanalyse le défaut d'initiation, l'Harmattan, Paris 2003 P49
- 15- BENSOIST L, Signes symboles et mythes, que sais-je, France, 1991
- 16- TOUALBI N, Religion Rite et mutations, ENAL, Alger, 1984
- 17- LEUW VAN DER, L'homme primitif et la religion, PUF, Paris, 1940
- 18- DURKHEIM E, les formes élémentaires de la vie religieuse (le système totémique en Australie), les presses universitaires de France, paris P24
- 19- PAUMELLE H, Chamanisme et psychanalyse le défaut d'initiation, l'Harmattan, Paris 2003 P82

On peut dire que le symbole est plutôt l'ordre linguistique, qui fait passer un message, une idée ou un sens. Exemple : le vin était considéré par les anciens comme le sang de la vigne.

Toute activité rituelle fait sens. Et reconnaît une efficacité symbolique solide par l'adhésion des membres de la communauté ou du groupe social par un ensemble d'attitudes et de gestes culturellement signifiants qui servent à donner un sens à la vie, à la mort, au monde...

Pour E.FROMM le rite n'est après tout qu'une « expression symbolique de pensées et de sentiments au moyen de l'action »(24).

Dire que les rites font partie des plus importants mécanismes créateurs/ restaurateurs d'identité dans toutes les sociétés n'a rien de surprenant pour les sociologues depuis Durkheim. Les rituels ont toujours conduit à une intégration progressive et à une unification symbolique du groupe, ils sont pour objectif de pousser les gens à vivre ensemble leurs similitudes et leur héritage commun, à minimiser leurs différences et contribuent à les faire penser, ressentir et agir de la même façon.

l'un des rites religieux, où l'offrande à la divinité était la condition et le responsable de la validité des rites oraux.

Pour CAZEUNEUE qui a effectué de nombreux travaux sur la question des rites religieux, un lien existe entre le rite et la nécessité pour l'homme d'assumer sa condition et que la perception du numineux (sentiment de présence absolue, d'une divinité à la fois mystérieuse et terrifiante) est la base de l'angoisse humaine. Tout ce qui peut éveiller cette angoisse, évoque le numineux, sera repoussé par l'homme de façon symbolique. « Tout changement place l'homme dans une situation numineuse. Il a beau s'être enfermé dans un système de règles qui représente pour son groupe la condition humaine, il a recours alors à des rites pour établir l'équilibre rompu, pour se préserver ou se défaire de l'impureté... tabou, purifications, rites de passage, sont des réaction de défense contre les menaces »(22).

Selon cette vision, on déduit que le cérémonial rituel n'est qu'un rapprochement entre l'homme et les force surnaturelle - Allah dans la pensée islamique - car le sentiment obscur et inquiétant le mène à se rapprocher du monde sacré par le biais des rites.

4- FONCTION SYMBOLIQUE DU RITE :

Dans le vocabulaire de la psychanalyse LAPLANCHE J et PONTALIS J-B on trouve : « ...le symbolique désigne l'ordre de phénomènes auxquels la psychanalyse a affaire en tant qu'ils sont structurés comme un langage. Ce terme se réfère aussi à l'idée que l'efficacité de la cure trouve son ressort dans le caractère fondateur de la parole »(23) .

2- FONCTIONS PSYCHOLOGIQUE DU RITE :

« Le rituel limite, canalise et oriente la pulsion » (19) ces gestes ritualisés apaisent notre angoisse vis-à-vis de ce qui est nouveau pour nous et tentent d'apporter des significations au vécu, chose qui permet à la situation nouvelle et inquiétante de prendre un sens grâce à cet imaginaire véhiculé par le rite.

Prenons le cas du décès dans la société algérienne par exemple, nous constatons très vite qu'au moment d'el 'Djanaza' et les jours qui suivent sont codifiés par certains rites, comment s'habiller, comment présenter nos condoléances, quel est le moment indiqué pour enterrer (après la prière del « dohr ou al aasr ») et le moment idéal pour le recueillement du défunt.

Le rite sert d'assurant pour l'ensemble de personnes et leur permet de contrôler l'aléatoire afin de nous libérer des grandes tensions.

Chaque rite remplit une fonction qui concourt à l'équilibre de la personne tout en permettant la résolution du conflit pulsionnel dans laquelle la culpabilité est continuellement à l'œuvre pour inhiber ou détourner la pulsion de ces brutes (20).

3- FONCTION RELIGIEUSE DU RITE :

« Toute Religion secrète ses propres rites et les utilise invariablement à des fins commémoratives » (21).

Le rite de la prière par exemple est considéré comme un rite oral qui consiste à solliciter la puissance du Dieu. Le sacrifice qui pour beaucoup d'anthropologue sert de support à la prière, est considéré aussi comme

1- LES FONCTIONS SOCIALES :

Nous avons mentionné plus haut que les rites sont établis par les institutions pour transmettre et pérenniser des matrices d'expériences, l'expérience rituelle n'est pas détachable de l'acteur du rituel et donc de l'institution elle-même. On peut dire que le rite a une fonction sociologique fondamentale en faveur des groupes sociaux qui permet la réaffirmation périodique de ceux-ci et la survivance de la société, DURKHEIM disait que « les rites sont des moyens par lesquels le groupe social se réaffirme périodiquement »(18)

Les rituels ont fait partie de culture humaine depuis des dizaines de milliers d'années. Ceci est prouvé par de nombreuses recherches effectuées par les archéologues dans des fouilles séparées au niveau des tombeaux et des anciens cimetières qui ont montré l'existence des rites funéraires.

Les rituels peuvent avoir une autre fonction car ils expriment, fixent et renforcent les valeurs partagées et la conviction d'une société. Cette fonction peut être exploitée pour les extrémités politiques, bien qu'elle se trouve au cœur de la plupart des arrangements sociologiques de rituel religieux.

Les rituels peuvent faciliter en créant un sens ferme d'identité de groupe. Les humains ont employé des rituels pour créer les liens sociaux et pour nourrir même des rapports interpersonnels.

Le rite de passage a pour fonction d'instaurer le changement et le passage d'un état social et biologique à un autre

Selon cette vision, le rite est une mise en acte répétitive du mythe, et celui-ci justifie et garantit au rite sa validité sociale(16).

En (1940) VAN.DER.LEUW a écrit : « que les rites sont des mythes en action, le mythe est l'institution de l'acte sacré il est son antécédent, sa garantie toute exécution d'un acte il est une reproduction de son expérience première »(17).

Cette corrélation a été infirmée par la suite après des recherches faite par C.LEVI STRAUSS qui s'est rendu compte que le mythe et le rite ne sont pas toujours dans un rapport d'analogie mais dans un rapport d'opposition avec un rituel étranger.

Ces travaux ont montré que les mythes de certaines tribus en tant que rites sous forme inversée chez les tribus qui entretiennent avec la première des liens d'échanges commerciaux ou guerriers.

III- LES FONCTIONS DU RITE DANS SON RAPPORT AL'IDENTITE :

On reprenant Jean-Bruno RENARD, qui lui-même reprend VAN GENNEP, on peut dire qu'un rite de passage assume une triple fonction : une fonction sociale d'intégration et de réaffirmation (soudier des individus autour d'une même expérience), une fonction psychologique d'identification (permettre à chacun de savoir où il se trouve) et une fonction religieuse de relativisation (confronter un individu à ce qui le fait vivre).nous ajoutons une fonction symbolique (donner un sens à l'existence)

3- *LE RITE COMME RENFORCEUR DE L'IDENTITE ETHNIQUE :*

En effet, Les rites ont la capacité de renforcer l'identité et l'ancrage de l'individu dans sa culture.

Les travaux en matière de sociologie et d'anthropologie ont été orientés beaucoup plus vers l'importance du rite dans l'affirmation des particularités ethniques. VAN GENNEP dans son œuvre monumentale consacrée aux rites de passage, fait ressortir par le biais de nombreux témoignages la tendance au particularisme du rite qui le considère comme une tendance d'un groupe social ou une ethnie a affirmé ces particularités culturelles(13).

4- *LE RITE COMME MISE EN ACTE REPETITIVE DU MYTHE; PRODUIT DE L'INCONSCIENT INDIVIDUEL ET COLLECTIF :*

JUNG considérait le mythe comme « le degré intermédiaire invariable et indispensable entre l'inconscient et la connaissance consciente » tout mythe qu'il soit ou pas issu des profondeurs de l'inconscient humain (individuel ou collectif) et reflet des mouvements du désir et de leur humanisation (culturation). Il est vecteur de sens, ordonnateur des pulsions et du désir. Il soulage l'angoisse collective en rappelant que le désir a du sens et lui fournit le cadre de sa loi(14).

La majorité des anthropologues font une corrélation habituelle entre les rites et les mythes et pensent « qu'ils sont les expressions complémentaires d'une même destinée, le rituel étant son aspect liturgique et le mythe sa réalisation à travers les épisodes d'une histoire vécue, citation de C.LEVI STRAUSS(15).

mettre en évidence les rôles du rite de passage dans la construction de l'identité individuel ainsi la remarque de N.BELMONT en (1986) « les rites de passage sont des rites qui accompagnent les changement de lien, d'état, d'occupation de situation sociale, de statut, d'âge »(10) .

Au-delà de l'identité individuelle, il y a aussi l'identité de la communauté qui se repose sur la force de ces rituels. Beaucoup l'ont considéré comme des actes d'institution qui créent en permanence l'identité du groupe tel que P-BOURDIEU qui l'envisage comme un acte conventionnel et solennel de catégorisation qui crée à la fois l'identité et l'unité(11), le rite de la dénomination (el Âkika) par exemple qui à l'occasion d'une initiation marquée sur le plan symbolique, la singularité d'une appartenance sociale dotée d'attributions propres.

Les rites et surtout les rites de passage pour de nombreux sociologues participent à la distinction des places, et les classements des individus selon une hiérarchisation ainsi que la codification des règles d'interdits séparateurs, à cet égard G.DUBY a bien montré comment le rite du mariage officialisait et socialisait la procréation en ordonnant l'activité sexuelle, et comment le refus du mariage était considéré de manière significative comme l'expression d'un relâchement des mœurs donnant libre cours à toutes les pulsions luxurieuses(12). Donc le non-respect du rite est l'équivalent d'un retour à l'animalité, au chaos et à l'absence de l'ordre.

à l'étymologie du mot rite on constate que celui vient latin « RITUS » qui voudrait dire un ordre prescrit.

Il signifie aussi ordonnance, si on se base sur la traduction grecque du mot « ARTUS ».

A partir de là, nous pouvons dire que l'idée de la cohésion est présente. L'ordre fait toujours appel à l'exécution. Cela est très visible dans le domaine militaire, Quand une armée reçoit un ordre, celui-ci doit être exécuté quel que soit les circonstances. Les soldats n'ont pas à réfléchir, ils ne peuvent qu'obéir. Dans le cas du rite, c'est un peu pareil, sauf que cette ordonnance trouve son origine dans un passé lointain déterminé ou indéterminé.

L'essentiel, pour revenir à notre réflexion, c'est qu'elle a pour résultat d'unifier les pensées autour d'une forme mythique qui sert à expliquer les pratiques rituelles comme le confirme la citation d' HAMILTON dans son œuvre intitulée La Mythologie « il nous est donné à entendre qu'au moment où ces récits légendaires prirent forme, il existait fort peu de distinction entre le réel et le fantasmagorique, l'imagination était vivement éveillée et la raison ne la contrôlait pas »(9).

2- LE RITE COMME FONDATEUR DE L'IDENTITE (INDIVIDUELLE ET CULTURELLE) :

Les ethnologies portant aussi sur les rituels liés au cycle de la vie qu'on nomment rites de passage (naissance, mariage, circoncision). Ceux-ci font l'objet de nombreuses analyses à la suite de l'œuvre de VAN GENNEP (1981), toutes les études qui l'ont suivies ont tentées de

traversé le rite au fil des pensées Freudienne et ses disciples, nous pourrions ainsi tout brièvement citer à la lettre ce qui figure dans définition de N.TOUALBI qui nous a semblé très simplifié.

« Le rite en psychanalyse traduit une mise en acte sociale des forces qui agissent dans l'inconscient, il est pourrait-on dire, comme le symptôme névrotique, un compromis entre le désir du moi et l'interdit frappant leur réalisation du fait que la conduite religieuse résulte d'un même conflit pulsionnel dans lequel la culpabilité est toujours présente pour inhiber la pulsion ou sinon la détourner de ces buts »(7)

III-RITE, IDENTITE QUELLE EST LA RELATION ?

Le deuxième but de cette réflexion est basé sur une problématique spécifique; quel est le rapport entre les rites et l'identité individuelle et culturelle ?

1- LE RITE COMME SUPPORT DE L'IDENTITE CULTURELLE :

Le rite est un sujet d'actualité dans notre société qui ces dernières années a connu une distorsion de l'espace social et un appauvrissement des liens groupal, surtout que l'anthropologie voit dans le rite une forme privilégiée et essentielle de cohésion sociale, car il arrive à constituer un cadre de référence commun inscrit dans le psychisme individuel et suit des voies multiples en favorisant l'unité et l'identité culturelle du groupe social par l'adhésion affective des membres. DURKHEIM, à ce propos, avait de son côté affirmé en 1912 que « les rites sont des moyens par lesquels le groupe se réaffirme périodiquement(8)

Cette idée est valable – à notre avis - car si en se référant simplement

atteint de la névrose obsessionnelle, car l'homme primitif s'est réservé le pouvoir d'influence des dieux de façon à les faire agir conformément à ces désirs. De ce fait, les rituels servent à manipuler les divinités pour sauvegarder les forces nuisibles qui hantent le cosmos.

Le rite du sacrifice par exemple vise à étancher la soif des divinités par le sang de l'immolation ainsi que l'a montré BASTID(6) qui pense que celui-ci est un rite d'échange visant à supplier et de motiver les divinités pour se doter de leur consentement dans l'espoir que l'énergie de celles-ci rejaillissent sur ceux qui offrent des sacrifices. Pour FREUD .S les rites négatifs du tabou traduisent l'ambivalence affective.

Dans la dernière partie de l'ouvrage il pose une explication en recourt à l'hypothèse DARWINISTE, du meurtre du père primitif qui montre le totémisme comme vénération de l'animal totémique, est une reconnaissance du père déplacée sur un substitut animale et que le repas sacrificiel considéré comme un rite symptomatique et a la fois un nouveau meurtre déplacée (une identification au père par introjection).

Après FREUD de nombreux psychanalystes, tels que C.FLUGEL, G.JONS et T.REIK, se sont attaché à interpréter les rites religieux et mythiques comme l'expression de l'ambivalence affective attachée au complexe d'Œdipe. REIK le voit comme un symptôme obsessionnel qui traduit une névrose de la pensée et une ambivalence des conflits œdipiens. Mais aucun d'eux n'a essayé d'approfondir la question du conflit œdipien dans sa relation avec l'affirmation de dieu.

Après avoir exposé quelque grandes lignes du long parcours qu'a

La notion du rite, dans le langage des ethnologues, renvoie aux coutumes et aux cérémonies qui spécifie un groupe ethnique ou une société donnée.

Il peut se définir comme une suite de gestes ou bien une séquence d'actions stéréotypées chargées de signification(2) qui été à l'origine une action symbolique qui évolue avec le temps et se transforme par la suite en un rite en donnant une forme aux faits sociaux ou mythiques tout en conservant leur existence par reproduction et la réactualisation de ces derniers dans des mises en scènes(3).

L'exécution de ces actions est habituellement prescrite par une religion ou par les traditions d'une communauté par des lois religieuses ou politiques en raison de l'efficacité perçue de ces actions.

II- LE RITE DANS LE DISCOURS PSYCHANALIQUE :

Le sujet du rite pose problème depuis que l'anthropologie a essayé de se libérer des conceptualisations polysémiques énoncées par DURKHEIN. MAUSS et HUBERT à propos du rite(4) mais la majorité des travaux qui ont traité la question relèvent l'existence des mécanismes de répétition qui sont responsables de l'invariabilité et la survivance du rite, dans un air cérémonial très proche du cérémonial névrotique.

Nous faisons allusion à FREUD.S dans TOTEM et TABOU (1914) lorsqu'il a essayé d'expliquer la religion comme l'effet d'un refoulement des pulsions agressives(5). Il a dévoilé le mécanisme de la toute-puissance des idées - Phase animiste - comme étant la base de la formation de la pensée religieuse; mécanisme qu'on trouve très nette chez les individus

RITE, IDENTITE INDIVIDUELLE ET CULTURELLE, QUELLE RELATION ?

KELFAH Amel – Université Djilali LIABES-SIDI-BEL-ABBES.

Comme le rite **a été et reste** l'un des gros enjeux théoriques et empiriques de l'anthropologie, il nous a paru important de consigner les plus grandes lignes théoriques qui ont traitées la question du rite en matière d'anthropologie analytique. Nous tenterons de réfléchir notamment sur la question du rite dans son rapport à l'identité.

Habituellement avant tous travaux académiques, Il convient d'abord de préciser une définition globale à la notion du rite du point de vue anthropologique et psychologique. Chose ardue, car les spécialistes eux-mêmes n'ayant pas pu lui donner une définition et ce, en dépit de l'énorme intérêt qu'ils ont accordé à cette notion, malgré cela Le rite est considéré comme l'un de concepts clef dans le domaine de l'anthropologie analytique.

I- LE RITE DANS LE DISCOURS ANTHROPOLOGIQUE :

La vie est rythmée par des rites tant profanes que religieux. Il existe également les rites de politesse, les rites civils, les rites de repas et de bain qui sont des gestes élémentaires que nous accomplissons tous les jours et qui accompagnent notre manière de vivre dans un processus de répétition considéré comme un mécanisme moteur du rite puisque la vocation de celui-ci comme disait N.TOUALBI « est celle d'assurer à l'avènement célébré la pérennité par la répétition et l'invariabilité des règles qui le soutient »(1).

48. David Miller, *Critical Rationalism, A Restatement and Defense*, Open Court, 1994, p. 79.
49. Karl Popper, *La société ouverte et ses ennemis*, tome II, Paris, Le Seuil, 1979, p. 158.
50. Ibid, p. 154.
51. Ibid, p. 161.
52. Theodor Adorno et Karl Popper, *De vienne à Francfort, la querelle des sciences sociales*, Paris, Editions Complexe, 1979, p. 240.

- ge, Oxford, 1894; trad. fr. André Leroy, *Enquête sur l'entendement humain*, Paris, Flammarion, 1983, p. 85.
22. *Enquête sur l'entendement humain*, p. 92..
23. *Ibid*, p. 106.
24. Karl Popper, *La connaissance objective*, Paris, Aubier, 1991, p. 164.
25. *La connaissance objective*, p. 74.
26. *Conjectures et Réfutations*, p. 89.
27. *La logique de la découverte scientifique*, p. 30.
28. *La connaissance objective*, p. 146.
29. *Conjectures et Réfutations*, p. 208-209.
30. *La logique de la découverte scientifique*, p. 107.
31. *Conjectures et Réfutations*, p. 379.
32. *Conjectures et Réfutations*, p. 193.
33. *La logique de la découverte scientifique*, p. 35.
34. *Ibid*, p. 37.
35. *Conjectures et Réfutations*, p. 35-36.
36. *Ibid*, p. 25.
37. *Ibid*, p. 273.
38. *Ibid*, p. 52
39. *Ibid*, p. 52.
40. *Ibid*, p. 226.
41. *Ibid*, p. 228.
42. *Ibid*, p. 229.
43. *Ibid*, p. 232.
44. *Ibid*, p. 229.
45. *Ibid*, p. 156.
46. *Ibid*, p. 545.
47. *Ibid*, p. 520.

- fique, Paris, Payot, 1985, p. 61.
3. Conjectures et Réfutations, p. 61-62.
 4. Ibid, p. 61.
 5. Ibid, p. 64.
 6. Ibid, p. 487-488.
 7. Ibid, p. 66.
 8. Ibid, p. 66.
 9. Ibid, p. 62.
 10. Arthur Eddington, Espace, Temps et Gravitation, la théorie de la relativité généralisée dans ses grandes lignes, exposé rationnel suivi d'une étude mathématique de la théorie (1920); trad. fr, J. Rossignol, Paris, Hermann, 1921, p. 141.
 11. Espace, Temps et Gravitation, p. 144-145.
 12. Espace, Temps et Gravitation, p. 147-148.
 13. Popper est rejoint ici par Gaston Bachelard qui soutient que la théorie de la relativité a gagné la partie, par rapport à celle de Newton, au moment où elle a tout risqué. Bachelard dit: «Il semble que la relativité risquait tout ce qui donnait la certitude à la conception classique de la réalité, mais, en risquant tout, elle n'a rien perdu».
 14. Conjectures et Réfutations, p. 63.
 15. Ibid, p. 65.
 16. La logique de la découverte scientifique, p. 107.
 17. La logique de la découverte scientifique, p. 103.
 18. The philosophy of Karl Popper, La Salle, Illinois, Open Court, Schilpp, 1974, p. 568.
 19. La logique de la découverte scientifique, p. 111.
 20. Conjectures et Réfutations, p. 329.
 21. David Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, Selby-Big-

autres de les corriger en acceptant leurs critiques »⁵¹.

La capacité d'accepter le principe de l'argumentation et de la critique est un signe de tolérance. Face à un conflit, on peut opter pour l'une des deux solutions, soit on discute, soit on se bat. Contrairement aux irrationalistes, le rationaliste est celui qui s'efforce de parvenir à la solution d'un conflit entre les hommes par le biais de la discussion, et non par le recours à la violence. Etant le spectateur de la barbarie engendrée par le nazisme, Popper soutient que le débat des idées est notre seul espoir pour vaincre la violence, même s'il estime que les guerres et les révolutions ont souvent été provoquées par des idées. En mettant en valeur le rôle de l'affrontement intellectuel dans la solution des conflits, Popper cherche à retrouver une valeur fondamentale de la civilisation occidentale, qui remonte à la Grèce antique, celle qui consiste à « se battre avec des idées et non avec des épées », que le nazisme a fortement ébranlée. Ainsi, la tolérance est la valeur morale fondamentale qui se trouve à la base de l'adoption du rationalisme critique par Popper:

« La raison critique est la seule alternative à la violence qu'on ait découvert jusqu'à présent »⁵².

Notes et Références:

- 1. Parmi ces scientifiques figure Ernst Mach. En effet, celui-ci est demeuré fermement opposé à la théorie d'Einstein, même s'il avait connu une activité intellectuelle intense après sa formulation en 1905. Cette opposition se traduit par une position dogmatique, puisque Mach concevait la possibilité d'une théorie non-newtonienne.**
- 2. Karl Popper, Conjectures et Réfutations, la croissance du savoir scienti-**

« Ce choix n'est pas seulement affaire d'opinion personnelle ou de position intellectuelle. C'est une décision d'ordre moral, pouvant avoir une profonde influence sur notre attitude envers les autres hommes et les problèmes de la société»⁴⁹.

Popper justifie son choix moral en faveur du rationalisme, en mettant en question les conséquences néfastes qui découlent de l'irrationalisme. Les défenseurs de l'irrationalisme insistent sur le fait que la nature profonde de l'homme est faite de passions et d'émotions et que la pensée n'est rien d'autre qu'une manifestation superficielle de cette profondeur. Or, la priorité accordée au sentiment sur la pensée conduit à une division entre les hommes. Pour Popper, le seul moyen pour affirmer l'unité entre les hommes est d'adopter le rationalisme. A ce titre, la raison est un produit de la société que nous devons à nos échanges avec les autres:

« Nous devons notre raison à nos échanges avec nos semblables»⁵⁰.

La nature sociale de la raison suppose la possibilité d'une discussion entre les hommes où chacun peut apprendre au contact de l'autre. En mettant l'accent sur le rôle de la discussion dans la constitution de la raison, Popper montre que le principe sur lequel repose le rationalisme est celui de la réciprocité: convaincre autrui et se laisser convaincre par lui. Cette attitude ouverte suppose une certaine modestie intellectuelle, elle ne peut être adoptée que par ceux qui sont disposés à reconnaître leurs erreurs et à accepter la critique des autres:

« Le rationalisme critique (...) part de l'idée que nous pouvons commettre des erreurs et les corriger nous-mêmes ou permettre aux

selon laquelle toutes les propositions sont en principe potentiellement critiquables, Bartley affirme que la rationalité d'une proposition réside dans le fait d'avoir survécu à un examen critique sévère, et non dans le fait d'être justifié. Cette séparation entre la critique et la justification dans la définition du rationalisme critique absolu repose sur l'idée de vérité. Pour Bartley, c'est le fait de rechercher la vérité qui donne à notre démarche un caractère rationnel, et non l'appel à la justification. Ainsi, le rationalisme critique absolu peut être défini comme une attitude philosophique qui repose sur un choix tout à fait rationnel, puisqu'il se prête à la critique, qui n'a pas besoin d'être justifié. En écartant définitivement la question de la justification du domaine du rationnel, Bartley estime avoir proposé un rationalisme plus critique que celui de Popper, même s'il découle comme lui d'une position méthodologique:

« Bartley cherche à sauver le rationalisme de cette impasse (...). Sa position est le rationalisme critique absolu selon lequel une position peut être rationnellement défendue sans être nécessairement justifiée, elle peut être ouverte à la critique et survivre à un examen sévère »⁴⁸.

Le fait que le rationalisme ne soit pas rationnellement justifiable n'est pas une raison valable pour adopter l'irrationalisme. Contrairement aux adeptes déçus du « faux rationalisme » qui ont opté pour l'irrationalisme - ceux qui croyaient que tout était justifiable - Popper affirme que le conflit entre le rationalisme et l'irrationalisme a des implications très profondes. Sur ce point, il tient à souligner que l'adoption du rationalisme critique est fondée sur une décision d'ordre moral qui affecte d'autres individus, et non sur une attitude subjective et intellectuelle:

sa capacité de faire progresser la science. Le progrès scientifique est donc la motivation profonde qui sous-tend le choix subjectif de Popper. Puisque le rationalisme critique est l'expression philosophique de son épistémologie de la négation, il est aussi conventionnel qu'elle. En effet, Popper reconnaît qu'à l'origine de son rationalisme il y a un choix irrationnel, un acte de foi en la raison humaine. En se définissant comme le partisan du rationalisme critique, il affirme cependant qu'il lui est impossible d'établir de manière rationnelle le bien-fondé de sa position. A cet égard, il écarte le rationalisme absolu, celui qui n'accepte que ce qui est justifiable, en montrant qu'il repose sur un principe qui ne peut être lui-même justifié. Popper reproche souvent aux partisans du rationalisme absolu le fait de perdre de vue que leur position n'est pas défendable:

« Le rationalisme auquel j'adhère ne contient pas en lui-même sa propre légitimation, mais il repose sur une confiance irrationnelle en l'attitude dictée par la raison. Je ne pense pas qu'il soit possible de dépasser cette aporie »⁴⁷.

La thèse de Popper selon laquelle le rationalisme critique repose sur un principe irrationnel a provoqué une réaction au sein de son mouvement. Pour William Bartley³⁸ la solution que Popper propose au problème de la justification du rationalisme n'est pas satisfaisante, car elle met le rationalisme sur le même plan que la religion. Pour sortir de cette situation, il propose une nouvelle théorie de la rationalité humaine, qu'il appelle le rationalisme critique absolu « *Comprehensively Critical Rationalism* », capable de se conformer à ses propres exigences. Partant de l'idée

grecs. Ainsi, le mérite de Galilée est d'avoir repris de manière explicite la tradition critique qui nous a été léguée par les grecs. Pour Popper, la Renaissance signifie la redécouverte du rationalisme critique:

« La tradition fondée par Galilée a représenté la renaissance du rationalisme grec »⁴⁵.

Popper reconnaît à la Réforme protestante d'avoir accordé une place centrale à l'homme dans le monde, en mettant l'accent sur le fait que Dieu gouverne le monde à travers notre conscience individuelle, ce qui représente une avancée de la raison critique:

« C'est nous, vous et moi, qui portons la responsabilité du monde: voilà ce qu'affirme la foi protestante »⁴⁶.

En plus de la Renaissance, de la Réforme et du siècle des lumières, Popper fait de la Révolution française, de la Glorious Revolution en Angleterre et de la Révolution américaine, les autres grands moments historiques à travers lesquels la raison critique s'est exprimée en dépit des obstacles.

Quelles sont les raisons qui ont conduit Popper à adopter le rationalisme critique,

Dès le départ, Popper met l'accent sur la nature conventionnelle de son épistémologie, en décrivant son critère de démarcation comme le produit d'une décision personnelle. En effet, il ne cesse de souligner que l'unique raison qui l'a poussé à proposer son critère est son efficacité. L'efficacité épistémologique du critère de la réfutabilité réside essentiellement dans

qu'il lui ait été donné de connaître »43.

Conscient de la fragilité de la conquête intellectuelle de l'homme, Popper affirme que l'émergence du rationalisme critique ne signifie pas forcément la disparition de la pensée dogmatique. Il fait remarquer que la tradition critique a été abandonnée au sein même de la philosophie grecque, avec l'apparition de l'épistémologie aristotélicienne fondée sur l'idée d'une connaissance absolument certaine, et qu'il a fallu attendre très longtemps pour que cette tradition reprenne pied:

« Cette tradition s'est perdue au bout de deux ou trois siècles, sans doute avec l'émergence de l'épistémè aristotélicienne »44.

Cette situation ne fait pas de Popper le partisan d'une conception pessimiste. Tout en estimant qu'« il nous est beaucoup plus aisé de régresser que de progresser », Popper se déclare optimiste. L'optimisme de Popper réside dans le jugement positif qu'il formule sur l'époque moderne qui va du XVI au XXe siècle. En effet, il distingue des moments historiques où la pensée critique s'est frayée un chemin au milieu d'une route jonchée d'obstacles. A cet égard, il soutient que le rationalisme élaboré par Galilée sur la base de la physique peut être décrit comme une redécouverte du rationalisme grec. En fondant la science sur l'audace et l'imagination, Galilée a fait d'elle un moyen permettant à l'esprit humain de se libérer des vieilles certitudes pour leur substituer de nouvelles conjectures. La mise en évidence de cette capacité de libération inhérente à la science par Galilée a fait de lui le partisan d'un rationalisme comparable à celui des premiers philosophes

tradition s'est réellement produite. Pour lui; la découverte de cette tradition par les grecs est un phénomène unique, émergent, qu'il convient d'élucider, et non d'expliquer:

« L'invention de la tradition critique, autant que je le sache, est un hapax historique »⁴².

Parmi les philosophes qui ont contribué à l'institution de la tradition critique, Popper cite Xénophane de Colophon (fin du VI siècle avant J-C) et surtout Socrate. En saisissant le caractère conjectural de notre connaissance, Xénophane affirme qu'il nous est toutefois possible de parvenir à une connaissance meilleure grâce à la discussion critique.

Le mérite de Socrate est d'avoir formulé explicitement les principes fondamentaux du rationalisme critique qui ont été appliqués par les philosophes ioniens qui l'ont précédé. C'est à lui que nous devons le principe mettant l'accent sur notre faillibilité. En affirmant que la seule chose que nous savons, c'est que nous ne savons pas, il ne fait que nier l'existence d'une connaissance certaine. La maïeutique de Socrate est une méthode critique qui consiste à poser des questions destinées à mettre en évidence les limites de notre connaissance. Mais la faillibilité humaine n'est pas un obstacle à l'acquisition de la connaissance: nous sommes en mesure de rechercher la vérité, en mettant en question nos erreurs. Pour Socrate, la critique est notre meilleur moyen pour rechercher la vérité:

« L'attitude critique adoptée par les présocratiques annonce et prépare le rationalisme de Socrate: cette conviction que la recherche de la vérité à travers la discussion critique constitue une règle de vie, la meilleure

pouvait voir le jour sans une discussion critique de la théorie de Thalès par Anaximandre. En s'intéressant aux changements qui interviennent dans le monde, Anaximène, le disciple et le successeur d'Anaximandre, avance l'hypothèse que le monde est une sorte de création vivante née de l'air, un élément aérien, ce qui fait de lui, le philosophe le moins spéculatif, audacieux et novateur, des trois penseurs présocratiques.

L'originalité de l'école ionienne est d'avoir fait pour la première fois un usage négatif de la raison, en mettant en question les différents mythes proposés par ses membres. En effet, ce qui caractérise cette institution est qu'elle établit une relation inédite entre le maître, Thalès, et son disciple, Anaximandre: au lieu de fustiger la critique qui lui a été adressée par Anaximandre, Thalès l'encourage et la tolère, ce qui fait de lui le « fondateur de la tradition critique ». La conjecture que fait donc Popper est que la tradition critique a fait sa première apparition au sein de l'école ionienne. C'est à travers l'enseignement critique observé par cette école que « le génie grec » s'est pleinement exprimé:

« C'est Thalès qui est l'origine de cette tradition de liberté nouvelle, fondée sur une relation originale entre maître et disciple (...). Il semble que Thalès ait su tolérer la critique et, qui plus est, qu'il ait fondé la tradition prescrivant d'y faire droit (...): c'est dans le cadre de l'école ionienne que, pour la première fois, des disciples ont, génération après génération, critiqué leurs maîtres»⁴¹.

Popper situe la naissance de la tradition critique grecque au VI^e siècle avant J-C, mais il estime qu'il est incapable de montrer comment cette

Grèce antique. Pour lui, la Grèce a été à l'origine d'une révolution philosophique qui réside dans l'invention d'une nouvelle tradition, celle de la discussion critique. Il part de l'hypothèse selon laquelle la tradition critique a été inventée par les penseurs présocratiques. La philosophie grecque a été caractérisée par deux principales écoles, celles de Pythagore et de Thalès. En exprimant un amour pour le secret, l'école pythagoricienne se donnait pour tâche la perpétuation du dogme et la transmission rituelle de la tradition d'une génération à l'autre. En se basant sur un modèle dogmatique d'enseignement, cette école n'admet aucune nouveauté, elle perçoit les idées nouvelles comme des hérésies qui provoquent des schismes. Ne tolérant aucune discussion, cette école fonctionne sur un mode rigide de pensée qui s'exprime par l'affirmation, le dogme et l'anathème:

« L'école Italique fondée par Pythagore (...) se présentait comme un ordre religieux, avec une règle de vie et une doctrine ésotérique spécifiques »⁴⁰.

Contrairement à l'école pythagoricienne, l'école Ionienne a été caractérisée par une succession de conjectures audacieuses et critiques visant à expliquer des phénomènes physiques. En effet, Thalès de Milet, le fondateur de cette école, affirmait que la terre flottait sur l'eau. Anaximandre, son disciple, supposait que la terre était librement suspendue, rassemblant à un tambour, et qu'elle était dotée d'une stabilité due à l'égalité de la distance qui la sépare de toutes les autres choses. Pour Popper, l'idée d'une terre librement suspendue dans l'espace et pourvue d'une stabilité représente une conception révolutionnaire qui ne

« Le rationalisme critique que je défends ne fait que parachever la théorie critique de Kant »³⁸.

Popper précise que Kant a commis une erreur en affirmant que les lois que l'esprit humain prescrit à la nature réussissent immanquablement, ce qui l'a conduit à la conclusion radicale que les lois newtoniennes étaient vraies a priori, correspondant à un « rationalisme dogmatique ». Mais il estime que cette erreur était tout à fait inévitable en raison du succès éclatant obtenu par la théorie newtonienne.

Avec la révolution scientifique opérée par Einstein, la situation change. En mettant en question la validité universelle de la théorie newtonienne, la relativité d'Einstein a permis d'éviter l'erreur commise par Kant. Popper propose une nouvelle formulation de la solution kantienne en conformité avec la nouvelle situation provoquée par la théorie de la relativité. Cette « formulation post-einsteinienne » consiste à affirmer que l'esprit humain ne réussit pas invariablement à prescrire à la nature les lois qu'il a librement inventées. Ce sont les réponses négatives que nous tentons d'arracher à la nature, et non les réponses positives, qui donnent une valeur scientifique à nos théories. Ainsi, Popper élabore son rationalisme critique, fondé sur l'idée de réfutation empirique, à la lumière de la révolution relativiste:

« C'est Einstein qui a rendu cette démarche possible en nous montrant que, malgré son extraordinaire réussite, la théorie newtonienne risquait fort d'être erronée »³⁹.

Popper éclaire son rationalisme critique, en remontant à la

en se servant courageusement de son propre entendement sans aucune assistance extérieure. Popper affirme que cette définition des lumières fondée sur l'idée d'émancipation de l'homme par la raison fait de Kant un représentant de l'«*Aufklärung*». A ce titre, il voit en lui le philosophe qui a opéré une révolution copernicienne dans le domaine de l'éthique. Cette révolution éthique repose sur le principe de l'autonomie, selon lequel l'ultime responsabilité d'obéir ou non à une autorité incombe à l'homme.. En faisant de la conscience le siège de l'autorité morale, le principe d'autonomie de Kant s'oppose à toute idée qui cherche à la fonder sur l'obéissance:

« La révolution copernicienne réalisée par Kant dans le domaine de l'éthique réside dans sa doctrine de l'autonomie (...). En effet, chaque fois que nous sommes confrontés à un commandement émanant d'une autorité, c'est à nous qu'incombe la responsabilité de juger si celui-ci est moral ou immoral »³⁷.

En affirmant que l'esprit ne puise pas ses lois dans la nature, mais il les lui prescrit, Kant a opéré une révolution copernicienne dans le domaine de l'épistémologie. Cependant cette « révolution épistémologique », parce qu'elle cherchait à justifier la validité universelle de la théorie newtonienne, apparaît moins importante que la révolution morale. Popper est persuadé que seule la croyance en la vérité de la théorie newtonienne a empêché Kant d'adopter le rationalisme critique dans sa philosophie de la science. Partant de cette conviction, il affirme que son rationalisme critique n'est rien d'autre que l'aboutissement de la théorie critique de Kant:

parvenus à libérer leur épistémologie de toute référence à une autorité (...). Ils n'ont pu que remplacer une autorité - celle d'Aristote et des Ecritures - par une autre. Chacun d'eux se référait à une autorité nouvelle: l'un, à l'autorité des sens, l'autre, à l'autorité de l'entendement »³⁵.

Le rationalisme classique repose sur un faux principe, en liant la question de la vérité à celle de la source. Son erreur fondamentale est d'avoir confondu les deux questions. Le fait que le rationalisme classique repose sur un faux principe n'a pas empêché Popper de lui rendre justice. En effet, il estime que ce «faux rationalisme» a été à l'origine d'une révolution intellectuelle et morale inédite. Dans le domaine de la connaissance, il a rendu possible la science moderne. Dans le domaine social, il a engendré le libéralisme et l'individualisme. Ainsi, le rationalisme classique nous fournit l'exemple d'une conception philosophique erronée qui a donné naissance à une multitude d'idées légitimes:

« Ce qui est le plus étonnant dans l'histoire de cette conception, c'est sans doute le fait que cette épistémologie au demeurant fautive a été la principale source d'une révolution intellectuelle et morale sans précédent »³⁶.

Popper considère Kant comme le dernier éminent défenseur du mouvement philosophique connu sous le nom de «philosophie des lumières», dont le mérite revient à Voltaire. Dans sa réponse à la question: qu'est-ce que les lumières, Kant soutient qu'elles sont l'expression de la capacité de l'homme de s'émanciper de sa minorité,

ôter toute signification. C'est pourquoi, il ne cesse de protester contre l'idée répandue par certains partisans du positivisme logique selon laquelle la réfutabilité n'est rien d'autre qu'un simple critère négatif de signification:

« La réfutabilité sépare deux espèces d'énoncés parfaitement pourvus de signification: les réfutables et les non réfutables. Elle trace une ligne à l'intérieur du langage pourvu de sens, non autour de lui »³⁴.

En faisant de la réfutation un principe fondamental de son épistémologie et de sa méthodologie des sciences, Popper adopte une forme négative du rationalisme, qu'il appelle le « rationalisme critique ».

Le rationalisme critique de Popper diffère totalement du rationalisme classique, celui de Descartes et de Bacon, et du rationalisme du XVIII^e siècle, défendu notamment par Kant. Popper reconnaît à Descartes et à Bacon le mérite d'avoir lutté contre l'autorité aristotélicienne et la tradition scolastique, mais il leur reproche le fait de rester tributaires de l'autorité. En considérant l'entendement et l'expérience comme les sources ultimes de la connaissance, ces deux philosophes n'ont fait que substituer à l'autorité d'Aristote et de l'Eglise une autorité d'ordre différent. Donc, le rationalisme classique n'était pas suffisamment critique, il n'était pas totalement antiautoritaire:

« Les attaques que Descartes et Bacon ont formulées contre les croyances traditionnelles visaient assurément l'autorité et la tradition. Elles relevaient de cette lutte contre l'autorité d'Aristote et la tradition scolastique (...). Néanmoins, je ne pense pas que Bacon et Descartes soient

« La plupart des théories scientifiques sont issues de mythes »³¹.

Partant de cette thèse, Popper met la science sur le même plan que la mythologie. Pour lui, les deux sont créatrices de mythes. Mais la science diffère de la mythologie par sa tradition critique. A cet égard, les mythes spéculatifs peuvent devenir, sous la pression de la critique, des théories scientifiques testables:

« Ce que nous appelons science se distingue des mythes qui l'ont précédée non parce qu'elle en est différente, mais parce qu'elle s'accompagne d'une tradition d'un autre ordre: ce corrélat que représente la tradition d'une analyse critique des mythes (...). Si nous adoptons cette attitude critique, les mythes que nous produisons deviennent différents, ils se transmettent dans la mesure où ils tendent à donner du monde une analyse toujours meilleure »³².

Popper reconnaît l'existence de certaines idées métaphysiques qui ont nuit à l'évolution de la science, mais il soutient qu'il y a eu beaucoup de mythes spéculatifs qui ont joué un rôle important dans cette évolution, dont l'exemple typique est l'atomisme:

« On ne peut dénier qu'à côté des idées métaphysiques qui ont fait obstacle au progrès scientifique, il y a eu d'autres, tels l'atomisme spéculatif, qui y ont contribué »³³.

Le critère de Popper qui ramène la scientificité d'une théorie au seul fait qu'elle soit réfutable, a l'avantage de réhabiliter la métaphysique, en l'insérant à l'intérieur du discours signifiant. Le fait que la métaphysique ne soit pas une science empirique n'est pas une raison valable pour lui

met l'accent sur la supériorité de la théorie sur l'observation, une thèse défendue auparavant par de grands penseurs, tels que Kant, Claude Bernard et Pierre Duhem.

Contrairement au « mythe baconien », Popper précise qu'en science l'expérience n'est pas fortuite, mais qu'elle est systématique; elle est déterminée en fonction de la théorie que l'on adopte:

« L'épistémologie empiriste et l'histoire des sciences traditionnelle portent toutes les deux la marque du mythe baconien selon lequel toute science commence avec l'observation pour en venir ensuite, lentement et avec précaution, à la formulation de théories»²⁹.

L'absurdité du «mythe baconien», se manifeste surtout au niveau de la fausseté de la théorie; il est insensé de soutenir qu'une théorie, dont on établit la fausseté, soit tirée de l'expérience. La thèse de Popper est qu'il ne peut y avoir d'expérience qui ne soit imprégnée de théorie:

« Des observations (...) sont toujours des interprétations faites à la lumière des théories »³⁰.

En faisant de la réfutabilité un critère de démarcation entre science et non-science, Popper s'oppose à toute démarcation tranchée entre ces deux domaines, prônée par les positivistes logiques. Pour lui, il ne peut y avoir une séparation stricte entre science et non-science. Historiquement, l'homme s'est toujours efforcé de comprendre et d'expliquer le monde. En se livrant à un tel effort, il a créé son cadre explicatif primitif, le mythe:

font de l'induction un critère de démarcation entre science et non-science, en affirmant que la raison profonde de son rejet de l'induction réside justement dans le fait qu'elle ne peut servir de critère de démarcation approprié:

« La principale raison du rejet de la méthode inductive est précisément (...) qu'elle ne fournit pas de critère de démarcation adéquat »²⁷.

Quelle est la méthode que Popper envisage à la place de la méthode inductive?

La science n'utilise pas l'induction, elle procède plutôt par la formation de conjectures sur le monde et par des tentatives pour réfuter ces conjectures, elle propose des hypothèses et s'efforce délibérément de faire apparaître les erreurs qu'elles comportent afin de les éliminer, telle est la thèse de Popper. La différence entre la méthode inductive et la méthode de conjectures et réfutations est que la première est essentiellement positive, elle dominée par une forte tendance à la vérification et à la justification des théories existantes, alors que la seconde est fondamentalement négative, elle est caractérisée par un effort constant pour mettre en question ces théories, elle fait apparaître la science comme une activité critique:

« La méthode scientifique, c'est la méthode des conjectures audacieuses et des tentatives ingénieuses et rigoureuses pour les réfuter »²⁸.

En critiquant le positivisme logique, à la lumière de sa méthodologie négative des sciences, fondée sur son critère de réfutabilité, Popper

néanmoins un rôle indispensable dans notre vie pratique. Ce paradoxe a amené Hume à sacrifier le rationalisme en faveur de l'irrationalisme:

« Un paradoxe (...) qui conduisit Hume, un des penseurs les plus raisonnables de tous les temps, à abandonner le rationalisme et à regarder l'homme non comme un être doué de raison, mais comme le produit de l'habitude aveugle »²⁴.

Popper estime que Hume a été conduit à l'irrationalisme parce qu'il n'a pas considéré sa critique de la validité logique de l'induction avec toute l'attention qu'elle mérite. En fait, Hume a critiqué l'induction en restant partisan de l'induction:

« Même Hume, après tout, est resté un inductiviste; on ne peut donc pas s'attendre à ce qu'un inductiviste mis en question par Hume s'aperçoive que la mise en question de Hume porte sur l'inductivisme »²⁵.

Popper adopte une attitude plus radicale que celle de Hume à l'égard du problème de l'induction, en éliminant purement et simplement l'induction. Pour lui, l'induction n'existe pas, elle n'est ni un phénomène psychologique, ni un phénomène logique:

« L'induction est un mythe »²⁶.

La solution négative du problème de l'induction n'est pas seulement d'ordre logique, qui consiste à montrer l'impossibilité d'inférer des énoncés universels à partir d'énoncés singuliers, elle a plutôt un fondement méthodologique. Popper critique les positivistes logiques qui

Popper de proposer une solution négative au problème de l'induction, posé auparavant par David Hume (1711-1776).

Partant d'une interrogation sur la validité du raisonnement qui nous permet d'aller du passé au futur, Hume répond par la négative: aucun raisonnement logique ne nous permet d'inférer de manière nécessaire le futur du passé. Aucune opération logique ne peut affirmer avec certitude que le cours de la nature reste le même: le fait que le soleil s'est toujours levé n'implique pas qu'il se lèvera demain:

« Nos conclusions tirées de l'expérience ne se fondent pas sur le raisonnement ni sur aucune opération logique »²².

Si l'esprit humain est incapable de franchir le pas lui permettant d'aller du passé au futur par le principe du raisonnement logique, il doit être entraîné par un autre principe qui est tiré de la nature humaine; ce principe est l'accoutumance. En observant une conjonction constante entre deux objets, nous sommes portés par la seule accoutumance à attendre l'un quand paraît l'autre. L'accoutumance est le principe qui donne à l'expérience cette puissante autorité que le raisonnement lui fait perdre. Ainsi, l'induction a un fondement psychologique, et non logique:

« Toutes les inférences tirées de l'expérience sont donc des effets de l'accoutumance et non des effets du raisonnement »²³.

Popper critique la solution psychologique apportée par Hume au problème de l'induction, en mettant en évidence les conséquences désastreuses qui en découlent. Pour lui, cette solution repose sur un paradoxe: bien que l'induction n'ait aucun fondement logique, elle joue

Si la science ne peut partir de l'expérience, quel est donc son véritable point de départ?

La thèse de Popper est que la science a son origine dans des problèmes, et non dans l'expérience:

« La science part des problèmes et non pas d'observations »²⁰.

Face à un problème, la première étape consiste à élaborer une solution adéquate, en cherchant à le comprendre. Sans une connaissance profonde du problème, les solutions les plus audacieuses échouent. A cet égard, la science peut être décrite comme une connaissance qui cherche à apporter une solution aux problèmes posés. La seconde étape consiste à essayer de critiquer la solution proposée, c'est l'étape dans laquelle la démarche de l'homme se distingue de celle de l'animal, alors que celui-ci périclète avec ses erreurs, celui-là est le seul apte à critiquer ses propres théories et à tenter d'éliminer les erreurs sans être lui-même éliminé. C'est seulement à ce stade que l'observation peut jouer un rôle pour nous montrer pourquoi la solution envisagée ne marche pas. Comprendre une théorie, c'est apprendre davantage sur le problème qui lui est inhérent:

« Les théories scientifiques ne sont rien d'autre que des tentatives pour résoudre des problèmes scientifiques »²¹.

Il est intéressant de noter que la notion de problème ne se situe pas uniquement au niveau du point de départ de la science, mais qu'elle est aussi un principe fondamental de son progrès.

La solution négative du problème de la démarcation a permis à

subjectives. Cet élément de la théorie empirique de Popper a été clairement perçu par Musgrave qui soutient que la valeur de vérité des énoncés en question ne dépend pas de l'expérience, mais qu'elle relève d'une décision libre provisoirement prise par la communauté scientifique:

« Chez Popper, la base empirique ne consiste pas en énoncés dont la vérité est établie par l'expérience. Elle consiste plutôt en ces énoncés expérimentaux facilement testables sur la vérité et la fausseté desquels la communauté des scientifiques peut s'entendre à un moment donné »¹⁸.

La thèse essentielle de Popper est qu'on doit renoncer à la quête d'une base définitive de la science. Si les énoncés de base sont acceptés, ce n'est pas parce qu'ils constituent un fondement certain de la science, mais parce qu'ils sont conventionnellement adoptés par les scientifiques. L'idéal d'un fondement absolument certain sur lequel repose la science n'est rien d'autre qu'un mythe. Ainsi, Popper situe la négation au niveau du fondement de la science:

« La science ne repose pas sur une base rocheuse (...). Elle est comme une construction bâtie sur pilotis, les pilotis sont enfoncés dans le marécage (...), lorsque nous cessons d'essayer de les enfoncer davantage, ce n'est pas parce que nous avons atteint un terrain ferme. Nous nous arrêtons, tout simplement, parce que nous sommes convaincus qu'ils sont assez solides pour supporter l'édifice, du moins provisoirement »¹⁹.

Popper soutient que la thèse des positivistes logiques selon laquelle la science part de l'expérience pour aller à la théorie vient d'un mythe, celui de Francis Bacon. contrairement à ce mythe, il précise que nous avons toujours besoin d'une théorie qui nous oriente dans nos observations et nous permette de choisir le type de phénomènes à observer. En science, l'observation n'est pas fortuite, elle est systématique, elle est déterminée en fonction de la théorie que l'on adopte:

« Des observations (...) sont toujours des interprétations faites à la lumière des théories »¹⁶.

Contrairement à la thèse des positivistes logiques qui fait des énoncés protocolaires une base certaine de la science empirique, Popper soutient que les énoncés d'observation, qu'il appelle «énoncés de base», sont le produit d'une décision prise provisoirement par la communauté scientifique à un certain moment de l'évolution de la science. Partant de l'idée selon laquelle il ne peut y avoir en science d'énoncés ultimes, il affirme que les énoncés de base sont aussi théoriques que les énoncés universels, même si leur niveau théorique est moins élevé. Par conséquent, ils sont indéfiniment critiquables, au même titre que les énoncés universels.

« Tout énoncé de base peut à son tour être soumis à des tests (...). Ce processus n'a pas de fin naturelle »¹⁷.

les énoncés de base font l'objet d'un choix des hommes de sciences parce qu'ils constituent un type d'énoncés facilement testables, ce qui les distingue des énoncés protocolaires qui portent sur des expériences

courant philosophique qui a repris et répandu son héritage, le positivisme logique.

Les positivistes logiques partent du postulat selon lequel l'expérience est la source unique de la connaissance. Partant de cette thèse, ils soutiennent que les énoncés d'observation, qu'ils appellent «les énoncés protocolaires» sont les énoncés ultimes de la science, ils constituent son fondement certain. Ainsi, la certitude est l'idéal recherché par le positivisme logique. Pour les positivistes logiques, la méthode qui permet de passer d'une expérience particulière à une proposition générale est l'induction. Par conséquent, le critère de scientificité d'une proposition réside dans sa vérifiabilité empirique. Une théorie qui ne peut être empiriquement vérifiée n'est pas une théorie scientifique. La vérifiabilité n'est pas seulement un critère de scientificité, elle est également un critère de signification: une théorie qui ne peut être vérifiée est dépourvue de toute signification. Ainsi, la démarcation entre science et non-science coïncide avec la démarcation entre sens et non-sens. Cette exigence de vérifiabilité les conduit à rejeter en bloc la métaphysique comme un discours dépourvu de sens.

Popper fait une critique radicale du positivisme logique. Cette critique, faite à la lumière de son épistémologie négative des sciences, fondée sur son critère de réfutabilité, vise la thèse qui cherche la certitude de la connaissance dans les données des sens, en mettant l'accent sur la priorité de la théorie sur l'observation, une thèse défendue auparavant par de grands penseurs, tels que Kant, Claude Bernard et Pierre Duhem.

à fait différente (des autres théories). Il n'est que de prendre l'exemple caractéristique de la prédiction d'Einstein que venaient de confirmer les résultats de l'expédition d'Eddington (...). Ce qui est frappant, en l'occurrence, c'est le risque assumé par une prédiction de ce type. Si l'observation montre que l'effet prévu n'apparaît absolument pas, la théorie est tout simplement réfutée. Elle est incompatible avec certains résultats d'observations possibles »¹⁴.

De la confrontation entre le marxisme, la psychanalyse freudienne et la psychologie individuelle d'Adler, d'un côté, et la théorie de la relativité d'Einstein, d'un autre, Popper tire une conclusion épistémologique d'une grande importance: la valeur scientifique d'une théorie tient à sa capacité de se révéler fausse, au fait qu'elle soit potentiellement réfutable par l'expérience. La possibilité pour la théorie d'être testée et réfutée par l'expérience est ce qui fait sa scientificité. Les marxistes et les psychanalystes ont ruiné la scientificité de leurs théories en refusant de prendre le risque de les mettre en échec, Einstein a donné à sa théorie un caractère scientifique en assumant ce risque. Ainsi, la réfutabilité et ce qui fait la scientificité d'une théorie :

« Le critère de la scientificité d'une théorie réside dans la possibilité de l'invalider, de la réfuter ou encore de la tester »¹⁵.

En faisant de la réfutabilité un critère de scientificité, Popper ne pouvait éviter la confrontation avec la philosophie régnante dans la première moitié du XXe siècle, le positivisme logique.

La dissolution du cercle de Vienne a été à l'origine d'un nouveau

des deux résultats dépendait d'une erreur systématique, et non d'une grande richesse des matériaux, elle donna incontestablement raison aux résultats de l'île du Prince. Cette conclusion a été confirmée plus tard par le développement des sept plaques prises à Sobral. L'étude de cette série de plaques a eu pour résultat décisif la confirmation du résultat déjà obtenu par l'expédition d'Afrique. Ainsi, les deux missions parviennent à confirmer la théorie de la relativité générale, en utilisant des instruments différents et ayant eu lieu dans des endroits différents:

«Ces plaques (celles de Sobral) furent étudiées et donnèrent un verdict final confirmant définitivement la valeur de la déviation prédite par Einstein, en parfait accord avec les résultats obtenus à l'île du Prince (...). Par suite, le témoignage apporté par les clichés de l'île du prince est presque suffisant pour permettre de rejeter la possibilité de la déviation moitié, et c'est avec ce degré de certitude pratique que les photographies de Sobral l'excluent entièrement»¹².

A la lumière de cette expérience, la théorie d'Einstein a pris le risque, en entrant en contradiction avec certains événements possibles, ceux que tous les scientifiques avant Einstein eussent attendu. Popper a été frappé par le sens de l'échec d'Einstein qui lui permettait de mettre sa théorie toute entière sur cette seule expérience¹³, et par la modestie intellectuelle par laquelle il considérait sa propre théorie comme potentiellement fausse. A ce titre, la théorie de la relativité satisfait incontestablement le critère de scientificité proposé par Popper:

« Pour la théorie d'Einstein, la situation se présentait de manière tout

déplacement angulaire bien déterminé qui concordait d'une manière satisfaisante avec la théorie d'Einstein mais qui n'était pas conforme avec la prédiction de Newton (...). Ce ne fut qu'une fois de retour en Angleterre que nous eûmes une confirmation des résultats trouvés. Quatre plaques non développées avaient été rapportées, l'une d'elle nous montra suffisamment d'étoiles pour rendre les mesures possibles et, venant ainsi confirmer les indications de la première plaque, elle donna pour résultat celui que prédisait Einstein (...). Ainsi, le problème semblait résolu et ne presque plus laisser de prise au doute; c'était donc avec confiance que nous attendions le retour de la mission du Brésil»¹¹.

L'expédition du Brésil bénéficiait de bonnes conditions atmosphériques, elle avait réuni sur ses plaques des éléments d'information beaucoup plus importants que ceux de l'expédition d'Afrique. A leur retour en Angleterre, les membres de la mission de Sobral ont comparé les photographies qu'ils ont prises dans la même région pendant et après l'éclipse. En procédant à cette comparaison, ils ont obtenu un résultat différent de celui de la mission de l'île du Prince. Les mesures étaient en accord parfait avec la valeur newtonienne, elles ont révélé une déviation qui est la moitié de la valeur einsteinienne. Ce qui rendait difficile l'opposition des pauvres éléments collectionnés par l'expédition d'Afrique à la riche moisson de données obtenues par l'expédition du Brésil. Si l'avantage de la mission de Sobral était la netteté irréprochable de ses images, le point fort de la mission africaine était la garantie qu'apportaient les photographies de chaque champ stellaire de contrôle contre l'erreur systématique. Puisque la discordance

dans d'autres que les observateurs ont obtenus.

Puisque le problème était de déterminer de combien le champ de la gravitation du soleil écartait les positions apparentes des étoiles par rapport à leurs positions normales, il fallait comparer les photographies prises pendant et après l'éclipse. La comparaison de ces deux photographies a eu pour résultat un déplacement angulaire précis qui était en accord avec la théorie de la relativité, et non avec la théorie newtonienne. A leur retour en Angleterre, Eddington et Cottingham ont confirmé le résultat obtenu. L'étude de l'une des quatre plaques non encore développées donna une confirmation de la prédiction théorique d'Einstein.

Pour se mettre à l'abri de la critique qui consiste à dire que le résultat obtenu peut être dû aux conditions expérimentales de l'observation, les deux scientifiques ont photographié de nuit un champ stellaire différent du champ stellaire étudié pendant l'éclipse à l'île du Prince et en Angleterre. Si la déviation tenait réellement aux instruments d'observation, les étoiles, sur ces plaques, auraient montré des déplacements relatifs semblables à ceux que présentaient les photographies prises pendant l'éclipse. Or, les mesures faites sur ces «plaques de contrôle» n'ont révélé aucun déplacement appréciable, ce qui établit le fait que le déplacement observé pendant l'éclipse tient à l'action du soleil, et non à des différences dans le dispositif expérimental de l'observation. Après avoir obtenu un tel résultat, les deux scientifiques attendaient une autre confirmation, celle que pouvait apporter l'expédition du Brésil:

«Les résultats que l'on put tirer de cette photographie donnèrent un

éclipse comme une «opportunité remarquable», parce qu'elle a permis aux scientifiques de vérifier la théorie d'Einstein au lieu d'attendre des milliers d'années:

« De nos jours, un astronome après avoir interrogé le ciel, ne manquerait pas de dire que le jour de l'année le plus favorable pour peser la lumière est à coup sûr le 29 mai. La raison en est que le soleil dans son voyage annuel sur l'écliptique traverse des champs stellaires plus ou moins riches et que le 29 mai il est en plein milieu d'un amas tout à fait exceptionnel d'étoiles brillantes - une partie de l'amas des Hyades - de beaucoup le champ stellaire le plus remarquable parmi tous ceux que rencontrer le soleil (...). Bonne fortune singulière, il advint une telle éclipse le 29 mai 1919 »¹⁰.

Pour saisir cette occasion propice, une commission issue de la «*Royal Society*» et de la «*Royal Astronomical Society*» envoie deux expéditions dans deux endroits différents du monde afin de réduire le risque de l'échec dû aux mauvaises conditions climatiques. La première expédition, composée de A. Crommelin et de C. Davidson, s'est rendue à Sobral au nord du Brésil, la seconde, constituée de E. Cottingham et de A. Eddington, s'est rendue à l'île du Prince dans le Golfe de Guinée. Eddington raconte que l'éclipse totale du 29 Mai 1919, qu'il décrit comme «le demi-jour sinistre qui baigne le paysage et réduit la nature au silence» s'est produite dans de mauvaises conditions climatiques. Au début, le temps n'était pas favorable à une bonne observation, mais vers la fin il s'est amélioré. L'effet des nuages sur l'observation scientifique explique l'absence des étoiles dans certains clichés et leur apparition

de l'astrophysicien britannique Arthur Eddington (1882-1944) apporta la première confirmation de ce qu'avait prédit Einstein, dont Popper ne pouvait saisir toute la signification que grâce à la compétence du jeune mathématicien Max Elstein (1901-1922), qui a été précocement enlevé à la science.

Eddington raconte en détail l'histoire de son expédition scientifique en Afrique qui a donné une confirmation de la théorie de la relativité générale. Cette théorie prévoit un déplacement angulaire de la lumière de 1», 74 au bord du soleil qui diminue en raison inverse de la distance du faisceau lumineux au centre du soleil. Pour vérifier cette prédiction, une expérience faite sur la terre n'a aucune chance de réussir. Sur la terre, en effet, la lumière devait tomber de 5 mètres dans la première seconde, et puisque pendant ce temps elle a parcouru 300000 km, la déviation devient inappréciable. C'est pourquoi l'expérience doit être faite dans le voisinage du soleil. A ce niveau, l'action de la gravitation sur la lumière est importante, elle est 27 fois plus intense que sur la terre. La déviation de la lumière peut prendre une valeur de l'ordre de la seconde, ce qui représente une quantité considérable pour l'astronome. Puisque cette déviation de la lumière, qu'Eddington appelle «la lumière pesante» n'existe que pour un ensemble d'étoiles brillantes proches du soleil, la seule chance pour faire cette observation est de profiter d'une éclipse totale, quand la lune fait obstacle à la lumière intense qu'émet le soleil. C'est précisément ce qui s'est produit pour la théorie de la relativité générale. Cette théorie a été vérifiée par une expérience astronomique, à l'occasion de l'éclipse totale du 29 Mai 1919. Eddington décrit cette

les caractères. Il lui répondit qu'il le devait «grâce aux mille facettes de son expérience». A cette réponse, Popper n'a pas hésité de riposter, en mettant en évidence le fait que l'enfant en question ne représentait en fait qu'un cas supplémentaire qui s'ajoutait aux mille:

« Une expérience qu'il (Adler) m'a été donné de faire m'a vivement marqué. Je lui ai rapportai, en 1919, un cas qui ne semblait pas particulièrement adlérien, mais qu'il n'eut aucune difficulté à analyser à l'aide de sa théorie des sentiments d'infériorité, sans même avoir vu l'enfant. Quelque peu choqué, je lui demandai comment il pouvait être si affirmatif, il me répondit «grâce aux mille facettes de mon expérience; alors je ne pus m'empêcher de rétorquer «avec ce nouveau cas, je présume que votre expérience en comporte désormais mille et une »9.

Qu'est-ce qui fait la scientificité d'une théorie ?

C'est le risque d'échouer devant l'expérience qu'elle prend. Une théorie ne peut assumer ce risque que si elle formule des prédictions aussi précises que possibles. L'exemple typique d'une telle théorie est précisément celle d'Einstein. La théorie de la relativité générale d'Einstein, qui avait prédit l'effet gravitationnel des corps massifs sur la lumière, ne pouvait être vérifiée que sur la base d'un examen des rayons lumineux émis par une étoile fixe située dans le champ du soleil lors d'une éclipse. Le calcul des images photographiées des étoiles, dont la position était plus proche du soleil, devait faire apparaître qu'elles étaient légèrement décalées par rapport à leur position habituelle dans l'espace. En effet, l'expédition effectuée en Afrique, sous la direction

« Les deux théories psychanalytiques (...) sont purement et simplement impossibles à tester comme à réfuter. Il n'existe aucun comportement humain qui puisse les contredire »⁷.

Popper juge qu'on peut appliquer aux psychanalystes et aux psychologues leurs propres théories. A cet égard, la psychanalyse de la personnalité de Freud peut montrer qu'il représente un cas freudien, le fait qu'Adler refusait de passer toute sa vie dans l'ombre de Freud permet de voir en lui un cas adlérien. Mais Popper ne va pas jusqu'à réduire ces deux théories à la vie psychologique de leurs fondateurs, il estime, au contraire, qu'une bonne partie de ce qu'elles affirment est d'une grande importance et pourrait retrouver un jour sa valeur scientifique en devenant testable:

« Une grande part de ce qu'ils (Freud et Adler) avancent est décisif et tout à fait susceptible de trouver place, ultérieurement, dans une psychologie scientifique se prêtant à l'épreuve des tests »⁸.

Popper refuse d'accorder un statut scientifique aux psychanalystes à cause de leur manière de présenter et d'interpréter les faits. L'exemple d'une telle attitude hermétique est fourni par l'expérience qu'il avait vécue avec Adler, qui a eu l'occasion de collaborer avec lui dans le cadre du travail social qu'il avait entrepris auprès des enfants des quartiers populaires de Vienne. Perplexe devant la facilité avec laquelle Adler analysait un enfant, qu'il n'avait jamais vu auparavant, Popper lui demanda comment il pouvait être si sûr d'avoir diagnostiqué un complexe d'infériorité chez un enfant qui ne paraissait pas représenter

démarche dialectique est devenue assez souple pour pouvoir interpréter et expliquer aussi bien une situation imprévue qu'une situation prévue qui ne s'est pas réalisée.

En adoptant une telle attitude orthodoxe face à la méthode dialectique, Les disciples de Marx ont transformé l'attitude vigoureusement critique prônée par leur maître en un «dogmatisme exacerbé». Ainsi, la lutte que mène Popper contre le dogmatisme, en se basant sur la critique empirique, se traduit par son rejet de tout système interprétatif non évolutif. La notion de développement est au cœur de son critère de démarcation:

« Les marxistes orthodoxes (...) n'emploient la dialectique qu'à des fins apologétiques pour défendre le système marxiste face aux critiques (...). Avec le recours à la dialectique, l'attitude antidogmatique de Marx disparaît, et le marxisme se constitue en dogmatisme pour se soustraire à toute critique ultérieure. Celui-ci donne ainsi lieu à un dogmatisme renforcé »⁶.

Popper estime que Marx, étant doté d'un grand sens critique, n'aurait pas aimé voir ses disciples transformer sa théorie en dogme, contrairement à Engels qui présente le marxisme comme une religion de la classe ouvrière.

Quant aux théories de Freud et d'Adler, Popper soutient qu'elles relèvent d'un ordre tout à fait différent de celui du marxisme. Alors que celui-ci était, sous sa forme initiale, réfutable et effectivement réfuté, celles-là étaient dès le départ irréfutables, car elles s'adaptent à tous les cas possibles:

ont recours à la méthode utilisée par les astrologues, ce qui les rapproche plus des devins que des scientifiques:

« J'avais le sentiment que les trois doctrines, en dépit de leur prétention à la scientificité participaient davantage des anciens mythes que de la science et qu'elles ressemblaient plus à l'astrologie qu'à l'astronomie »⁴.

Contrairement aux apparences, le fait que les trois systèmes interprétatifs soient irréfutables ne leur donne pas le pouvoir explicatif que prétendent leurs partisans. En soustrayant leurs théories à toute réfutation possible, ces partisans les ont privé de leur capacité d'être testées. En fait, l'irréfutabilité d'une théorie n'est rien d'autre que l'absence de son caractère scientifique. Pour Popper, l'irréfutabilité n'est pas une qualité, mais un vice:

« L'irréfutabilité d'une théorie n'est pas une vertu, mais un défaut »⁵.

Popper précise que le dogmatisme qui caractérise le marxisme est dû à ses adeptes, et non à son fondateur. En se basant sur la dialectique, qu'il considère comme une méthode critique, Marx a formulé des prédictions assez précises à propos de la révolution socialiste pour que des faits ultérieurs leur oppose un démenti. A cet égard, toutes ses prédictions ne se sont pas réalisées. Ce n'est pas la dialectique en tant que telle que Popper conteste, mais plutôt la volonté de faire d'elle le point de départ fiable pour la formulation des prédictions. Cependant, les marxistes soutiennent que ces prédictions ont été couronnées de succès, en donnant un aspect conservateur à la méthode dialectique. Avec eux, la

les plus contradictoires sont interprétés par le matérialisme dialectique comme le signe d'un passage du capitalisme au socialisme. Popper est frappé par le fait qu'aucun comportement humain ne peut échapper au cadre interprétatif de ces théories:

« J'avais remarqué que ceux de mes amis qui s'étaient faits des adeptes de Marx, Freud et Adler, étaient sensibles à un certain nombre de traits communs aux trois théories, et tout particulièrement à leur pouvoir explicatif apparent. Celles-ci semblaient aptes à rendre compte de la quasi-totalité des phénomènes qui se produisaient dans leurs domaines d'attribution respectifs (...). Dès lors qu'on avait les yeux dessillés, partout l'on apercevait des confirmations »»³.

La facilité avec laquelle ces théories interprètent les choses rend leurs partisans capables de répondre à toutes les objections qu'on peut soulever contre elles. Ainsi, les psychanalystes attribuent la critique de leur théorie au refoulement de celui qui la formule, et les marxistes ramènent la protestation contre leur doctrine à un préjugé de classe de celui qui l'élève. Dans tous les cas, une critique est considérée comme une confirmation supplémentaire de la théorie critiquée. De la recherche d'une justification de la théorie à la chasse aux hérétiques doués d'un esprit critique, il n'y avait qu'un pas.

Ce pouvoir interprétatif réside dans la manière d'effectuer des prédictions. En effet, les partisans de ces trois théories formulent des prédictions si vagues qu'ils parviennent à les prémunir contre toute réfutation possible. En rendant leurs théories irréfutables, ces partisans

Freud et la psychologie individuelle d'Adler, d'un côté, et la théorie de la relativité d'Einstein de l'autre.

Après avoir été influencé par les trois premières théories qu'il a connues, en particulier le marxisme, le jeune Popper s'est mis vite à douter de leur prétention à la scientificité. En effet, il avait senti qu'il y avait une différence de statut entre les théories en question et celle d'Einstein. Cette différence ne tient pas à la vérité de ces théories, puisque la vérité de la théorie de la relativité a été mise en question au moment de sa formulation par un grand nombre de scientifiques¹, elle porte plus précisément sur la méthode qu'elles utilisent:

« Ce n'était pas le fait de mettre en doute la vérité des trois théories qui me posait problème »².

Pour montrer cette différence de méthode, Popper met en évidence la manière dont les trois théories en question interprètent la réalité. Les partisans de ces théories sont constamment animés par une tendance à les vérifier, au point de demeurer indifférents à tout ce qui n'allait pas dans le sens de leurs affirmations. Cette volonté forte de confirmation se traduit par l'adaptation de tous les cas possibles aux théories en question, de telle sorte que les comportements les plus opposés soient interprétés comme étant compatibles avec elles. Qu'un individu pousse à l'eau un enfant pour le noyer ou sacrifie sa vie pour le sauver, remarque Popper avec perplexité, un freudien rend compte de cet événement en fonction d'un refoulement dû au complexe d'Œdipe, un adlérien l'explique à la lumière du complexe d'infériorité. De même, les événements sociopolitiques

L'épistémologie de la négation chez Karl Popper

D. NIZAR Kouider – Université de Sidi Bel-Abbes

Pendant deux siècles et demi, la physique newtonienne, basée sur la loi de la gravitation universelle, a été considérée par les scientifiques et les philosophes comme le modèle d'un savoir scientifique définitif grâce à la révolution qu'elle a provoquée, «l'une des plus grandes révolutions de l'histoire de la science», qui réside dans l'unification et le dépassement de la physique terrestre de Galilée et de la physique céleste de Kepler. Avec la révolution relativiste opérée par Einstein au début du XXe siècle, «l'une des plus grandes révolutions de tous les temps», la situation de la science physique change complètement. La nouvelle ère inaugurée par la théorie de la relativité générale réside précisément dans le dépassement de la théorie newtonienne de la gravitation.

La révolution scientifique opérée par Einstein marque le point de départ de la réflexion épistémologique de Karl Popper. Partant de cette révolution, il développe une philosophie des sciences fondée sur la négation. A ce titre, il propose une solution négative au problème de démarcation entre science et non-science.

Dès l'automne 1919, la réflexion philosophique de Popper commence par une interrogation sur la démarcation: comment distinguer entre science et non-science? Peut-on établir un critère qui nous permette de répondre à cette question?

La formulation du problème de démarcation par Popper lui a été inspirée par une comparaison entre le marxisme, la psychanalyse de

SOMMAIRE

L'ÉPISTÉMOLOGIE DE LA NÉGATION CHEZ KARL POPPER D. NIZAR Kouider – Université de Sidi Bel-Abbes	5
RITE, IDENTITE INDIVIDUELLE ET CULTURELLE, QUELLE RELATION ? KELFAH Amel – Université Djilali LIABES-SIDI-BEL-ABBES.	43

Université de Djillali Liabes

Sidi Bel Abbès - Algérie

Revue Maghrébine des Etudes Historiques et Sociologiques

revue académique éditée par le laboratoire Algérie, Histoire et Société
durant la période moderne et contemporaine



N° 11 / juin 2015

ISSN 2170 – 0600